المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
فرع العقيدة



التأويلات المعاصرة حول خلق آدم عليه السلام

عرض ونقد

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

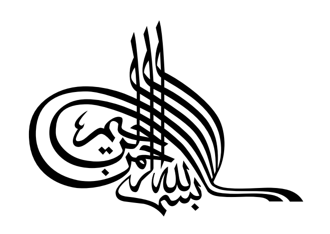
إعداد الطالبة

مريم حسن أحمد تيجاني

٤٣٠٧٠٠١٢

إشراف الأستاذ الدكتور

أحمد قوشتي عبدالرحيم مخلوف



ملخص الرسالة:

١. **عنوان الرسالة:** "التأويلات المعاصرة حول خلق آدم عليه السلام".

٢. **إسم الباحثة:** مريم بنت حسن أحمد تيجاني.

٣. **الدرجة:** الدكتوراه.

٤. **خطة الموضوع:** يتألف من مقدمة و ثلاثة أبواب وخاتمة تتضمن أهم نتائج البحث وتوصيات.

٥. **هدف الدراسة:** تهدف للكشف عن حقيقة خلق آدم عليه السلام، وأصل الجنس البشري.

٦. **موضوع الرسالة:** تتناول الرسالة تأويلات مختلفة معاصرة مستندها نظريات العلم الحديث، والحقيقة الشرعية حول خلق آدم عليه السلام حسب النصوص الإسلامية.

٧. **أبواب الرسالة:**

- الباب الأول وهو بعنوان: "خلق آدم عليه السلام في الأصول الإسلامية"؛ ويتألف من ثلاثة فصول.
- الباب الثاني بعنوان: "جذور الانحراف الفكري في خلق آدم عليه السلام"؛ ويتألف من تمهيد وأربعة فصول.
- الباب الثالث: "خلق آدم عليه السلام في رأي بعض الشخصيات الإسلامية المعاصرة"؛ ويتألف من تمهيد وثلاثة فصول.

٨. **أهم النتائج:**

- الوحي الشريف المنزل على نبينا محمد ﷺ هو مصدر المعرفة اليقينية بإطلاق فيما يتعقل بخلق آدم عليه السلام خصوصاً وسائر مسائل الاعتقاد بعموم.
- خلق آدم عليه السلام مما يدخل في قضايا الغيب التي لا سبيل لأحدٍ معرفتها إلا بالسمع أو الوحي الشريف.
- المنهج الصحيح لمعرفة قضية خلق آدم عليه السلام وغيرها هو التعويل على الوحي الشريف على فهم السلف الصالح.
- خلق آدم عليه السلام في التصور اليهودي والنصراني قد طاله التحريف والتشويه.
- أغلب الديانات الوضعية تؤمن بوجود أب للبشرية، وقد تباينت أساطيرهم حول ذلك و اعتراها التشويه.
- فساد النظريات التي تفسر أصل الوجود البشري؛ كفلسفة وحدة الوجود ونظرية الأوادم المتعددة والداروينية التطورية.
- إنحراف آراء بعض الشخصيات الإسلامية حول خلق آدم عليه السلام وأصل البشر، نتيجة التأثر بالغرب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

In the name of God the Merciful, the Gracious

Abstract

Title of the study: "**Contemporary Interpretations About the Creation of Adam, Peace Be Upon Him".**

Researcher: **TEJANI, MARYAM HASAN A**

Degree: Ph.D.

Plan of the study: Consisted of Introduction, three sections and a conclusion containing the most important findings and recommendations of the research.

Objective of The Study: the study aims to recover the truth about the creation of Adam, peace be upon him.

Subject of the study: The study deals with different contemporary interpretation based on modern science theories, the legitimate truth about the creation of Adam peace be upon him according to Islamic texts.

Sections of the study:

Section I: " Creation of Adam in the Islamic Texts", it consists of three chapters.

Section II: " Roots of Intellectual Deviation in the Creation of Adam, Peace be Upon Him", it consists of preface and four chapters.

Section III: "Creation of Adam in the perspective of some contemporary Islamic personalities" and consists of preface and three chapters.

Results of the study:

- The Holy Inspiration to the Prophet Muhammad peace be upon him is a source of true knowledge regarding the creation of Adam, peace be upon him in particular, and all other issues of belief in general.

- The creation of Adam, peace be upon him is one of the unseen issues which there is no way to know except only by one hearing or Holy inspiration.

- The right approach to find out the creation of Adam peace be upon him and other issues is to rely on the Holy inspiration on the Ancestors understanding.

- The creation of Adam, peace be upon him in the Jewish and Christian beliefs was affected with misrepresentation and distortion.

- Most of status religions believe in the existence of father of mankind, their mythology varied about that matter and affected with misrepresentation and distortion.

- The corruption of the theories that explain the origin of human existence; as the philosophy of pantheism, multi humans evolutionary Darwinian.

- Deviation of the views of some Islamic scholars about creation of Adam peace be upon him and the origin of human beings, is an effect of the West.

Praise be to Allah, the Lord of the Worlds

مُقَدِّمَة

الحمد لله العزيز القائل ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ السجدة (٦-٧)، أحمدهُ سبحانهُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يُحبُ ويرضى، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِ شيءٍ قدير، ثم الصلاةُ والسلامُ الأتمَّان الأكملان على خير الورى والبرية أجمعين سيدنا مُحَمَّد وعلى آلهِ وصحبه أجمعين .. وبعد:

فإن من أهمِّ الموضوعات التي اهتمت لها الإنسانية جمعاء، وحرصت على معرفتها واستكشاف حقيقتها، موضوع النشأة الإنسانية وأصل الخلق البشري. لما له من التعلّق المباشر بتلك الإنسانية، فهي في الحقيقة تودُ استكشاف ذاتها بمعرفة كُنه وجودها؛ أصله وكيفيته وما غاية وجوده و إلى أين المصير؟.

ولقد تخبطت في عِمايات التخرص والافتراض المغرقِ جهلاً وظلامية حيثُ بَعُدت عن النبع الأصيل والعين النمير الصافية، التي هي الحق واليقين بإطلاق؛ إنهُ الوحيُ السماوي من لدن رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي أحسن كل شئ خلقهُ وبدأ خلق الإنسان من طين. فهو وحدهُ الذي يعلمُ كيفية ذلك لأنهُ الخالق العليم الخبير.

ثم ليس البأس في أن يفترض ذلك العقل الإنساني أو أن يتخرَّص بدايات النشأة البشرية، في ظلِّ تعطُّشه للمعرفة و طلب الوصول إلى الحق فيها، - ما دام قد عَدم سبيل ذلك الصدق واليقين في شأنها-، فذلك أمرٌ فطري. ولكن البأس كل البأس أن يستمسك بتلك التخرصات الباطلة البالية تحت أي ذريعةٍ كانت، وأمامهُ ونصب عينيهِ الحق الواضح الأبلج. كتاب الله بين ظهرانينا لم نزل نقرؤه غضَّاً كما أنزل، قد سلِمَ من كل زيادة أو نقصان أو محاولة تحريف، كيف لا ومُنزِلهُ جل شأنهُ قد تكفَّل بحفظه فقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩)، وقال تبارك اسمه ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت(٤٢)

ناهيك عن أن تلك التخرصات والتخمينات لم تكن إلا حادثاً عرضياً بعد قرون الأمة الفاضلة، وعصور امتدت أجمعت فيها الأمة على ما أجمع عليه سلفها الصالح دون نكير أو اعتراض، لم تأتِ فيه بمفهومٍ أو رأيٍ لم يرد عن النبي ﷺ، ناهيك عن أن تعارض كتاب الله وسنة نبيهِ ﷺ بدعوى العلم أو التجربة.

وأيُّ خيرٍ في علمٍ أو تجربة يناقضان كلام رب العالمين سبحانهُ وتعالى، وكلام سيد المرسلين مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ؟!. وقد كَمُلت الشريعة وتم الدين، فلا حاجة لسواهما في تقرير عقيدة الخلق عموماً، وخلق الإنسان بخصوص.

فمن أجلِ ذلك كان لابد من التجليةِ والتأصيل لهذه المسألة العَقدية المهمة، لإزالةِ ما طرأ حولها من شُبهةٍ وإشكال جرَّاء تلك التأويلات الحديثة، وذلك بعرض التأويلات المعاصرة في خلق آدم عليه السلام ثم نقدها على هُدىً من نصوص الشريعة المطهرة.

من هنا تتبدى أهمية الموضوع لما له من تعلق بالعقائد الإسلامية، الأمر الذي يشكِّل محكاً في إيمان المرء بربه عزوجل وكتابه الذي بين أيدينا القرآن الكريم، ونبيه المبعوث رحمة للعالمين الذي أُنزل عليه ذلك الكتاب المجيد سيدنا مُحَمَّد ﷺ.

وأما **سبب اختيار الموضوع**، فقد كان شغفاً معرفياً أثارته دراسة مختصرة كُتبت انجازاً لمتطلبِ مادة النصوص العقدية بمنهجية الدكتوراه بعنوان: "آدم عليه السلام بين حقائق القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث على ضوء قوله تعالى﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ﴾"، وكان أستاذ المادة فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله الدميجي —حفظه الله-، هو الذي شجع -على ضوء نتائج الدراسة- لتناول مثل هذه الموضوعات بالبحث والدراسة المستفيضين.

مما وجه انتباهي و اهتمامي نحو الدراسة المستفيضة لمسألة خلق آدم عليه السلام خصوصاً في ظل التأويلات الحادثة. وبعد الاستشارة عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع بتشجيعٍ من فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله بركات - حفظهُ الله-، حيث رشَّح هذا الموضوع الذي كان ثاني اثنين من موضوعات البحث والدراسة المرشَّحة. فجزاهُ الله خير الجزاء.

وبالنسبة **لمنهج الدراسة** فتلخص في الآتي:

- الاعتماد على منهج الاستقراء للحصول على المعلومات المطلوبة.
- استخدام المنهج التاريخي لمعرفة علاقات التأثر والتأثير، بتتبع تسلسل ظهور الأحداث أو الشخصيات ومؤلفاتهم زمنياً.
- استخدام منهج التحليل و الاستدلال في العرض والرد والنقد.

- كما نهجتُ التعريف ببعض المصطلحات، و التعريف كذلك بشخصيات البحث وكتبهم -موضوع النقد-، بحسب المعلومات المُتاحة.

- أما النظريات فقد تناول البحثُ السائدَ المعاصر منها؛ وهي نظرية الخلق في فلسفة وحدة الوجود، ونظرية الأوادم المتعددة، وفلسفة النشوء والارتقاء.
- وأما شخصيات البحث فهم ثلاثة من أبرز رموز الفكر الإسلامي، ممن لهم الأثر والباع الطويل في الساحة الدعوية. ووجدت لهم آراء معارضة للنصوص الشرعية في مسألة خلق آدم ﵇، وهم: محمد عبده، طنطاوي جوهري، وعبد الصبور شاهين.
- وقد افتُتح البحث ببابٍ تأصيلي لمسألة خلق آدم ﵇ في النصوص الشرعية الإسلامية.

- وأما مصادر البحث فقد استعنتُ -بعد استعانتي بالله تعالى- بكلِ مُتاحٍ يخدم البحث ويثريه، آخذةً قبل ذلك بمصادر الشريعة للتأصيل ابتداء ثم الرد حال النقد. وكذلك مؤلفات شخصيات الدراسة.

- كما قمتُ بتخريج الآيات الكريمة وتوثيق اسم السورة ورقم الآية في متن البحث، أما الأحاديث الشريفة فقمتُ بتوثيقها في الهامش بذكر رقم الحديث ودرجته إضافةً لمصدر وروده.

- أما المعلومات الواردة في البحث فقد عزوتها إلى مصادرها في الهامش حسب المنهج العلمي المتبع في ذلك وأحياناً أقومُ بذكرها في المتن حسبما يستدعيه أسلوب الصياغة والكتابة.

- وأما جُمل القول فجعلتها بين قوسين صغيرين، واستخدمت للآيات نوعاً من الاقواس يختلف عن قوسي الحديث الشريف ورقمه المدون في الحاشية مختلفٌ عنهما أيضا.

- وحال الاقتباس دون تصرف فإني أرفق في الهامش اسم المرجع ورقم الصفحة مُباشرة، بخلاف ما تصرفتُ في صياغته أو عبارته فإني أرفق في هامشهِ كلمة "انظر".

- كما انتهجتُ –أيضاً- طريقة تمييز بعض العبارات للفتِ الانتباه أو لتمييزها أثناء العرض أو الرد، وذلك بجعل لون كتابتها **داكناً** أو الاشارة بوضع خطٍ تحتها، أو **بهما جميعاً**.

- وأما توثيق ما استشهدت به من الكتاب المقدس فكما هو متبعٌ في المنهج العلمي؛ بذكر اسم السفر و رقم الإصحاح أولاً ثم أرقام الفقرات بين قوسين كبيرين.

- ثم فهرستُ للآيات القرآنية الكريمة مراعيةً في ذلك ترتيباً أبجدياً، ونهجتُ ذات المنهج في فهرسة الأحاديث الشريفة وفهرسة الموضوعات.

الدراسات السابقة:

على رغم توافر الدراسات والمؤلفات في نشأة الخليقة وأصل الإنسان، إلا أنني لم أقف على دراسات سابقة تخصصت فيما تخصص فيه هذا البحث تحديداً بالرد عرضاً ونقداً تفصيليا لآراء شخصيات البحث مجتمعة. على أني قد أفدتُ كثيراً من التآليف التي ردت على الأفكار التي اشتمل عليها كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين. ويسَّر الله بفضله وكرمه فجاء البحث على قدرٍ من الشمول بنقد جميع الكتاب، مع الأخذ بالردود السابقة. أما تفسيرا الجواهر و المنار، فلم تتوافر لدي معلومات –بعد البحث المستفيض- أن أحداً قابلهُما في سياقٍ من الرد والنقد لآراءهما المتعلقة بخلق آدم عليه السلام في دراسةٍ علمية مستقلة. وكذلك ما تعلق بنظريات خلق آدم كنظريةِ الأوادم المتعددة خصوصاً، فأسأل الله تعالى الذي قيّض هذا البحث أن ينفع به. وأما نظريتا التطور وخلق الإنسان في فلسفة وحدة الوجود فثمة ردود وتآليف أفاد منها البحث بفضل الله ومنه.

وأما أبواب الدراسة وفصولها فعلى النحو التالي:

خطة البحث:

بالنسبة لتقسيم البحث، فيتألف من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وتوصيات ثم قوائم الفهارس.

فأما المقدمة فتشمل:

١) أهمية الموضوع وسبب اختياره.
٢) منهج البحث.
٣) الدراسات السابقة.

٤) خطة البحث.

وأما الباب الأول فهو بعنوان "خلق آدم في الأصول الإسلامية"؛ ويتناول تأصيلاً شرعياً لمسألة خلق آدم عليه السلام، ويشتمل على ثلاثةِ فصول:

الفصل الأول: منهجية الإثبات لحقيقة خلق آدم عليه السلام من خلال النصوص الشرعية؛ ويقرر سبيل المعرفة اليقينية في ذلك مع الأدلة الشرعية.

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام المادة والكيفية؛ ويتناول مسألة خلق آدم عليه السلام من الحيثيات المذكورة بالأدلة الشرعية الواردة في ذلك.

الفصل الثالث: إثبات أبوة آدم عليه السلام للبشر ودلالة النصوص الشرعية على ذلك؛ ويتضمن ذلك: إثبات أبوَّة آدم عليه السلام للبشر، وإثبات بنوَّتهم لهم شرعاً وعقلاً.

ثم يليه الباب الثاني وهو بعنوان "جذور الانحراف الفكري في خلق آدم عليه السلام"؛ ويحوي تمهيداً، وأربعة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول: خلق آدم عليه السلام في العهد القديم؛ ويتناولُ مسألة خلق آدم عليه السلام من خلال ما ورد في العهد القديم والفكر اليهودي.

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد؛ ويتناول مسألة خلق آدم عليه السلام من خلال ما ورد في العهد الجديد والفكر النصراني.

الفصل الثالث: خلق آدم عليه السلام في بعض الأديان الوضعية؛ ويتناول مسألة خلق آدم في بعض الوضعيات القديمة كديانات فارس والهند وغيرهما.

الفصل الرابع: ويتناول أبرز النظريات الفلسفية والعلمية في خلق آدم عليه السلام؛ وهي: خلق آدم عليه السلام في فلسفة وحدة الوجود، ونظرية الأوادم المتعددة، ونظرية التطور أو النشوء والارتقاء.

ويليه الباب الثالث وهو بعنوان "خلق آدم عليه السلام في رأي بعض الشخصيات الإسلامية المعاصرة"؛ ويُعالجُ آراءها المعارضة للنصوص الشرعية فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام عرضاً ونقداً. وقد حوى تمهيداً، وثلاثة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: خلق آدم عليه السلام في رأي محمد عبده؛ ويتناول رأيه باستقراء ما ورد في مؤلفيه؛ "تفسير المنار" و "رسالة التوحيد".

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام في رأي طنطاوي جوهري؛ ويتناول رأيهُ باستقراء ما ورد في مؤلفيه؛ "تفسير الجواهر" وكتاب "أين الإنسان".

الفصل الثالث: خلق آدم عليه السلام في رأي عبد الصبور شاهين؛ ويتناول رأيهُ باستقراء ما ورد في مؤلفه "أبي آدم" عرضاً ونقداً.

ثم الخاتمة: وتحوي خلاصة ما توصَّل إليه البحث من النتائج.

فالتوصيات: وتتضمنُ رؤىً ومقترحات لموضوعاتٍ تتطلبُ بحثاً ودراسة منهجيين.

وختاماً أحمدُ المولى عزوجل على تيسيرهِ وتوفيقه ومنه وفضله علي بإتمام هذا البحث، وأثني عليه سبحانه بما هو أهله، كما أتوجَّهُ بعميق الشكر والتقدير لكلٍ من ساعدني برأيٍ أو مشورةٍ أو دعوةً صادقة بظهر الغيب.

ثم وقفة شكرٍ وعرفانٍ أيضاً إلى منار العلمِ والفكر؛ صرحُ المعرفة الشامخ .. جامعتي الحبيبة .. وأخُصُّ بذلك كُلِّيتي الغالية؛ كلية الدعوة وأصول الدين وكافة منسوبيها عميداً ووكلاء وأساتذة و مشائخ أجلاء أفاضل.

كما أتوجَّهُ بالشكر الجزيل بعد شكر المولى عزوجل إلى سعادة المشرف القدير الدكتور أحمد قوشتي عبد الرحيم مخلوف، الذي لم يألُ جهداً في إسداء التوجيه والنصح السديدَيْن لما فيه صالح البحث، فجزاهُ الله خير الجزاءِ وأوفاه وجعل ذلك كُله في موازين حسناته.

ثم الشكر وصادق الدعاء موصولان إلى والدي الكريم الغالي الذي ما فتئ يدعو لي ويهتمُ لما أهمَّني أثناء دراستي وإعداد هذه الرسالة حتى قضى نحبه، فقُدِّر له أن يرى أولها دون آخرها –رحمهُ الله رحمة واسعة وأدخلهُ ظلاً ظليلا-.

وأخيراً؛ فهذا جهدُ المقل؛ فما كان منهُ صواباً فمن الله، وما كان من خلل أو قصور فمن نفسي والشيطان، - و يأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال سبحانه وتعالى-. ثم حسبي أني بذلتُ وُسعاً لأصل به لأفضل مستوى، واستنفدت جهداً لأبلغ به التمام، فلئن عدمتُ أفضليةً وتماماً فحسبي طموحي إليهما، وأسألهُ تعالى أن يعفو عن الزلل ويتقبله مني بفضله ورحمته، وينفع به، ويرفع به درجتي عنده، وصلى الله على خيرِ الورى وسيِّد الأوَّلين والآخرين نبينا محمَّد وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم تسليماً كثيرا.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ رب العالمين

الباب الأول

خلق آدم عليه السلام في الأصول الإسلامية

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهجية الإثبات لحقيقة خلق آدم عليه السلام من خلال النصوص الشرعية.

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام، المادة والكيفية.

الفصل الثالث: إثبات أبوة آدم عليه السلام للبشر ودلالة النصوص الشرعية على ذلك.

الفصل الأول

منهجية الإثبات لحقيقة خلق آدم عليه السلام من خلال النصوص الشرعية، وفيه:

أولاً: منهجية الاستدلال على مسائل العقيدة.

ثانياً: منهجية الإثبات فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام والأدلة الشرعية الواردة في ذلك.

الفصل الأول

منهجية الإثبات لحقيقة خلق آدم عليه السلام من خلال النصوص الشرعية

أولاً: منهجية الاستدلال على مسائل العقيدة:

شغلَ الفكرَ الإنسانيَّ – ولايزال-، جملةُ قضايا ما فتيء العقل البشري يعلن فيها إفلاسه، رغم تقدمه في مجالاتٍ حظيت بنصيبٍ من النجاح غير مسبوق في تاريخ الإنسانيةِ جمعاء، بيد أن تلك القضايا التي عُدت استثناءً من ذلك السبق وتلك المعرفة الإنسانية، - حيثُ سجلت مقاييسها فشلاً ذريعاً في الوصول إلى نقطة الحسم وإدراك الكنه فيها- لو تأملنا أخص سماتها نجده انضواءها ضمن عالم الغيبيات التي لا سبيل إليها، إلا بسبيلٍ واحد معصوم يضمن لنا الصحة والدقة، ذلكم هو الخبر الصادق أو الوحي الإلهي. قال تعالى مخبراً عن هذه القاعدة الحقة في حكاية موسى وفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ طه (٥١-٥٢).

يقول الإمام القرطبي: "قال فما بال؛ البال الحال؛ أي وما حالها وما شأنها، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم إلا ما أخبرني به علام الغيوب".[١]

وذكر العلَّامة السعدي[٢]: "أي ما شأنهم وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكارِ والكفر والظلم والعناد، ولنا فيهم أسوة؟، فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾، أي قد أحصى أعمالهم من خيرٍ وشر، وكتبهُ في كتاب؛ وهو اللوحُ المحفوظ، وأحاط به علماً وخيراً فلا يضِلُ عن شيءٍ فيها ولا ينسى ما عَلِمَهُ منها".[٣]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للإمام محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، د.ط، د.ت، دار الفكر. جـ١١، ص١٢٣

[٢] الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، أحد أعلام نجد. وُلد في عنيزة بالقصيم عام ١٣٠٧هـ وتوفي فيها عام ١٣٧٦هـ، اشتهر بالتفسير، وهو أول من أنشأ مكتبةً في عنيزة عام ١٣٥٨هـ، لهُ نحو ٣٠ كتاباً، منها: "تيسير الكريم المنَّان في تفسير القرآن"، وَ "القواعد والأصول الجامعة"، وَ "طريق الوصول إلى العِلم المأمول من الأصول"، وَ "الخُطب المنبرية"، وغيرها. أنظر: الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط٥، ١٩٨٠هـ، دار العلم للملايين، بيروت، جـ٣، ص٣٤٠

[٣] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلامِ المنَّان، للعلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة. ص٥٠٦-٥٠٧

فعلمُ الأمم والأحوالِ والأخبار السابقة من أمورِ الغيب التي علمها عند الله ﷻ، ولا يمكنُ الحصول على نبأٍ يقينيٍ صادق فيها إلا بإخبارٍ من العليم الخبير سبحانه وتعالى بطريق الوحي الإلهي المعصوم.

ومن بين تلك القضايا التي شغلت الفكر الإنساني بكافةِ أطيافه ومجتمعاته منذ القدم وحتى يومنا هذا، قضية الوجود البشري وأصل هذا المخلوق الإنساني؛ كيف جاء إلى الحياة، وما الغاية من وجوده، وما مصيره، مما أثار الكثير والكثير من التساؤلات التي لم تزل تستجدي إجاباتٍ شافية ووافية من سجلات العلم الحديثِ وأهله.

وتبقى المفارقة والتناقض وتضارب الرؤى، من الوضوح والظهور والتعدد بمكان، الأمر الذي يزيد هُوة المسافة بين الصدق والحقيقة من جانب، وبين تلك الأبحاث العلمية التجريبية من جانب، وينبئ عن فشلٍ في تفسير وتقدير أصل الوجود الإنساني[1]، وهذا كلهُ يدفعنا للبحث عن سبيلٍ موثوق لا يتطرق إليه الشكُ بحال، إنه الوحي الإلهي: ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر (١٤).

وحيثُ داخلَ التبديل والتحريف الأديان السماوية السابقة على الإسلام، فلا ثقة بالتالي إلا فيما ورد بدين الإسلام بمصدريه المحفوظَيْن؛ القرآن الكريم والسنة المطهرة. إذ تكفل الباري ﷻ بحفظهما وحمايتهما من العبثِ والتبديل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩)

---

[1] هذا إذا تحدثنا عن الجانب النزيه لتلك الأبحاث التي تتطلع لتفسير الوجود الإنساني وعمر الكون!، لكن عندما نتحدث عن الجانب المظلم لتلك التفسيرات والتقديرات نجده قد جانَبَ الأمانة العلمية، لأغراضٍ عدة؛ فعلى سبيل المثال: عملية تزوير "إنسان بلتداون Piltdown Man" ، والتي حدثت في سنة ١٩١٢م، عندما صنع أنصار نظرية التطور جمجمة من تركيب قحف إنسان على فك قرد "أورانجتون" مع إضافة أسنان إنسانية إلى الفك، وقدموا هذه الجمجمة على أنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان. وخدعت عملية التزوير هذه كبار علماء البيولوجيا وأطبّاء الأسنان الذين فحصوا هذه الجمجمة المزيفة مدة تقارب ٤٠ سنة، وألفت المئات من الكتب فيها، وتم تقديم رسائل دكتوراه عديدة، وكتب ما يقارب نصف مليون مقالة حولها، وفي سنة ١٩٤٩م، قام "كنت أوكلي" بإجراء تجربة الفلور على هذه الجمجمة، فتبين أنها ليست قديمة - حيث أُدّعى سابقاً أن عمرها يبلغ نصف مليون سنة - ثم قام "كنيت أوكلي" و "سير ولفود لي كروس كلارك" من جامعة أكسفورد بإجراء تجارب أكثر دقة، واستخدموا فيها أشعة اكس، فتبين أن هذه الجمجمة زائفة تماماً ومصنوعة. وجاء في التقرير الذي نشر سنة ١٩٥٣م : " إن "إنسان بلتداون" ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر!. أما عظام الفك فهي لقرد "أورانج" بعمر عشر سنوات، والأسنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفك. وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها". حقيقة الخلق ونظرية التطور، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمّد علي، ط٢، ١٤٢٦هـ، دار النيل للطباعة والنشر، مصر- القاهرة. ص٩- ١٠

وأما بشأن التبديل والتحريف الذي طال الكتب السماوية السابقة، فيقول ﷻ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة (٧٥)، ويقول جل شأنه أيضاً: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران (٧٨)، ويقول ﷷ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ المائدة(١٣)[١]، ويقول سبحانهُ كذلك مؤكداً مصدرية الوحي الشريف بدليلٍ عقلي: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ النساء (٨٢).

هذه المنهجية الصحيحة في التلقي والإثبات لحقائق الغيبِ عامةً، وحقيقة خلق آدم ﵇ بخصوص، و التي لا يخالجها أدنى شكٌ أو ريب، إذ تتسم بصدقٍ وثبات لا يتزعزعان أو يداخلها التناقض و الاختلاف. لذا كان الواجب تقديمها على كل ما سواها، خصوصاً عند التعارض، إذ العقل الصريح لا يناقض أو يعارض النص الصحيح البتة، كيف لا ومبدع الخلق ومنزل القرآن واحدٌ تبارك في علاه؟!، فوحدة المصدر بين كلٍ من الخلق، ونصوص الوحي المطهر تنفي إمكانية التنافي أو التناقض. وكما بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله، فقد تأتي الشريعةُ بمحارات العقول، لكنها أبداً لا تأتي بمحالاتها.[٢]

وإذا تقرر هذا، أمكننا أن ننتقل لتقرير جزئيةٍ أخرى مفادها: أن العلم وأدواته باختلافها، بما في ذلك عقل الإنسان، يظلان من القصور بمكان، أمام حقائق الكون الغيبية، والتي منها الإنسان وأصل خلقته ووجوده

---

[١] ويدل على ذلك التحريف ما أوردهُ الإمام مُسلم في صحيحه: فعن البراء بن عازب ﵁ قال مرَّ النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: "هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟"، قالوا نعم. فدعا رجلاً من عُلمائهم فقال: "أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟"، قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم ولكنه كَثُرَ في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه= =وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرُجِم". كتاب الحدود؛ باب "رجم اليهود أهل الذمة في الزنى".
وذكر الرازي بعضاً من وجوه تحريفهم بأنهم "كانوا يبدلون اللفظ بلفظٍ آخر مثل تحريفهم اسم "ربعة" عن موضعه في التوراة بوضعهم "آدم طويل" مكانه، ونحو تحريفهم "الرجم" بوضعهم "الحد" بدله، وكذلك بإلقاء الشبه الباطلة، والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة. أنظر: مفاتيح الغيب لفخر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر الرازي، ط٣، ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت. جـ١٠، ص٩٣

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية؛ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحرَّاني، د.ط، ١٤١٦هـ، مجمع الملك فهد. جـ ٢، ص ٣١٢ .

وعمره على هذه الأرض. كيف لا وجُل تلك التفسيرات لا تعدو كونها نظريات[1] لم ترتقِ لأن تكون حقيقةً بعد، ليس هذا فحسب؛ بل إن العلوم التجريبية اليوم وكما هو مشاهد، في تطورٍ مستمر ومتسارع، بسبب التقدم التقني والتكنولوجي الذي أدى لاكتشاف نظرياتٍ وحقائق جديدة، أبطلت كثيراً مما كان سائداً من اعتقادات، خرجت مخرج الحقيقة في زمانها الغابر.

وعليه فلابد من التماس مصدرٍ يتسم بالثبات والموضوعية والصدق في آنٍ معاً، وهذا لا يتوافر إلا في الوحي المعصوم. و سنعرضُ لبيان منهج أهل السنة في الاستدلال والتلقي بشيءٍ من الإيجاز؛ من خلال محورين أساسيين:

- المحور الأول: منهجية الاستدلال على مسائل العقيدة.
- المحور الثاني: الأصل في التعامل مع المصادر الشرعية.

المحور الأول: منهجية الاستدلال على مسائل العقيدة:

ويُقصد بها بيان الطريق الصحيح لتقرير مسائل العقيدة الإسلامية وإثباتها على الوجه الأتم الأكمل مما يضمنُ حصول المعرفة اليقينية الصحيحة ويكفل سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة. وهي الطريق التي سار عليها سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين- فحازوا الهدى والرشاد في الإيمان والعلم والعمل جميعاً. وينطوي هذا العنوان على مبحثين مهمين هما:

أولاً: مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد.
ثانياً: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد.

وسنتناولهما بشيءٍ من الإيضاح:

---

[1] النظرية: قضية تُثْبَتُ صحتها بحجةٍ ودليل أو برهان. أو هي بعض الفروض أو المفاهيم المبنية على الحقائق والملاحظات تحاولُ توضيح ظاهرة معينة. وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ. أما إذا أُطلقت على ما يُقابل المعرفة اليقينية فتدل حينئذٍ على رأي أحد العلماء أو الفلاسفة في بعض المسائل الخلافية. وإذا أُطلقت على ما يقابل الحقائق العلمية الجزئية دلت على تركيب عقلي واسع، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر. معجم اللغة العربية المعاصرة، للأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر وآخرون، ط١، ١٤٢٩هـ، عالم الكتب، القاهرة. جـ٣، ص٢٢٣٣. وانظر: المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا، د.ط، ١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت. جـ٢، ص٤٧٧-٤٧٨

أولاً: مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد:

ويُراد بها المرجعية الصحيحة المعتمدة في تحصيل المعرفة الشرعية المتعلقة بمسائل العقيدة. وسيشملُ الحديث الكلام عن منهجيةٍ بالغة الأهمية وضرورية الأخذ لكل مسلمٍ يطمحُ لأن يكون على مِثل ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام وسلف الأمة الصالح؛ إنها منهجية التفسير للنص القرآني، حيثُ ضلَّ في ذلك فِئامُ من الناس بسبب بُعدهم عن المنهج الصحيح والسنن القويم. فنقول وبالله المستعان:

١. القرآن الكريم:

القرآن الكريم اسمٌ لكلام الله المنزل على عبده ورسولهِ مُحَّد ﷺ وهو اسمٌ لكتاب الله خاصة [١]. وعرَّفهُ الإمام القرطبي بقوله: "القرآن اسم لكلام الله تعالى الذي جاء به مُحَّد ﷺ معجزة له، وأنه محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف؛ معلومة على الاضطرار سوره وآياته، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته". [٢]

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ الكهف (١ -٢). وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان (١-٢). وقال أيضاً: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص(٢٩).

فهو المعجزة الإلهية الخالدة المشتملة على الحق والهادية إلى سبيلِ الرشاد والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

---

[١] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، للمؤلف عثمان بن علي حسن، ط٥، ١٤١٥هـ، مكتبة الرشد، الرياض. جـ١، ص٥٤

[٢] الجامع لأحكام القرآن، جـ١، ص٧٨

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الإسراء (٩). وقال ﷺ: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".[١]

وقد أمر مُنزلُهُ ﷻ باتباعه والاهتداء بهديه وحذَّر من الابتعاد عن تعاليمه و الحيدة عنه؛ قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام (١٠٦). وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام (١٥٣). وقال ﷻ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأنعام (١٥٥). وقال: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف (٣). وقال ﷻ: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الزمر (٥٥). وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ محمد (٢-٣). وغير ها من الآيات الكريمة.

والمقصود أن اتباع القرآن الكريم ولزومِ معانيه التي بيَّنها لنا رسول الله ﷺ سببٌ للفلاح والفوز والنجاة وتحصيل السعادة في الدارين، و ذلك يقتضي التسليم لأخباره واعتقاد أنها أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران (٦٢). وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء (٨٧).

ويقتضي كذلك التزام شريعته التي حَوَت أفضل الأحكام وأكملها وأحسنها، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر (٢٣). وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾

---

[١] أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، "باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته"، حديث رقم (١٥٢).

المائدة (٣). ويقتضي أيضاً تدبُّرهُ وتفهُّمه وتأمل معانيه والوقوف عليها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد (٢٤).

لذا فإن أوَّلَ ما يجب علينا هو فهمه ومعرفة مراد المشرّع الحكيم ﷻ منه، ليحسن الاتباع والتصديق على هدى وبصيرة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ البقرة (١٢١)، قال شيخ الإسلام: "قيل: هو من التلاوة بمعنى الاتباع ... وهذا يدخل فيه من لم يقرأه. وقيل: بل من تمام قراءته أن **يفهم معناه** ويعمل به كما قال أبو عبد الرحمن السلمي[١]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا".[٢]

فكيف يُتوصَّلُ إلى معرفةِ معناه؟.

- **المنهج في تفسير النصّ القرآني:** [٣]

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

إن المنهجية الصحيحة في تفسير كلام الله ﷻ، هي التي سار عليها النبي ﷺ وصحابته من بعده. فتُطلبُ معرفة معنى النص من القرآن نفسه، إذ أن أحسن طريقة لمعرفة كلامِ المتكلّم الاستدلال ببعضِ كلامه على بعض، حسب قواعد لغته التي يتكلَّمُ بها. وهذا يقتضي معرفة اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ومعرفة أساليبها واستعمالاتها.[٤]

فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الزخرف (٣). ومنزَّهٌ عن العِوَج والعُجمة كما قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ الزمر (٢٨).

---

[١] أبو عبد الرحمن السلمي: مقرئ الكوفة، الإمام العلم، عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ. قرأ القرآن، وجوَّده، ومهر فيه، وعرض على عثمان، وعلى علي، وابن مسعود. وحدث عن عمر، وعثمان، وطائفة. توفي سنة أربع وسبعين. وقيل: مات في أوائل ولاية الحجاج على العراق. سير أعلام النبلاء، د.ط، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة. جـ٤، ص٢٦٨، ٢٧٢

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٧، ص١٦٧

[٣] تسمية العنوان مقتبسة من كتاب منهج الاستدلال على العقيدة، وهو مصدرٌ غني نفيس في بابه.

[٤] أنظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٧٢

قال الشاطبي: "على الناظر في الشريعة أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب، بالغاً فيه مبالغ العرب. أو مبالغ الأئمة المتقدمين ومن أشبههم وداناهم. وليس المراد أن يكون حافظاً كحفظهم وجامعاً كجمعهم، وإنما المراد أن يصير فهمه عربياً في الجملة".[(١)]

وهذا القول السديد من الإمام الشاطبي -رحمه الله- يبين أهمية الفهم الصحيح للنصوص الشرعية، حيثُ زلَّ الكثير بسبب الفهم الخاطئ. وذلك لا يكون إلا بإتقان العربية التي هي آلة العقل والفهم للقرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف (٢)

ويؤيدُ هذا قول الشافعي: "إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره. وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. وعاماً ظاهراً يراد به الخاص. وظاهراً يعرف في سياقه أنه يُراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره".[(٢)]

"والعربُ تتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة، وهكذا القرآن الكريم".[(٣)]

فمن العام الظاهر مع بقائه على عمومه، قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود (٦)، فهذا عام لا خاص فيه، ومن العام المراد به الخصوص قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ آل عمران (١٧٣)؛ فلا شك أن القائلين نفر من الناس، وكذلك الجامعون والمجموع لهم، فهذا من باب إطلاق العام المراد به الخاص؛ لوروده في لسان العرب.[(٤)]

"وأما ما يُعرفُ معناهُ في سياقه أنهُ على غير ظاهره فنحو قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ الأنبياء (١١- ١٢). فالمراد بالقرية:

---

(١) الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد الغرناطي الشاطبي، د.ط، ١٤١٢هـ، دار ابن عفان،جـ٢، ٨٠٩

(٢) الرسالة للإمام مُحَمَّد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥١- ٥٢

(٣) منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٣، وانظر: الرسالة، جـ١ ، ص٥٢.

(٤) أنظر: المرجع السابق، جـ١، ص٥٤، ٥٩، ٦٠

أهلها، دون المنازل والأسواق، حيث لا يتصور من هذه ظلم، ثم إنه قد ذكر إنشاء قوم آخرين، وإنهم يحسون بالبأس الذي لا يقع إلا من الآدميين، وكذا الركض، فاتضح بذلك أن الظاهر غير مراد".[1]

"ومن أساليب القرآن الكريم أنه قد يوجز في موضوع ما، ويفصّل فيه في مكان آخر، كقصة فرعون وموسى، أوجزها في سورة البقرة (٤٩- ٥٠) ثم فصّل فيها، وأطنب في سورة أخرى كالأعراف (١٠٣- ١٣٧)، ويونس (٧٥- ٩٢) وطه (٢٤- ٨٢)".[2]

"وقد يرد النص مطلقاً في موضع، ثم يذكر مقيّده متصلاً به أو منفصلاً عنه في موضع آخر، روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الأنعام (٨٢)، قال أصحابه - أي: أصحاب النبي ﷺ - : (وأينا لم يظلم؟) فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان (١٣)" [3]. فلفظ الظلم إذا أطلق تناول جنس الظلم؛ ولهذا شق ذلك على الصحابة، حتى عرفوا تقييده بالظلم الذي بمعنى الشرك".[4]

"وقد يرد النص عامًّاً في موضع، ثم يرد مخصصه متصلاً به أو منفصلاً عنه في موضع آخر، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ البقرة (٢٥٤). فنفى عموم الخلة والشفاعة، ثم قال في آية أخرى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف (٦٧). فاستثنى المتقين، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ النجم (٢٦). فاستثنى الشفاعة بعد الإذن والرضا. فيحتاج المفسر لكتاب الله تعالى أن يجمع الآيات في الموضوع الواحد، ثم ينظر فيها مجتمعة؛ ليعرف ما قد يكون بينها من علائق".[5]

ثانياً: فإن لم يتيسر فهم الدليل القرآني من القرآن نفسه، طلبه المفسر من سنة النبي ﷺ؛ فإنها البيان للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ النساء (١٠٥)، وقال

---

[1] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٧٣ . وانظر: الرسالة، جـ١، ص٦٣

[2] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٣

[3] كتاب التفسير، "باب ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، حديث رقم (٤٦٢٩)

[4] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٤

[5] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٤

تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ النحل (٤٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر(٧). وقال ﷺ: "ألا إنِّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ معه".[١]

فقد كان جبريل الطَّيْلا، ينزل على رسولِ الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، ويُعلِّمهُ إياها كما يعلمهُ القرآن[٢]. قال ابن تيمية -رحمه الله-: "والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن" [٣]. وقد ذكر العلماء أن السنة تأتي مفسرة لبعض ما أجمل في الكتاب، مثاله: ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أصول الفرائض، كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، ثم بيّنت السنة الأركان والواجبات والمحظورات والمستحبات والمكروهات والهيئات والأوقاف والمقادير والأنصبة على نحوٍ من التفصيل لم يشمل عليه الكتاب.[٤]

وتأتي السنة أيضاً مُخصِّصة لعموم الكتاب، مثالُهُ: قوله تعالى: ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ النساء (١٢). فقصرت السُنة الوصية على الثلث، وجعلت الدين قبل الوصايا في الأداء[٥]، قال الشافعي رحمهُ الله: "ولولا دلالة السُنة ثم إجماع الناس، لم يكن ميراث إلا بعد وصية أو دين".[٦]

وتأتي السُنة أيضاً مقيدة لما أُطلق في الكتاب، مثالهُ قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ المائدة (٣٨). فقيّدت السنة اليد اليمنى، والقطع يكون من الرسغ.[٧]

ثالثاً: فإن تعذَّر فهم النص القرآني من السُنة، طَلَبَهُ المفسِّر من أقوال الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أعلم بذلك، لِما شاهدوه من القرائن والأحوال، واختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولاسيما

---

[١] المرجع السابق نفس الجزء والصفحة. والحديث صححه الشيخ الألباني. انظر: صحيح الجامع (٢٦٤٣)

[٢] السنة، لأبي عبد الله مُحَّد بن نصر المروزي، تحقيق: د. عبد الله بن مُحَّد البصيري، ط١، ١٤٢٢هـ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض. ص١٠٦

[٣] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص ٣٦٤

[٤] انظر: السُنة للمروزي، ص١١٧ - ١١٨

[٥] أنظر: الرسالة، جـ١، ٦٥. والحديث المُبيِّن للآية هو قولهُ ﷺ لسعد بن أبي وقاص حين أراد أن يتصدق بماله: "قلت أريد أن أوصي وإنما لي ابنة قلت أوصي بالنصف قال ﷺ النصف كثير قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير أو كبير قال فأوصى الناس بالثلث وجاز ذلك لهم". أخرجهُ البخاري في كتاب الوصايا، "باب الوصية بالثلث"، حديث رقم (٢٥٩٣). والحديث الآخر؛ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: "أن النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية"، أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (٢١٢٢)، وابن ماجه حديث رقم (٢٢١٢)، وقال الألباني حديث حسن.

[٦] الرسالة، جـ١، ص٦٥،٦٦

[٧] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٥

علماؤهم وكبراؤهم؛ كالخلفاء الأربعة الراشدين [١] والأئمة الأعلام كعبد الله بن مسعود الذي قال: والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورةٌ إلا أنا أعلمُ حيث نزلت، وما من آيةٍ إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلمُ أحداً هو أعلم بكتابِ اللهِ مني تبلغه الإبل لركبتُ إليه"[٢]. وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بهذا الفضل و أصحابه.[٣] ومثله عبد الله بن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن، ببركة دعاء النبي ﷺ: "اللهم علمهُ الكتاب".[٤]

رابعاً: فإن لم يجد المفسِّر في أقوال الصحابة ما يُعينُهُ على فهم المراد من النص، فقد رجع كثير من الأئمة إلى أقوال التابعين، حيثُ تلقَوا عن الصحابة علم التفسير كما تلقوا عنهم علم السنة؛ كمجاهد بن جبر، فقد كان آيةً في التفسير. قال مُجاهد: "لقد عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كلِ آيةٍ أسألُهُ: فيمَ أُنزلت و فيمَ كانت". ولهذا قال الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنَّف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.[٥]

فالتابعين أقربُ عهداً بنزول القرآن، وأعرفُ من غيرهم بلغتهِ وأساليبه، وهم أيضاً من أهلِ القرون المفضَّلة المشهود لها بالخير لحديث: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[٦]، وهذه الخيرية تكون في الإيمان والعمل.[٧]

وقد تختلف أقوالهم في التفسير، ومن تدبَّرها وجدها ترجع إلى معنىً واحد تختلف حوله الألفاظ، فهو اختلاف تنوُّع في الغالب لا اختلاف تضاد.[٨]

---

[١] فقد أوصانا رسولُ الله بالتمسك بهديهم وسنتهم، قال ﷺ: "فعليكُمْ بِسُنَّتِي وسنَّةِ الخُلفاءِ المهديِّينَ الرَّاشِدينَ، تَمسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عليْها بالنَّواجِذِ"، أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني، حديث رقم (٤٠). وأخرجه الترمذي في سننه وقال حسنٌ صحيح، حديث رقم (٢٦٧٦)

[٢] رواهُ الشيخان؛ البخاري في كتاب فضائل القرآن، حديث رقم (٤٧١٦). ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، "باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما" برقم (٤٥٠٣)

[٣] أنظر صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، "باب فضل عبد الله بن مسعود"، الأحاديث (٢٤٥٩)، (٢٤٦٢)، (٢٤٦٤)

[٤] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٦. والحديثُ مرويٌ في صحيح البخاري، كتاب العلم، "باب قول النبي ﷺ اللهم علمه الكتاب"، حديث رقم (٧٥). وكتاب فضائل الصحابة، "باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما"، حديث رقم (٣٥٤٦)

[٥] أنظر: مجموع الفتاوى، جـ١٣، ص٣٣٢ ، و منهج الاستدلال جـ١، ص٧٦-٧٧

[٦] أخرجهُ البخاري في كتاب الشهادات، "باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد"، حديث رقم (٢٥٠٩). وَ كتاب فضائل الصحابة، "باب فضائل أصحاب النبي ﷺ"، حديث رقم (٣٤٥١)

[٧] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٧

[٨] منهج الاستدلال، جـ١، ص٧٦ . وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٣٣

وقد ظهرَ في العصر الحديث ما عُرف بـ "التفسير العلمي للقرآن الكريم"؛ وهذا اللون من التفسير انقسم حوله الناس ما بين رافضٍ مانعٍ له و بين مؤيدٍ داعٍ إليه[1]. والصواب هو ما ذهب إليه بعض أهل العلم من ضرورة وضع ضوابط لقبول التفسير العلمي للقرآن الكريم.

لكن يظل التأكيد على أن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى، كتابُ هِدايةٍ واسترشاد، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فُصلت (٤٢)، لا كِتاباً تخصصياً لشيءٍ من علومِ البشر المادية المستحدثة؛ والتي قد تُصيبُ نتائجها وقد تُخطيء تبعاً للتجريب والاختبار!.

وتأتي أهمية الحديث عن هذا اللون من التفسير المستحدث حيثُ ضل البعض ممن أطلقوا لأنفسهم العنان ليفسروا كل آيةٍ من كتابِ اللهِ تفسيراً علمياً تبعاً لمعايير العلم الحديث الخاضع للتجربة والفرضيات، كطريقٍ للتدليل على صدق القرآن العظيم أو نبوة النبي ﷺ. الأمر الذي أدى إلى ضلالات عدة.

فهم في ذلك كما يقول شيخ الإسلام -رحمهُ الله-: "وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه، ولكن ما وافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لا عمدة وما خالفهم تأوَّلوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني".[2]

ويُقصد بالتفسير العلمي؛ كما يعرِّفهُ الدكتور صلاح الخالدي: "تفسير الآيات تفسيراً علمياً وفق قواعد العلم الحديث، وبيان المضامين العلمية للآيات وفق مقررات وتحليلات العلم الحديث" [3]، أو هو –كما يراهُ أمين خولي- "التفسير الذي يحكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها".[4]

ولعل أحسن تلك التعريفات تعريف الشيخ عبد المجيد الزنداني بأنهُ: "الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجَّحت صحته من نظريات العلوم الكونية".[5]

---

[1] أنظر: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم، جذوره وتطبيقاته، للأستاذ الدكتور عادل الشدي، ط١، ١٤٣١هـ، مدار الوطن للنشر، الرياض، ص٣٥ . وكذلك كتاب منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، ط٢، ١٤٠٣هـ، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة، الرياض. راجع ص٢١٣ ، وَ ص٤٧٦ وما بعدهما.

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٧، ص٤٤٤ . وستأتي معنا أمثلة هذه الدراسة في الباب الثاني إن شاء الله.

[3] التفسير العلمي التجريبي، ص١٠

[4] المرجع السابق، ص١١

[5] المرجع السابق، ص١٢

وهناك من ربط بينه وبين إعجاز القرآن، كالدكتور فهد الرومي الذي عرَّفه بأنهُ: "إجتهاد المفسِّر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجهٍ يظهر به إعجاز للقرآن".[١]

أمثلة للتفسير العلمي للقرآن الكريم:

١/ أمثلة على التفسير العلمي المردود:

- عند قوله تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ المرسلات (١-٤)، فسرها أحدهم بالطائرات الحربية، فهي مُرسلة وهي تعصف بقنابلها، وتلقي المنشورات في الميدان وعلى الأهالي للدعاية والإخبار وتفرق بين الكتائب والجموع فرقاً لأن الرعب والهزيمة بها أشد من غيرها[٢]. ومقصوده أن هذا الاختراع الحديث قد سبق القرآن إلى ذكره قبل قرون طويلة من الكشف عنه.[٣]

- عند قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ التكاثر (٥-٦)، زعم أحدهم بأننا إذا علمنا علم اليقين، فبإمكاننا رؤية جهنم التي هي الجحيم في الدنيا رؤية بصرية. وحاول أن يستدل على ما يقوله بأن الكتلة الكونية تتكون من نجوم ملتهبة كالشمس، لها كل صفات جهنم الواردة في القرآن والسنة. وبالتالي فالكون (الدنيا) بكليته هو جهنم، وهي موزعة حالياً على نجوم مضطربة وكواكب خُنَّس وغبار وغازات، والشمس جزء منها تمثلها.[٤]

٢/ أمثلة على التفسير العلمي المقبول:

- عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ النساء (٥٦)، أشار أحد العلماء إلى ما توصل إليه الطب الحديث بعد قرون من نزول الآية؛ من أن حدود الشعور بألم الكي يكون في الجلد السطحي، فلو احترق الجلد ووصل إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم بدرجة الحالة السابقة لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة في الجلد الخارجي، أما الأنسجة والعضلات الداخلية

---

[١] المرجع السابق، ص١١

[٢] المرجع السابق، ص٨٦، نقلاً عن كتاب "مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية"، لأحمد الصديق الغماري ص١٦

[٣] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٤] أنظر: المرجع السابق، ص٨٥، نقلاً عن كتاب "براهين"، لمحمود القاسم، ص١٥٧

فالإحساس فيها ضعيف، فكأن الآية تبيّن أن النار كلما أنضجت الجلد الذي يحتوي على أعصاب الإحساس بالألم جُددت هذه الجلود بجلود جديدة ليستمر الشعور بالألم.[1]

- عند قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام (١٢٥)، يرى أهل التفسير العلمي أن وجه التشبيه بين حال الكافر ومن يصعد في السماء صار أكثر وضوحاً نتيجة ما ثبت من كون الأكسجين الموجود في الغلاف الجوي يقل كلما صعد الإنسان في طبقات الجو إلى أعلى حتى تُصبح نسبة الأُكسجين اللازم لعملية التنفس غير كافية فيشعر الإنسان بالاختناق وضيق الصدر وقد يصل إلى مرحلة عدم إمكانية الحياة.[2]

ضوابط التفسير العلمي للآيات القرآنية:

في حين رفض بعض المعاصرين التفسير العلمي للقرآن الكريم رفضاً قاطعاً، بل وعدُّوهُ إساءة للقرآن الكريم. نجد آخرين قد اجتهدوا لوضع ضوابط كي يكون تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث مقبولاً؛ نذكر منها: [3]

١/ عدم تحميل النصوص ما لا تحتمل.

٢/ موافقة اللغة العربية موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.

٣/ عدم مخالفة صحيح السنة المرفوعة أو ما له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ.

٤/ موافقة سياق الآية.

٥/ التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

٦/ أن يكون التفسير حسب الحقائق العلمية الثابتة دون النظريات.

وسيرِد معنا المزيد من الضوابط خلال الردود التفصيلية على تحريفات المفسرين - موضوع هذا البحث - خلال الصفحات القادمة إن شاء الله.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٠

(٢) المرجع السابق، ص١٠٠- ١٠١

(٣) المرجع السابق، أنظر: الصفحات من ٧٣ إلى ٧٩

٢. السنة النبوية المطهرة:

تُعد السنة المطهرة هي المصدر الثاني من مصادر المعرفة الشرعية، فهي دليلٌ من الأدلة التي تُعرف بها مسائل الدين أصولاً وفروعاً.[(١)]

والسنة هي البيان لآيات الكتاب العزيز –كما تقدَّم-، وهي وإن كانت من الوحي، لكنها تُنسب إلى الرسول ﷺ من جهة أنهُ المنشئ لألفاظها، وأما معانيها فهي من الله ﷻ؛ إما أن ينزل بها جبريل عليه السلام كما ينزل بالقرآن، أو ينفث بها في روعه كما في قولهِ ﷺ: "إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعِي، أنَّ نفسًا لَن تموتَ حتَّى تستكمِلَ أجلَها، وتستوعِبَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلُوا في الطَّلَبِ".[(٢)]

أو يُلهمهُ إياها مناماً، أو أن الرسول ﷺ يقول أو يفعل باجتهاده في حدود ما تعلَّمهُ من معرِفة بمقاصد الشرع، وقواعدِه الحكيمة، وهذا الاجتهاد إما أن يُقَرَّ عليه؛ فيرجع إلى حقيقة الوحي، أو لا يُقَرَّ فيُنبَّه إلى الصواب.[(٣)]

و الأدلة على كون السنة من الوحي كثيرة، وهي ترجع إلى الكتاب والسنة، والإجماع، والنظر الصحيح. **فمن أدلة القرآن على حجيّة السُنة،** قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم (٣، ٤)، فهذا عام في جميع ما ينطقُ به النبي ﷺ، ولذا قال لعبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه: "أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منهُ إلا حق"، وأومأ بإصبعهِ إلى فيه، وذلك لما قالت قريش لعبد الله: "أتكتب كل شيء تسمعهُ، ورسولُ الله ﷺ بشر يتكلَّمُ في الغضب والرضا"، فأمسك عن الكتاب، حتى ذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ فذكر الحديث.[(٤)]

قال ابن حزم في معرض استدلاله بالآية: "فصحَّ لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عزوجل إلى رسولِه ﷺ على قِسمين؛ ثم ذكر القرآن والسنة".[(٥)]

---

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٨٤

(٢) صحيح الجامع، حديث رقم (٢٠٨٥)، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح.

(٣) منهج الاستدلال، جـ١، ص٨٦ . و انظر: الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، د.ط، ١٤٢٤هـ، دار ابن القيم – دار ابن عفان. جـ٤، ص ٤٦٥ ، ٤٧١

(٤) أخرجهُ أبو داود، حديث رقم (٣٦٤٦)، وصححهُ الألباني.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام، لأبي مُحَمَّد علي بن حزم الأندلسي، د.ط، د.ت، تحقيق: الشيخ أحمد مُحَمَّد شاكر، جـ١، ص١٠٨

ومن أدلة القرآن أيضاً على حجية السنة، قولُهُ تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء (٨٠)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر (٧)، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور (٦٣).

وللإمام ابن القيم كلام نفيس في معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ النور (٦٢). يقول: "فإذا جُعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمِهِ أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي، إلا بعد استئذانه وإذنه يُعرف بدلالة ما جاء به على أنهُ أَذِن فيه".[١]

دلالة السنة النبوية على أن السنة من الوحي: قوله ﷺ: "ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثلهُ معه" [٢]، وقوله ﷺ: "هذا رسول رب العالمين؛ جبريل نفثَ في رُوعِي أنَّه لا تموت نفسٌ حتَّى تستكمِلَ رزقها وإن أبطأ عليها، فاتَّقوا اللهَ ، وأجمِلُوا في الطَّلَبِ" [٣]. قال الشافعي: "فكان مما ألقى في روعه سنته، وهي الحِكمة التي ذكر الله".[٤]

دلالة الإجماع وأقوال العلماء على حجية السنة وأنها من الوحي: يقول الإمام الشافعي: "ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحداً أُخبر عن رسول الله ﷺ إلا قَبِلَ خبرهُ وانتهى إليه، وأثبت ذلك سُنة، وصنع ذلك الذين بعد التابعين، والذين لقيناهم، كلهم يثبت الأخبار ويجعلها سُنَّة، يحمد من تبعها، ويُعاب من خالفها، فمن فارَقَ هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من أهلِ الجهالة".[٥]

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر الزرعي ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ط١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. جـ١، ص٤١

[٢] سبق تخريجه ص١٦

[٣] صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، حديث رقم (١٧٠٢)، وقال الألباني حسنٌ صحيح.

[٤] الرسالة، ص١٠٣

[٥] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص١٠٧

وقال الشوكاني -رحمهُ الله-: "وقد اتفق من يُعتدُ به من أهل العلم على أن السنة المطهَّرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام".[1]

وقال أبو محمَّد بن حزم: "فصَحَّ أن كلامَ رسول الله ﷺ كُلُهُ في الدين وحيٌ من عند اللهِ ﷻ لاشك في ذلك، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند اللهِ تعالى فهو ذكرٌ منزل".[2]

دلالة النظر الصحيح على أن السنة من الوحي: قد قام دليل النقل والعقل على عِصمة النبي ﷺ عن الخطأ في الرسالة، وهذا لا يستقيم إلا إذا كان ما يقولُهُ من السنة فضلاً –عن القرآن- وحياً من عند الله تعالى، لأن الدليل على العصمة قام من جهة كونهِ ﷺ مُبلِّغاً عن الله تعالى لا من جهةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ المائدة (٦٧).[3]

وما دام أن السنة من الوحي، والوحي محفوظ بحفظ الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩). فهي محفوظة بحفظ الله تعالى لها.

يقول ابن حزم رحمهُ الله في معرض الاستدلال على كون السنة من الوحي: "فَصَحَّ بذلك أن كلامه ﷺ كُلُهُ محفوظ بحفظ الله عزوجل، مضمون لنا أنهُ لا يضيع منهُ شيء، فهو منقول إلينا كُلُهُ، فللهِ الحجة علينا أبداً".[4]

ومن تأمل ما نشأ بعد ذلك من علوم الرجال والأسانيد، وتدوين السنة، وما وضعهُ العلماء من القواعد والمناهج لحفظ السنة من الدخيل والموضوع تبيَّن لهُ ذلك الحفظ الإلهي للسنة المطهرة.[5]

قيل لعبد الله ابن المبارك: هذه الأحاديث؟، فقال: تعيشُ لها الجهابذة، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر (٩).[1]

---

[1] إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علمِ الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د. شعبان محمَّد إسماعيل، د.ط، ١٤١٨هـ، دار السلام. جـ١، ص١٣٢

[2] الإحكام لابن حزم، جـ١، ص١٢١

[3] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٩٠

[4] الإحكام لابن حزم، جـ١، ص١٢١

[5] أنظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٩١

٣. حجية الإجماع:

وأما المصدر الثالث من مصادر المعرفة والاستدلال، فهو الإجماع. ومن أقوى الأدلة القرآنية على حجيته، قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء (١١٥). وأولُ من استدل بها الإمام الشافعي -رحمهُ الله-، ووجه الدلالة: أن الله تعالى جمع بين مشاقة الرسول وبين مخالفة سبيل المؤمنين في الوعيد، فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مُباحاً لما جمع بينهُ وبين المحظور، ومتابعة غير سبيلهم تقع بمخالفة أقوالهم أو أفعالهم.[٢]

وكذلك قوله ﷺ: "إن الله لا يجمعُ أمتي على ضلالة –أو قال أمة مُحَّد ﷺ-، ويدُ الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار"[٣]. فهذا الحديث وغيره أفاد عِصمة الأمة من الضلال، ومنهُ الخطأ، فلزم أن يكون قولها موافقاً للحق، وهذا يقتضي كونُهُ حُجة، ولم يزل الصحابة والتابعون ومن بعدهم يستدلون بهذه الأحاديث في إثبات الإجماع.[٤]

كما دل العقل على حجية الإجماع، بأن يُقال إنهُ قد ثبت قطعاً أن نبينا مُحَّد ﷺ خاتم الأنبياء، وأن شريعته دائمة إلى قيام الساعة، ثم وقعت حوادث ليس فيها نص قاطع من كتاب أو سُنة، لكن أجمعت الأمة على حكمها، فلو قلنا إن إجماعهم ليس بحجة وإن الحق قد خرج عنهم، أو أنهم أجمعوا على الخطأ، للزم أن تكون شريعتهُ غير دائمة، فيؤدي ذلك إلى الخلف في أخبار الشارع، أو أن يكون إجماعهم حجة مثبتاً للحق، لئلا يؤدي إلى المحال وهو انقطاع الشريعة، وعدم بقائها واستمرارها.[٥]

٤. دلالة العقل:

أما العقل وتحصيلهُ للمعرفة الشرعية الدينية؛ فقد دلَّت النصوص الكريمة على أنهُ لا يستقلُ بتحصيلِ المعرفة الدينية الشرعية، لاسيما مسائل الغيب. قال تعالى في معرِض الحديث عن التشريع: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة (٢١٦)، وفي

---

[١] تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: أبو قتيبة نظر مُحَّد الفاريابي، د.ط، د.ت. جـ١، ص٣٣٣

[٢] منهج الاستدلال،جـ١، ص١٣٧

[٣] أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (٢١٦٧) وصححهُ الألباني دون لفظة "ومن شذ".

[٤] أنظر: منهج الاستدلال، جـ١، ص١٣٩

[٥] المرجع السابق، نفس الجزء، ص١٤٠

معرض الكلام عن ذاته العلية قال ﷻ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ النحل (٧٣-٧٤)

وفي معرِض قصصه وأخباره، يقولُ ﷻ مخاطباً نبيَّهُ ﷺ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ **مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا** أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هود، ويقولُ أيضاً: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ القصص (٤٤). وغير تلك الآيات الكريمة.

فالشهادة مما يحصُل به العلم، لذا لما كانت مسائل الغيب لا يمكن شهودها، وجب أن يكون هناك طريقٌ تُعرف به، وما دام أن أكثر مسائل الدين غيب؛ وجب ألا يُعرفُ إلا بمصدرِ العلمِ التام وهو علمُ الرب سبحانهُ وتعالى، سواءً كان متعلقاً بالحكمة كمسائل التشريع والأحكام، أو كان من الغيبِ المحض كذاتهِ القُدسية ﷻ. فكُلُ هذه الأمور مما يتعذَّرُ العلم به دون هِداية الوحي وإرشاده.

ومادام أن الوحي هو مصدر المعرفة اليقينية؛ فليس لمخلوقٍ أن يكون له سبيلُ الاسترشادِ أو الاهتداءِ إلى ما جاء فيه إلا عن طريقهِ، ولا إلى معرفةِ أحكامهِ وتعاليمِهِ إلا من خلاله وما بيَّنتهُ السُنة المطهرة، ولذلك امتَنَّ الله على رسولهِ ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ** وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى (٥٢)، فبيَّن أن مسائل الإيمان وما اشتمل عليه الكتاب؛ من أوامر وتشريعات وأنباء وأخبار لم يكن رسول الله ﷺ ليعلمها لولا تعليم الله له، بدليل أنهُ لم يكن يدري أو يُدرِكُ شيئاً من ذلك.

وعليهِ فلا يُعد العقل مصدراً مستقلاً من مصادر الاستدلال على مسائل الغيب، مالم يكن على هُدىً من النصوص الشرعية وأضواء دلالتها، لأن العقل البشري مهما بلغ من قوة التفكير والإدراك يظل محدوداً يعتري معلوماته النقص، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء (٨٥)، فهو محدودٌ قاصر ما لم تستبِن لهُ معالم الهدايةِ وسبيلُ النجاة والصراط المستقيم ليقتفيها ويهتدي بنورهما. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ النساء (١٧٤)

قال القرطبي: "قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ يعني مُحَمَّدا ﷺ؛ وسماه برهانا لأن معه البرهان وهو المعجزة. -وقال بعض المفسرين-: البرهان هاهنا الحجة؛ والمعنى متقارب؛

فإن المعجزات حجته ﷺ. والنور المنزل هو القرآن؛ وسماه نورا لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بين".[(١)]

وعليهِ فالعقلُ كما بيَّنا ليس بمصدرٍ مستقل للاستدلال على تفصيلات العقيدة، يقولُ الإمام الشاطبي: "العقلُ محتاجٌ للإخبار، لأنهُ لابد للعقل من التنبيه من خارج وهي فائدة بعث الرسل".[(٢)]

ويقولُ أيضاً: "إن العقل لما ثبت أنهُ قاصرُ الإدراك في علمهِ، فما ادعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنهُ أدركها، لإمكان أن يدركها من وجهٍ دون وجه، وعلى حالٍ دون حال. والبرهان على ذلك أحوالُ أهلِ الفَتَرات فإنهم وضعوا أحكاماً على العباد بمقتضى السياسات لا تجدُ فيها أصلاً منتظماً وقاعدة مطردة على الشرع بعدما جاء، بل استحسنوا أموراً تجد العقول بعد تنويرها بالشرع تنكرها، وترميها بالجهل والضلال والبهتان والحُمق".[(٣)]

ولعل أحاديث الفرقة الناجية توضِّح هذا النهج، يقولُ ﷺ: "افترقتْ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ، وافترقتْ النصارى على اثنتين وسبعين فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ، وستفترقُ هذه الأمةُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ. وفي لفظٍ: على ثلاثٍ وسبعينَ ملةٍ، وفي روايةٍ قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن الفرقةُ الناجيةُ؟ قال: من كانَ على مثلِ ما أنا عليه اليومُ وأصحابي، وفي روايةٍ قال: هي الجماعةُ يدُ اللهِ على الجماعةِ".[(٤)]

فقولُهُ ﷺ: "ما أنا عليه اليوم وأصحابي"، يمنعُ أيَّ مزايدةٍ على الشريعة بأي دعوىً؛ سواءً أكانت علمية حديثة أو عقلية أو خلافُه، فلا مجالَ لمعارضةِ النصوص الشرعية البته.

ولعل من الأهميةِ بمكان أن نذكر بعضَ قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد[(٥)] مما ذكرهُ أهلُ العلم –رحمهم الله جميعاً-، ليكون المرءُ على بصيرة ودِراية بالنهج الصحيح القويم عند النظر والاستدلال لمسائل العقيدة، فمن ذلك:

---

(١) تفسير القرطبي، جـ٥، ص ٣٨٧

(٢) الاعتصام، جـ٢، ص٣٢١

(٣) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) أخرجهُ أبو داود وابن ماجه في سُننها، وصححهُ الألباني، حديث رقم (٤٥٩٦) وَ (٣٢٤١). وقال عنهُ شيخ الإسلام: حديث ثابتٌ مشهور. أنظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٣، ص٣٤٥

(٥) أوردها مؤلف منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد نحواً من عشر قواعد، اخترت منها ما يتعلق بموضوع البحث.

ثانياً: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد:

القاعدة الأولى: الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسُنة.
القاعدة الثانية: اشتمال الكتاب والسُنة على أصولِ الدين ودلائله ومسائله.
القاعدة الثالثة: درء التعارض بين نصوص الكتاب والسُنة.
القاعدة الرابعة: درء التعارض بين النقلِ والعقل.
القاعدة الخامسة: ظواهر النصوص مُطابقة لمراد الشارع.
القاعدة السادسة: ظواهر النصوص مفهومة لدى المخاطبين.
القاعدة السابعة: حجية فهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسُنة.

وسنتناولُ كلاً منها بشيءٍ من الإيجاز:

القاعدة الأولى: الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسُنة:

إن ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه تعالى فإنهُ يجب الإيمان به، سواء عرفنا معناهُ أو لم نعرف. لأنهُ الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسُنة وجب على كل مؤمنٍ الإيمان به وإن لم يفهم معناه. وكذلك ما ثبت باتفاق الأمة وأئمتها، مع أن هذا الباب –أي العقيدة-، يوجد عامتُهُ منصوصاً في الكتاب والسُنة، متفقاً عليهِ بين سلف الأمة.[١]

فالواجب على المسلم الإيمان بالنص بعد معرفة صحة مخرجه، إيماناً عاماً مُجملاً من غيرِ أن يشترط فهم معناه، أو إدراك حقيقته أو سلامته عن المعارض العقلي كما يقولُهُ أرباب الكلام أو موافقتهُ للذوق والكشف كما يدَّعيهِ غُلاة المتصوِّفة.[٢]

يقولُ شارح الطحاوية - مُبيناً ما يجب أن يكون عليهِ اعتقادُ المُسلم- : "فالواجب كمال التسليم للرسول والانقياد لأمره، وتلقي خبرهُ بالقبول والتصديق، دون أن يُعارضهُ بخيالٍ باطل يُسميه معقولاً أو يُحمِّلهُ شُبهة أو شكّاً، أو يُقدِّمَ عليه آراء الرجال. فيُوَحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وَحَّدَ المرسل بالعبادة

[١] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٣، ص٤١
[٢] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٢٢٥

والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدانِ لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيدُ المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول".[١]

وأما دلالة القرآن الكريم على هذه القاعدة العظيمة، فهو قولُهُ ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء (٦٥)

فهُنا قسمٌ من الله تعالى بذاتهِ الكريمة، مما يدل على عِظَمِ الأمر المُقسم عليه وخطورته، مع تقدّم "لا" على القَسَم اهتماماً بالنفي وإظهاراً لقوّته.[٢]

فنفى الإيمان عن كلِّ أحد، وعلَّقَ حصولهُ ووقوعه على التحاكم للرسول، وذلك في جميع الأمور الإخبارية والإنشائية.[٣]

وأما السنة فمنها حديثُهُ ﷺ: "لا أُلْفِيَنَّ أحدُكم مُتَّكِئًا على أَرِيكتِه، يأتِيهِ الأمرُ من أمرى، مِمَّا أُمِرْتُ به، أو نَهَيْتُ عنه، فيقولُ: لا أدرى ما وجَدْنا في كتابِ اللهِ اتَّبَعناه".[٤]

ففي هذا الحديث الإنكار الشديد على من آمن وصدَّق بالكتاب دون السُنة، إذ هو تفريقٌ بين اللهِ ورُسُله، وإيمانٌ ببعض وكفرٌ ببعض، وعقدُ الإيمان يقتضي التصديق بجميع ما بلغهُ وأخبر به الرسول من آيات الله والحكمة[٥]، قال عبد الرحمن السعدي في تفسير قولهِ تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ النساء (١٥٢)، قال: "وهذا يتضمن الإيمان بكلِ ما أخبر الله به عن نفسهِ، وبكلِ ما جاءت به الرُسُل من الأخبار والأحكام".[٦]

ومما يدلُ على هذهِ القاعدة أيضاً أقوال السلف –رحمهم الله-؛ فمن ذلك ما رواهُ الإمامُ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: "بينما رجلٌ يسوق بقرة له قد حمل عليها، فالتفتت إليهِ البقرةُ، فقالت:

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن مُحَمَّد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، د.ط، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة. جـ١، ص٢٢٨

[٢] أنظر: منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٢٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، جـ٥، ص٢٣٠

[٣] منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٢٩

[٤] رواهُ الترمذي وابن ماجه في سُننهما، الأحاديث رقم (٢٦٦٣) وَ (١٣)، وصححهُ الألباني.

[٥] منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٣٢

[٦] تيسير الكريم الرحمن، ص٢٣٢

"إني لم أُخلق لهذا، ولكني إنما خُلقتُ للحرث، فقال الناس: سبحان الله! - تعجباً وفزعاً-، أبقرةٌ تكلَّم؟!. فقال رسولُ الله: فإني أومن به، وأبو بكرٍ وعُمر".[1]

ففي هذا الحديث إخبار النبي ﷺ عن حالِ أبي بكر وعمر تجاه هاتين الحادثتين رغم تعجُّب الناس، وأنهما على يقينٍ بما أخبر به ﷺ، لا يُزلزِلُهُ تعجُّبُ الناس، ولا عدم إدراكهم حقيقة المخبِر عنه.[2]

ولما سأل رجلٌ الإمام الزُهري: يا أبا بكر، قول النبي ﷺ: "ليس منا من شق الجيوب"[3]، ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم، وعلى رسُولِهِ البلاغ، وعلينا التسليم".[4]

فالواجب على المسلم الإيمان والتصديق والإذعان والتسليم لما أنزل اللهُ على لسانِ رسولهِ ﷺ، دون مُماراةٍ أو جدل، سواءً فَهِمَ معناهُ أو لم يفهم.

القاعدة الثانية: اشتمال الكتاب والسُنة على أصولِ الدين ودلائله ومسائله:

ومعنى ذلك أن كل ما يستحق أن يُسمى أصول الدين؛ فقد جاء بيانه في الكتاب والسُنة بياناً شافياً قاطعاً للعُذر، مع بيان أدلَّته وسُبل الاهتداء إلى معرفته.[5]

فالكتاب والسنة هما العمدة في معرفة الدين، أصوله وفروعه، دلائله ومسائله، فجعل القرآن والسنة إماماً يُؤتَمُ به في أصول الدين وفروعه، هو دين المسلمين، وهي طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وطريقة أئمة المسلمين، فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحدٍ قط، أن يعارض القرآن ولا السُنة بمعقولِهِ أو خيالِهِ [6]. بل يُنظر في

---

[1] كتاب فضائل الصحابة، "باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ"، حديث رقم (٤٤٠١) وَ (٢٣٨٨)

[2] منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٣٣

[3] وهو قوله ﷺ: "ليسَ منَّا مَن شقَّ الجيوبَ وضربَ الخدودَ ودعا بدَعوَى الجاهليَّةِ"، أخرجهُ الإمام أحمد في مُسنده، وقال أحمد شاكر: إسنادُهُ صحيح، جـ٦، حديث رقم (٧٩)، وأخرجهُ الترمذي وابن ماجه في سُننهما، وصححهُ الألباني، الأحاديث رقم (٩٩٩) وَ (١٢٩٨)

[4] فتح الباري، كتاب التوحيد، "باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته ﴾"، ص٥١٣

[5] منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٤٢، ٢٤٥

[6] أنظر: مجموع الفتاوى، جـ١٣، ص٢٨

في أقوال الناس وآرائهم، وتُعرض على الكتاب والسُنة، وتختبر بها، فيُقبلُ منها ما وافق النصوص، ويُردُ منها ما خالفها كائناً من يكون القائل بها.[١]

أما أهل الابتداع – كما يُبيّن شيخ الإسلام-، فلا يعتمدون على ما جاء به الرسول، ولا يتلقون الهُدى منه، ولكنهم يبتدعون الآراء ويُحدثون المذاهب، ثم ينظرون في النصوص، فما وافق منها –بزعمهم- أهواءهم قَبِلوه وجعلوه حُجةً لا عُمدة، وما خالف تأوَّلوه أو فوَّضوه، أو ردوه صراحةً بالطعن في طُرقه.[٢]

وقد دلت آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ على هذه القاعدة الجليلة، نذكر منها: قولهُ تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام (٣٨)، وقولهُ تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف (١١١).

قال الإمام القرطبي –رحمه الله- في تفسير قوله تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾: "أي في اللوحِ المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل: أي في القرآن، أي ما تركنا شيئاً من أمرِ الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مُجملة يُتلقى بيانها من الرسول ﷺ أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنصِ الكتاب .."[٣]، ثم قال: "فصَدَقَ خبر الله بأنهُ ما فرَّط في الكتابِ من شيء إلا ذكره؛ إما تفصيلاً وإما تأصيلاً"[٤]، أما آيةُ يوسف فالمراد بها القرآن الكريم، وهي نصٌ في المسألة.[٥]

أما الأدلة النبوية على ذلك، ما رواهُ الإمام أحمد في مُسندهِ عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه قال: "تركَنا رسولُ اللهِ ﷺ؛ وما طائرٌ يطيرُ بجناحَيه إلا عندنا منه عِلْمٌ"[٦]، وقد استخدم أهلُ العلم من أهلِ السنةِ هذه القاعدة للرد على المبتدعة كما حدث مع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.[٧]

فإن كان رسولُ الله ﷺ قد علَّمهم من أمرِ الطائرِ في السماء، فمن بابِ أولى كُبريات العقائد، وما يهم الناس في حياتهم؛ كمعرفةِ مبدأ وجودهم وكيفيةِ خلقهم. فلا يعتقد عاقل أن ذلك لم يرد في السُنة المطهرة وافياً مستوفياً، وبذلك يبطلُ زعم من زعم بأن جميع ما ورد من ذلك إنما هو خبرُ إسرائيليات!.

---

[١] منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٥٠

[٢] المرجع السابق، نفس الجزء، ص٢٥١، وانظر الفتاوى، جـ١٧، ص٤٤٤

[٣] تفسير القرطبي، جـ٦، ص٣٢٨

[٤] نفس المرجع والجزء والصفحة.

[٥] منهج الاستدلال، جـ١ ص٢٥٣

[٦] أخرجه ابن حبان، حديث رقم (٦٥)، وصححهُ الألباني.

[٧] أنظر: منهج الاستدلال، جـ١، ص٢٦٠

القاعدة الثالثة: درء التعارض بين نصوص الكتاب والسُنة:

ومفادُها؛ أنه مما ينبغي اعتقاده: ضرورة الاتفاق بين نصوص الكتاب والسنة، ونفي التعارض والاختلاف بينها، سواء أكان ذلك بين آيةٍ وآية، أو بين حديثٍ صحيحٍ و آخر مثلهُ، أو بين آيةٍ وحديثٍ صحيح. وأن ما يُظَنُ من تعارضٍ واختلاف بين بعض النصوص فذلك بحسب الظاهر لا في نفس الأمر.[1]

لأن ما أخبر به الرسول ﷺ من القرآن والسُنة، هو من علم الله تعالى الذي يعلمُ السِّر وأخفى، فما أخبر به الرسول ﷺ، فالله تعالى أخبر به، وما أمر به ﷺ، فالله تعالى أمر به، ومحالٌ أن يقع فيما أخبر به الله تعالى ورسولُهُ ﷺ، أو أمر به تعالى ورسُولُهُ تضاد أو اختلاف[2]، ويشهدُ لذلك قولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء (٨٢).

وأما ما يظهرُ للناظر من تعارض بين بعض النصوص من الكتاب والسُنة فهو تعارضٌ ظاهري، يقع في نفسِ المجتهد وفهمه، ولا حقيقة له في نفسِ الأمر، وذلك لنقصٍ في العلم أو الفهم أو فيهما معاً.[3]

ولذلك يقول الإمام الشاطبي: "أدلةُ الشريعة لا تتعارض في نفس الأمر، ولذلك لا تجدُ البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما، بحيث وَجَبَ عليهم الوقوف، لكن قد يقع التعارض في فهم الناظرين"[4]، ويقولُ الإمام الإمام الشافعي: "لا تُخالف سنةً لرسول الله كتاب اللهِ بحال".[5]

وروى الآجُرّي[6] بسندهِ إلى سعيد بن جبير أنَّهُ حدَّث عن رسول الله ﷺ حديثاً، فقال رجل: "إن الله عزوجل قال في كتابهِ: كذا وكذا، فقال: لا أراك تُعارض حديث رسول الله ﷺ بكتابِ اللهِ عزوجل، رسولُ اللهِ أعلمُ بكتاب الله ﷻ".[1]

---

[1] منهج الاستدلال، جـ١، ص٣١١، ٣١٣

[2] المرجع السابق، نفس الجزء، ص٣١٧

[3] منهج الاستدلال، جـ١، ص٣١٩

[4] الموافقات، جـ٥، ص٣٤١ - ٣٤٢

[5] الرسالة، ص٥٤٦

[6] الإمام المحدث القدوة شيخ الحرم الشريف أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجري صاحب التواليف، منها: كتاب؛ "الشريعة في السنة" كبير، وكتاب "الرؤية"، وكتاب "الغرباء"، وغيرها. وكان صدوقاً، خيراً، عابداً، صاحب سنة واتباع. قال الخطيب: كان دَيِّناً ثقة، مات بمكة في المحرم سنة ٣٦٠هـ، وكان من أبناء الثمانين. سير أعلام النبلاء، جـ١٦، الصفحات ١٣٣ - ١٣٦

فالتعارض منتفٍ بين نصوص الوحيين، إذ لا يمكن أن يعارض الحق كلام الحق البته، وقد قال جلَّ في علاه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم (٣-٤)

القاعدة الرابعة: درء التعارض بين النقلِ والعقل:

بمعنى أن نصوص الكتاب والسُنة الصحيحة الصريحة لا يُعارضها شيء من المعقولات الصريحة[٢]، فتبيَّن أن العقل مُتصفٌ بالنقصِ والتقصير، فهو في العلوم الضرورية مفتقرٌ إلى التنبيه والإرشاد، وفي النظرية مفتقرٌ إلى القطع، وعلى ذلك فلا يصح أن يكون حكماً في مسائل النزاع، فضلاً عن أن تُعَارَضَ به نصوصُ الوحي.[٣]

قال الأوزاعي – رحمهُ الله-: "اصبر نفسك على السُنة، وَ قِف حيثُ وقف القوم، وقُل بما قالوا، وكُفَّ عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنهُ يَسَعَكَ ما وَسِعَهُم ... ولو كان هذا خيراً ما خُصصتم به دون أسلافكم، فإنهُ لم يدخر عنهم خيرٌ خُبّيء لكم دونهم لفضلٍ عندكم، وهم أصحاب نبيّهِ ﷺ الذين اختارهم وبعَثَهُ فيهم، ووصفهم بما وصفهم به، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ الفتح (٢٩)

وقال شيخُ الإسلام: "من المُحالِ أن تكون القرون الفاضلة؛ القرن الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك: إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق، وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع".[٤]

القاعدة الخامسة: ظواهر النصوص مُطابقة لمراد الشارع:

والأصل في نصوص الكتاب والسُنة إجراؤها على ظاهرها دون تعرُّضٍ لها بتحريف أو تعطيل ونحوهما، واعتقاد أن ظاهرها يُطابق مراد المتكلم بها ولا سيما ما يتعلق منها بأصول الدين والإيمان إذ لا مجال للرأي فيها.[١]

---

[١] الشريعة، لأبي بكر مُحَمَّد بن الحسين الآجُرّي، دراسة وتحقيق: د. عبد الله بن عمر الدميجي، ط١، ١٤١٨هـ، دار الوطن، الرياض، جـ١، ص٤١٨، "باب التحذير من طوائف تعارض سنن النبي ﷺ بكتاب الله تعالى وشدة الإنكار على هذه الطبقة".

[٢] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٣٥١. و انظر: مجموع الفتاوى، جـ٧، ص٦٦٥

[٣] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، جـ١، ص٣٥٤

[٤] مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جـ٥، ص٧-٨

والأصل في الكلام دلالتُهُ على مراد المتكلِّم، فصرف الكلام عن ظاهره من غير دليل يُبيِّن مراد المتكلم تحكُّمٌ سببهُ الجهل أو الهوى، بل الواجب إبقاء الكلام على ظاهرِهِ خاصة إذا عُرف أن المتكلِّم إنما يريد البيان والنصح والإرشاد، فإذا حمَّل السامع كلامه على خلاف ظاهرِهِ وخلاف ما يُفهمُ منه عند التخاطب عادة، كان هذا إخبارٌ منه عن مراد المتكلِّم يحتمل الصدق والكذب، ولا يكونُ صدقاً إلا إذا بيَّن دليلٌ هذا الحمل، وإلا فهو محضُ كذب وتقوُّلٍ على المتكلِّم.[٢]

ومن أدلة القاعدة، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يونس (٥٧-٥٨)

فالنفوس لا تفرح بحديثٍ لا يوافق مراد المتكلِّم، بل المراد وراء هذهِ الألفاظ!، ولا سبيل إلى الوصولِ إليه إلا بعد الكُلفةِ والعناء[٣]، كما أن الموعظة لا بد أن تكون بيّنة واضحة يفهمها الجميع لتقوم الحُجة عليهم، والمُخاطَبون بالقرآن الكريم تتباين أفهامهم ومشاربهم وعقولهم، لذا جاءت مسائلُ الأصولِ وضرورياتِ الدين فيه – بشكلٍ خاص- بأوضحِ عِبارة وأبيَنِ دلالة.

ومن الأدلة على هذه القاعدة أيضاً؛ مدحُ اللهِ تعالى للعلماء الذين عرفوا الحق من طريقِ الوحي وشهدوا به. فلو كانت ظواهرهُ لا تدل على مراد الشارع، لما استحقوا هذا المدح والتكريم، قال تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ سبأ (٦).

أما الأدلة النبوية فمنها قولُهُ ﷺ: "لقد تركتُكم على مثلِ البيضاءِ، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ" [٤]، فالنبي ﷺ ترك أمته على الأمر الواضح والنهج البيّن، لا التباس فيه ولا إلغاز، ظاهرهُ وباطنهُ سواء، لا باطنٌ يُخالفُ ظاهراً، ولا لفظٌ يدلُ على غيرِ معناه، ومن حاد عن هذا فهو الهالك.[٥]

---

[١] القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ العلاَّمة مُحَّد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط٢، ١٤١٤هـ، مكتبة السُنة، القاهرة. ص٤٢

[٢] أنظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمُعطِّلة، لأبي عبد الله مُحَّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيّد إبراهيم، د.ط، ١٤٢٢هـ، دار الحديث، القاهرة، جـ١، ص٥٠ - ٥١

[٣] منهج الاستدلال، جـ١، ص٤٢٥

[٤] أخرجهُ المنذري في الترغيب، حديث رقم (٥٩) وصححهُ الألباني.

[٥] منهج الاستدلال، جـ١، ص٤٢٧

القاعدة السادسة: ظواهر النصوص مفهومة لدى المخاطبين:

كلام الله وكلام رسوله عربيٌ مبين، وظاهرهُ غايةٌ في البيان، وهو مفهوم لدى المخاطبين من أهلِ اللسان العربي، ولاسيما ما يتعلق من ذلك بأصول الدين والإيمان، والتي كثُر فيها خوض المتأخرين واختلافهم.[1]

فمن المعلوم أن القرآن الكريم عربي، وأنزل على رسولٍ عربي، وخوطبت به - أوَّل الأمر- أمةٌ عربية، والقرآن مقصودٌ به الهداية والإرشاد. فلزِم أن يكون بيّناً للأمة المخاطَبة به، ولا يكونُ كذلك حتى تفهمُهُ وتعقله، ولا يكونُ كذلك حتى يكون جارياً على معهودها في الخطاب وعادتها في الكلام، وهكذا كان القرآن الكريم.[2]

وقد كانت سنة الله في خلقِهِ أن يرسل كل رسول بلسانِ قومهِ حتى يحصل المقصود من الرسالة، فيكون الرسول مبيناً في كلامِهِ وبلاغِهِ، ويكون المخاطب قادراً على الفهم متمكّناً من الإدراك، وبهذا تقوم الحجة وتنقطع المعذرة، بالبيان من الرسول والفهم من المرسل إليه، ولذلك قال موسى في تعليل سؤالِهِ أن يُرسل معه أخاهُ هارون وزيراً: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص (٣٤).[3]

فلو أن الله تعالى خاطب أمة بغير لسانها لما فَهِمت خِطابُهُ لها، ومن ثم لم تقُم الحجة عليها بذلك الخطاب، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ الإسراء (١٥)، يقول الطبري –رحمهُ الله- في تفسير الآية: "وما كنا مُهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم ... فالله تبارك وتعالى ليس يعذّب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبراً، أو يأتيه من الله بينة".[4]

فمعاني كتاب الله تعالى موافقة لمعاني كلام العرب، كما أن ألفاظه موافقة لألفاظها، ولهذا كان لا يمكن لأحد أن يفهم كلام اللهِ ورسولهِ إلا من هذه الجهة –جهة كونهِ عربياً-، قال الشاطبي رحمهُ الله: "فعلى الناظر في الشريعة والمتكلّمِ فيها أصولاً وفروعاً، أمران: أحدهما: أن لا يتكلَّم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونِهِ عارفاً بلسان العرب بالغاً فيه مبالغ العرب أو مبالغ الأئمةِ المتقدّمين، وليس المراد أن يكون حافظاً كحفظهم، وجامعاً كجمعهم، وإنما المراد أن يصير فهمهُ عربياً في الجُملة".[5]

---

[1] المرجع السابق، جـ٢، ص٤٣٧

[2] المرجع السابق، نفس الجزء، ص٤٣٨

[3] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

[4] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة. وانظر: تفسير الطبري، جـ١٧، ص٤٠٢

[5] الاعتصام، جـ٢، ص٨٠٩

فلا بد في فهم معاني نصوص الكتاب والسُنة من مراعاة معهود العرب في خطابها، فلا يصح العدول عن عرفها في كلامها، كما لا يصح أن يُفهم كلام الله ورسوله على نحوٍ لا تعرفهُ العرب من لغتها وأسلوبها.[1]

وقد ذكر الإمام الشافعي بعض معهود العرب في خطابها، وأنها تخاطِب بالشيء منهُ عاماً ظاهراً تريدُ به العام الظاهر؛ ومثالُهُ من القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ﴾ الحجرات (١٣)، فهذا يعم جميع الناس.[2]

وتخاطبُ بالشيء عاماً ظاهراً تُريدُ به العام ويدخلهُ الخصوص، ومثالهُ من القرآن الكريم قولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ **الظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾ النساء (٧٥). فكلُ أهل القريةِ لم يكن ظالماً، وإنما كان فيهم المسلم، لكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وكانوا فيها أقل.[3]

وتخاطبُ بالشيء عاماً تريدُ به الخاص، مثالُهُ قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ التحريم (٦)، ودلَّ القرآن على أن وقودها إنما هو بعض الناس لا كلهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الأنبياء (١٠١).[4]

وتخاطبُ بالشيء ظاهراً يُعرفُ في سياقِهِ أنهُ يُرادُ به غير ظاهره، مثاله قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ يوسف (٨٢)، والمراد أهل القرية وأهل العير.[5]

قال الإمام الشافعي: "فمن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السُنة، فتكلَّف القول في علمها تكلُّف ما يُجهل بعضه، ومن تكلف ما جَهِلَ ومالم تثبت معرفته كانت موافقته للصواب – إن وافقهُ من حيث لا يعرفهُ- غير محمودة، واللهُ أعلم. وكان بخطئهِ غير معذور"[6]، وذلك لأنهُ أتى البيت من غير بابه، ورام الوصول

[1] منهج الاستدلال، جـ٢، ص٤٣٩
[2] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة. وانظر: الرسالة، ص٥٦-٥٧
[3] أنظر: منهج الاستدلال، جـ٢، ص٤٣٩ . وانظر: الرسالة، ص٥٤-٥٥
[4] منهج الاستدلال، جـ٢، ص٤٤٠ . وانظر: الرسالة، ص٦٢
[5] المرجِعَيْن السابقين، نفس الأجزاء والصفحات.
[6] الرسالة، ص٥٣

إلى الغاية من غير طريقها[1]، ولهذا قال الحسن –رحمهُ الله-: "أهلكتهم العُجمة يتأوَّلون القرآن على غير تأويلهِ".[2]

ويؤيدُ كلام الحسن ﷺ قول النبي ﷺ: "هلاكُ أمتي في الكتاب واللبن[3]، قالوا: يا رسول الله ما الكتاب واللبن؟. قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل .."[4]، سواءً كان التأوُّل جهلاً بسبب عدم المعرفة بلسان العرب ولغاتها، أو كان بسببِ إعمالِ العقل الذي هو في حقيقته –أي تقديم العقل- ناشئ عن الجهل بالشريعة وما يجب نحوها من التسليم المُطلق للأمر الإلهي.

قال الشاطبي مُعقِّباً على كلامِ الشافعي –رحمها الله جميعاً -: "وما قاله حق، فإن القول في القرآن والسنة بغير علم تكلُّف - وقد نهينا عن التكلف -. ودخولٌ تحت معنى الحديث، حيث قال ﷺ: "حتى إذا لم يبق عالمٌ اتخذ الناس رؤساء جُهالاً"[5]، لأنهم إذا لم يكن لهم لسان عربي يرجعون إليه في كتاب الله وسنة نبيه رجع الأعجمي إلى فهمه وعقله المجرد عن التمسك بدليل يضل عن الجادة.[6]

والمقصود أن الكتاب العظيم والسنة الشريفة فيهما بيان ما يحتاجهُ المسلم في عقيدته، ومن ثمَّ فما على المرء إلا الاجتهاد لمعرفة ما استُشكل عليه؛ بالرجوع إلى لسان العرب ولغتهم دون إقحامٍ للرأي أو العقل في ذلك. فإن استجدَّ من المسائل ما احتيج إلى معرفته، فعليهِ بإجماعِ المسلمين، و على هذا مضت سُنةُ السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال أحدهما: "أنا فطرتها؛ أي أنا ابتدأتها".[7]

---

[1] منهج الاستدلال، جـ٢، ص٤٤٠

[2] الاعتصام، جـ٢، ص٨١١

[3] تتمة الحديث: ".. ويحبون اللبن ويتركون الجماعات والجمع ويبدون"، والمعنى أنهم يخرجون إلى البادية من أجل اللبن فيتركون الجمع والجماعات. انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لمحمد بن مفلح المقدسي، د.ط، ط.ت، عالم الكتب، جـ٣، ص٢٩٨

[4] مُسند الامام أحمد، مسند الشاميين، من حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ، حديث رقم (١٦٩٦٢). و أورَدهُ الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٢٧٧٨)

[5] الحديث أخرجهُ البخاري في صحيحه، وهو قوله ﷺ: "إن اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزِعُهُ من العبادِ، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذَ الناسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفْتَوا بغيرِ علمٍ، فضلوا وأضلوا". كتاب العلم "باب كيف يقبض العلم"، حديث رقم (١٠٠)

[6] الإعتصام للشاطبي، جـ٢، ص٨٠٩-٨١٠

[7] تفسير الطبري، جـ١١، ص ٢٨٣

وكتب عمر بن عبد العزيز –رحمهُ الله-: "إنه لا رأي لأحد في كتاب الله، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمضِ به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأي لأحد في سنة سنها رسول الله ﷺ".[1]

وما زال السلفُ ومن كان على هديهم يستدلون على معاني الكتاب والسُنة بكلامِ العرب؛ من شعرٍ وغيره، وإذا أشكل عليهم فهم لفظةٍ أو تركيب، رجعوا إلى كلام العرب وأسلوبها في الكلام.[2]

قال أبو الحسن الأشعري[3] –رحمهُ الله-؛ وذلك في معرِض حديثه في إثبات صفة اليدين للهِ تعالى واستدلاله على ذلك بالكتاب والسُنة، فقال: "وليس يجوز في لسانِ العرب ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: عملتُ كذا بيدي؛ ويعني به النعمة. وإذا كان الله عزوجل إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوماً من كلامها ومعقولاً في خِطابها، وكان لا يجوز في لسانِ أهل البيان أن يقول القائل: فعلتُ بيدي؛ ويعني النعمة، بطل أن يكون معنى قوله ﷻ ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ النعمة".[4]

وهذا الموضع قد زلَّت فيه أقدامُ كثيرٍ من الناس حيثُ تأوَّلوا كثيراً من النصوص في أبوابِ الصفات والمعاد وغيرها، بما لم يؤلَف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة[5]. ويدخلُ في هذا تأويلاتُ البعض حول خلق آدم عليه السلام، حيثُ فسروا بعض أساليب القرآن على غيرِ ما هو معهودٌ من لغةِ العرب ولسانها.

[1] سنن الدارمي، "باب ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ"، رقم (٤٣٢)

[2] منهج الاستدلال، ص٤٤١

[3] العلاَّمة؛ إمام المتكلمين؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل، الأشعري اليماني البصري، يرجعُ بنسبِهِ إلى صاحب رسول الله أبي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. مولده سنة ٢٦٠ وقيل: بل ولد سنة ٧٠ . وكان عجبا في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة، ويهتك عوارهم. قال الذهبي: رأيتُ لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات، وقال فيها: تمر كما جاءت. ثم قال: وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تؤول، مات ببغداد سنة ٣٢٤هـ. وبلغنا أن أبا الحسن تاب وصعد منبر البصرة، وقال: إني كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار وأن الشر فعلي ليس بقدر، وإني تائب معتقد الرد على المعتزلة. وكان فيه دُعابة ومزح كثير. سير أعلام النبلاء، لشمسِ الدين الذهبي، جـ١٥، الصفحات من ٨٥ - ٩٠

[4] الإبانة عن أصولِ الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تقديم وتحقيق وتعليق: د. فوقية حسين محمود، ط١، ١٣٩٧هـ، دار الأنصار، القاهرة. ص١٢٩

[5] مختصر الصواعق المرسلة. جـ١، ص٢٤

القاعدة السابعة: حجية فهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسُنة:

فإذا كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم أقرب عصراً من النبوة وأعمق صلة بكلامِ الله ورسوله، وأصح لساناً وأفصحُ بياناً، كان فهمهم لنصوص الكتاب والسُنة - لا سيما ما يتعلق منها بمسائل الاعتقاد - حجة على من بعدهم.[1]

ولقد نزل القرآن الكريم بلسانِ العرب جارياً على معهودهم في الكلام وعادتهم في الخطاب، فكلُ من كان من لسان العرب متمكناً، كان للقرآنِ أشدّ فهماً وأحسن إدراكاً. ولا يُعلمُ أحدٌ أفصح لساناً وأسدّ بياناً وأقوم خطاباً من أهلِ القرون الأولى المفضلة، وأولاهم بهذا الفضل والسبق أصحاب رسول الله ﷺ، فلا يكون في الأمة من بعد القرون الأولى أحدٌ أفصح منهم لساناً، ومن ثمَّ فلا يقدر أحد أن يفهم القرآن من هذه الجهة – جهة كونه عربياً- أفضل ولا أحسن من أصحاب القرونِ الأولى.[2]

بل كل من جاء من بعدهم فهو دونهم في الفصاحة والبيان والفهم والإدراك، عقلاً وحساً. قال السيوطي[3] - رحمه الله-: "وقد وجدتُ السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الابتداع الجهل بلسان العرب"[4]. ولهذا كان من أحسنِ طرق تفسير القرآن الكريم؛ تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثم بالسُنة، ثم بأقوالِ الصحابة والتابعين.[5]

ومما يدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة (١٠٠)

---

(١) منهج الاستدلال، جـ٢، ص٥٠٣

(٢) المرجع السابق، نفس الجزء، ص٥٠٦ - ٥٠٧

(٣) جلال الدين؛ عبد الرحمن بن أبي بكر ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب. لهُ نحو (٦٠٠) مُصنَّف منها الكتاب الكبير والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيماً حيث مات أبوهُ وله من العمر خمسُ سنوات. ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في "روضة المقياس" على النيل منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنهُ لا يعرف أحداً منهم، فألَّف أكثر كتبه، وكان الأغنياءُ والأمراءُ يزورونهُ ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبهُ السلطان مِراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن تُوفي، ويُقال أنهُ كان يُلقَّب بابن الكتب. من مؤلفاته: "الإتقان في علوم القرآن"، "الأشباه والنظائر"، "الألفية في مصطلح الحديث"، وَ "تاريخ أسيوط"، و"الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، وغيرها. أنظر: الأعلام لخير الدين الزركلي وآخرون، ط٥، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، جـ٣، ص٣٠١-٣٠٢

(٤) منهج الاستدلال، جـ٢، ص٥٠٨

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، جـ١٣، ص٣٦٣-٣٦٤

فالآية صريحة في الثناء على المتبعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم أئمة السلف الصالح وقادتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، والاتباع شامل للاعتقاد والعمل المبني على صحة الفهم. وهذا المدح يتضمن صحة ما كانوا عليه من ذلك، كما دلت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك. فدلت على أن فهمهم حجة على من بعدهم في مسائل العقيدة والعمل.[١]

وكذلك قوله ﷺ: " .. فإنه من يعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ المهديّين الراشدين تمسّكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذِ، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ".[٢]

فهذا أمرٌ صريح باتباع سنة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وهم أئمة السلف وخيارهم، والأمر إذا خلا من الصارف فهو مقتضٍ للوجوب، فدل على وجوب الاستنان بهم رضوان الله عليهم في الفهم والعلم والاعتقاد والعمل. وهذا أمر باتباع الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم فكيف إذا كان الصحابة مجتمعون يفهمون من النص أمراً معيناً[٣] –كمسألة خلق آدم عليه السلام وآيات الخلق بعموم-.

و من الأحاديث المتضمنة شهادة النبي ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم ومدحه لهم، قوله ﷺ: "ما مِن نبيٍّ بعَثه اللهُ في أُمَّةٍ قَبلي، إلا كان له مِن أُمَّتِه حَوارِيُّونَ وأصحابٌ. يأخُذونَ بسُنَّتِه ويقتَدونَ بأمرِه. ثم إنها تَخلُفُ مِن بعدِهم خُلوفٌ. يقولونَ ما لا يَفعَلونَ. ويَفعَلونَ ما لا يؤمَرونَ".[٤]

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على السؤال والعمل بما سمعوه، ولا يمكن العمل إلا عن فهم وعلم ودراية [٥]. وأيُّ فَهمٍ يخالف فهمهم فيما لا اجتهاد فيه –على وجه الخصوص- يوشكُ أن يدخل في الخلوف الوارد في الحديث الشريف، لأنهم إنما فهموا عن رسول الله ﷺ المبلِّغ عن ربه عزوجل. وفي تلك المدرسة النبوية تعلموا المعاني والمفاهيم الصحيحة للنصوص الشرعية.

ومما يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم استفادوا من فهمه ﷺ عن ربه، قوله ﷺ: "استَحيوا منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ، قُلنا: يا رسولَ اللَّهِ إنَّا لنَستحيي والحمد لله، قالَ: ليسَ ذاكَ، ولَكِنَّ الاستحياءَ منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ أن

---

[١] فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية (حقيقته وأهميته وحجيته)، للدكتور عبد الله بن عمر الدميجي، د.ط، د.ت، مركز البيان للبحوث والدراسات. ص٥٣

[٢] أخرجهُ أبو داود، حديث رقم (٤٦٠٧) وصححهُ الألباني.

[٣] فهم السلف، ص٥٧

[٤] رواهُ مسلم، في كتاب الإيمان، "باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص"، حديث رقم (٥٠)

[٥] فهم السلف، ص٣٨

تحفَظ الرَّأسَ، وما وَعى، وتحفَظَ البَطنَ، وما حوَى، ولتَذكرِ الموتَ والبِلى، ومَن أرادَ الآخرةَ ترَكَ زينةَ الدُّنيا، فَمَن فَعلَ ذلِكَ فقدَ استحيا يعني: منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ".[١]

فالصحابة رضوان الله عليهم وقر في مداركهم معنىً لحق الحياء من الله تعالى، ولكن رسول الله لم يقرهم على ما فهموا بل جلَّى لهم الصواب بقوله "ليسَ ذاكَ، ولَكِنَّ الاستحياءَ منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ أن تحفَظ الرَّأسَ ..". فعلِموا وعملوا وبلَّغوا رضي الله عنهم وأرضاهم. فمن أتى بعد ذلك بمعنى غير المعنى الذي فهموه من رسول الله ﷺ وبلَّغوه وعملوا به، فهو مُعارض لفهم النبي ﷺ.

ومن تتبع سيرتهم العطرة تجلى له من مواقف حرصهم على سؤال النبي ﷺ والتعلم من مشكاة النبوة ما لا يُحصى، ثم هم بعد ذلك مبلغين عنه ﷺ كما سمعوا وفهموا، لأحاديث عديدة سمعوها من رسول الله تحثهم على ذلك البلاغ وتندبهم إليه، كقوله ﷺ: "نضَّر اللهُ امرءًا سمِعَ مِنَّا شيئًا، فبلَّغَه كما سَمِعَه"[٢]، وأمره ﷺ بذلك بقوله: "بلغوا عني ولو آيةً"[٣] . ولا يمكن أن يُطلق التبليغ على غيرِ الوارد عنهُ ﷺ من فهم أو عمل أو اعتقاد.

كذلك من الأحاديث التي تضمنت شهادة بالخيرية للصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم، قوله ﷺ: "خيرُ الناسِ قَرْنِي، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهم، ثم الَّذِينَ يَلُونَهم.."[٤]، وهذه الخيرية خيريةُ دينٍ وعلم وفضل، لذا فلا يجوز أن تخلو هذه العصور الفاضلة من الحق والصواب.[٥]

وقال ﷺ في حديث الفرقة الناجية: "ما أنا عليهِ اليوم وأصحابي"[٦]، فكلُ من أراد أن يكون من الفرقة الناجية الناجية لزمهُ أن يركب سفينتها، وسفينة النجاة؛ ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابُهُ، من العلم والاعتقاد والعمل الصالح. ومن يرغبُ عنها فقد سَفِه نفسه.[٧]

ونختم بهذا الهدي النبوي الذي تضمن إرشاداً للأمة حال الفتنة وفيه إشارة بوجوب اتباع فهم السلف الصالح، فعن أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوماً: "إنها ستكون فتن، قالوا: فكيف لنا يا رسول الله؟ أو

---

[١] أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (٢٤٥٨)، وحسَّنهُ الألباني.
[٢] أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (٦٧٦٤)، وصححهُ الشيخ الألباني.
[٣] أخرجه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، "باب ما ذكر عن بني إسرائيل"، حديث رقم (٣٢٧٤)
[٤] أخرجهُ البخاري، كتاب الشهادات، "باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد"، حديث رقم (٢٥٠٩)
[٥] منهج الاستدلال، جـ٢، ص٥١٧
[٦] رواهُ الترمذي في سننه، وقال حديثٌ حسن غريب، حديث رقم (٢٦٤١)، وأخرجهُ الحاكم في المستدرك، حديث رقم (٤٥٥)، وقال شيخ الإسلام: صحيحٌ مشهور، أنظر مجموع الفتاوى، جـ٣، ص١٥٩
[٧] منهج الاستدلال، جـ٢، ص٥١٧

كيف نصنع؟ قال: ترجعون إلى أمركم الأول"[1]. أي ما عليه سلفكم، وهذا شامل لفهمهم للنصوص وعملهم بمقتضاها. والخطاب إن كان للصحابة رضوان الله عليهم فكأنهُ يشير إلى فتنة الاختلاف وما حصل بين الصحابة، وكأنهُ يشير إلى أن ترجعوا إلى أمركم الأول زمنهُ ﷺ وزمن الشيخين قبل ظهور الفتن والاختلاف.[2]

المحور الثاني: الأصل في التعامل مع المصادر الشرعية: [3]

إن التعاملَ المتأدب مع المصادر الشرعية هو أساسُ الإسلام، ذلك التأدبُ الذي يقتضي الاحترام التام لتلك المصادر والاعتماد عليها والرجوع إليها في كل شأنٍ وأمر، تعظيماً وإجلالاً لأمرِ الله تعالى وأمرُ رسولهِ ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء (٥٩).

فالكتابُ الحكيم؛ كلامُ الله جلَّ وعلا. والسُنةُ الشريفة المطهرة؛ كلامُ رسولهِ ﷺ، الذي قال فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم (٣-٤). وأما الإجماع فبمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء (١١٥). كما دلَّ عليه قولُهُ ﷺ: "إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة، و يد الله على الجماعة".[4]

والاعتمادُ على المصادر الثلاثة المعصومة؛ وهي الكتاب والسنة والاجماع، هو أساس دين الإسلام، ويرتكز على أصولٍ ثلاثة سنوجزُ الحديث حولها: [5]

- الأصل الأول: تعظيم النصوص الشرعية والإنقياد لها.
- الأصل الثاني: الاعتماد على السنة الصحيحة.
- الأصل الثالث: صحة فهم النصوص.[1]

---

[1] رواه الطبراني في الكبير والأوسط، حديث رقم (٣١٦٥)، وصححه الألباني.

[2] فهم السلف، ص٥٩

[3] هذا العنوان مستوحى من تسمية مؤلف كتاب: منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد بن عبد الرحمن الصويان، د.ط، د.ت، ضمن سلسلة كتب تصدر عن المنتدى الإسلامي. انظر: ص٣٠

[4] أخرجه الترمذي، حديث رقم (١٨٤٨)، وصححه الألباني.

[5] منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، ص٣٠

أولاً: تعظيم النصوص الشرعية والإنقياد لها:

معلومٌ أن الإسلام: هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده ﷻ، وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له، وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق.[2]

أما حقيقةُ الاستسلام؛ فهي تعظيم أمر الله ﷻ ونهيه والإذعان لهما والوقوف عند حدود ما أنزله الله على نبيه محمّد ﷺ. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ الحج (٣٠)، وقال أيضاً: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج (٣٠). فكل ما أمر به الشارع الحكيم أو نهى عنه، فحقه التعظيم والإجلال والامتثال، وهذا هو طريق الفوز والفلاح، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ النور (٥١-٥٢).[3]

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا ﴾ الأحزاب (٣٦)

وعلّق حقيقة إيمان العبد على مدى امتثاله وإذعانه لأمر الله ورسوله، بل الرضى بحكمه تعالى وحُكم رسوله ﷺ: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء (٦٥)

كما توعّد ﷻ من خالف أمره وأمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور (٦٣)، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء (١١٥)

إذن فالواجب التماس حُكمِ كل شيء من القرآن الكريم وسُنة النبي ﷺ، وهذا دليلُ التعظيمِ لهما إذ ما أُنزلا إلا ليحصل الاهتداءُ بهما والاتباع الكامل لهما، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

---

[1] المرجع السابق، ص٣٠

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٢٠، ص١١٥

[3] منج التلقي الاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، ص٣١

النساء (٦٤). وهذه الطاعة لجميع ما جاء به الرسول ﷺ؛ وهو القرآن الكريم، والحكمة أو البيان الذي هو سنته ﷺ. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء (٥٩)

وقال عزوجل: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى (١٠)، فالطاعة والحاكمية -كما أسلفنا- لا تكونُ إلا لله، برد مختلف المسائل إلى الدليل الشرعي، ووزنها بميزان الإسلام دون تقديمٍ بين يدي الله ورسوله برأيٍ أو هوى؛ وذلك مقتضى الايمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الحجرات (١)

كما بيَّن سبحانه وتعالى أن عدم طاعة الله ورسوله سببٌ لإبطالِ العمل وحبوطه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ محمد (٣٣).

ولقد ضرب السلف الصالح -رضي الله عنهم-، أروع الأمثلة في الالتزام بأمر النبي ﷺ وتعظيمه؛ فمن ذلك:

١/ حدَّث أبو معاوية الضرير[(١)] عند هارون الرشيد بحديثِ أبي هريرة رضي الله عنه: "إحتج آدم وموسى"، فقال أحد الحاضرين: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟!. قال: فوثب هارون، وقال: يحدِّثك عن الرسول ﷺ وتعارضُ بكيف؟!، فمازال يقول حتى سكت عنه.[(٢)]

٢/ وورد عن وكيع بن الجراح[(٣)]، أنهُ قال لرجلٍ ممن عنده، - ممن ينظر في الرأي - : أشعَرَ رسول الله ﷺ؛ - يعني هديه-، ويقول أبو حنيفة: هو مُثلة. قال الرجل: فإنهُ قد رُوي عن إبراهيم النخعي[(١)] أنه قال: الإشعارُ

---

(١) محمد بن خازم مولى بني سعد بن زيد مناة بن تميم، الإمام الحافظ الحجة أبو معاوية السعدي الكوفي الضرير، أحد الأعلام. قال أحمد وجماعة: وُلد سنة ثلاث عشرة ومائة. وعمي وهو ابن أربع سنين –وقيل ابن ثمانية-، فأقاموا عليه مأتماً. سئل أحمد عن أبي معاوية وجرير في الأعمش، فقدم أبا معاوية. قال العجلي: كوفي ثقة، يرى الإرجاء. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة، ربما دلس، كان يرى الإرجاء، فيقال: إن وكيعا لم يحضر جنازته لذلك. مات أبو معاوية سنة أربع وتسعين ومائة. وقيل سنة خمس وتسعين. أنظر: سير أعلام النبلاء. جـ٩، ص٧٣-٧٧

(٢) منهج التلقي والاستدلال، ص٣٥

(٣) وكيع ابن الجراح بن مليح بن عدي، الإمام الحافظ، محدث العراق أبو سفيان الكوفي، أحد الأعلام. ولد سنة تسع وعشرين ومائة قاله أحمد بن حنبل. وقال خليفة وهارون بن حاتم: ولد سنة ثمان وعشرين واشتغل في الصغر، وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ. مات سنة سبع وتسعين ومائة يوم عاشوراء فدفن بفيد، يعني راجعاً من الحج. وقال أحمد بن حنبل: حج وكيع سنة ست وتسعين، ومات بفيد. سير أعلام النبلاء، جـ٩، ص١٤١- ١٤٢

مُثلة. قال فرأيتُ وكيعاً غضب غضباً شديداً، فقال: أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول قال إبراهيم؟! ما أحقك أن تُحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا[٢]، وغير ذلك من المواقف المشرقة الناصعة كثير.

ولذلك فإن غاية ما يجب على المرء أن يتثبت أن ذلك الحديث قد قالهُ ﷺ؛ فلئن قالهُ فقد صدق. ومن هُنا نشأت جهود العلماء في التحقق من صحةِ الحديث والرواية، وظهر تبعاً لذلك علمُ الجرح والتعديل، وأظهروا الإنكار على من خالف سنة المصطفى ﷺ، كهذا الموقف الذي بين أيدينا:

*رأى سعيدُ بن المسيب[٣] رجلاً يُصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يُكثر فيهما الركوع والسجود فنهاهُ، فقال: يا أبا محمد؛ يُعذبني الله على الصلاة؟! فقال: لا؛ ولكن يُعذبك على خلاف السنة.[٤]

*وقال رجل للإمام مالك بن أنس[٥]: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟!، فقال مالك: من ذي الحُليفة، من حيثُ أحرم رسولُ الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أُحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأيُّ فتنةٍ في هذه؟ إنما هي أميالٌ أزيدها!. قال: وأيُّ فتنةٍ أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلةٍ قصَّر عنه رسولُ الله ﷺ؟! إني سمعتُ الله يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور (٦٣).[٦]

---

[١] إبراهيم النخعي؛ الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، اليماني ثم الكوفي، أحد الأعلام، كان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما، وكان رجلا صالحاً، فقيهاً، متوقياً، قليل التكلف. أدرك من أصحاب النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة، و زيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين. مات سنة ستاً وتسعين، وله تسع وأربعون سنة وقيل بين الخمسين إلى الستين. أنظر: سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص٥٢٠- ٥٢٧

[٢] ذكر الترمذي هذه القصة في سُننهِ، عند ذكره للحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبي ﷺ قلَّد نعلين وأشعر الهدي في الشق الأيمن بذي الحليفة وأماط عنه الدم". أنظر: "باب ما جاء في إشعار البدن"، ص٢٥٠

[٣] سعيد بن المسيب ابن حزن بن أبي وهب بن عمرو، الإمام العلم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. وُلد لسنتين مضتا من خلافة عمر ﷺ وقيل: لأربع مضين منها بالمدينة. رأى عمر، وسمع عثمان، وعليا وجمع من الصحابة. سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص٢١٧ -٢١٨

[٤] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، د.ط، د.ت، مكتبة ابن تيمية، جـ٢٠، ص١٠٥

[٥] شيخ الإسلام وحجة الأمة، إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر، حليف بني تيم من قريش، أخذ عن عثمان وطائفة. وولد على الأصح سنة ثلاث وتسعين للهجرة عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ. صنَّف كتابه الشهير في الحديث "الموطأ". وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة. أنظر: سير أعلام النبلاء، جـ ٨ ، ص٤٩ وما بعدها.

[٦] الإعتصام للشاطبي، جـ١، ص١٧٤

*ورُوي أن محمد بن إسحاق بن خزيمة[(١)] قال: قلت لأحمد بن نصر[(٢)] –وحدَّث بخبر عن النبي ﷺ- أتأخذُ به؟، فقال ابن خزيمة: أترى على وسطي زناراً؟! لا تقل لخبر النبي ﷺ: أتأخذ به؟ وقل: أصحيحٌ هو ذا؟ فإذا صحَّ الخبرُ عن النبي ﷺ قلتُ به، شئت أو أبيت.[(٣)]

وهنا يؤسس شيخ الإسلام –رحمهُ الله- قاعدة منهجية فيقول: "ومما ينبغي أن يُعلم أن القرآن والحديث إذا عُرف تفسيره من جهة النبي ﷺ، لم يُحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة، فإنه قد عُرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم".[(٤)]

ثانياً: الاعتماد على السنة الصحيحة:

إن من تأمل كتاب الله تعالى، يجدهُ حافلاً بكثيرٍ من الآيات التي توجب طاعة النبي والأخذ بسنتهِ ﷺ، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب (٢١). وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ النور (٥٦). وقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر (٧). وقوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء (٨٠). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ آل عمران (٣١)، وغير تلك النصوص الكريمة.

وبسبب هذه المنزلة العظيمة لسنةِ النبي ﷺ، اهتم بها أهل السنة اهتماماً عظيماً، علماً وعملاً، وحرصوا على حفظها ونقلها، وقاموا بتحقيقها وتنقيحها، وتمييز صدقها من كذبها، خاصةً بعد ظهور الفتن وانتشار المبتدعة

[(١)] محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر. الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة أبو بكر السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف. ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وعني في حداثته بالحديث والفقه، حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان. توفي ثاني ذي القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، عاش تسعا وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص ٣٦٥ ، ٣٨٢

[(٢)] أحمد بن نصر ابن زياد، الإمام القدوة، شيخ نيسابور ومقرئها ومفتيها وزاهدها الشيخ أبو عبد الله، القرشي النيسابوري. ارتحل، وحدث عن كثيرين، روى عنه أبو نعيم أحد شيوخه، والترمذي والنسائي في كتابيهما وابن خزيمة غيرهم كثير. قال الحاكم: كان فقيه أهل الحديث في عصره، كثير الرحلة والحديث رحمه الله. وكان ثقة مأمونا، صاحب سنة، كبير الشأن، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين. سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص ٢٣٩

[(٣)] مختصر الصواعق المرسلة، جـ١، ص٥٤٧

[(٤)] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٢٨-٢٩

وفشو الكذب. ولهذا قال عبد الله بن عباس ﷺ: "إنا كنا مرةً إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرتهُ أبصارنا وأصغينا إليهِ بآذاننا. فلما ركب الناس الصعب والذلول: لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف".[1]

يقولُ شيخ الاسلام ابن تيمية موضّحاً الداعي إلى تنقيح السنة النبوية: "وبيننا وبين الرسول مئون من السنين، ونحن نعلم بالضرورة أن فيما يُنقل عنه وعن غيره صدقاً وكذباً وقد رُوي عنه ﷺ أنهُ قال: "سيُكذبُ علي"، فإن كان هذا الحديث صدقاً، فلا بد أن يُكذب عليه، وإن كان كذبا فقد كُذب عليه، وإن كان كذلك لم يجز لأحد أن يحتج في مسألة فرعية بحديثٍ حتى يبيّن ما به يثبت".[2]

ويُوضحُ –رحمهُ الله- أصلاً عظيماً من أصول الإسلام، وحقيقةً كُبرى من حقائقهِ، فيقول: "فالواجب أن يُفَرَّق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل؛ وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، فهذا أصل عظيمٌ لأهل الإسلام عموماً ولمن يدعي السُنةَ خصوصاً".[3]

وفي هذا الكلام المُسدد لشيخ الإسلام -رحمهُ الله-، تصديقٌ وإذعانٌ لما جاء في الكتاب المبين؛ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم (٣-٤)، فالوحيُ هو الحق وهو الصوابُ أبدا. وقد قال ﷺ عندما قال صحابته رضوان الله عليهم: يا رسول الله! إنك تداعبنا؟! قال: "إني لا أقول إلا حقا".[4]

ولعلنا نختم حديثنا بقولِ ابن أبي العز -رحمه الله-، ولأهميته سننقله بتمامه: "اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع. ولهذا لم يحكِ الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا، ولهذا كان سلف هذه الأمة، التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟

---

[1] مقدمة صحيح مسلم، "باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها". جـ١، ص١٣

[2] منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، د.ط، ١٤٠٦هـ، مكتبة ابن تيمية، جـ٧، ص٦١

[3] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٣، ص٣٨٠

[4] أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (١٩٩٠)، وصححهُ الألباني.

ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم. فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورا، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته[1]، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فإن هذا ينافي الانقياد، ويقدح في الامتثال".[2]

ثالثاً: صحة فهم النصوص:

لاشك أن فَهْمَ النصوص مما يعين على معرفةِ مراد الله تعالى ومرادِ رسولِهِ ﷺ، ويعين المرء للالتزام بأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، والاتباع لسنة المصطفى ﷺ. ومما يُروى عن الشافعي رحمه الله: "آمنت بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله".[3]

و عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة[4]، أنهُ قال: "عليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة. فإن السنة إنما جعلت ليستن بها ويقتصر عليها، وإنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق. فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا، ولهم كانوا على كشفها أقوى. وبتفصيلها لو كان فيها أحرى، وإنهم لهم السابقون وقد بلغهم عن نبيهم ما يجري من الاختلاف بعد القرون الثلاثة؛ فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم حدث حدثٌ بعدهم فما أحدثه إلا من

---

[1] ويمكن التمثيل لذلك بما رواهُ البخاري -رحمهُ الله- في صحيحه: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال، فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: "أبشر". فقال: قد أكثرت علي من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: "رد البشرى، فاقبلا أنتما". قالا: قبلنا، ثم دعا بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه، ثم قال: "اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا". فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء ستار: أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة. كتاب المغازي، "باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان". حديث رقم (٤٠٧٣)

[2] شرح العقيدة الطحاوية. جـ١، ص٣٤١

[3] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٤، ص٢

[4] عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، الإمام المفتي الكبير أبو عبد الله، الفقيه، والد المفتي عبد الملك بن الماجشون، صاحب مالك، سكن مدة ببغداد، وحدث عن: الزهري، وغيره، وعدة من علماء بلده، كان ثقة كثير الحديث، فقيه النفس، فصيح، كبير الشأن. توفي سنة أربع وستين ومائة وصلى عليه المهدي. وقال ابن حبان: مات سنة ست وستين ومائة قال: وكان فقيها ورعا متابعا لمذاهب أهل الحرمين. أنظر: سير أعلام النبلاء، جـ٧، ص٣٠٩-٣١١

اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم؛ وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان".[1]

فصحة فهم النصوص الشرعية أساس لصحة الاستدلال، ولا يستطيع المرء أن يفهم مراد الله ومراد رسوله إلا حينما يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والسنة. وكثيرٌ من البدع والضلالات إنما حدثت بسبب سوء الفهم.[2]

يقول ابن أبي العز: "سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد".[3]

ويقول الإمام ابن القيم: "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبد عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فُهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم".[4]

ومما يعينُ على الفَهْمِ الصحيح؛ أن يعتمد الخلف على منهج السلف؛ من أصحابِ رسول الله ﷺ -ورضي عنهم أجمعين-، لما لهم من منزلةٍ جليلة، حيثُ شرفهم الله ورفع أقدارهم وعدَّلهم من فوق سبع سماوات، فهم عدولٌ بتعديل الله لهم. قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة (١٠٠)، وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ الفتح (٢٩)

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من كان منكم متأسياً فليتأسَ بأصحابِ محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبةِ نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".[5]

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٤، ص٧-٨

[2] منهج التلقي والاستدلال، ص٤٨

[3] شرح العقيدة الطحاوية، جـ٢، ص٥٨٠

[4] إعلام الموقعين، جـ١، ص٦٩

[5] منهاج السنة، جـ٢، ص٧٦

وقد صحَّ عنه ﷺ أنهُ قال: "فإنه من يعش منكم بعدي يرَ اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ عضوا عليها بالنواجذ".[١]

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: "من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا".[٢]

ويقولُ أيضاً: "وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن، فإنه وقع أيضا في تفسير الحديث، فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول - مثل طوائف من أهل البدع -، اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم. تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه"[٣]. وسيمر منعنا ضروباً من تلك التأويلات فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام.

ويقول ابن عبد الهادي[٤]: "ولا يجوز إحداث تأويل في آيةٍ أو سنةٍ لم يكن على عهد السلف، ولا عرفوه ولا بينوه للأمة، فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا، وضلوا عنه، واهتدى إليه هذا المعترض المستأخر".[٥]

المستأخر".[٥]

وغير تلك الأدلة، والآثار من أقوال علماء الإسلام الكثير والكثير مما يضيقُ به المقام، ولكن حسبنا ما أوردنا مما تتضحُ به المسألة وتتم الفكرة. ونختم بقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء (١١٥)

---

[١] أخرجهُ الترمذي، حديث رقم (٢٦٧٦)، وصححه الألباني.

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٦١-٣٦٢

[٣] المرجع السابق، جـ١٣، ص٣٥٦-٣٥٧

[٤] الشيخ العالم المقرئ الفقيه المسند المعمر عماد الدين أبو مُحَمَّد عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن مُحَمَّد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الدمشقي الصالحي الحنبلي المؤدب. ولد بجماعيل، في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ظنا. وقدم دمشق صبيا فسمع من جمعٍ العلماء، وكان شيخا حسنا فاضلا جيد التعليم، توفي في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة. أنظر: سير أعلام النبلاء، جـ ٢٣، ص٣٣٩ -٣٤٠

[٥] الصارم المنكي في الرد على السُبكي، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. ص٣٢١

أما بالنسبة لخلق آدم عليه السلام، فقبل الخوض بذكرٍ أدلته، يجدر أن نؤسس أموراً منهجية:

ثانياً: منهجية الإثبات فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام والأدلة الشرعية الواردة في ذلك:

١. التأكيد على أن الوحي هو المصدر الرئيس للمعرفة اليقينية الصحيحة في هذه المسألة:[1]

ومن ثم فلا مجال للمماراة أو الجدل فيما ورد به النص الشريف وقرره، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يونس (١٠٨)، وقال عزوجل: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الجاثية (٦). وقال سبحانه وتبارك: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الأنعام (٥٧). وغير تلك النصوص الشريفة كثير، جميعها تقرر وجوب التسليم لخبر الوحي الإلهي من عند الله تعالى، والمتمثل في نصوص الكتابِ العزيز والسنة المطهرة، قال رسول الله ﷺ: "ألا إني أُوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيتُ القرآن ومثلهُ معه". [2]

٢. أن خلق آدم عليه السلام، ضمن قضايا الغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا بالخبر الصادق:

فالغيب ثلاثة أقسام؛ غيبٌ ماضٍ وغيبٌ حاضر، وغيبٌ مستقبل. ثم كلُ نوعٍ من تلك الأقسام أو الأنواع، يندرجُ تحتها العديد من القضايا والمسائل التي هي فروع الإيمان ومكملاته[3]، وهي لا تعدو أحد أمرين: فإما تكون مما تعبدنا الله باعتقاده، وإما أن تكون من محض الغيب المبهم الذي لم يرد في نصوص الوحيين الشريفين ولا يفيد العلم به شيئاً في الاعتقاد، بل يُعد من فضول العلم التي يمليها شغف البحث وحب التطلع للمعرفة.

ومعلومٌ أن خلق آدم عليه السلام، من الغيبِ الماضي الذي قص الله عزوجل علينا خبره بأوضح وأبين عبارة، فلم يدع مجالا للبس أو الغموض في هذه المعلومة الحاسمة والمهمة جداً للمعرفة الإنسانية؛ ما هو أصل البشر وكيف جآءوا إلى هذه الحياة الدنيا، وما الحكمة أو الهدف والغاية من وجودهم في هذه الدار، ثم في النهاية؛ إلى أين

---

[1] للاستزادة: يُنظر كتاب أصول الإيمان بالغيب وآثاره للدكتورة فوز بنت عبد اللطيف كردي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، ص٤٥٦

[2] رواهُ أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٤). ومسند الإمام أحمد، ومُسند الشاميين، من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه .

[3] للاستزادة بمعرفة تقسيماتٍ وتفصيلاتٍ أخرى يُنظر أصول الإيمان بالغيب، الصفحات ٦٣، ٢٦١ .

المصير؟. هذه هي التساؤلات الفاصلة الحاسمة؛ إذ تشكل الإجابة عليها أوتاد الثبات لتحقيق المهمة والغاية العُظمى لوجود الإنسان، وهي عبادة الله عزوجل والقيام بواجب الاستخلاف على هذه الأرض. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات (٥٦)، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٣٠).

وأما عدا تلك التساؤلات المهمة، فيُعد من فضول البحث وحب التطلع للمعرفة، وهو أمرٌ لا غضاضة فيه مالم تُناقض نتائجه حقيقة شرعية، أو يُلهي البحث فيه ويُشغل عن واجب.

لكننا إذا نظرنا إلى ما توصل إليه العلم الحديث بمختلف نظرياته، في شأن الوجود البشري على الأرض، نجدها قد نزعت إلى البحث عما ليس من كبير جدوى وراء البحث فيه، كتحديد عمر الأرض، ومحاولة تحديدِ عمر الوجود البشري عليها، ومحاولة معرفة ما انقرض من الكائنات وإعطاء تصورات خيالية لا تمتُ للواقع بصلة، مما يُهدر طاقة البحث، فكيف إذا زادت بمعارضة المسلمات الشرعية؟!.

إن هذا المنحى للأسف، لم يقتصر على أربابِ تلك النظريات من علماء الغرب، وإنما امتد ليشمل أثره بعض رموز الفكر الإسلامي المعاصر، إذ أخذت على عاتقها الموائمة بين تلك النظريات ونصوص الوحيين الشريفين بكل ما أوتيت من قوة، وبكافة السبل. وليس هذا فحسب؛ وإنما سعت لاستبعاد النص وتقديم التجارب المخبرية عليه تارةً، أو تطويعه وإخضاعه بمختلف التأويلات الفاسدة تارةً أخرى، لدفع التعارض بينه وبين تلك النظريات! [١]، والحق أن مؤدى الأمرين واحد، وهو تقديم العلم التجريبي على النص المعصوم، وحقيقتها إلغاء النص مقابل الأخذ بالنظرية، وهذا فيه من الضرر البالغ على الدين ما لا يخفى . [٢]

---

[١] وسيمر معنا إن شاء الله عدد من النماذج في الباب الثالث من هذا البحث.

[٢] من المعلوم أن أحد أسباب انتكاسة الكنيسة في عهودها الظلامية، اعتمادها تدريس نظريات بطليموس وأرسطو وعدد من علماء الإغريق على أنها مسلمات علمية لا تقبل الشك، بل وتبنّيها على أنها من صميم العقيدة النصرانية الملأى بروح الإنجيل!، الأمر الذي أدى لاصطدامها بالعلم التجريبي فيما بعد، بعد ظهور نظريات كوبرنيكوس وجاليليو حول حركة الأرض؛ وكانت آراء تتصادم وموقف الكنيسة المتبنية لنقيضِ تلك الآراء، فأدى ذلك لاتخاذ الكنيسة موقفاً عدائياً من العلم وأهلِهِ وتبني ردود فعل عنيفة بشأن كل من يجرؤ على إعلان نظرية علمية جديدة تُعارضُ آراء الكنيسة ومواقفها. وتراوحت عقوباتها العنيفة ما بين استصدار صكوك الحرمان أو الإعدام والحرق. مما تسبب في ضيق الناس= =بها ذرعاً والتمرد عليها. ذلك التمرد الذي كان وقود إشعال الثورة ضدها فيما بعد. أنظر: الفصل الأول بعنوان (الطغيان الكنسي) و الفصل الثاني بعنوان (الصراع بين الكنيسة والعلم) من كتاب: العلمانية؛ نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، للدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي، د.ط، د.ت، دار الهجرة للنشر والتوزيع. الصفحات من ١٤٦ وما بعدها.

والمقصود؛ أن من صيانة الدينِ وحفظه، عدم إخضاعه للنظريات العلمية، مالم ترتقِ فتصبح حقيقة علمية، ويتم التعامل معها كذلك وفق ضوابط تكفل للنص الشريف قدسيته وتحفظ هيبته ومكانته.

من هنا يمكننا تقرير مسألة في غاية الأهمية، مفادها: بأن أي نتيجة علمية ثبتت لدى العلم وأهله بأنها حقيقة مُسلمة، فمن المحال أن تُخالف نصاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً البتة. أما في حال مخالفتها لهما رغم اعتمادها لدى العلم وأهله على أنها حقيقةٌ علمية، ففي التسليم بكونها حقيقةٌ نظر، مالم يتوافر تفسيرٌ موثوق يجلّي ذلك التعارض والتناقض الظاهر. دون الجنوح لتأويلات فاسدة تسيء إلى النص بدلا من أن تخدمه.

٣. أن الأدلة الواردة في خلق آدم عليه السلام، قد حققت الكفاية المعرفية اللازمة للإنسانية:

إن المتأمل لكثيرٍ من الفلسفات القديمة والحديثة، بل وأساطير الشعوب المختلفة [١]، يجد مسألة أصل الوجود البشري قد استأثرت بمساحة لابأس بها، مما يؤكد أهمية الإجابة على التساؤلات الآنفة الذكر، بما يحقق المعرفة اليقينية الصحيحة ويدفع الجهل واللبس والإشكال. وهذه لا نجدها اليوم سوى في نصوصِ الشريعة الإسلامية، فهي التي أجابت عليها بشكلٍ وافٍ شاف. وما زاد على تلك التساؤلات، إنما هو من قبيل التطلع المعرفي كما أسلفنا آنفاً. وعليه فلا يُعدُ من لوازم أو ضروريات المعرفة الإنسانية فيما يتعلقُ بخلق آدم عليه السلام. ومن ثمَّ فلا مسوغ لأي تأويلات فاسدة أو سُبلٍ غيرِ مشروعة، للحصول على إجاباتٍ لتلك التساؤلات.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ غافر (٧٨)، وقال عز وجل: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ الإسراء (٣٦)، وقال تبارك وعز حكايةً عن موسى وفرعون: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لّا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ طه (٥١-٥٢).

إذن فالله تبارك وتعالى، قد قص على نبيه ما يحصل به التثبيت وأخذ العبرة والعظة، وسكت سبحانه عن ذكرِ أممٍ أخرى. والمسكوتُ عنه قد يكون لمصلحة أو رحمة أو حِكمةٍ لم تتبدّى لنا، ولا يتوقف على ذكرها تحقيق مقصودٍ يتعلق بالاعتقاد أو زيادة الإيمان، أو تتعلق به مصلحة في الدين والدنيا. وهذه قاعدة منهجية يجب الأخذ

[١] فعلى سبيل المثال فلاسفة اليونان وتخميناتهم حول أصل الإنسان ومادة خلقه قديماً، ونظرية التطور وغيرها في العصر الحديث، أما الأساطير فعلى سبيل المثال نجد ملحمة جلجامش البابلية حول أصل الخلق ونشأة الإنسان، وكذلك في ديانات الهند وفارس القديمة وغيرهما. وسيمر معنا الكلام عن ذلك - إن شاء الله - في موضعه من هذا البحث.

بها حتى ينحصر اهتمامنا بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة في الدارين، بالابتعاد عن فضول العلم مما لا ينبني عليه كبيرُ فائدةٍ أو مصلحة.

يقول شيخ الإسلام –رحمهُ الله- : "وما لم يرد به الخبر إن عُلم انتفاؤه نفيناه وإلا سكتنا عنه، فلا نثبت إلا بعلم ولا ننفي إلا بعلم ... فالأقسام ثلاثة؛ ما عُلم ثبوته أثبت، وما علم انتفاؤه نفي، وما لم يعلم نفيه ولا إثباته سُكِت عنه. هذا هو الواجب".[١]

كما نفيدُ من الآيات أيضاً؛ أن علمُ البشر معرّضٌ للضلال والخطأ والنسيان، ومن ثم فلن تكون الصحة إلا في مطلق الصدق واليقين، اللذين يتميز بهما الوحي الإلهي، ولنا في ملائكُ الرحمن أسمى قدوةٍ أدبية: ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة (٣٢).

٤. الأدلة الشرعية الواردة في خلق آدم عليه السلام:

إن الناظر في نصوص خلق آدم عليه السلام، يجدها قد بلغت حد التواتر والقطعية اليقينية ثبوتاً ودلالةً، كُلُ ذلك بعبارة واضحةٍ سهلة يسيرة، لا مجال لتجاوز العقل فيها والتعدي على مجرد النظر الصحيح، فضلا عن ادعاء معانٍ معلومةُ الفساد بالضرورة.[٢]

ومعلومٌ أن مما قرره أهل العلم من سلفنا الصالح - عليهم رحمة الله أجمعين-، أنه يؤخذ بجميع النصوص الشرعية الواردة في مسألةٍ أو قضيةٍ ما، إذ النصوص يفسر بعضها بعضا، ومن ثم فلا مجال لإعمال العقل المجرد، أو رد أي منها لوهم التعارض، وإنما يُعمل على الجمع بين النصين الظاهر تعارضهما دون حقيقته، مع عدم إهمالٍ أيٍ منهما، فكيف إن خلا النص من كل ذلك؟!.[٣]

وأما بالنسبة للأدلة الشرعية الواردة في خلق آدم عليه السلام، فنبدأ بأدلةِ القرآن الكريم ثم السنة المطهرة:

---

[١] مجموع الفتاوى، جـ ٦، ص٤٣١-٤٣٢

[٢] كبعض التأويلات المعاصرة حول خلق الإنسان وأصل الوجود البشري على هذه الأرض، فمن اعتقاد تطور الإنسان عن مخلوقات سابقة!، إلى محاولة التأكيد على وجود أوادم كُثر قبل آدم عليه السلام، وهلم جرا وسيمر معنا الكلام حول ذلك إن شاء الله تعالى خلال الصفحات القادمة.

[٣] أنظر: الصواعق المرسلة لأبي عبد الله شمس الدين مُحَمَّد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن القيم الجوزية، تحقيق: د. علي بن مُحَمَّد الدخيل الله، ط ٣، ١٤١٨هـ، دار العاصمة، الرياض. جـ ٣، ص ١٠٥٢

أولاً: أدلة الكتاب العزيز:

لقد امتلأ الكتاب العزيز بذكر قصص الخليقة، وأصل الإنسان، في آياتٍ مبثوثة بأكثر من موضع. جاءت جميعها للتأكيد على خلق آدم عليه السلام وذريته، وكينونتهم بإحداثهم من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكورا. فمن ذلك:

أ/ قال تعالى في مَعْرِض التكريم بإسجاد الملآئكة لآدم عليه السلام بعد خلقه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ البقرة (٣٤). وفي معرضِ ذكر وجه الشبه بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام، يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمرآن (٥٩).

فآية آل عمران تلفتُ أنظارنا إلى خلق آدم وعيسى عليهما السلام المُعْجز؛ بذكر وجه الشبه بينهما؛ فآدم عليه السلام تجلت قُدرة الله عز وجل في خلقهِ بإنشائه من العدم، و عيسى عليه السلام تجلت قُدرة الله سبحانه وتعالى في إيجادهِ بإنشائه على غير المألوف في إيجادِ البشر؛ فكان من أمٍ دون أب. وذلك من دلائل القدرة الإلهية ونفاذ أمرهِ سبحانه وتعالى في الكونِ والخلق، كما قال تعالى: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف (٥٤)

ب/ وإذا تأملنا آية الامتنان على بني آدم بإسجاد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام، والتحذير من عدوٍ لدود، نجد ذات المعنى الدال على القدرة الإلهية في خلق البشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ﴾ الأعراف (١١).

ومعلوم أن الخلق هو الإنشاء والإيجاد من العدم على غير مثالٍ سابق. وهذا المعنى أوردهُ ابن منظور في لسان العرب بقوله: "والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه؛ وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه".[١]

[١] أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ابن منظور)، د.ط، ٢٠٠٣م، دار صادر. مادة "خَلَقَ".

كما أوردهُ صاحب القاموس أيضاً من جهة تعلق الصفة بالله تعالى، فقال: "والخالق، في صفاته تعالى: المبدع للشيء، المخترع على غير مثال سبق".[1]

ج/ و إذا تتبعنا آيات خلق آدم ﷺ نجد في معرضِ إقامة الحجة على بني آدم، إخبار الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف (١٧٢). فعن مسلم بن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب ﷺ، سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال عمر بن الخطاب: سمعتُ رسول الله ﷺ يُسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون" [2]. فنجد تقرير عملية الخلق المستقل لآدم ﷺ وذريته الكائنة منه إلى يوم القيامة.

و في القصةِ آياتٌ أخر، ذكر الله تبارك وتعالى فيها حادثة السجود التكريمي لأبي البشر آدم ﷺ، وفسوق إبليس بتخلفه عن الامتثال للأمر الإلهي؛ كمثل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ **خَلَقْتَ طِيناً** ﴾ الإسراء (٦١). وقوله عزوجل: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ الكهف (٥٠). وقوله تبارك: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ طه (١١٦).

فإبليس هنا يحتج بما وقع من عملية الخلق؛ من الإنشاء من عدم والخلق من الطين، ويرى نفسهُ فوق ذلك المخلوق لسبقِ وجودهِ ومادته النارية.

---

[1] القاموس المحيط لمجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، د.ط، د.ت، دار الجيل. باب القاف فصل الخاء.

[2] أخرجه الإمام مالك في موطأه، كتاب القدر "باب النهي عن القول بالقدر"، حديث رقم (١٥٩٢). وَالنسائي في سننه الكبرى، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ .. ﴾ سورة الأعراف، حديث رقم (١١١٩٠). وَالحاكم في المستدرك، برقم (٤٠٠١)، وقال: هذا حديثٌ على شرطهما ولم يُخرجاه، وَ أبو داود في سننه، كتاب السنة "باب في القدر"، حديث رقم (٤٧٠٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح إلا مسح الظهر. و عقَّب ابن عبد البر على الحديث بقوله: "لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبيﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم". أنظر: أضواء البيان، جـ ٢، ص٤٤

د/ أما في معرض الامتنان بالإنشاء بعد العدم، فنجد على سبيل المثالِ قولهُ عزوجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ الإنسان (١). ففي تفسير هذه الآية الكريمة، ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أن المقصود بالإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، هو آدم عليه السلام. [(١)]

وبالنظر إلى هذه الآيات الكريمات، نجدها تفيدُ أن ذلك المخلوق المكرم، هو آدم عليه السلام، وقد ذُكر صراحة باسم العَلَم الدال عليه عليه السلام، وغير هذه الآيات كثير جاءت بذكر اسمه عليه السلام، ولكن آثرنا إيراد ما جاء في معرضِ خلقه عليه السلام، لنؤكد على حقيقةٍ من الأهمية بمكان؛ مفادها: أن المخلوق ذا المادة الطينية المذكور بحسبِ سياقِ الآيات والأحاديث الشريفة التي فسرتها؛ هو آدم عليه السلام. وعليه؛ فهو الإنسان الأول في تاريخ البشر الطيني.

ومما يجب التأكيد عليه أننا اعتمدنا في هذه الحقيقة التي أوردناها؛ سياق الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي فسرتها، لذا فلا يعني هذا القول حصر مخلوقات الطين في آدم عليه السلام وبنيه فحسب، لأن لله سبحانه وتعالى عوالم لا يحيطُ بها إدراكُنا معاشر البشر. ولكن ما قصهُ سبحانه وتعالى علينا في كتابه وفسرته السنة المطهرة يفيدُ هذا المعنى.

وإنما أوردنا التقييدُ بـ "البشر الطيني" هاهنا لسببين:

الأول: وهو نتاج تأملٍ لقول الله سبحانه وتعالى، مُعلِماً ملائكته بالإرادة الإلهية لخلق آدم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ** فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص (٧١). وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون** ﴾ الحجر (٢٨). فهل يعني التقييد بذكر مادة الخلق لذلك البشر وأنه سيكون من الطين، أن ثمة بشراً من موادٍ أخرى غير الطين؟!. ربما؛ فظاهر القرآن لا يُنافي هذا المعنى. واللهُ تعالى أخبر في محكم تنزيله أنهُ ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾ القصص (٦٨). وأخبر أيضاً أنه ذو الملك التام والقدرة المطلقة: ﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة (١٧)، وكذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ ويخلق مالا تعلمون﴾ النحل (٨٠).

---

(١) أنظر على سبيل المثال: تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري، د. ط ، ١٤٠٥هـ، دار الفكر، بيروت، جـ ٢٩ ص ٢٠٢. تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، د.ط، د.ت، دار الشعب، القاهرة، جـ ١٩ ص ١١٩. فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، د.ط، د.ت، دار الفكر، بيروت، جـ ٥ ص ٣٤٤. وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي، د.ط، ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت، جـ ٨ ، ص ٣٧٨

وأما الثاني: فبالنظر في معنى "بشر"، إذ ورد من معانيها: جمعُ بَشَرة، و" البَشَرَةُ" ظاهر الجلد، وبشرة الأرض ما ظهر من نباتها [(١)]، وفي قول الله عزوجل: ﴿ **لَوّاحَةٌ لّلْبَشَرِ** ﴾ المدثر (٢٩). قال مجاهد: أي للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: ﴿ لَوّاحَةٌ لّلْبَشَرِ ﴾ أي: حرَّاقةٌ للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. [(٢)]

ورغم أن بعض المفسرين قصر لفظ " البشر" في الآية الكريمة على جلدة الإنسان [(٣)]، إلا أنه ليس في الآيات ما يدل على الحصر على جنس بني آدم، لذا فإذا أخذنا بعمومِ لفظ "بشر"، فإن ذلك قد يشمل أيضاً ما لا نعلم من خلق الباري تقدس، إذ البشر قد يُطلق على كل ما له بشرة وأديم، كالإنسان. والله تعالى أعلم وأحكم.

هـ/ وعطفاً على آياتِ الخلق التي ورد فيها ذكر "آدم" صراحةً، نذكر آياتٍ تناولت خلق آدم عليه السلام دون التصريح باسمه العَلَمِي، وإنما بلفظ "الإنسان". ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ الحجر (٢٦). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ المؤمنون(١٢). وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة (٧). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الرحمن (١٤). فالمراد بالإنسان في الآيات السابقة هو آدم لأنه أصل هذا النوع. [(٤)]

وما سبق فهو القسم الأول الذي يتعلق بخلق آدم عليه السلام. وأما القسم الآخر فهي الآيات التي ذكرت خلق عامة البشر، استناداً لأصل أبيهم الترابي من الأرض، كمثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ الأنعام (٢). وقوله عز وجل: ﴿ منْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ طه (٥٥). وقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ النجم (٣٢). وقوله جل جلاله: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ نوح (١٧ ـ ١٨). وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي

---

(١) المعجم الوسيط، مختار الصحاح ، مادة "بَشَر".

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٤٤. وانظر: تفسير الطبري جـ ٢٩ ، ص١٥٨ . تفسير القرطبي جـ ١٩ ، ص٧٧

(٣) أنظر تفسير الطبري جـ ٢٩ ، ص ٨٥٩ . تفسير القرطبي جـ ١٩ ، ص ٧٨

(٤) أنظر: تفسير الطبري جـ ١٤ ص ٢٧ ، جـ ١٨ ص ٧ ، جـ٢١ ص٩٥ ، جـ ٢٧ ص ١٢٤ . تفسير الواحدي لعلي أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، ١٤١٥هـ، دار القلم، بيروت، جـ ١ ص ٥٩١، جـ٢ ص٨٥٣ ، وَ ص١٠٥٣ . تفسير القرطبي جـ ١٠ ص٢١ ، جـ١٢ ص ١٠٩ ، جـ١٤ ص ٩٠، وحكى اتفاق أهل التأويل على أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام في قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ جـ١٧ ص ١٦٠. تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٥١ ، جـ٣ ص٤٥٨. فتح القدير جـ [(٣)] ص ١٢٩ ، جـ٣ ص٤٧٦ ، جـ٤ ص ٢٥٠ ، جـ٥ ص ١٣٣ . أضواء البيان جـ٥ ص٣٢٢

رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الحج (٥). وقوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ الروم (٢٠). وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ الصافات (١١). وغيرها من الآيات الكريمة.

ثانياً: أدلة السنة المطهرة:

١/ ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ: "خُلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم". [(١)]

فهذا الحديث الشريف يلفتُ انتباهنا إلى مادة خلق آدم عليه السلام، بلفظةٍ تدل على معرفةٍ ذهنية سابقة بمادة خلق البشر، مما استفادهُ المسلم من نصوص الشريعة الإسلامية التي أوضحت هذه المسألة بأوضحِ عبارة وأبْيَنِ سياق، فاستقرت بذلك عقيدتهُ في أصل البشر وأسلمَ قلبهُ وعقلُهُ لخبر الله تعالى وتنزيله الحكيم.

٢/ ورد في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: " خلق الله آدم على صورته"[(٢)]. وفي هذا الحديث نلحظ ملامح التكريم لآدم عليه السلام؛ لفظاً بإضافة الضمير في الصورة إلى الله تعالى، ومعنىً بوهبهِ صفاتٍ تميزهُ عن كثيرٍ من الكائنات التي فُضِّل عليها. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الإسراء (٧٠)

وقد دارت الإشكالات قديماً حول هذا الحديث الشريف، وسنوجزُ ذلك باختصار -إن شاء الله-:

أولاً: طُرقُ الحديث: [(٣)]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزهد، "باب في أحاديث متفرقة "، حديث رقم (٢٩٩٦)

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، "باب بدء السلام"، حديث رقم (٥٨٧٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، "باب يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدةِ الطير"، حديث رقم (٥٨٧٣)

(٣) رواهُ الإمام أحمد والبخاري ومسلم وابن خزيمة في كتاب "التوحيد"كُلُهم من طريق عبد الرزاق. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر –يعني عبد الملك بن عمرو العقدي- عن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن موسى بن أبي عثمان عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الله عزوجل خلق آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً"؛ إسنادُهُ لا بأس به. وقد رواهُ ابن خزيمة في كتاب "التوحيد" والدارقطني في كتاب "الصفات" من طريق أبي عامر. وقال عبد الله بن الامام أحمد في كتاب "السنة": حدثنا أبي عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله

هذا الحديث الشريف مما اتفق عليه الشيخان –رحمهما الله-، وثبت من طُرقٍ عِدة واستفاض واشتهر، وصرَّح بصحته المعتبرين من أهل العلم من السلف الصالح، ومن اتبع هَديهم بإحسان، واقتفى سُنة النبي ﷺ، -رحمهم الله تعالى أجمعين-.

يقول الشيخ حمود التويجري: "ثبت عن النبي ﷺ من طرقٍ كثيرةٍ أنهُ قال: "إن الله خلق آدم على صورته"، وقد قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية –رحمهُ الله تعالى- في ردِّه على الرازي: "إن هذا الحديث مستفيض من طُرق متعددة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وأنهُ لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نِزاعٌ في أن الضمير عائدٌ إلى الله تعالى، وأن سياق الأحاديث كلها تدلُ على ذلك". وقال أيضاً: "إن

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً"، قال ابن حجر في "تهذيب التهذيب"، قال المروذي عن أحمد أنه قال في عبد الرحمن بن إسحاق: "أما ما كتبنا من حديثه فصحيح". وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود –يعني أبا داود الطيالسي- أخبرنا المثنى وهو ابن سعيد الضبعي عن قتادة عن أبي أيوب –وهو يحيى بن مالك المراغي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إذا قاتل أحدكم فليتقِ الوجه فإن الله عزوجل خلق آدم على صورته"، إسناده صحيح على شرطِ مُسلم ورواهُ أحمد أيضاً عن عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا المثنى بن سعيد وبهز قالا: حدثنا همَّام عن قتادة عن أبي أيوب عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه - قال ابن مهدي- فإن الله عزوجل خلق آدم على صورته"، إسنادهُ صحيح على شرط البخاري ومسلم، وقد رواه مسلم وابن خزيمة في كتاب "التوحيد" عن نصر بن علي الجهضمي عن أبيه عن المثنى بن سعيد عن قتادة عن أبي أيوب عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواهُ مسلم أيضاً عن مُحَمَّد بن حاتم عن عبد الرحمن بن مهدي عن المثنى بن سعيد عن قتادة بن أبي أيوب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا قاتل أحدكم أخاهُ فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته". وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته". ورواهُ الحميدي عن سفيان بمثلِهِ وقد رواهُ مسلم من طريق سفيان بن عيينة عن أبي الزناد ولم يذكر من لفظهِ سوى قوله: "إذا ضرب أحدكم"، ورواهُ أبو بكر الآجري في كتاب "الشريعة" من طريقِ سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بمثلِ رواية أحمد، وفي رواية له بهذا الإسناد أن رسول الله ﷺ قال: "لا تُقبِّح الوجه فإن الله خلق آدم على صورته". وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد قال حدثنا ابن عجلان قال حدثني سعيد –يعني المقبري- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله عزوجل خلق آدم عليه السلام على صورته. رجالُهُ رجال الصحيح سوى ابن عجلان وقد روى له مسلم في المتابعات ووثقه ابن عيينة وأحمد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والعجلي. ولحديثه هذا شواهد مما تقدم ولهذا يرتقي إلى درجة الصحيح، وقد رواهُ ابن أبي عاصم وعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب "السنة" لهما وابن خزيمة في كتاب "التوحيد"، والدارقطني في كتاب "الصفات"، وأبو بكر الآجري في كتاب "الشريعة"، والبيهقي في كتاب "الأسماء والصفات"، كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان، ورواهُ ابن أبي عاصم وابن خزيمة أيضاً من طريق الليث عن ابن عجلان. أنظر: عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورةِ الرحمن، للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، ط٢، ١٤٠٩هـ، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض. ص٦-٩

الأمة اتفقت على تبليغه وتصديقهِ، ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائداً إلى غيرِ الله تعالى".[1]

وقد ردَّ الإمام أحمد –رحمه الله تعالى- على من قال إن الضمير في قول النبي ﷺ "خلق الله آدم على صورته"، -أي على صورةِ آدم-، ونصَّ على أنهُ من أقوالِ الجهمية. ذكر ذلك القاضي أبو الحسين في "طبقات الحنابلة"؛ عن أبي جعفر مُحَّد بن علي الجرجاني المعروف بحمدان قال: سألتُ أبا ثور عن قولِ النبي ﷺ: "إن الله خلق آدم على صورته"، فقال: على صورةِ آدم، وكان هذا بعد ضرب أحمد بن حنبل والمحنة، فقلتُ لأبي طالب: قل لأبي عبد الله، فقال أبو طالب: قال لي أحمد بن حنبل: صحَّ الأمر على أبي ثور. من قال: إن الله خلق آدم على صورةِ آدم فهو جهمي. وأيُّ صورةٍ كانت لآدم قبل أن يخلُقُهُ.[2]

وروى الخلاَّل عن أبي طالب من وجهين قال: سمعتُ أبا عبد الله –يعني أحمد بن حنبل يقول: من قال: إن الله خلق آدم على صورةِ آدم فهو جهمي. وأي صورةٍ كانت لآدم قبل أن يخلقه"[3]. كما أن في هذا الحديث الشريف أبلغُ ردٍ على بعضِ نظرياتِ الخلق -كما سنرى- إن شاء الله.[4]

و روى عبد الله ابن الإمام أحمد قال: قال رجلٌ لأبي: إن فلاناً يقول في حديثِ رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم على صورته"، فقال: على صورةِ الرجل. فقال أبي: كَذَب، هذا قولُ الجهمية، وأيُّ فائدةٍ في هذا.[5]

ثانياً: أقوالُ أهلِ العلم في معنى الحديث الشريف:

قال الحُميدي لمَّا حدّث بحديث "إن الله خلق آدم على صُورته"، قال: لا نقولُ غير هذا على التسليم والرضا بما جاء به القرآن والحديث. ولا نستوحش أن نقول كما قال القرآن والحديث.[6]

ويُرد على هذا التأويل أيضاً؛ أنهُ إذا كان الضمير عائداً على آدم فأي فائدةٍ في ذلك؟!، إذ ليس يشك أحدٌ أن الله خالقُ كل شيء على صورته وأنَّهُ خلق الأنعام والسِباع على صُورِها، فأي فائدة في الحمل على ذلك. كما أن

---

(١) المرجع السابق، ص٥
(٢) المرجع السابق، ص٧
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٤) أنظر ص١٩٤ من هذا البحث.
(٥) المرجع السابق، ص١٢٩
(٦) المرجع السابق، ص١٢٩-١٣٠

إعادة الضمير على ابن آدم المضروب لا فائدة فيه أيضاً، إذ الخلقُ عالمون بأن آدم خُلق على خلق ولده وأن وجههُ كوجوههم.[١]

ويردُ على هذا التأويل كُلِّه بالرواية المشهورة: "لا تُقبّحوا الوجه فإن ابن آدم خُلق على صورةِ الرحمن"، وقد نصَّ الإمام أحمد على صِحَّةِ الحديث وإبطال هذه التأويلات، فقال في رواية إسحاق بن منصور: "لا تُقبّحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صُورته" صحيح.[٢]

والحاصل أنهُ قد دلَّت نصوص الأحاديث على إثبات الصورة للهِ تعالى، والرد على أهل الكلام الباطل الذين ينفون هذه الصفة عن الله تعالى ويتأولونها بالتأويلات المستكرهة، ولاشك أن نفي هذه الصفة عن الرب تبارك وتعالى يُنافي الإيمان بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد تقدَّم. عن أبي مُحَمَّد بن قتيبة أنَّهُ قال: والذي عندي أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأتِ في القرآن، ونحنُ نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيءٍ منهُ بكيفيةٍ ولا حد".[٣]

قال الشيخ ابن باز –رحمه الله- : "والمعنى عند أهل العلم أن الله خلق آدم سميعاً بصيرا، متكلماً إذا شاء، وهذا هو وصف الله فإنه سميع بصير متكلم إذا شـاء، وله وجه جل وعلا. وليس المعنى التشبيه والتمثيل، بل الصورة التي لله غير الصورة التي للمخلوق".[٤]

٣/ ولمسلمٍ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ".. وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل".[٥]

وهذا الحديث يدل على أن آدم عليه السلام وُجد بعد أن لم يكن، فخُلق يوم الجمعة في آخر ساعة منها. مما يؤكد معنى الخلق المستقل لآدم عليه السلام وذريته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ السجدة (٧)

---

[١] المرجع السابق، ص١٢٨

[٢] المرجع السابق نفس الصفحة.

[٣] نفس المرجع السابق، ص٤٣

[٤] مجموع فتاوى الشيخ ابن باز، جـ٤، ص٢٢٦

[٥] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب "ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام"، حديث رقم (٢٧٨٩)

٤/ عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لما خلق الله ﷻ آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به ينظرُ إليه فلما رآه أجوفَ، عرف أنه خلقٌ لا يتمالك".[1]

وعن أبي هريرة مرفوعاً: "إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم؛ ثم نفخ الله فيه من روحه. وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك".[2]

فالحديثان الشريفان يوضحان مادة الخلق وهي التراب والطين، و كذلك تضمنا ذكر الزمنية التي علمها عند الله تعالى؛ وهي مدَّة المكوث في مراحل ما قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام.

٥/ قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". [3]

وهذا الحديث الشريف يُبين لنا أن مردَّ الاختلاف في الألوان الظاهرة، والهيئة الباطنة من السجايا الإنسانية والطبائع التي جبل الله عليها بنو آدم، إنما ذلك عائدٌ لاختلافِ تربة الأرض التي حوتها تلكم القبضة التي خُلِق منها آدم عليه السلام. كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ الروم (٢٢)

---

[1] أخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، "باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك"، حديث رقم (٢٦١١). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم (١٢٥٦١)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسنادُهُ صحيح على شرطِ مسلم، واللفظ له.

[2] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، د.ط، ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث. كتاب أحاديث الأنبياء، باب "خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، عند شرحِهِ لحديث رقم (٣١٤٨)

[3] رواه الترمذي في كتاب التفسير، "باب ومن سورة البقرة "حديث رقم (٢٩٥٥). وقال حديثٌ حسنٌ صحيح، وأخرجه الإمام أحمد في مسند أبي موسى الأشعري ﷺ برقم (١٩٥٩٧) و (١٩٦٥٩). وأبو داود في سننه، في كتاب السنة "باب القدر"، حديث رقم (٤٦٩٣). وابن حبان في صحيحه في كتاب التاريخ، "باب بدء الخلق" حديث رقم (٦١٦٠). والبيهقي في سننه، كتاب السير "باب مبتدأ الخلق"، حديث رقم (١٧٤٨٦)، وغيرهم.

٦/ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن". [١]

وهذا الحديث الشريف أيضاً يفيدنا معنى الإنشاء بعد العَدَمِيَّة، وأن أصل الخلق البشري هو ما كان عليه أبونا آدم ﷺ من الهيئة الظاهرية؛ كالطول مثلاً. و يؤيدُ هذا المعنى ما ورد في أحاديث أخرى من أن الناس عند دخولهم الجنة يكونون على طول آدم ﷺ ستون ذراعاً، ما يعني أن خلق آدم ﷺ كان ذروة كمال الخلق البشري. قال ﷺ: "أول زمرة تدخل الجنة من أمتي، على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم، في السماء إضاءة. ثم هم بعد ذلك منازل ... أخلاقهم على خلق رجل واحد، على طول أبيهم آدم، ستون ذراعا".[٢]

٧/ ولدى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم . فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه. فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. فقال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود. قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونُسِّيَ آدم فنُسِّيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته". [٣]

ففي هذا الحديث تصريحٌ بخلق آدم ﷺ على نحو ما ورد في الأحاديث الشريفة الآنفة، مما يفيدُ معنى الخلق المستقل لآدم وذريته. إضافة لجملة معاني تؤكد هذا المعنى؛ من نسبة النسمات التي استخرجها الله ﷻ من ظهر آدم إلى آدم ﷺ مما يفيدُ معنى الانتساب إليه بالبنوة والذرية. وكذلك اكتساب ذريته لصفاتهِ الخِلقية والخُلقية كما صرَّحت بذلك أحاديث عِدة.

---

[١] أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، "باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، حديث رقم (٣١٤٨)، و في كتاب الاستئذان، "باب بدء السلام"، حديث رقم (٥٨٧٣)

[٢] رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، "باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر"، حديث رقم (٥٠٦٤)، (٢٨٣٤)

[٣] حديث رقم (٣٠٧٦) وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. ورواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (٣٢٥٧)، وقال: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وَ (٤١٣٢)، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٨/ وعند الإمام أحمد في مسنده: عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال : " خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحُمَم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي".[١]

وأما هذا الحديث الذي بين أيدينا فيفيدُ تركيبهُ اللغوي أن آدم عليه السلام لم يكن حيناً من الدهر. وأن الله تعالى (حين) خلقه أخرج ذريته ..."، إلى آخر ما ورد في الحديث الشريف. ومعلوم أن (حين) ظرفٌ زمان يأتي بمعنى: "عندما" وَ بمعنى "في وقت" [٢]. وكلاهما يفيدان ابتداءَ أمر أو حدوث شيء بعد أن لم يكن بوقتٍ سابق.

وهذا المعنى أفادتُه آيات كثيرة؛ كقولهِ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة(٣٠)، فهو لم يكن في زمنٍ سبق. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين ﴾ ص(٧١)، فمعلوم أن (إذ) ببعض مواضعها تأتي وتفيد معنى "حين"[٣]، وسياق الآية في إعلام الله للملائكة عليهم السلام، وذلك أمرٌ سابق على خلق آدم عليه السلام.

٩/ وفي موطأ الإمام مالك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه -الذي تقدم معنا-، عندما سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الأعراف (١٧٢). فقال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: "إن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ... إلخ". [٤]

١٠/ كما أورد الحاكم، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "سيد الأيام يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة". [٥]

وغير تلك الآثار الكريمة التي ذكرت لفظ خلق آدم عليه السلام صراحة. ومعلومٌ أن الخلق في اللغة، يُراد به معنيان؛ الأول وهو الإنشاء من العدم –كما أسلفنا-، والثاني بمعنى التقدير.

---

[١] رواهُ الطبري بمسند الشاميين، برقم (٢٢١٣)، وقال: رواه الإمام أحمد وابنه عبد الله بإسنادٍ صحيح.

[٢] معجم اللغة العربية المعاصرة، جـ١، ص٥٩٧

[٣] المرجع السابق، جـ١، ص٧٧

[٤] سبق تخريجه ص٢١

[٥] المستدرك على الصحيحين؛ كتاب الجمعة، "سيد الأيام يوم الجمعة وفيه تقوم الساعة"، حديث رقم (١٠٦٥)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجا "سيد الأيام".

يقول صاحب اللسان: وأصل الخلق التقدير، فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها، وبالاعتبار للإيجاد على وفق التقدير - خالق. والخلق في كلام العرب: إبتداع الشيء على مثال لم يُسبق إليه؛ وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف (٥٤).[١]

قال أبو بكر بن الأنباري: الخلق في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر التقدير؛ وقال في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون (١٤)، معناه أحسن المقدرين؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ العنكبوت (١٧)؛ أي تقدرون كذبا. وقوله تعالى: ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ آل عمران (٤٩)، خلقه تقديره، ولم يرد أنه يحدث معدوما. وقال ابن سيده: خلق الله الشيء يخلقه خلقاً أحدثه بعد أن لم يكن.[٢]

لذا فجديرٌ بالذكر أن نبيّن أن المعنى الذي أفادتهُ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، هو استقلال الخلق البشري، بمعنى استقلال خلق آدم ابتداء، ثم استقلال خلق ذريته من بعده وفق نوعي التقدير التي ستمر معنا لاحقاً إن شاء الله تعالى، مما يدحض تأويلات خلق آدم المعاصرة، المبنية على أسس وجذور فاسدة، كاعتقاد التطور والتناسخ.

إذن؛ نخلص مما سبق إلى أن الإنسان الأول لأصل البشر الطيني؛ هو آدم عليه السلام، وهو مخلوقٌ أبدعه الخالق جل وعلا وأنشأه من العدم، فكان بذلك المثال الأول لبني الإنسان الترابي قاطبة. وهذا المعنى هو الذي قررته النصوص الشرعية الحقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها و لا من خلفها. وإنما يُصدِّق بعضها بعضاً، وغاية ما علينا إزاء نصوص الأحاديث الشريفة، هو التثبت من صحة نسبتها إليه بأبي هو وأمي ﷺ، فلئن كان قالها، فلقد صدق.

ونختم بكلام جميل للإمام ابن القيم – رحمه الله-، يقول: "جمع سبحانه بين الأمرين أعني القرآن ونطق اللسان، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه وبها أرسل رسله وبها جمعت العلوم وحفظت وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد. وبها يتميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم وبها أمكن تنقلها في الأذهان. وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق، وهدم بها من

[١] لسان العرب، "مادة خلق"

[٢] المرجع السابق.

باطل فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب فسبحان من هذا صنعه".[1]

[1] التبيان في أقسام القرآن، لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن القيم الجوزية، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقي، د.ط، د.ت، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص٢٠٤

الفصل الثاني

خلق آدم عليه السلام، المادة والكيفية

تناولنا فيما سبق عدداً من النصوص الشرعية التي وردت في خلق آدم عليه السلام، ولاحظنا كيف أن نسق السياق في سرد عملية الخلق في القرآن الكريم خصوصاً، قد اختلف في مواضع عنه في مواضعَ أخرى من ذات الكتاب العزيز، الأمر الذي أشكل على البعض فظن أن ثمة تعارضاً بين الآيات ونصوص الذكر الحكيم.

والحق أن الآيات البينات لا تعارض بينها البتة، كما سنرى، وإنما لكل آيةٍ مدلولٌ ومعنىً يمثل مرحلة من مراحل خلق آدم عليه السلام، وذريته من بعده. لذا فبناءً على هذا يمكننا القول بأن خلق البشر الطيني بعموم، قد تحقق بتقديرين إلهيين، وكلٌ منهما قد شمل مادة وكيفية مغايرة للأخرى، مع اتفاق حقائقهما وفق ما جاءت به النصوص الشرعية. ويمكننا إيضاح ذلك بالتقسيم الآتي:

التقدير الأول: ويتعلق بخلق آدم عليه السلام، ويشمل ذريته المودعة في صُلبه ضمناً، ومادة هذا النوع من الخلق هو الطين مباشرة، وله كيفية خاصة تتعلق بخلق آدم عليه السلام، وكيفية كذلك تتعلق بذريته، وسيتضح ذلك معنا خلال الأسطر القادمة إن شاء الله.

التقدير الثاني: ويتعلق بخلق وإيجاد ذرية آدم عليه السلام، على وجه الاستقلال كما قدر الله سبحانه وتعالى لكلٍ منهم في هذه الحياة الدنيا. وهذا النوع من التقدير في الخلق الإنساني، تختلف كيفيته عن نوع التقدير الأول، إذ يتم إيجاد النوع البشري هاهنا بطريق التناسل والتوالد؛ وأما مادته فهي حاصل اجتماعِ المائين، ماء الرجل وماء المرأة.

وفي هذا القسم من البحث، سنعرض للنوع الأول من التقسيم الذي أوردناه آنفاً، فنقول وبالله المستعان:

التقدير الأول: المادة والكيفية الأولى:

إن المتأمل لمختلف النصوص الشرعية الواردة في خلق آدم عليه السلام وذريته، يجد أن خلق آدم عليه السلام من الطين مباشرة قد ورد صريحاً بأكثر من موضع، في حين ورد خلق ذريته، وهم سائر البشر الإنسي، من ماءٍ يعودُ في أصله إلى ذلك الطين، حيثُ قررت النصوصُ الشرعية بأن الناس يعودون بأصلِ نشأتهم ووجودهم ونسبتهم إلى أبيهم آدم عليه السلام.

فهذا النوع من التقدير في الخلق ، وهو الإنشاء من الطين مباشرة، يمثل مرحلة خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام. هذه المباشرة التي نلحظها في كثيرٍ من مواقف خلقِ آدم، التي قص علينا القرآن الكريم نبأها:

١- من المادة – الطين - مباشرة وتحولاته، بمنأى عن سبيل الأصلاب و الترآئب تماماً. قال عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران (٥٩). وقال تبارك: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص (٧١).

٢- إبداعٌ بيد الخلاق العليم ، فقد أخبر تبارك بمحكم التنزيل: ﴿ قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ص (٧٥).

٣- إعلاءٌ مباشر لمنزلةِ المخلوق الجديد ، بتكريمٍ مباشر عقب عمليةِ الخلق ، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ الأعراف(١١).

٤- إعلاءٌ وتشريف بتعليمٍ مباشر من الرب جل جلاله، دون إيكالِ ذلك للملائكة أو أحدٍ من الخلق، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة (٣١).

٥- إسكانٌ بخير المساكن مُباشرة، - حيثُ الأمن من غائلة الحر والذل -، ونعني بالمباشرة هاهنا أي عقب الخلق والتكريم دون المرور بابتلاءٍ سابق على فتنةِ الشجرة، وهذا هو المعنى المستفاد من مجموع النصوص القدسية الشريفة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ .. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ*وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف (١٨-١٩).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى* فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى* إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى*وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ طه (١١٦-١١٩) .

فكل تلك المعاني السامية الرفيعة، هي من فضلِ الله تعالى على آدم عليه السلام، وعلى جميع ذريته من بعده، ولكن أكثر الناسِ لا يشكرون.

أما بالنسبة لهذا النوع من تقدير الخلق الإلهي للإنسان، وهو الإنشاء من المادة و الطين مباشرة، فلم يكن دفعةً واحدة كما هو معلوم، وإنما تم على مراحلَ يمكننا إدراكها من خلال نسق الآيات الكريمة الواردة في خلق آدم عليه السلام:

أولاً: مرحلة التراب:

ذكر الإمام الشنقيطي رحمه الله تلك الأطوار، عند تفسيره آية الخلق الواردة في سورة الرحمن[1]، فقال: "وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمرآن (٥٩). وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الحج (٥). وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ الروم (٢٠). وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ غافر (٦٧). وقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ طه (٥٥). وقد بينا في قوله تعالى ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وقوله ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها، لأنه أصلهم وهم فروعه".[2]

ثانياً: مرحلة الطين:

يقول مؤلف الأضواء: "ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء (٦١). وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ المؤمنون (١٢). وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة (٧). وقال: ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ الصافات (١١). وقال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ ص (٧١).

---

[1] وهي قوله عزوجل: ﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالفَخّارِ﴾.
[2] أضواء البيان، جـ٧، ص ٤٩٩.

وقد ذكر الله صفة الطين في هذا الطور من أطوار خلق آدم ﷺ، بأنه طينٌ لازب، واللازب هو اللازم الذي يلتصق بما يصيبه. يقول صاحب اللسان: "لزب الطين يلزب لزوباً، ولزب: لصق وصلب، وطين لازب أي لازق". [١]

ويقول الإمام القرطبي – رحمه الله – وقد أورد أقوالاً عِدة في تفسيره الآية: قوله تعالى ﴿ إنّا خَـلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ أي لاصق، قاله ابن عباس. ومنه قول علي رضي الله عنه:

تعلم فإن الله زادك بسطة**وأخلاقُ خيرٍ كلها لك لازب

وقال قتادة وابن زيد: معنى لازب: لازق. أما الماوردي فذكر الفرق بين اللاصق واللازق، أن اللاصق: هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق: هو الذي يلتزق بما أصابه. وقال عكرمة: لازب: لزج. وعرَّفهُ سعيد بن جبير: أي جيد حر يلصق باليد. و ذهب مجاهد: لازب: لازم. والعرب تقول: طين لازب ولازم، تبدل الباء من الميم. [٢]

ثالثاً: مرحلة الحمأ المسنون: [٣]

قال صاحب الفتح: "المسنون المتغير حمإ جمع حمأة وهو الطين المتغير". [٤]

ويقولُ الإمام الشنقيطي أيضاً في هذه المرحلة الثالثة: "ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، أي طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر (٢٦). وقال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر (٢٨). وقال عن إبليس: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ الحجر (٣٣). والمسنون قيل المتغيّر، وقيل المصور، وقيل الأملس". [٥]

---

[١] لسان العرب، مادة "لزب".

[٢] تفسير القرطبي، جـ ١٥، ص ٦٨- ٦٩. وانظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة.

[٣] الحمأ المسنون: أي المنتن. القاموس المحيط للفيروز آبادي، باب النون فصل السين.

[٤] فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب "خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، ص٤٢١

[٥] أضواء البيان، جـ ٧ ، ص ٤٩٩

رابعاً: مرحلة الصلصال اليابس:

هذه المرحلة الرابعة من تحولات الطين، حيثُ غدا جافاً يابساً كالفخار، يقول صاحب الأضواء: "ثم يَبُس هذا الطين فصار صلصالاً . كما قال هنا: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الرحمن (١٤)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر (٢٦). فالآيات يصدق بعضها بعضا، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب؛ كما لا يخفى.[١]

وعليه؛ فكلٌ من الصلصال والفخار، يمثلان مرحلة اليبس من الطين. وقد ذكر ذلك الإمام ابن كثير في مجموع الأقوال التي أوردها: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. فقوله: ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء*** تمشي في مرمر مسنون [٢]

أي: أملس صقيل. ولهذا رُوي عن ابن عباس ﷺ: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضا: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.[٣]

إذن؛ نستخلص مما سبق، أن آدم عليه السلام خُلق من تراب، كما أخبرت بذلك النصوص الشرعية الكريمة، وأن ذلك التراب قد مر بتحولاتٍ عدة، فمن الهيئة الترابية إلى الهيئة الطينية إثر عجنه بالماء، ثم إلى مرحلة التغير والإسنان وهذه السمة نلاحظ حضور عامل الزمنية فيها هي وما بعدها من المراحل كذلك، ثم إلى مرحلة اليبس كالفخار، ثم نفخ الروح بعد ذلك. وكلُ ذلك لله الحكمة البالغة فيه.

---

[١] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

[٢] من شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري المدني الخزرجي، حين شبب برملةَ ابنة معاوية الخليفة الأموي، الشاعر ابن الشاعر، وأمه هي سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ. حدث عن أبويه، وزيد بن ثابت. وعنه ابنه سعيد، وعبد الرحمن بن بهمان، وهو نزر الحديث. قيل: ولد في حياة النبي ﷺ وعاش نيفا وتسعين سنة. وهو القائل في بنت معاوية:
هي زهراء مثل لؤلؤة الغواص**ميزت من جوهر مكنون فإذا ما نسبتها لم تجدها**في سنا من المكارم دون. فقال معاوية: صدق. قيل: فإنه يقول: ثم خاصرتها إلى القبة الخضرا ء** تمشي في مرمر مسنون. فقال معاوية: كذب. توفي سنة أربع ومائة. أنظر: سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٦٤-٦٥

[٣] تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٥٣٤

أ- **كيفية خلق آدم:**

وأما بشأنِ كيفية خلق آدم عليه السلام؛ فمن الكيف ما هو مجهول ويفوّض أمره إلى الله، ومنه المعلوم من خلال ما ورد في النصوص. والذي نقصدهُ هاهنا هو المعلوم، وسيتم تناوله من خلال بعضِ أحاديثِ النبي الأكرم ﷺ، فمن ذلك:

أولاً: قوله ﷺ: "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك". [(١)]

فالحديث الشريف يوضّح لنا أن خلق آدم عليه السلام كان من قبضةٍ حوت جميع أنواع تربة الأرض، و "القَبْضَةُ من الشيءِ"؛ ما قبضت عليه من ملء كفِّك، يُقال: أعطاه قَبْضَةً من تمر أو سَوِيق: أي كفًّا منه. كما قال تعالى حكاية عن السامري: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ طه (٩٦) .[(٢)]

ثانياً: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينا، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار - قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم - ثم نفخ الله فيه من روحه، فكان أول شيء جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه أنه حمد ربه فقال الرب: يرحمك ربك. ثم قال: يا آدم، اذهب إلى أولئك النفر فقل لهم وانظر ما يقولون. فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله. فجاء إلى ربه فقال: ماذا قالوا لك؟ - وهو أعلم بما قالوا له - قال: يا رب، لما سلمت عليهم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله. قال: يا آدم، هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال: يا رب، وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم. قال : أختار يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين، فبسط الله كفه، فإذا كل ما هو كائن من ذريته في كف الرحمن عز وجل". [(٣)]

[(١)] رواه الإمام أحمد من حديث سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه حديث رقم (١٩٦٥٩)، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي ﷺ بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[(٢)] لسان العرب، مادة "قَبَضَ".

[(٣)] رواه أبو يعلى، وفيه إسماعيل بن رافع قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، كتاب فيه ذكر الأنبياء، باب ذكر نبينا آدم أبي البشر ﷺ ، د. ط ، ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث – دار الكتاب ، القاهرة – بيروت.

وقد قصدنا رواية أبي يعلى هذه لما فيها من التفصيل بذكر تحولات خلق آدم عليه السلام على نحو ما حكاهُ القرآن الكريم. وقد وَرَدَ نحواً من هذا الحديث في صحيح مسلم ولكن دون ذكر تحولات الطين؛ وهي الحمأ المسنون والصلصال كالفخار. كما نلمسُ في هذا الحديث الشريف حضور معنى الزمنية في لفظ "ثم تركه". وقد ورد في روايةٍ للإمام مسلم وغيره لفظٌ آخر يُفهم منه طول تلك الزمنية؛ وهو لفظ "تركه ما شاء الله أن يتركه". مما يُفهمُ منه أن مراحل تحولات الطين قبل نفخ الروح، قد استغرقت زماناً علمه عند الله تعالى.

ثالثاً: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك"[١]. وقد تقدم ذكر معنى الزمنية، وثمة معنىً آخر وهو جَوْفِيةُ آدم عليه السلام، بمعنى أنهُ ليس بمصمت. يقال: جَوْفُ الإنسان؛ أي بطنه. و الجوف باطن البطن.[٢]

رابعاً: أورد ابن الأثير في تاريخه قال: ذكر خلق آدم عليه السلام: "وإنما سمي آدم لأنهُ خُلق من أديم الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى بتربة آدم فرفعت فخلق آدم من طين لازب من حمإٍ مسنون وإنما كان حمإٍ مسنوناً بعد الالتزاب فخلق منه آدم بيده لئلا يتكبر إبليس عن السجود له، قال: فمكث أربعين ليلة وقيل أربعين سنة جسدا ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل أي يصوِّت، قال: فهو قول الله تعالى ﴿من صلصال كالفخار﴾، يقول هو كالمنفوخ الذي ليس بمصمت، ثم يدخل من فيه فيخرج من دبره، ويدخل من دبره فيخرج من فيه، ثم يقول لست شيئاً ولشيءٍ ما خُلقت ولئن سُلطتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلطت علي لأعصينك، فكانت الملائكة تمر به فتخافهُ وكان إبليس أشدهم منه خوفاً، فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة **﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾**، فلما نفخ الروح فيه دخلت من رأسه وكان لا يجري شيء من الروح في جسده إلا صار لحماً، فلما دخلت الروح رأسه عطس فقالت له الملائكة: قل الحمد الله، وقيل بل ألهمه الله التحميد فقال الحمد لله رب العالمين، فقال له: رحمك ربك يا آدم، فلما دخلتِ الروحُ عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما بلغت جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح

---

[١] سبق تخريجه، واللفظ لمسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم: (فلما رآه أجوف) علم أنه خلق خلقا لا يتمالك. الأجوف صاحب الجوف، وقيل: هو الذي داخله خال. ومعنى (لا يتمالك) لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد جنس بني آدم.

[٢] لسان العرب، مادة "جوف".

رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فلذلك يقول الله تعالى: **﴿خلق الإنسانُ من عجل﴾**، فسجد له الملائكة كلهم إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين". [1]

ورواية ابن الأثير نجدها اشتملت على عدد من العناصر؛ كسبب تسميته ﷺ بآدم، وكذلك مراحل تحولات الطين؛ بدءاً من حالةِ الالتزاب إلى حالة اليبوسة والجفاف، وتحديد الزمنية بأربعين ليلة أو أربعين سنة. كما نجد معنى الجوفية، وما مر معنا سابقاً من المعاني كالعطسِ ونحوه.

وأما سبب خلقه ﷺ بيدي الرحمن ﷻ فلا نُسلّم بأن المراد لئلا يتكبر إبليس عن السجود له، بل لله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء. فلا يُعتقد أن إبليس قد بلغ ذلك المبلغ بحال. ولكن الله عزوجل قدَّر تكريمِ الخلق الإنسي بما أجراهُ في أمر خلقته من صنوف التكريم بدءاً من الخلق بيديه ﷻ ومروراً بما سبق أن أوردناه، فلن يقول قائل بأن الله تعالى قد علَّم آدم الأسماء كلها لئلا يتفوَّق إبليسُ عليه في جانب المعرفةِ مثلاً!. فتلك الزيادة قد تكونُ مما تسرَّب من الإسرائيليات أو مسلمة أهل الكتاب.

خامساً: وفي هيئته ﷺ، أورد صاحب الفتح عن أبي بن كعب حديثاً مرفوعاً: "أن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق"[2]. والسحوق؛ أي الطويلة التي بعد ثمرها على المجتني.[3]

و المقصودُ مما تم إيراده هو التأكيد على ما قررته النصوص الشرعية من أن خلق آدم ﷺ قد استغرق زمناً قبل التسوية ونفخ الروح فيه، وأن تلك المرحلة أو المدة الزمنية مرت بها مادة الخلق وهي الطين، بتغيرات عِدة فسرتها مجموع النصوص الشرعية الواردة في خلق آدم ﷺ، ومن ثم فليس ثمة مسوغٍ لاعتقاد استقلال المراحل أو توهم التعارض بين النصوص.

وما ورد في بعض الآثار لا يدفع هذه الحقيقة، إذ غالباً ما يكون موقوفاً على بعض الصحابة، كالرواية التي أوردها الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: " خُلق آدم من ثلاثة، من صلصال ومن حمأ ومن طين لازب،

---

[1] الكامل في التاريخ لابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ ١، ص ٢٧. وانظر: تاريخ الطبري، د.ط، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ ١، ص ٦٥. وَ البداية والنهاية لابن كثير، د.ط، د.ت، مكتبة المعارف، بيروت، جـ ١، ص ٨٦-٨٧

[2] فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب "خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، إسنادهُ حسن. ص٤٢٣

[3] لسان العرب حرف السين؛ مادة "سحق"

فأما اللازب فالجيد، وأما الحمأ فالحمئة، وأما الصلصال فالتراب المدقق". [١]

ب – كيفية خلق الذرية:

وتستبين كيفية خلق ذرية آدم ضمن التقدير الأول، من خلال الآيات والنصوص التي حكت استخراج ذرية آدم عليه السلام، وكل نسمةٍ الله خالقها من ولده إلى يوم القيامة؛ ومن ذلك:

١/ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي تقدم معنا في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف (١٧٢)، فمما ورد فيه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون". [٢]

٢/ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ الأعراف (١١). فعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره، و عن مجاهد: المعنى خلقناكم في ظهره ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق [٣]، وأورد الطبري تأويلاتٍ عدة ثم عقب بقوله: "قال أبو جعفر وأولى الأقوال بالصواب قول من قال تأويله - ولقد خلقناكم – ولقد خلقنا آدم ثم صورناكم بتصويرنا آدم". [٤]

٣/ قوله صلى الله عليه وسلم: "خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحُمَم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي". [٥]

---

[١] جـ ١، ص ٦٣. موقوف على ابن عباس، أنظر: تاريخ الطبري حديث رقم (١١٤)

[٢] سبق تخريجه.

[٣] تفسير القرطبي، جـ ٧ ، ص ١٦٨ - ١٦٩

[٤] تفسير الطبري، جـ ٨ ، ص ١٢٧

[٥] سبق تخريجه.

وغيرها من الآثار الواردة في هذا المعنى، والتي أفادتنا بكيفيتين في استخراج ذرية آدم منه ﷺ، الأولى: المسح، وقد وردت نصوصٌ بمسح الظهر و الصُلب، والثانية: ضرب الكتفين الأيمن والأيسر، وقد وردت نصوصٌ أُخرى تفيدُ ذلك المعنى.

والمقصود أنه قد حصل استخراجٌ لجميع ذرية آدم عليه السلام عقب خلقهِ مباشرة قبل إسجاد الملائكة له. وهذا المعنى – أي المباشرة - مستفاد من خلال الآيات الكريمة؛ وذكر الإمام الطبري من جملة التفسيرات المتعددة التي أوردها في المسألة، فقال: "وأولى الأقوال بالصواب قول من قال تأويله - ولقد خلقناكم- ولقد خلقنا آدم ثم صورناكم بتصويرنا آدم كما قد بينا .. وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب لأن الذي يتلو ذلك قوله ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يُصور ذريته في بطون أمهاتهم بل قبل أن يخلق أمهاتهم، و "ثم" في كلام العرب لا تأتي إلا بإيذان انقطاع ما بعدها عما قبلها"[1]. فهذا الذي نعنيه بالمباشرة هاهنا، فيكون بحسب ترتيب الآيات في قول الله عزوجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾، أن يكون جرى على الترتيب، خلق آدم، ثم استخراج ذريته وإشهادهم، ثم أمر الملائكة بالسجود له. والله أعلم.

وفق كيفيةٍ علمها عند الله تعالى، وهذه الكيفية مغايرة تماماً عما عليه سنة الآدميين في التوالد والتناسل. وإنما أخرجهم الله سبحانه وتعالى أمثال الذر وأشهدهم على ربوبيته عزوجل، وهذه المثلية داخلة ضمن الخِلقة الطينية لآدم عليه السلام بعد نفخ الروح فيها، وهذا الذي نعنيه بالمباشرة هاهنا. وأما من ذكر بأن ذاك الاستخراج لذرية آدم عليه السلام من ظهره أو كتفه، إنما كان للأرواح دون الأجساد[2]، فليس في النصوص التي أوردناها ما يدل على ذلك الحصر، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "وقد قال لهم حين أخذ الميثاق - وهم أرواح في أشباح كالذر - ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ وإنما خاطب الروح مع الجسد وهل يكون الرب إلا لمربوب؟".[3]

---

[1] تفسير الطبري، جـ ١٢، ص ٣٢١

[2] هذا تأويلٌ أورده الإمام الطبري في تفسيره، منسوباً لمحمد بن كعب القرظي، حيثُ ذكر عنه قوله: "أقرت الأرواحُ قبل أن تُخلق أجسادها"، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾. أنظر تفسير الطبري، جـ ١٣، ص٢٤٤

[3] مجموع الفتاوى، جـ٤، ص٢٢٠

التقدير الثاني: المادة والكيفية الأخرى:

وهذا النوع من التقدير الإلهي في خلق الإنسان، يشمل جميع بني آدم وذريته التي قدرها الله مذ خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة – خلا عيسى ابن مريم عليهما السلام -، وقد اقتضت مشيئةُ الله عزوجل بأن يكون إنشاءُ من الأصلاب والترائب. وقص علينا الحق عزوجل حقيقته في العديدِ من آي الذكرِ الحكيم، كقوله

سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۞مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى *وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ النجم (٤٥-٤٧). وقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾ النساء (١). وقوله جل جلاله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَ التّرَآئِبِ ﴾ الطارق (٥-٧). وقوله تبارك: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ المرسلات (٢٠-٢٢). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ القيامة (٣٦-٣٧). وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان (٢). وقوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَاْ الإِنْسَاْنَ مِنْ سُلاْلَةٍ مِنْ طِيْنٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاْهُ نُطْفَةً فِيْ قَرَاْرٍ مَكِيْنٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَاْ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَاْ الْمُضْغَةَ عِظَاْمَاً فَكَسَوْنَاْ الْعِظَاْمَ لَحمَاً ثُمَّ أَنْشَأْنَاْهُ خَلْقَاً آخَرَ فَتَبَاْرَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَاْلِقِيْنَ ﴾ المؤمنون (١٢-١٤). وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ الحج (٥). وقوله:﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ السجدة (٧-٩). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ النجم (٣٢). وقوله جل جلاله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الأعراف (١٩٠)

وقوله تبارك في عُلاه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ الزمر (٦). وغيرها من الآيات الكريمات.

فمن خلال النصوص السابقة نستنتج مادة و كيفية خلق بني آدم، وفق هذا التقدير الإلهي في خلق البشر. فالمادة هي الماءان؛ ماء الرجل وماء المرأة، أو ما يُعرف في لغة العلم الحديث بالنطفة والبويضة، والكيفية بطريق التناسل والتوالد جيلاً بعد جيل.

ولعلنا نستلهمُ تلك المعاني بصورة أوضح، من خلال أحاديث الهادي ﷺ، وسأكتفي بذكر بعضٍ منها:

١/ قوله ﷺ: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع برزقه وأجله وشقي أو سعيد فو الله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها". [١]

فهذا الحديث الشريف يحكي مراحل تخلّق النطفة في الرحم قبل نفخ الروح فيها، ثم حصول ذلك النفخ بعد الأربعينات الثلاث المقدَّرة بمئة وعشرين يوماً كما يفيدُ سياق النص: يُجمع أربعين يوماً، ثم يكونُ علقةً أربعين يوماً، ثم مضغةً أربعين يوماً أيضاً. ثم يُبعثُ إليه الملك لنفخ الروح وكتابةِ تقدير الله تعالى لذلك الجنين. و هذه الكيفية في الخلق عامة لسائر البشر من ذريةِ آدم عليه السلام باستثناء من ذكرنا سابقاً.

٢/ قوله ﷺ لعبد الله بن سلام رضي الله عنه حين سألهُ عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبي، وكان من ضمنها سؤاله: "ومن أي شيءٍ ينزعُ الولدُ إلى أبيه ومن أي شيءٍ ينزعُ إلى أخواله؟ " فأجاب ﷺ: "وأما الشَّبَهُ في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبهُ له، وإذا سبق ماؤها كان الشَّبَهُ لها" [٢]. وهذا مقررٌ معلومٌ في علم الأجنة الحديث، فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

[١] متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب القدر، "باب في القدر"، واللفظُ له، حديث رقم (٦٢٢١). ومسلمٌ في كتاب القدر، "باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته"، حديث رقم (٢٦٤٣)

[٢] صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، "باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، حديث رقم (٣١٥١)

٣/ ما رواه عامر بن واثلة أنه سمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما يقول: الشقي من شقى في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره، فأتى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري فحدثه بذلك من قول بن مسعود، فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل؟ فقال له الرجل أتعجب من ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يا رب أذكر أم أنثى، فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص". [١]

وغيرها من الأحاديث الشريفة التي سبقت العلم الحديث - بمختلف فروعه - بسنين طِوال، ثم جاء العلم بتجاربهِ و آلاتهِ وعددٍ من نتائجهِ وحقائقهِ، ليشهد بصدق نبوة مُحَمَّد ﷺ، وصدق الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

[١] رواه مسلم في كتاب القدر، "باب كيفية الخلق الآدمي"، حديث رقم (٢٦٤٥)، (٤٧٨٣)

الفصل الثالث

إثبات أبوة آدم عليه السلام للبشر ودلالة النصوص الشرعية على ذلك

سيتناول هذا الفصل - إن شاء الله-، أدلة ثبوت أبوة آدم عليه السلام، من خلال ما دلت عليه النصوص الشرعية، وذلك من خلال نقطتين رئيستين بإذن الله، وأما الثالثة؛ فهي دلالة العقل على أبوة آدم عليه السلام.

أولاً: النصوص المثبتة لأبوة آدم صراحة:

١/ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرُفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بمَ ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيُسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعضُ الناس لبعض ألا ترون ما أنتم فيه؟، ألا ترون ما قد بلغكم؟، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقولُ بعض الناس لبعض ائتوا آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدمُ أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقولُ آدم إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مِثلهُ ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح .. إلخ الحديث".[1]

٢/ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: "لقي موسى آدم صلى الله عليهما وسلم، فقال: أنت آدم أبو البشر الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم؟، قال: نعم، قال: ألست موسى الذي اصطفاك الله برسالته، وكلامه؟ قال: بلى. قال: أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها؟ قال: بلى، فخصم آدم موسى صلى الله عليهما وسلم".[2]

٣/ وعن أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت

---

[1] متفقٌ عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله عزوجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، حديث رقم (٣١٦٢). ومسلم في كتاب الإيمان، "باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها"، حديث رقم (١٩٤)، (٢٨٧). واللفظ لمسلم.

[2] رواه النسائي في سننه الكبرى، في تفسير سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، حديث رقم (١١١٨٦). وورد عند البخاري ومسلم بغير لفظ: " أنت آدم أبو البشر".

تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ... ثم عرج به إلى السماء الدنيا ... فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم وقال مرحبا وأهلا بابني نعم الابن أنت".[١]

٤/ عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: "احتج آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا أنت خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ... قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمرٍ قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدمُ موسى فحج آدمُ موسى ثلاثاً". [٢]

٥/ عن أنس ﵁ عن النبي ﷺ قال: "يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك..".[٣]

٦/ وفي رواية قتادة عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك – وقال بن عبيد: فيُلهمون لذلك – فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ قال: فيأتون آدم ﷺ، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لستُ هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب .. ".[٤]

---

[١] أخرجهُ البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾، حديث رقم (٧٠٧٩). ومن أشهر كتب السيرة التي أوردت قصة المعراج كتاب "السيرة" لابن هشام، إذ أورد عن ابن إسحاق أنه قال: وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدري ﵁ أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "لما فرغتُ مما كان في بيت المقدس أُتي بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه" .. - إلى أن قال - : "لما دخلت السماء الدنيا رأيتُ بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويُسرُ به ويقول روح طيبة خرجت من جسدٍ طيب. ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أُفٍ ويعبس بوجهه ويقول روحٌ خبيثة خرجت من جسدٍ خبيث، قال: قلت: مَن هذا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تُعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مرت به روحُ المؤمن منهم سُرّ بها وقال: روح طيبة خرجت من جسدٍ طيب وإذا مرت به روحُ الكافر منهم أنف منها وكرهها و ساءهُ ذلك، وقال روح خبيثة خرجت من جسد خبيث". السيرة النبوية، لأبي مُحَمَّد عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ١، ١٤١١هـ، دار الجيل، بيروت.

[٢] رواه البخاري في كتاب القدر، "باب تحاجَّ آدمُ وموسى عند الله"، حديث رقم (٦٢٤٠)

[٣] أخرجهُ البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة باب "قول الله وعلم آدم الأسماء كلها"، حديث رقم (٤٢٠٦)

[٤] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، " باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها "، حديث رقم (١٩٣)، (٢٨٤)

٧/ وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لستُ بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله".[١]

٨/ وعند الترمذي من رواية أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم، فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول: إني أذنت ذنباً أُهبطت منه إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحاً .. إلخ الحديث".[٢]

٩/ وعنه ﷺ أنه خطب في خُطبة الوداع، في أوسط أيام التشريق، فقال: "يا أيها الناس، إلا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"[٣]، وهُنا تصريح بوحدةِ المصدر لكافةِ الخلق البشري الإنسي ذو المادةِ الطينية، مما يدحض مزاعم تعددِ الأوادم تبعاً لتعدد الأعراق واختلافها!.

١٠/ و عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم . قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم ألا تشرك بي شيئا، فأبيت إلا أن تشرك". [٤]

---

[١] كتاب الإيمان، "باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها"، حديث رقم (١٩٥)، (٢٨٨)

[٢] كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب "ومن سورة بني إسرائيل"، حديث رقم (٣١٤٨). وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

[٣] رواه الإمام أحمد، في "حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ "، برقم (٢٣٥٣٦)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسنادهُ صحيح. والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله ﷺ برقم (٥١٣٧).

[٤] أورده صاحب البحر المحيط، وابن كثير في تفسيره ، والسيوطي في الدر، والصنعاني في رفع الأستار والألوسي في روح المعاني جميعهم بهذا اللفظ، وعقبوا عليه بقولهم: " أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن أنس". فأما الإمام أحمد فقد أورده في أحاديث أنس بن مالك ﷺ، بلفظ "في ظهر آدم" حديث رقم (١٢٣١١)، وأما البخاري فأخرجهُ في كتاب الرقاق "باب صفة الجنة والنار"، حديث رقم (٦١٠٠)، ومسلمٌ في كتاب صفة القيامة والجنة والنار "باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا"، حديث رقم (٥٠٢٣)؛ وكلاهما بلفظ "في صُلب آدم".

وغيرها من الأحاديث الشريفة التي عضدت معاني الآيات الكريمة وشرحتها شرحاً وافياً شافياً، كقولِ الله ﷻ:
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً ﴾ النساء (١).

فمن المعلوم أن من حالات السنة الشريفة مع الكتابِ العزيز، أنها تأتي مفسرة وموضحة لبعض ما أُجمل في القرآن الكريم، وهذا منهجٌ معلومٌ لدى صحابة رسول الله ﷺ ورضوان الله عليهم أجمعين، كما في حديث عمر ابن الخطاب المتقدم حين سُئل عن آيةِ الإشهاد، وكما في حديث الشفاعة وغيره من الأحاديث التي أوردناها والتي ذُكرت فيها أبوة آدم صراحة؛ إما بالإضافة الإسمية؛ كأبي البشر، وأبو الناس وأبو الخلق.

وإما بالإضافة للضمير؛ كـ " أبوك، أبونا، أبانا، أبيكم، أباكم، أبيك". كُلُ ذلك بما لا يدع مجالاً للشك بأن النفس الواحدة التي بُث منها جنس البشر الطيني، إنما هي آدم عليه السلام، وخُلق منها زوجها حواء عليها السلام، فكانا بذلك نواة الخلق الإنساني منذ زمن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانياً: إثبات أبوة آدم عليه السلام بإثبات البنوة ونسبة الذرية إليه:

رأينا فيما مر معنا من النصوص، كيف أن أبوة آدم ﷺ قد وردت صراحةً بلفظٍ يفيدُ أن آدم عليه السلام هو أصل وأساس الجنس البشري. وفيما يلي إثبات أبوة آدم عليه السلام من خلال النصوص التي صَرَّحت بالبنوة ونسبة الذرية الإنسية إليه، فمن ذلك:

١/ قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الأعراف (١٧٢-١٧٣). وقوله جل جلاله :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة (٢٧). وقوله ﷻ: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ۞ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ البلد (١-٣).

وأما الأحاديث الشريفة، فمنها:

٢/ قول رسول الله ﷺ: "لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل".[١]

٣/ وقوله عليه الصلاة والسلام: "كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه حين يُولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب".[٢]

٤/ وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين، ورد في رواية البخاري قوله: " .. فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا، قال جبريل، قيل ومن معك؟، قال مُحَمَّد، قيل وقد أُرسل إليه؟، قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمتُ عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح".[٣]

كما ورد في رواية مسلم: أن رسول الله ﷺ لما مرّ بآدم وهو في السماء الدنيا، قال له مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قال: وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، فقلت: " يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه، فإذا نظر قبل أهل اليمين - وهم أهل الجنَّة - ضحك، وإذا نظر قبل أهل الشمال - وهم أهل النار – بكى".[٤]

٥/ وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن معبد بن هلال العنزي قال: "انطلقنا إلى أن أنس بن مالك، وتشفَّعنا بثابتٍ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تُحدِّثهم حديث الشفاعة. قال: حدثنا مُحَمَّد ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم، فيقولون: إشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام، فإنه خليل الله .. إلخ الحديث".[٥]

---

[١] متفقٌ عليه، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، "باب قول النبي يُعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته"، حديث رقم (٣٣٣٥)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، "باب بيان إثم من سن القتل"، حديث رقم (١٦٧٧).

[٢] أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، "باب صفة إبليس وجنوده"، حديث رقم (٣٢٨٦).

[٣] أخرجه في كتاب فضائل الصحابة، "باب المعراج". وروى نحوه مسلمٌ أيضاً في كتاب الايمان، " باب الإسراء برسول الله"، حديث رقم (٣٨٨٧).

[٤] أخرجه في كتاب الإيمان، "باب الإسراء برسول الله"، حديث رقم (٢٤١).

[٥] أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، "باب كلام الرب عزوجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم "، حديث رقم (٦٩٧٩). ومسلم في كتاب الإيمان، "باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها"، حديث رقم (٢٩١). واللفظ لمسلم.

٦/ وجاء في حديثٍ قدسي، قوله ﷺ: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: إذهب فسلم على أولئك، نفرٌ من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكلَّ من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعدُ حتى الآن".[١]

٧/ وفي البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم. قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومني علي أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره علي قبل أن يخلقني؟ " قال رسول الله ﷺ: "فحج آدم موسى".[٢]

٨/ كما روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب ".[٣]

٩/ وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ الآية. قال: خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيبته، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم". وفي روايةٍ: "أخذ ذريته من ظهره كهيئة الذر"، وفي أخرى: "ثم أخرج ذريته من صلبه"، وأورده الطبري في تفسيره بلفظ "فأخرج من صلبه من ذريته ما يكون إلى يوم القيامة "، وهو عند الحاكم والنسائي بلفظ" فأخرج من صلبه ذريةً ذراها فنثرهم بين يديه".[٤]

---

[١] سبق تخريجه.

[٢] كتاب التفسير، باب ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾.

[٣] سبق تخريجه.

[٤] أخرجه أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، ط١، ١٤١٦هـ، دار ابن الأثير، الكويت، جـ ١، ص ١٤٤. و النسائي في سننه الكبرى، بيروت. عند تفسير سورة الأعراف، قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾، حديث رقم (١١١٩١). والطبري في تفسيره جـ ٩ ، ص١١٢ ، ١١٤، ١١٦ وتاريخه جـ ١، ص ٩٩. وابن أبي حاتم في تفسيره، جـ ٥ ، ص ١٦١٣. و الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان، برقم (٧٥)، وقال حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه، بألفاظٍ عِدة.

١٠/ وفي حديثٍ آخر ورد قوله ﷺ: " .. الناس بنو آدم وآدم من تراب ".[١]

١١/ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : "إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، إعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار" .[٢]

١٢/ وعنه أيضاً رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته – إلى قوله- ... فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك - يقال له: داود - فقال: رب! كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟! قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته ، وخطئ آدم، فخطئت ذريته". [٣]

وغير تلك الأحاديث الشريفة؛ وقد حرصنا إيراد جملةٍ من الروايات المتنوعة تبعاً لتنوع ألفاظ نسبة البُنوَّة إلى آدم عليه السلام في كل حديث. فتارةً نرى إثبات البنوة بلفظ الإضافة للاسم الظاهر؛ كـ "بني آدم، بنو آدم"، وتارة بلفظ التثنية كما في قصة "ابني آدم"، والإفراد بلفظ "ابن آدم". وتارة نرى إثباتها بلفظ الوالِدِيَّة كما في القَسَم في قوله تعالى "ووالدٍ وما ولد". وتارة يأتي إثباتها بالإضافةِ للضمير كما في لفظ "ذريته"، "ذريتك".

ثالثاً: إثبات أبوة آدم عليه السلام بدليلٍ عقلي:

إن أبوة آدم عليه السلام للبشر الإنسي ليست ثابتة بطريقٍ شرعي فحسب، رغم كفايته وإيفائهِ تماماً بما يهم عقيدة المسلم الذي آمن بالله رباً وبمحمدٍ ﷺ نبياً وارتضى الكتاب العزيزَ دُستوراً والإسلام شِرعة ومنهاجاً، وإنما قد ثبت أيضاً بدليلٍ عقلي لا شُبهة ولا غُبار عليه، فالنص الشرعيُ أصل؛ والدليل العقلي مزيدَ دلالةٍ وشهادةٍ له:

---

[١] رواه أحمد في مسند أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٨٧٢١) و (١٠٧٩١). وأبو داود في كتاب الأدب، "باب في التفاخر بالأحساب" برقم (٥١١٦)، والترمذي في كتاب المناقب، "باب فضل الشام واليمن" برقم (٣٢٧٠) وقال حديث غريب، وقال الشيخ الألباني صحيح. ورقم (٣٩٥٥)، وقال هذا حديثٌ حسنٌ غريب. والبيهقي في الشعب، جـ ٤ ، ص ٢٨٦، برقم (٥١٢٧).

[٢] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، "باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة"، حديث رقم (٨١)

[٣] أخرجهُ الترمذي، وصححه الألباني، حديث رقم (٣٠٧٦)

الدليل الأول: ثبوتُ أبوةِ آدمَ عليه السلام عقلاً لامتناع الدور وبطلانه:

الدليل العقلي هنا على أبوة آدم عليه السلام، يتلخص في أن النسل البشري لجنس الإنسان لابد أن يكون قد ابتدأ من نقطة معينة ومحددة، وهذه النقطة المعينة المحددة هي الفصلُ بين العدم والوجود لهذا الإنسان، ثم ببدايتها أو انطلاقتها أو بوجودها يكون انطلاق وبداية وجود الجنس البشري الذي قدره الله تبارك وعز وقضى بوجوده على الأرض لعمارتها وإصلاحها وإقامة ذكره سبحانه وتعالى عليها.

وبما أن القول باستمرارية وجود البشر الطيني أزلاً إلى مالا نهاية باطلٌ ومحال، لاستلزامه الدور وهو باطل، وجب اعتقادُ وجود الإنسان الأول الذي ترتد إليه جميع أنسال البشر الإنسي أو الطيني. فمن الناحية العقدية الدليل الشرعي يقرر: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء"[1]، "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء".[2]

فالله سبحانهُ وتعالى كان ولم يكن شيءٌ معه ولا شيءٌ قبله، وهذا يدلنا على أن البشر لم يكونوا شيئاً مذكوراً يوماً من الدهر، ثم لما شاء الله عزوجل أن يوجد الإنسانية، خلق الإنسان الأول الذي تفرع منه سائر البشر.

وعليه؛ فالسؤال الصحيح هاهنا: من هو هذا الإنسان الأول؟، وليس هل وُجد أم لم يُوجد، لأن وجودهُ مقطوعٌ به دون شك.

وأما بالنسبة لجواب السؤال، فمحالٌ أن يُعلم بطريقٍ يقيني ثابت صحيح، مالم يكن المُخْبَر قد شَهِد ذلك الإنسان الأول وعلم بداية كينونته وعايش زمانه؛ إذ هذا الحدث العظيم الذي أحدث تحولاً في منظومة المخلوقات، بانبلاج فجر مخلوقٍ جديد يُدعى "الإنسان"، لا شك أنه ضمن غيبٍ لا سبيل لمعرفته إلا بسبيلِ معرفة الغيبيات الأخرى؛ إنه الخبر الصادق والوحي الإلهي، ذلكم نبأُ الخبير العليم تبارك في عُلاه. قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك (١٤). وقال عز وجل: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ الأنعام (١٩)

وحيثُ كانت هذه المعرفة ضرورة ملحة لدى كل فرد بل الإنسانية بعموم، إذ تتطلع وتتشوف لأن تُدرك أصلها وحقيقة نشأتها، فقد عُني القرآن الكريم ببيان هذه الحقيقة وتقريرها بأكثر من موضع وأكثر من أسلوب، وعضدت سنة الهادي ﷺ ذلك البيان فأضافت مزيداً من التفصيل والشرح، وبذلك أُشبعت حاجة الإنسان

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب "وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم"، حديث رقم (٦٩٨٢)

[2] المرجع السابق، كتاب بدء الخلق، باب "ما جاء في قول الله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه"، حديث رقم (٣٠٢٠)

المعرفية في هذا الجانب، ورُوي ظمأ التطلع والسعي لسبر غورِ الأصل والمنشأ، فيا ربنا لك الحمد طُراً كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

إنه آدم ﷺ. ولعلنا نختم هذه الجزئية بما ذكره ابن الوزير[1] – عليه رحمة الله –، حيثُ يقول: "ومما ينبغي التيقظ له في الرد عليهم أن آدم هو أبو البشر وذلك معلومٌ ضرورةَ تواترٍ ودلالةٍ جلية؛ أما التواتر فواضح، وأما الدلالة فمحال أن يكون البشر من أم وأب وإلى ما لا نهاية لأن عدم التناهي في الحوادث الماضية محال" .[2]

الدليل الثاني: ثبوتُ أبوةِ آدم عقلاً لاستكمالِ صور الخلق البشري:

إن العقل لا يُنافي أبوة آدم عليه السلام للبشر الإنسي، وهي تأتي استكمالاً لنصاب الخلق البشري. لأن العدد الزوجي أو المثنى تكتمل أزواجهُ عند وجود الصور المتقابلة، وهذا أمرٌ بدهي معلوم. فمثلاً لو كان لدينا لونان أبيض وأسود، فإن طمحنا لإحداثِ مزيجٍ منهما تارة بغلبة اللون الأسود وتارة بغلبة اللون الأبيض، فسينشأ لدينا لونان جديدان هما؛ الرمادي الداكن والرمادي الفاتح، وهكذا.

فالله سبحانه وتعالى قدَّر أن يكون خلق البشر من أبوين؛ هما الذكر والأنثى، وهذه سُنتهُ عزوجل لتكثير النوع واستمراريته، قال تعالى: ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ الشورى (١١)

وقدَّر خلق عيسى عليه السلام من أمٍ – وهي مريم عليها السلام- دون أب؛ قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران (٣٧)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران (٥٩).

---

[1] محمد بن إبراهيم الوزير بن علي بن المرتضى ابن المفضل الحسني القاسمي الهادوي. الإمام العلامة والمحدث الأصولي النحوي المتكلم الفقيه السني الصوفي. كان فريد عصره، و مولدهُ في شهر رجب سنة ٧٧٥هـ. وله مصنفات عديدة ومجموعات مفيدة منها: كتاب "العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم"، وقد ألفه في الرد على الزيدية، وكتاب "البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع"، وكتاب "إيثار الحق على الخلق" صنفه في سنة ٨٣٧ هـ إلى غير ذلك. وقد ذكر له الحافظ: ابن حجر العسقلاني في كتابه: الدرر الكامنة ترجمة حافلة وأثنى عليه ثناء كثيرا جميلا لم يثن بمثله أحدا توفي – رحمه الله – في الطاعون الذي وقع في اليمن شهيدا في سنة ٨٤٠ هـ فكان جملة عمره ستاً وستين سنة.

[2] إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد، لمحمد بن نصر المرتضى اليماني المعروف بابن الوزير، ط٢، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ ١، ص٥٠

وقدَّر خلق حواء من آدم عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المرأة خلقت من ضلع"[1]، قال الشارح: "وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ النساء (١)".[2]

فالعقل لا يعارِض وجود صورة رابعة للخلقِ، بلا أي سبب بشري؛ حيثُ وجد ما هو بسبب من الذكر، وما هو بسبب من الأنثى، وما هو بسبب اجتماعهما؛ فبقيت صورةٌ رابعة، وهي ما يكون بانتفائهما؛ وهذا قد دلت عليه النصوص الشرعية؛ أنهُ آدم عليه السلام.

ولعل من نافلةِ القول أن نذكر أن جميع صور الخلق من قبيل الغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا بالخبر الصادق المعصوم، عدا الصورة المعلومة لدى البشر مما قررتهُ شهادة الواقع بأن المولود لا يكون إلا عن اجتماع أبويه.

فمن آمنَ بخلقِ نبيّ الله عيسى عليه السلام على النحو الذي ورد به الوحي المطهر، وآمن بخلق أمنا حواء عليها السلام على النحو الذي ورد به الوحي المطهَّر أيضاً، وآمن بقدرةِ الله سبحانه وتعالى في خلقِ الناس من نطفةٍ أمشاجٍ باجتماعِ المائين؛ لزمهُ بالضرورة أن يؤمن بخلق أبينا آدم عليه السلام على النحو الذي قررهُ الوحيُ الشريف دون تأويلٍ أو تلاعُبٍ بالنصوص.

والمؤمن الحق يؤمن بما أنزل الله في كتابه وما أخبر به رسولُه صلى الله عليه وسلم، دون ردٍ أو تأويلٍ للنصوص الشرعية بأيِّ حُجةٍ أو ذريعة. مقتدياً بهدي السلف الصالح الذين فهموا عن ربهم سبحانه وتعالى كلامه، وفهموا عن نبيهم صلى الله عليه وسلم كلامه، بفطرتهم السَوِيَّة دون جدلٍ أو ارتياب، فضلاً عن تأويلٍ فاسد بزعم أن العلم التجريبي الحديث يُعارضه!.

قال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ الأعراف (٧)، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ طه (٩٩)، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ الكهف (١٣) وقال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الكهف (٥١).

يقول الإمام القرطبي –رحمهُ الله- في تفسيرهِ لهذه الآية: "فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط في هذه الأشياء".[3]

---

[1] أخرجهُ الإمام مسلم، بكتاب الرضاع، باب "الوصية بالنساء"، حديث رقم (١٤٦٨)

[2] شرح النووي على مسلم، كتاب الرضاع، باب "الوصية بالنساء"، حديث رقم (١٤٦٨)

[3] الجامع لأحكام القرآن، جـ١٠، ص٣٧٨

ويقول أيضاً: "قال الثعلبي: وقال بعض أهل العلم ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض رد على المنجمين أن قالوا: إن الأفلاك تحدث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقوله: والأرض رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا: إن الأرض كروية والأفلاك تجري تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله: ولا خلق أنفسهم رد على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس".[١]

ويُقال كذلك: وفيها ردٌ أيضاً على كل نظريات الخلق الحديثة عامةً، التي تُعارِضُ ما أخبر به الله ﷻ في كتابه الكريم، وما أخبر به رسولُهُ ﷺ في سنتهِ الشريفة المطهرة، ونظريات خلق الإنسان بخصوص.

[١] المرجع السابق، جـ١٠، ص٣٧٨

ومما سبق نستخلص أن:

- آدم عليه السلام مخلوقٌ ضمن منظومة الخلق الإلهي، وأنهُ خلقٌ مستقلٌ بذاته أنشأه الله تبارك وتعالى لعبادته وإقامة ذكره على الأرض وعمارتها.
- آدم عليه السلام يمثلُ نوع البشر الطيني كما يُفهم من ظاهر نصوص خلق آدم عليه السلام.
- خلق آدم عليه السلام قد مر بمراحل ومدد علم كيفيتها عند الله تعالى.
- آدم عليه السلام هو أبو البشر الطيني وهو الإنسان الأول كما دلت النصوص الشرعية.
- أبوة آدم عليه السلام للبشر الإنسي ثابتة شرعاً وعقلاً.

الباب الثاني

جذور الانحراف الفكري في خلق آدم عليه السلام

وفيه أربع فصول:

الفصل الأول: خلق آدم عليه السلام في العهد القديم

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد

الفصل الثالث: خلق آدم عليه السلام في بعض الأديان الوضعية القديمة

الفصل الرابع: أبرز النظريات الفلسفية والعلمية حول خلق آدم عليه السلام

الفصل الأول

خلق آدم عليه السلام في العهد القديم

توطئة

إن القارئ لعقائد اليهود والنصارى بشأن خلق آدم عليه السلام، لا يلمس فيها معنى التكريم لأصل البشر، والذي أساسهُ الأول تكريم أبينا آدم عليه السلام على نحو ما هو موجود في دين الإسلام الحنيف. وقد أخبرنا عنه الله سبحانهُ وتعالى مما يستلزم التأدب مع خبره عزوجل وما تعلق به ذلك الخبر الإلهي وهو آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ*وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ۞ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ۞ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة (٣٠-٣٧)

بل على العكس، يستشعر القارئ المتصفّح للكتاب المقدس بأن ذلك الإنسان الأول لم يكن سوى رمزاً للهمجية والشر والفساد في الأرض، والخطيئة والعصيان، والتي بدورها جرَّت الويلات على هذه الأرض وكائناتٍ حوتها حيثُ تسببت في استصدار قرارٍ إلهي بإهلاك جميع ما عليها بطوفانٍ داهم.

وغير تلك المعاني التي لا تليق بفضلاءِ القوم و نبلائهم، فضلاً عن أنبياءِ الله ورسله، لاسيما أولهم وهو نبيٌّ مكرم قضى الله عز وجل أن يكون والداً للبشريةِ أجمع، وأصلاً للثقلِ الإنسي قاطبة.

ولاشك أن مثلَ تلك المعاني مما يقدح في عقيدة المرء أياً كان، فضلاً عن مسلمٍ يؤمن بالله واليومِ الآخر، وبالكتاب العزيز الذي تحدث عنهم بعباراتٍ تكريمية تحفظ لهم قدرهم الذي رفعهم إليه المولى عز وجل حتى في مقاماتِ العِتاب الإلهي لهم على إثر خطأٍ في اجتهاداتٍ بشرية، أو صغائر قدَّرها الباري عليهم قبل خلق السموات والأرض، لحكمٍ إلهية قد تخفى علينا وإن بدا لنا بعضاً منها.

والمتأمِّل لتلك المعاني المسيئة التي حوتها بعض نصوصِ العهدين فيما يتعلق بخلق آدم ﷺ، أو بعض نظرياتٍ محسوبة على العلمِ وهو منها براء، يجد أن تلك المعاني السوداوية لا تسيء إلى آدم وحدهُ فحسب، وإنما تنسحب على كافةِ الجنس الذي تفرَّع عنه.

ولذلك نجد أن أولئك المعتقدين لتلك المعاني المتنقِّصة لأبي البشر آدم ﷺ، لا يرون أنفسهم ضمن منظومة البشر المنتسب إلى آدم ﷺ، أو يترفعون بشكلٍ أو بآخر عبر اعتقاداتٍ أخرى يدينون بها. وفي كلا الحالَيْن لم تخلُ تصوراتهم من نظرةِ ازدراءٍ -لا تليق- يتوجهون بها نحو أبيهم الأول وأصل إنسانيتهم كما سنرى.

ولعل من الأهمية بمكان، تقرير أن تلك التصورات القاصرة في حقِ أبي البشر آدم ﷺ لم تكن لتحدث لولا عوامل التحريف والتبديل التي طالت تلك الكتب السابقة فأفسدت كثيراً من تصورات أصحابها عن صفوةِ البشر وهم رسل الله بعموم، وأبونا آدم ﷺ على وجه الخصوص. وسيظهر لنا جلياً من خلال الأسطر القادمة بأن كل فريقٍ ممن يؤمنون بالكتاب المقدس بقسميه؛ العهد القديم والجديد، قد انحرفت تصوراتهم في آدم ﷺ تبعاً لعقائدَ كاذبةٍ أحدثوها في دينهم ما أنزل الله بها من سلطان، فانحرفت بذلك عقيدتهم في أصلهم البشري المكرَّم آدم ﷺ، حتى خرجوا عن حدودِ الأدب الواجب في حقهِ كوالدٍ للبشر ونبيّ موحى إليه، فضلاً عن سائر أنواع التكريم التي شرَّفهُ بها خالقهُ ﷻ.

كذلك الشأن فيما هو بشريٌ وضعي، من ديانات وثنية تخبطت في أساطير خلق الإنسان مبتعدةً عن الجادة والصواب والهدي القويم، فغدت أضغاث أَخْيِلةٍ وأوهام، ليس لها في الحقيقةِ والواقع و الصدق من حظٍ ولا نصيب.

وما ذاك إلا لأن هذه العقيدة ومثيلاتها لا سبيل إلى معرفتها إلا بطريق السمع وخبر الوحي الإلهي –كما أسلفنا- فهو وحده الذي يمدنا بالصدق والنبأ الفصل الحق، مما تستقيم معه تصورات الناس وتسلم به عقائدهم.

وكذلك الشأنُ أيضاً فيما يُطلق عليه "نظريات العلمِ الحديث"، فما لم ترتقِ تلك النظريات أو الفَرَضيات لتصبح حقائق علمية لا يداخلها الشك، فلا مجال لتفسيرِ خلق الإنسان أو أصل البشر ووجودهم على ضوئها أو على غرارها، لأن ذلك لن يخلُ من إجحافٍ أو تعدي. فكيف وقد وُجد النص المعصوم الصادق بإطلاق؟!.

لا ريب أن المسألة هاهنا ستأخذ منحىً آخر ويغدو الأمر أكثر خطورة، لأنهُ خرج حينئذٍ من مجرد التفسير لحدثٍ أو شيءٍ ما، إلى معارضةِ النصِّ الإلهي الذي لاريب فيه، والتعدي عليه بالرد أو التأويل، الأمر الذي يهدد إيمان المرء بربهِ تعالى وكتبهِ ورسله.

وأما سبب هذا المسلك الحديث فعقدة الانهزامية التي أنتجتها نظرة الانبهار للغالب الأقوى، ويدلُ على هذا ما ذكرَهُ أحد ذوي الاختصاص في الدراسات النقدية بقوله: "وهذه الآلية في التأويل والمنبهرة بما عند الغرب من علوم ونظريات حاولت تأسيس معنى النص على مخرجات الحضارة الغربية، وانطلقت من الحضارة الغربية إلى النص بُغية تشكيل معنىً جديد يدفع عقدة التخلف والهاجس النفسي بالانهزامية".(١)

وسيتضح معنا ذلك خلال الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

(١) ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، دراسة نقدية إسلامية، للدكتور خالد بن عبد العزيز السيف، ط١، ١٤٣١هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعودية – جدة. ص٤٧

الفصل الأول

خلق آدم عليه السلام في العهد القديم

أما بشأن خلق آدم عليه السلام في العهد القديم، فعند اطلاعنا على إطلاق اسم "آدم" الوارد في الكتاب المقدس بقسمي عهده القديم والجديد، نجده عَلَماً على الإنسان الأول الذي تنتمي إليه البشرية. **فقد جاء في مادة "آدم" من قاموس الكتاب المقدس:** اسم عبري ومعناه "إنسان" أو "الجنس البشري"، وهو الإنسان الأول.[1]

و نصوص العهد القديم الواردة في آدم عليه السلام، يمكن تقسيمها -من حيثُ المذكورِ بها وهو آدم عليه السلام- إلى قسمين:

1- **قسمٌ يرد فيه ذكر آدم عليه السلام صراحة.**
2- **وقسمٌ يرد فيه ذكرُ البشر أو الإنسان.**

وسنتناول كلاً منهما بشيءٍ من التفصيل؛ ولكن قبل ذلك يجدرُ التنبيهُ إلى مسألةٍ مُهمة؛ وهي أن تلك النصوص الواردة في العهد القديم أو الجديد على السواء، وإن صَحَّتْ معانيها أو اقتربت مما في شرعنا، إلا أننا لا نعتقدُ نسبتها بلفظها إلى الله تعالى مباشرة، حيثُ مَرَّت كتابتها بمراحل مختلفة في عهود متطاولة.

كما أن الترجمة من لغةٍ إلى أخرى، يُعدُ عاملاً مؤثراً في تركيبِ نصوص العهدين مما يجعلها تختلف بالضرورة عن لفظِها الأصلِ الإلهي المُنزل وإن صحَّ معنى الترجمة. ناهيك عن عوامل التحريف والتبديل التي طالت تلك النصوص[2]، حيثُ دوِّنت على أيدي كَتَبةٍ تولوا تحريرها من جديد بعد ضياعِ توراةِ موسى عليه السلام.[3]

ويزدادُ الأمرُ وضوحاً فيما نريد تقريرهُ هُنا إذا تأملنا التسمية؛ فقد استحدث الكَتَبَةُ مُسمَّيَاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان؛ وما «العهد القديم» وَ «العهد الجديد» إلا دليلاً واضحاً على ذلك؛ وإنما أنزل الله تبارك وتعالى «التوراة» و«الإنجيل» لا ما أُطلقَ عليه العهد القديم أو الجديد!.

---

[1] أنظر: قاموس الكتاب المقدس، تأليف مجموعة من أساتذة اللاهوت، ط١٠، دار مكتبة العائلة، القاهرة. مادة "آدم"، ص٣

[2] وهذه حقيقة معلومة من ديننا بالضرورة، حيثُ أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك التحريف الذي طال التوراة من اليهود، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ المائدة (١٣)

[3] اليهودية، للدكتور أحمد شلبي، ط١١، د.ت، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ص٢٥٦

وعليهِ؛ فمهما حاول بعضُ المؤرخين إطلاق اسم التوراة على الأسفار الخمس أو بعضها، فذلك لا يُضفي عليها صِفة الإلهية الأصيلة التي كانت عليها توراة موسى وإنجيل عيسى عليهما السلام.

وكما يقول د. أحمد شلبي: "كُتبت أسفارُ العهد القديم باسم الله، والله منها بريء، إنها في الحقيقة صدىً لانفعالات اليهود وأحاسيسهم".[1]

والمُفادُ مما سبق ذُكره؛ أن ثمة نصوصاً صحيحة المعنى، فنقول معناها صحيح ولكن لا ننسبها بلفظها إلى الله عزوجل. ونصوصاً أخرى فاسدة المعنى واضحة البطلان، كبعضِ نصوص الصفات الإلهية في كلا العهدين، -مما بعُد عن التنزيه الواجب في حق المولى عزوجل-، فهذه باطلة مردودة لا يُشكُ في بطلانها وفسادها. وهذا النوع الأخير هو الذي استُنفرتْ جهودُ علماء المسلمين قديماً وحديثاً لتفنيدهِ والردِ عليه.[2]

وفيما يلي سنتناول قِسمي النصوص بشيءٍ من البيان.

أولاً: قسمٌ يرد فيه ذكر آدم عليه السلام صراحة:

فمن ذلك ما ورد في معرِضِ قصة خلق آدم أو حواء؛ كالنصوص الواردة في سفر التكوين:

- "وجَبَل الربُّ الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفهِ نسمة حياةٍ. فصار آدم نفساً حيَّة".(تك٢:٧).
- "وقال الربُّ الإله: ليس جيّداً أن يكون آدم وحدهُ، فأصنعُ له معيناً نظيره".(تك ٢ : ١٨)
- "فأوقع الربُّ الإله سُباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعهِ وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي".(تك ٢ : ٢١-٢٣)

ومنها ما ورد في معرِض ذكر أبناء آدم عليه السلام، كهذا النص:

- "فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذَين كان بنو آدم يبنونهما".(تك ١١: ٥)

ومنها ما ورد بمعرِضِ الحديث عن مسكنِ آدم وزوجه:

---

[1] اليهودية، ط١١، د.ت، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ص٢٦٦

[2] فقديماً أمثال الإمام ابن حزم –رحمهُ الله- وغيرِهِ، أما حديثاً فنقَّادُ العهد القديم من المسلمين يخرج عن الحصر. ونذكر على سبيل المثال الدكتور أحمد شلبي الذين استشهدنا ببعض ما ورد في كتابه.

- "وغرس الربُ الإله جنةً في عدنٍ شرقاً، ووضع هناك آدمِ الذي جبلهُ".(تك ٢ :٨)
- "وأخذ الربُّ الإله آدمِ ووضعهُ في جنةِ عدنٍ ليعملها ويحفظها".(تك ٢ : ١٥)
- "وأوصى الربَّ الإله آدمِ قائلاً: من جميع شجرِ الجنةِ تأكلُ أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها".(تك ٢ : ١٦)

ومنها ما ورَدَ فيه اسمُ آدم الطَيْكِلاٍ بمعرِض التعليم أو الامتحان كما يفيدُ ذلك ظاهر النص، كالنص الذي بين أيدينا: "وجَبَلَ الإله من الأرض كل حيواناتِ البريَّة وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدمُ ذات نفسٍ حيَّة فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسهِ فلم يجد معيناً نظيره".(تك ٢ : ١٩ – ٢٠)، وغير تلك النصوص.

ثانياً: قسمٌ يرد فيه ذكر البشر أو الإنسان:

أمثال النصوص الآتية:

- "وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا".(تك ١ : ٢٦)
- "فخلق الله الإنسان على صُورته".(تك ١ : ٢٧)
- "وقال الرب: هوَذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر".(تك٣ : ٢٢)
- "فقال الرب: لا يدينُ رُوحِي في الإنسانِ إلى الأبد لزيغانِهِ، هو بشرٌ. وتكونُ أيَّامهُ مئةً وعشرين سنة".(تك ٦ :٣). وغير تلك النصوص.

ولعلَّ السؤال المتبادر هاهنا: هل البشر والإنسان المذكوران في النصوص الآنفة وغيرها مما ورد في العهد القديم، يُقصدُ بهما آدم الطَيْكِلاٍ، أم لا؟ وبالتالي تكونُ قصة خلق آدم هي ذاتها قصة خلق البشر أو الإنسان الأول بحسبِ تعريف قاموسِ الكتاب المقدس، فيكونُ الاسمانِ الآخرانِ وصفاً وسِمة لآدم الطَيْكِلاٍ، كما هو الحال في التصور الإسلامي. أم أن المسميَّاتُ الثلاثة متغايرات؟

وبمعنى آخر؛ هل آدم الطَيْكِلاٍ، هو البشر والإنسان المذكور في النصوص السالفة وغيرها أم لا؟

وللردِ على هذا التساؤل لابد من استقراء بعض النصوص التي وردت فيها المفردات الآنفة الذكر؛ **آدم**، **بشر**، **إنسان**. وسنستعرض فيما يلي بعض نصوص خلق آدم عليه السلام، ونقارن بينها لنرَ إن كان حديثها يُعبرُ عن مدلولٍ واحدٍ معيَّن؛ هي شخصيةُ آدم عليه السلام، أم لا.

ولكن قبل ذلك نتساءلُ أيضاً: هل آدم في العهد القديم، و آدم عليه السلام في الدين الإسلامي، شخصيةٌ واحدة أم لا؟ بمعنى أن ما ورد في الدين الإسلامي والفكر اليهودي عن قصة خلق آدم، إنما هي قصصٌ تروي وتُؤرِّخ لشخصيّةٍ واحدة.

قد تبدو الإجابة بدهية لتشابه قصتي الخلق، وبعض تفصيلاتها الواردة؛ كالخلق من طين أو تراب، و الإسكان في الجنة، وخلق حواء لمؤانسةِ آدمَ، والنهي عن الأَكل من الشجرة، ووسوسةَ إبليس بعد ذلك و إهباطهما إلى الأرض، وكون آدم عليه السلام الانسان الأول، وأبو البشر، وغير ذلك.

وإذا اقتفينا أثر بعض الاسرائيليات التي تسللت إلى الفكر الإسلامي عبر بعض كتب التفسير، نجدِ اتحاد الشخصيتين؛ آدم عليه السلام في الدين الإسلامي، وآدم في الفكر اليهودي. إذ يقتبس بعض المفسرين بعضاً من نصوص التوراةِ يضمنونها تفسيراتهم، ونجد بعض مسلمةِ اليهود يستعينون ببعضِ نصوص التوراة لتفسيرِ وشرحِ ما ورد في القرآن الكريم من قَصَص. وهم في ذلك لا ينكرُ بعضهم على بعض أصول تلك القَصَص -وإن ردوا بعض تفصيلاتها ظاهرة الفساد-، أو بعضِ شخوصها، كآدم عليه السلام.

ولنأخذ على سبيل المثال ما أوردهُ الإمام الطبري عند تفسيرهِ لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ البقرة(٣٥).

يقول: "فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره: ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحما، وآدم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السِّنَة وَ هبَّ من نومته، رآها إلى جنبه، فقال، فيما يزعمون والله أعلم: لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها".[١]

وأصلُ هذا النص ما ورد في العهدِ القديم: "فأوقع الربُّ الإله سُباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعهِ وملأ مكانها لحماً. وبنى الربُّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي".(تك ٢ : ٢١-٢٣)

---

[١] تفسير الطبري، جـ١، ص٥١٤

فهذا النص يُحاكي ما أوردهُ الإمامُ الطبري من حيث معناه، وإن اختلفت بعضُ ألفاظه -وهذا وارد-، لعهود الترجمة والتبديل المستمرَيْن.

فتطابق السِمات في كلا العَلَمَين يُدلُ على أنهما يتعلقان بشخصيةٍ واحدة؛ فآدمُ عليه السلام في الدين الإسلامي، هو الإنسانُ الأول وأبو البشر الذي تفرعت عنه سائر البشرية. وكذلك المعنى في العهدِ القديم، فقد سبق وأن أوردنا مدلول كلمة "آدم"، بأنها تعني "إنسان" أو "الجنس البشري"؛ وهو الإنسان الأول[1]، وكذلك تعليم الأسماء أو تعريفها، وصدور المعصية بالأكل من الشجرة، وغير ذلك.

ولعل من الأهمية بمكان أن نؤكد على أن خلق آدم عليه السلام وأصل البشر، تُعد من القضايا الأساسية التي لا يُتصور السكوت عنها في أي كتابٍ سماوي، كما هو شأن العقائد الكبرى؛ كالإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر والرُسل والمصير والمعاد. ولكن قد يطال تلك الكتب السماوية -في أصلها- شيءٌ من التحريف والتبديل مما يؤدي لاختلال العقائد واختلافها عما أنزلت عليه، أو اختفاء بعضها بالكلية.[2]

يقول د. شلبي: "من الناحية الواقعية التاريخية يتضح أن بني إسرائيل أهملوا المصدر الحقيقي للعقيدة وهو السماء، وانساقوا خلف مصادر أخرى، فقد مرت ببني إسرائيل أحداث خطيرة عاشوا في مصر ووقعوا بين شقي الرحى في فلسطين، ونفوا إلى بابل، وفي فترة الصراع بينهم وبين الدول ثم في فترة التشرد كتبوا العهد القديم، ووضعوا التلمود، وبروتوكولات حكماء صهيون، وأصبحت هذه هي المصادر الواقعية للعقائد اليهودية".[3]

فالذي يُعتقد أن قصة آدم عليه السلام قد وردت في التوراة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، على نحو ما في دينِ الإسلام. ويشهدُ لذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من احتجاج آدم وموسى عليهما السلام. الأمر الذي يُوحي بورود أركان القصة الأساسية في التوراة، على نحو ما ورد في الدين الإسلامي، وإن اختلفت الأساليب واللغة.

ونعودُ للتساؤل الذي أوردناه سابقاً؛ هل آدم عليه السلام، هو "البشر" و "الإنسان" المذكور في نصوص العهدِ القديم التي مر بعضها معنا أم لا؟

---

[1] راجع ص٥٦

[2] كاختفاء عقيدة البعث واليوم الآخر على سبيل المثال. أنظر: اليهودية، ص٢٠٥-٢٠٧

[3] اليهودية، ص١٨٦

ولكي نجيب على هذا التساؤل، لابد من العودة إلى قرائنِ النصوص:

***القرينة الأولى:** في النص الذي يروي خلق الله "للإنسان"، ليتسلَّط على جميع دواب الأرض وطير السماء، فجعلهُ يتعامل مع الأرضِ التي خلقهُ منها، وجاء في النص عزم الإله لخلق آدم "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا"، ثم بعد ذلك خلق الإنسان "فعمل الله الإنسان". مما يُفهمُ من سياق النص أن المراد بذلك الإنسان الأول، وهو آدم كما مرّ معنا سابقاً في تعريفِ اسم آدم.

***القرينة الثانية:** أن الرب أوصى آدم وزوجهُ حين أسكنهما الجنة قائلاً "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها".(تك ٢ : ١٦-١٧)، ثم لما وقع آدم في الخطأ بأن أكل من شجرة المعرفة، قال الرب عندئذٍ "هُوَذا الإنسان صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر"، مما يدل على أن الإنسان المقصود به في النص هو آدم.

***القرينة الثالثة:** ما جاء في النص قبل خلق آدم "هذه مبادئ السموات والأرض حين خُلقت، ... وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسانٌ ليعمل الأرض". ثم لما خلق آدم وأسكنهُ الجنة، إنما كان المرادُ منه **أن يعملها**، يروي النص: "وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنةِ عدن ليعملها ويحفظها".

فالعمل والحفظ مختص بآدم أو الإنسان المخلوق على صورة الله –كما هو لفظ النص-، وإن اختلف مكان ذلك الحفظ أو العمل، ويؤكد هذا المعنى؛ أن آدم لما أُخرج من الجنة –بحسب رواية النص-، أخرج ليعمل الأرض التي أُخِذ منها، يروي النص: "فأخرجهُ الربُّ الإله من جنةِ عدنٍ ليَعمَلَ الأرض التي أُخذ منها".(تك ٣ : ٢٣)

***القرينة الرابعة:** مرافقة اسم حواء لآدم والأنثى للإنسان، مع اتحاد القصد. فحين وضع الرب آدم في الجنة ثم بدا له أن يجعل له مُعيناً نظيراً خلق حوَّاء،(تك ٢: ١٨)، وفي النص الذي يذكر خلق الإنسان يروي خلقهُ ذكراً وأنثى،(تك ١: ٢٧).

ففي الأولى وهي خلق الإنسان ذكراً وأنثى، باركهم وقال لهم "أثمروا وأكثروا و املأوا الأرض". وفي الثانية عند ذكر آدم وحواء -وبعد أن أُخرجا من جنةِ عدنٍ إلى الأرض- جاءت رواية النص "وحَدَثَ لما ابتدأ الناس يكثرون". فالكثرة مرادةٌ من الإنسان وآدم باعتبارهما بداية النوع الآدمي أو الإنساني، مما يقوِّي الرأي بأنهما وصفان لشخصيةٍ واحدة.

وأما لفظ "بشر"؛ فإذا رجعنا للنص الذي ذُكِرت فيه هذه اللفظة، نجده تتمة سياقِ النص الذي يحكي فساد الأرض بسبب بنات الناس!؛ يروي النص: "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيَغانهِ، هو بشرٌ. وتكونُ أيَّامُهُ مئة وعشرين سنة".(تك ٦ : ١-٣)

فإطلاق لفظ "بشر"، -وتحديد عمر الإنسان بمئة وعشرين سنة-؛ يوحي سياق النص أن ذلك كان على سبيلِ الذم بعد غضِبَ الرب على الإنسان.

ويؤيدُ هذا المعنى تخصيص الظلم بالبشر وتعميم قرار الإهلاك أو الإفناء، يروي النص قول الرب: "نهاية كل بشرٍ قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مُهلِكهم مع الأرض".(تك ٦ : ١٣)

ولكن هذا ليس على إطلاقه لأن بعض النصوص وردَ فيها ذكرُ البشر، ولكن ليس في سياق الذم، كمثل هذا النص: "إن عُدنا نسمعُ صوت الربِّ إلهنا أيضاً نموت. لأنهُ من هو مِنْ جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش؟".(تثنية ٥ :٢٦)

ولعل فصل القول أن ننبِّه إلى أن نصوص العهد القديم ليست منضبطة لفظياً[١]، وهذا أمرٌ بدهي طالما أنها قد طالتها يدُ التحريف والتبديل، فنسخةُ التوراة مثلاً في أيامِ السموأل، تختلفُ عن نسخ ما يُطلقُ عليه العهد القديم، وسنوردُ مثالاً واحداً للتدليل:

ورد في سفر التكوين: "فتنسَّم الربُّ رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: لا أعودُ ألعنُ الأرضَ أيضاً من أجلِ الإنسان، لأن تصوُّر قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته".(تك ٨ : ٢١)

وهذا النص أوردهُ السموأل[٢] –رحمهُ الله- في كتابهِ الذي ردَّ فيه على يهود، فأورد نصاً باللغةِ العِبرية، ثم عقَّب بقوله: "تفسيره: (فاستنشق الله رائحة القُتَار، فقال الله تعالى، في ذاته: لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس؛ لأن خاطر البشر مطبوعٌ على الرداءة ولن أعاود إهلاك جميع الحيوان، كما صَنَعتُ!!)".[١]

---

[١] وبالتالي فلا فائدة معنوية من وراء اختلافِ نصٍ عن آخر، على نحو ما هو موجود مثلاً في القرآن الكريم؛ فزيادة المبنى يُستفادُ منها زيادةٌ في المعنى، وورود لفظةٍ في سياق يفيدُ معنىً جديد غير ورودها في موضعٍ مغاير لأنهُ تنزيلٌ إلهي تكفَّل الله سبحانهُ وتعالى بحفظه. أما الكتب المكتوبة بأيدي البشر الذين أضاعوها أيما إضاعة، فذلك الثراء المعنوي غير وارد فيها بعد تبديلها.

[٢] هو الإمام المهتدي السموأل بن يحي المغربي، المتوفى عام (٥٧٠هـ). من شبابِ بغداد كان يهودياً فأسلم، وقد وُلد في بيت علم فكان أبوهُ حبراً يهودياً، وحَرِص على تنشئة ابنه تنشئة علمية جيدة، فتمكن من اللسان العِبري، ودرس التوراة وفقهها وعلومها. كما كان له نصيبٌ من الفصاحة والبلاغة. أنظر: إفحام اليهود، ص٢١-٢٣

فكلا النصَّينِ يروِيانِ قصة ما بعد الطوفان -وهلاك ما على الأرض من كائنات باستثناء أصحاب السفينة-، وبناء المذبح ورضى الرب بعد استنشاق رائحةِ شواء القرابين المقدمة له![2]، وقد جرى ذكر لفظة "الإنسان" في النص الأول، بينما ذُكرت لفظة "الناس" وَ "البشر" في النص الذي ساقهُ الإمام السموأل.

وعليهِ؛ فيكون المراد بالإنسان في النص الذي يروي خلقهُ؛ هو آدم الذي أُخرج من جنةِ عدن بعد أن تناول من شجرةِ المعرفة وصار عارفاً الخير والشر، بحسبِ تصوير عبارة العهد القديم، فما حقيقةُ هذا الإنسان؟

إذا رجعنا لاستعراض فقرات خلق آدم في العهدِ القديم –والتي تفرَّعت عنها أقوال حاخامات اليهود- ، نجدها قد تنوعت بين نصوصٍ ذُكرت فيها مادة الخلق، وأخرى تناولت ذكر الكيفية بشكلٍ مبسطٍ جداً ومحصورٍ في الماهية.

فبالنسبة لمادة الخلق: فقد ورد النص: **وَ "جَبَل" بمعنى**: خَلَقَ[3]. كما ورد ذلك المعنى أيضاً في نصٍ آخر: "بعرقِ وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها. لأنك ترابٌ، وإلى ترابٍ تعود".(تك ٣: ١٩). وهذا يُفهمُ منه أن خلق آدم عليه السلام كان من تراب بحسب روايةِ العهد القديم.

و أما الكيفية: فلا نكاد نجد فيها مراحلَ تحوّلٍ من حالةٍ إلى أخرى، ولا فترات زمنيةٍ تتعلق أو تختص بالحالة الواحدة. فبينما تروي بعض الفقرات أن الإنسان شِبهُ الله أو على صورةِ الله، نجد بعضها يقرر ماهية ذلك المخلوق وأنه كان يتألف من الجنسين معاً، أي الذكر والأنثى في ذات الوقت.

جاء في النص: "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا".(تك ١: ٢٦). وفي نص آخر: "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورةِ الله خلقه. ذكراً وأنثى خَلَقَهُم".(تك ١ : ٢٧)

أما عن كيفيةِ استواءِهِ مخلوقاً حياً، فيروي النص: "وجَبَلَ الربُّ الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفهِ نَسَمَة حياةٍ. فصار آدمُ نفساً حية".(تك ٢: ٧)

---

[1] إفحام اليهود، تقديم وتحقيق وتعليق؛ الدكتور محمّد عبد الله الشرقاوي، ط١، ١٤٠٦هـ، دار الهداية، مدينة نصر، ص١٣٥

[2] وهذه الفِرية ليست إلا أحد آثار تحريف اليهود لكتابهم، -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-. وقد دحض القرآن الكريم هذه الفِرية وردَّ عليها مُبيناً أن النفع والخير عائدٌ على المقرّب بحصول الأجر والتقوى وليس لله سبحانه وتعالى نيْلاً من لحوم نلك القرابين ولا دماؤها، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ﴾ الحج (٣٧)

[3] معجم الكلمات الصعبة للعهد القديم، مادة "جَبَلَ"، ص١٥

وجملُ القصة يحكيها نصٌ آخر: "هذا كتاب مواليد آدم، يوم خلق الله الإنسان. على شبه الله عمله. ذكراً وأنثى خلقه، وباركه ودعا اسمهُ آدمَ يوم خُلق".(تك ٥: ١-٢)

وأما نسبة البشر إلى آدم عليه السلام وأبوّته لهم، فقد وردت فقراتٌ عدة تفيد ذلك المعنى، نذكر منها إضافةً للنص الآنف:

١/ "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثِروا واملأوا الأرض".(تك١ : ٢٧-٢٨)

٢/ "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة".(تك٦ : ١-٣)

٣/ "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض".(تك٦ : ٥-٦)

٤/ "فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما".(تك١١ : ٥)

كما أفادت تفسيرات اليهود وشروحهم معنى أبوة آدم للبشر، وكونهُ أول إنسان ابتدأ به العهد البشري على هذه الأرض، وسيمر معنا بعضها خلال الأسطر القادمة.

*حقيقة خلق آدم عليه السلام في التصوُّر اليهودي:

إننا لن نستطيع تناول خلق آدم عليه السلام في العهدِ القديم بمعزلٍ عن أقوالِ عُلماءِ اليهود وأحبارهم التي فسَّرت تلك النصوص وشَرَحتها فيما يُسمى "بالتلمود"[1]؛ نظراً لما له من أهميةٍ كبيرة عند اليهود حيثُ يُقدمونهُ على التوراة حقيقة[1]، وإن جعلوه في المنزلة التالية ترتيباً.

---

[1] "التلمود"؛ معناه التعليم، وهو بحسبِ زعم يهود: القانون الشفهي الذي نقلهُ الحاخامات جيلاً بعد جيل، حتى كان تدوينُه في أواخر القرن الخامس الميلادي. وهو عندهم تلمودان: التلمود المقدسي أو الأورشليمي وقد تم تدوينه بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين، وقد كَتَبَهُ حاخامو بيتِ المقدس. والتلمود البابلي الذي كُتب في القرن الخامس الميلادي، وقد وضعهُ رجلٌ يُدعى بالـ "رِب آشي".

وهو على قِسمين؛ المشنا وهي المتن التلمودي الأساسي، والجِمارا وهي شرح وتفسير لما جاء في المشنا. أنظر: موسوعة الأديان الميسرة، ، لعددٍ من المؤلفين، ط٣، ١٤٢٦هـ، دار النفائس، بيروت. ص١٨٥

وثمةَ حقيقة لا يمكن إغفالها عند تناولنا لخلق آدم عليه السلام، وهي اعتقادٌ يهودي راسخ تمليه العنصرية التي اتصفت بها الشخصية اليهودية على اختلافها، ألا وهي أكذوبةُ الشعب المختار.

فإذا تأملنا ما يحكيه حاخامات اليهود في تلمودهم، أمكننا القول بأنهم يرون أنفسهم فوق جنس البشر الذين تحدروا من آدم عليه السلام، لذا لا عجب أن نجد في أدبياتهم خروجاً عن حدودِ الأدب حين يتعلق الحديث بآدم عليه السلام.

فحيثُ يزعم اليهود أنهم شعبُ الله المختار، نجدهم قد أوجدوا تفسيراً وتبريراً لهذا الاصطفاء والاختيارِ المزعوم، بأنهم أبناءُ الله وأحباؤه، كما قصَّ علينا القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المائدة (١٨)

***فهل يقصدون بذلك معنىً حقيقياً أم مجازياً؟!**

جاء في أحدِ أسفار التلمود: "اليهودي من جوهر الله، كما أن الولد من جوهرِ أبيه"[٢]، كما أن: "الذي يصفع اليهودي كمن يصفع العناية الإلهية سواء بسواء"[٣]، لأن أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح، ولأن الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية، وشبيهة بأرواح الحيوانات.[٤]

وإذا علمنا تلك الخلفية العنصرية لدى اليهود أمكن أن نفهم لِمَ يتسلط اليهود بألسنةِ السوء على أبينا آدم عليه السلام في أدبياتهم وأساطيرهم، حيثُ يمثِّلُ أبا الجوييم أو الأغيار[٥] كما يُسمونهم!.

---

[١] صرّح بذلك الدكتور روهلنج الذي قال بأن اليهود يعتبرون التلمود أعظم قداسّة من التوراة. كما جاء في صحيفةٍ من التلمود قول أحبارهم: "من درس التوراة فعل فضيلةً لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشناه فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس الجمارا فعل أعظم فضيلة". الكنز المرصود في فضائح التلمود، للدكتور مُحَمَّد عبد الله الشرقاوي، د.ط، ١٤١٠هـ، مكتبة الوعي الإسلامي. ص١٣

[٢] التلمود أسرار وحقائق؛ فضح المخططات اليهودية للسيطرة على العالم، للحسيني الحسيني معدّي، ط١، ٢٠٠٦م، دار الكتاب العربي، دمشق. ص٣٩٢

[٣] التلمود أسرار وحقائق، ص٣٩٢

[٤] أنظر المرجع السابق، ص٤١٨

[٥] الجوييم أو الأغيار؛ ويقصدون بها كل من ليس يهودياً.

ليس هذا فحسب؛ ولكن يُصرِّحون بتلك العنصرية الشائنة البغيضة في تمييز واضح عندما يتعلق الأمر بيهود، فهم بنو إسرائيل، وهم اليهود، وهم شعبُ الله المختار. لا تكاد تجدهم ينسبون أنفسهم –في العهد القديم أو التلمود- إلى آدم الطّيّلاً، بل إلى الله مباشرة[1]، لأن ذلك لو كان لبطلت جميعُ نصوصِ عنصريتهم البغيضة والمنسوبة زوراً وكذباً إلى الله تعالى.

فمن ذلك:

- "فتقولُ لفرعون: هكذا يقول الربُّ: إسرائيل إبني البكر".(خر ٤ :٢٢)
- "لكن يكونُ عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يُكال ولا يُعد، ويكونُ عِوضاً عن أن يُقال لهم: لستم شعبي، يقالُ لهم: أبناء الله الحي".(هو ١ : ١٠)
- "قدِّموا للرب يا أبناء الله، قدِّموا للرب مجداً وعِزّاً".(مز ٢٩ : ١)
- "أنا قلت: إنكم آلهة وبنو العلي كلكم".(مز ٨٢ : ٦)

هذا المنحى أفرز خلفية فكريةً قاتمة فيما يتعلق بخلق آدم الطّيّلاً، فكيف كان خلقه؟!

يروي التلمود أن "الله جمع غُبار العالم بكامله، وأخذ حفنة، وصنع منها الإنسان، إلا أن ذلك الإنسان كان مزدوجاً له وجهان، فقطعهُ الله اثنين حتى أخرج منه آدم وحوَّاء".[2]

كما أن آدم الطّيّلاً كان ذا حجمٍ ضخمٍ جداً، فيروي التلمود: "وكان آدم كبيراً جداً، حتى لامس برأسهِ قبة السماء. ولما كان ينام كان رأسه يبلغ آخر العالم من الجهة الشرقية، ورجلاهُ تصلان إلى الغرب من الجهة الثانية"!!.[3]

ثم لما عصى تقلَّص حجمُهُ جداً، فيروي التلمود: "لكن لما أخطأ آدم صغَّره الله ومسخهُ بالهيئةِ البشرية الحاضرة".[4]

---

[1] ثمة نصوص لا تكتفي بنسبة الابن أو الولد إلى الله وإنما تصرّح بما لا يليق –تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً-، كمثلِ هذا النص: "إني أخبرُ من جهةِ قضاء الرب: قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك".(مز ٢ : ٧)

[2] التلمود أسرار وحقائق، ص٥٧٤

[3] المرجع السابق، ص٥٧٥

[4] المرجع السابق، ص٥٧٥

إنها صُور أسطورية لا يتصورها العقل البشري، فضلاً عن أن تكون وحياً إلهياً من لدن الله عزوجل!. فهي لا تنافي معنى التكريم لآدم عليه السلام وذريته فحسب، بل تُثبت معنىً آخر مُسيئاً، باعتقاد أن الهيئة والصورة التي عليها آدمُ وبنوه ليست إلا مسخاً مُصغَّراً جراء خطيئة الأَكل من الشجرة المنهي عنها!. كما تُنافي معلومات ضرورية في ديننا، كدلالة الإتقان في الصنع والخلق على وجوده عزوجل، يقولُ الله تعالى: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل(٨٨)، ويقول ﷻ: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ السجدة(٧).

وبعد هذا؛ فليست عجباً حكاية التلمود أنه قد وصل إلى العالم من صُلب آدم عددٌ كثير من الشياطين لايزالون يتناسلون حتى الآن[١]، لأن النظرة التلمودية التي أحاطت بخلق آدم عليه السلام، ليست سوى نزعة عُنصريةٍ يهودية لا تزال آثارها إلى اليوم، -وما يجري بأرض فلسطين أبلغ شاهد على ذلك-. إذ يقرر التلمود: "ملعونةٌ هي جميع الشعوب، ومباركةٌ هي أمةُ اليهود".[٢]

يقول المؤلف: "وبذا فإن التلمود بهذه الخرافات يُدنِّس شرف البشرية، ويُدنِّس أمها[٣] ويُدنِّس العقل الإنساني الذي يُسِّوغ [٤] له هذه المعاني".[٥]

فهل استقر الفكر اليهودي على هذا الفكر المتطرف إزاء مسألةِ خلق آدم عليه السلام، أم استجدَّت محاولاتٌ لتلميع تلك الواجهة التلمودية وإزالةِ ما غَشِيَها من قتر الفكر العنصري؟!.

إننا إذا نظرنا إلى كتاب أساطيرِ اليهود [٦] فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام، نجد رؤيةً مغايرة تماماً لرؤية التلمود، ابتداءً من بدءِ خلق آدم عليه السلام المتضمنِ لمعاني التكريم، وانتهاءً إلى التصريح بانتسابِ اليهود إليه!.

[١] المرجع السابق، ص٥٧٥

[٢] المرجع السابق، ص٣٩٥

[٣] حيثُ يروي التلمود أن حواء عليها السلام قد اتخذت خديناً من الشياطين!. أنظر المرجع السابق، ص٥٧٦

[٤] عبارة الكتاب (يصوغ). ولعل العبارة التي ارفقناها هي المرادة.

[٥] المرجع السابق، ص٥٧٦

[٦] وهو كتاب لمؤلفه "لويس جنز بيرج"، أَلَّفه عام ١٩٠٩م بمدينة نيويورك، ويحتوي على مجموعة من الأساطير التي تحكي تاريخ العالم عموماً وبني إسرائيل خصوصاً، من بدء الخليقة إلى آخر أنبيائهم وهو النبي ملاخي. والكتاب مقسَّم إلى سبعة أجزاء أو مجلدات، الأربعة الأولى منها هي نص الكتاب أو نص الأساطير، بينما تمثل الأجزاء الثلاثة الباقية تعليقات المؤلف عليها. أساطير اليهود، ترجمة حسن حمدي السماحي، ط١، ٢٠٠٧م، دار الكتاب العربي، دمشق. ص٧

يقولُ المؤلف: "وأفضلية الإنسان على المخلوقات الأخرى ظاهرة في طريقةِ خلقه نفسها، وهي مختلفة تماماً عن طريقةِ خلق المخلوقات الأخرى. فهو الوحيد الذي خلقه الرب بيده، والباقون نشأوا من كلمة الرب".[١]

وأما النظرة الفلسفية لخلق آدم عليه السلام في كتاب الأساطير، فتقرر أن: "جسد الإنسان عالمٌ مصغَّر[٢]، وهو العالم كله في صورة مصغرة، والعالم بدورهِ انعكاسٌ للإنسان".[٣]

ولا تختلفُ كيفية الخلق كثيراً عما ورد في أدبيات التلمود، فيروي كتاب الأساطير: "قال الرب لجبريل: إذهب وأحضر لي تراباً من أربعةِ أركان الأرض، لأخلق به الإنسان ... وأخذ من تراب الأرض وخلق به الإنسان الأول".[٤]

وأما زمنُ خلق آدم، فبحسب رواية الأساطير: "وكان الرب قد طرأت له فكرة خلق الإنسان في أولِ ساعة من اليوم السادس، وفي الساعة الثانية استشار الملائكة. وفي الثالثة جمع التراب الذي سيخلق منهُ الإنسان، وفي الرابعة صنع آدم".[٥]

كما نجد تصنيفاً لألوان التراب بحسبِ أجزاء ذلك المخلوق أو الإنسان الأول، إذ تروي الأساطير: "وأيضاً كان التراب الذي خُلق منه الإنسان ذا ألوانٍ عديدة، أحمر وأسود وأبيض وأخضر؛ أحمر للدم، وأسود للأحشاء، وأبيض للعظام والعروق، وأخضر للجلدِ الشاحب"!.[٦]

وأما انتسابُ اليهود إليه، فبحسبِ رواية الأساطير؛ عندما تكلم الرب إلى آدم قال له: "ستكون قدوة لبنيك، فكما حكمتُ عليك في هذا اليوم وعفوت عنك، فكذلك سأحكم على بنيك (شعب) بني إسرائيل في يومِ رأسِ السنةِ هذا، وسأعفو عنهم".[٧]

هذا بعضُ ما ورد في كتاب الأساطير، وهو متأخرٌ عن التلمود بفترةٍ زمنية طويلة. في حينِ أن التلمود وهو كتاب اليهود المعتمد عندهم والذي يُعدُ مرجعيةً تفوق التوراة في أهميتها، يروي من نصوص العنصرية والاستخفاف بخلق آدم الشيء الكثير، فضلاً عن نعوتٍ أخرى لبني آدم في جملتهم -ليس هذا مقامُ بسطها-،

---

[١] أساطير اليهود، ص٦٣
[٢] ستتكرر معنا هذه العبارة، فهل هو تسربٌ للوثةٍ فكرية؟!
[٣] أساطير اليهود، ص٦٣
[٤] ص٦٨
[٥] ص٩٠-٩١
[٦] ص٦٩
[٧] ص٩١

ولكنها حَوَت من فُحش القول وبذاءة التصور الشيء الكثير، فهل يمكن اعتقادُ اعتدال التصور اليهودي في مسألةِ خلق الإنسان على نحو ما يرويهِ كتاب الأساطير؟!.

هذا إن لم نعتد بتسميةِ الكتاب التي توحي بحكمٍ أوَّلي على كلِ ما ورد فيه!. فتكون قصة خلق آدم -المتزنة نوعاً ما، حيثُ تُقرُّ بأفضلية الإنسان المخلوق بيدي الرب، وتقر بنسبةِ الشعب اليهودي إليه - ليست إلا ضرباً من الأساطير التي جمعها هذا الكتاب!.

ولمَ لا وقد استنفد ابن كمونة -وهو أحد فلاسفتهم- جهده للرد على علماء الإسلام حول أباطيلِ التوراة المحرفة فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام، يقول: "الاعتراض الرابع: قد ورد في التوراة الموجودة الآن حكايات تستبعدها العقول بل تمنع من وقوعها مثل قصة آدم وسبب خروجه من الجنة ... وجوابُهُ: أنا لا نُسلِّم أن قصة آدم ممتنعة الوقوع عند العقل، لاسيما في ذك الزمان. فإن المشهورات تختلف باختلاف الأزمنة، وما يُستبعد وقوع مثله في زمان، لا يُستبعد في آخر".[1]

يقول ابن كمونة هذا على سبيل المحآجّةِ التي لم تخلُ من تعصبٍ أعمى ليهوديته، وإلا فالمشهورات –على حدِّ زعمهِ- لابد أن تتفق ضرورةً عند اتحاد أصلها ومصدرها، أما عند اختلاف المصدر فحينئذٍ يحدثُ التضاد ويقع التناقض والتنافر!.

وما وقعُ في قصةِ آدم عليه السلام في التوراة التي كانت على زمن ابن كمونة أو ما سُمي بالعهد القديم، يشهدُ لهذا المعنى جداً. فالتضاد والتنافر قد وقع ابتداءً؛ بنسبة صفاتٍ لا تليق بالله عزوجل؛ كنسبة النسيان، وعدم العلم وغير ذلك مما لا يخفى –تعالى الله علواً كبيراً-، وانتهاءً ببعض المشاهد الواردة في تلك القصة المتعلقة بآدم عليه السلام، كالمبالغة في ذكر حجمهِ عليه السلام، وأنهُ كان قطعتين نصفٌ ذكر ونصف أنثى، مما يتعارض ونبأ القرآن العظيم.

فهذا يردُ زعم ابن كمونة، حيثُ جرى تحريف التوراة على أيدي اليهود مما تسبب في اختلاف قصصها وتعارضها مع ما جاء في القرآن الكريم، وهذه نتيجة حتمية لاختلاف المصادر، وحقيقة أشار إليها القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء (٨٢)

بل أن المتأمل لقصة خلق الإنسان في الأدبيات والتراث اليهوديين يجد الاختلاف واقعاً فيما بينها، فكيف يزعم ابن كمونة أن ذلك الاختلاف قد وقع لامتداد الأزمنة؟!.

[1] تنقيح الأبحاث للملل الثلاث "اليهودية والمسيحية والإسلام"، لابن كمونة اليهودي، ط٢، د.ت، دار الأنصار، ص٣٥

كيف ذلك وهذا كتاب الله "القرآن الكريم" بين ظهرانينا معاشر المسلمين نقرؤه غضاً كيومِ أُنزل، لم تختلف قصة آدم عليه السلام -و لا غيرها- منذُ أنزلت على رسول الله ﷺ ولم تتبدل حرفاً واحداً رغم تطاول زمن نزوله وامتداده؟!، بل ورغم اختلاف وتباين الفكر الإسلامي في كثيرٍ من قضايا الأصول والفروع؟!

إذن؛ الخلل هاهنا لافي تطاول الزمان واختلافهِ كما يفتري ابن كمونة، ولكن في اختلاف المصدر وهذا فرقٌ جوهري لا تقومُ لابن كمونة وأمثاله حُجة لرده، مادام أن الحق عزوجل قد أخبر بوقوع التحريف في كتب أهلِ الكتاب.

ونستخلص مما ذُكر، أن مشاهد التكريم التي لازمت خلق آدم عليه السلام، والتي أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها قد غاب بعضها في التصور اليهودي.

فمن تلك المشاهد، خلقهُ عليه السلام بيدي الرب عزوجل، وهذا لا وجود له في فقرات خلق الإنسان في العهد القديم، ومنها أيضاً؛ إسجادُ الملائكة لآدم عليه السلام، وهذه أيضاً لا نجدها فيما بين أيدينا من نصوصِ خلق آدم الواردة في العهد القديم.

وأما تعليم الأسماء، فيمكنُ استفادةُ بعضِ معناه من هذا النص: "وجَبَل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدمُ ذاتَ نفسٍ حيَّة فهو اسمها"،(تك ٢: ١٩)

مع أنه ليس في النص تصريحٌ بالتكريم بتعليم آدم عليه السلام اسم كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، هذا من جانب. وإنما يُستفادُ هذا المعنى -وإن كان قاصراً لا يفيدُ التكريم بالعلم صراحة-.

ومن جانبٍ آخر، فالتعليم محصورٌ في أسماء الطيور وحيوانات البرية، وهذا معنىً ناقص عن المعنى الكُلي الوارد في القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ البقرة (٣١)

كما أن نسبة تعليم آدم عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى في الدين الإسلامي، تشريف وزيادة تكريمٍ ظاهرين، بخلاف نص العهد القديم، فالمعنى فيه ناقص لا يفيدُ معنى التكريم على وجهٍ تام.

ومن مشاهد التكريم التي يذكرها التراث اليهودي وهي موجودة بالعهد القديم؛ خلق الإنسان على صورة الله: تروي النصوص:

- "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا"،(تك ١: ٢٦)

- "خلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقهُ"،(تك ١: ٢٧)
- "سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفكُ دمهُ. لأن الله على صورته عمل الانسان"،(تك ٩: ٦)

وهذا المعنى بلفظ الصورة؛ قد ورد في حديثٍ صحيح لدينا في ديننا الإسلامي[١]، دون معنى التشبيه الذي يتنزَّهُ عنه الرب ﷻ، ونفاهُ القرآن الكريم نفياً قاطعاً، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ الشورى (١١)

يقول كوهين: "خلق الله الإنسان على صورته ومثاله. إنهُ المبدأ الأساسي لعلم الإنسان الحاخامي، ومنذُ ذلك الوقت أضحى الإنسان أعلى الكائنات المخلوقة، ويمثل الذروة في عملية الخلق. الإنسان محبوب لأنه مخلوق على صورة الله، لكنهُ ولسببٍ خاص أكثر من خلقهِ على صورة الله، زوَّدهُ بالمعرفة".[٢]

ولكن هل أراد كوهين بشرحِهِ ذلك جميع البشر أم شعب اليهود فقط، لحصرِ التكريم فيهم؟!.

يجيب على تساؤلنا بقولهِ: "بما أن البشر صُنعوا على الشبه الإلهي، فهم مُلزمون بالحفاظ على هذه الحقيقة الحاضرة في ذهنهم خلال علاقاتهم المتبادلة. وأي إساءة تُوجَّهُ للإنسان تصيب الله من تلقاء نفسها".[٣]

ويستطرد: "يُصرِّح الحاخام عقبة: إن هذه الوصية: (لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك وقريبك أحببه كنفسك أنا الرب)،(أحبار ١٩: ١٨)؛ تشكِّل المبدأ الأساسي للوصايا ... مع قبولنا بفكرة تسلسل نسب الإنسان بالنسبة إلى الله، فإن الحاخامات لم يلحوا على الهوة التي كانت تفصلهم عنه".[٤]

ولعلنا نتوقف هنا عند قول القائل: "مع قبولنا بفكرة تسلسل نسب الإنسان بالنسبة إلى الله" –تعالى الله علواً كبيراً-، فهل هي محاولةٌ لتسويغِ فكرةِ تحدّر الشعب اليهودي من جوهر الله –تعالى علواً كبيراً- كتحدر الابن من أبيه كما يروي التلمود، ومن ثمَّ تسويغ فكرة الشعب المختار؟!، رغم أن ذلك التسلسل النَسَبِي قدر وَرَدَ في العهد الجديد لا القديم.[٥]

---

[١] فقد أخرج البخاري –رحمه الله- في كتاب "الاستئذان" باب بدء السلام؛ عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً .. إلخ الحديث"، حديث رقم (٥٨٧٣). و سبق الكلام عنه في الباب الأول.

[٢] التلمود "عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخامين"، للدكتور كوهن، ط١، ٢٠٠٥م، دار الخيَّال، بيروت. ص١٢٥

[٣] المرجع السابق، ص١٢٥

[٤] المرجع السابق، ص١٢٥

[٥] أنظر تسلسل نَسَب المسيح في العهد الجديد (لو ٣ : ٢٣- ٣٨)

فلأن نقضَ هذا التسلسل أو الطعن فيه يلزمُ منهُ الطعن في فكرة الاصطفاء والاختيار المزعومة، وهي عقيدة راسخة في اليهودية المحرَّفة، لذا فمن مصلحة الحاخامات ألا يُلحوا على الهُوة التي كانت تفصلهم عنه لأن إلحاحهم في البحث والتحري سيقودُهم بالضرورة لرفض الفكرة، لوضوح بُطلانها عقلاً وواقعاً، وهذا ما لا يريدونه!.

فمن خلال كلمات المؤلف –وهو معاصر-، نلمحُ عقيدة "الشعب المختار" اليهودية، ما يعني أنها اعتقادٌ راسخ لدى اليهود قديماً وحديثاً، مهما حاولوا تنقيح كتاباتهم وتحديثها، للخروج من حَرَجٍ أحدثتهُ دراسات نقد العهد القديم.

يقول أحدُ النصارى: "يزعم اليهود بأنهم الشعب الوحيد الذي يمت بصلةٍ وثيقة إلى آدم عليه السلام. وفي زعمهم هذا يعتقدون بأنهم الشعب الوحيد الذي ينحدر من سلالة آدم، الأمر الذي يدفعهم أيضاً إلى الإيمان بأنهم أبناؤه. ويُعد هذا الزعم تجريداً للأمم من بنوَّةِ آدم وحرماناً لهم من علاقةٍ أبوية وثيقة به. إنهم يخصون أنفسهم وحدهم بهذه البنوة ليتخذوا من آدم أباً لهم".[١]

ويستطردُ متسائلاً: "والسؤال المطروح هو: ما علاقة هذا الزعم بمعتقدهم الذي يشير إلى أنهم شعبُ الله المختار؟. –ويجيب-:

تؤمن الكتب الدينية اليهودية، كما تشدد التفاسير التي اجتهد بها أحبار اليهود، على وجود نوعين للتطور: تطور نازل من السماء، وتطور صاعد من الأرض. ولما كان آدم قد وُلد من الله مباشرة، وفق زعمهم، فإنهُ يمثل التطور الهابط من السماء، من الله. ولما كانوا يجسدون فكرة أنهم أبناؤه، فإنهم يُجسدون بالتالي معتقداً هو أنهم أبناء الله لأنهم أبناء آدم الذي لم يولد من رجلٍ وامرأة. إذن فعلاقتهم مع الله قائمة عن طريق أبيهم آدم الذي لم يأتِ إلى كوكب الأرض عن طريق التناسل والولادة المعهودين. وهم يخصون أنفسهم بهذه العلاقة ويحرمون غيرهم منها".[٢]

إذن هذه فلسفة أخرى توضِّح لنا إجابةً على تساؤلٍ عنوانُهُ: لماذا؟. لماذا ينسب متأخرو اليهود الشعب اليهودي إلى آدم عليه السلام؟

وفق هذا التحليل الذي أوردناه على لسانِ أحدِ النصارى، فإنهم ينسبون أنفسهم إلى آدم عليه السلام، لأنهُ نشأ عن غير طريق التناسل الذي ربما يَعُدّونه دَنَساً من منظورهم. أو لأن اعتقاد بُنوةِ آدم لله –تعالى الله علواً كبيراً-، يجعلهم يعتقدون سماويةَ مادة خلقه. بخلاف مادة خلق سائر البشر، المنتسبة إلى الأرضية.

---

[١] رد على التوراة؛ رد على اليهودية واليهودية المسيحية، الأعمال الكاملة لندرة اليازجي، ط٤، ٢٠٠١م، دار أمواج، ص٢٥

[٢] المرجع السابق، ص٢٥

يقول المؤلف: "وإذا ما تساءلنا عن موقف اليهود من الأمم لأجبنا بما يقول به كتاب التلمود، وما تنص عليه التوراة في تضاعيف معتقداتها: الأمم كلهم والشعوب قاطبة، هم نتاج تطور صاعد من العناصر المادية، إنهم أبناء الأرض، أي أبناء الناس وبنات الناس، كما تقول التوراة. إذن، فالأمم حيوانات اتخذت لذاتها أشكالاً بشرية".[١]
وفي قول المؤلف هنا نلحظ الممايزة بين اليهود والأمم الأخرى، وهذه نظرة التلمود القديمة لغيرهم من الشعوب والتي هي غاية في العنصرية والتطرف، دون ذكرٍ لآدم عليه السلام هاهنا، بل على العكس؛ يُفهم من النص أن أبناء ذلك الإنسان هم سببُ البلاء والطوفان في الأرض، كما قال الرب بأن أعمال الإنسان شريرة وقلبه مطبوع على الرداءة منذ البداية. بحسبِ النص يُعدُ المعنى المفهوم منهُ مُسيئاً له. في الوقت الذي أمعن التلمود في تمجيد الأمة اليهودية، وأنهم شعبٌ تحدَّر من الله –تعالى علواً كبيرا- كتحدّر الإبن من أبيه. لذا كانت نظرة التلمود وكذلك نصوص التوراة تحملُ بعض الذم لآدم أو الإنسان الأول الذي أخطأ.

ولكن يبدو أن اليهود المتأخرين التفتوا لحجم الهُوَّة جراءِ زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وسائر تلك المعاني العنصرية الممعنة في تمجيدهم في التلمود، فتساءلوا أن كيف سيكون تحدرهم سائغاً بطريقٍ مشروع مع تعذرهِ عقلاً؟!، فابتدعوا بُنوةَ آدم عليه السلام للذات الإلهية تعالى الله علواً كبيراً، و أخذوا في الإعلاء من شأنِ آدم عليه السلام بالانتسابِ إليه ورفع الصُور الشائنة بحقه الواردة في العهد القديم والتلمود.

و الدليل على ذلك أن هذا المفهوم اليهودي الحديث في آدم عليه السلام، كان نتاج حركةٍ متأخرة، نشأت في أوروبا ولها أهداف على المدى البعيد، ألا وهي الحركة الصهيونية.

يقولُ المؤلف: "هكذا يفسِّر اليهود هذين التيارين ضمن نطاق التطور: تيار صاعد من الأدنى، يمثِّل الأمم، وتيارٌ آخر هابط من الأعلى، من الله، يمثِّل اليهود. وليست علاقتهم بالله أمراً آخر غير علاقةِ أبناء، ولم يتورعوا عن تسميةِ أنفسهم في سفر التكوين بمصطلح "أبناء الله أو الجبابرة"، وتسمية الأمم أبناء وبنات الناس". وهكذا يزعمون أنهم يرتبطون بالله عن طريق آدم. تلك هي العِرقية اليهودية التي تسعى الصهيونية إلى دعمها وتحقيقها".[٢]

---

[١] المرجع السابق، ص٢٥
[٢] المرجع السابق، ص٢٥

أما عن كيف كان انتسابهم إلى آدم الطَّيْلاً، فإذا نظرنا في سلسلة النسب المزعومة نجدها تبتدئ بآدم الطَّيْلاً بعد الذات الإلهية مباشرة –تعالى الله علواً كبيرا-، ثم تمرُّ بسامِ ابن نوح، الذي ينسب اليهود أنفسهم إليه[1] مما يعزز فكرة الاختيار والاصطفاء لشعبِ إسرائيل ذو الأصول السامية!.

وهكذا نجد اضطراباً وتناقضاً في العقيدة اليهودية؛ حول ما يتعلق بخلق آدم الطَّيْلاً، إذ في حين تروي أدبياتهم تصورات لا تليق به الطَّيْلاً -مما مرَّ معنا آنفاً-، نجدهم يَقبلون فكرةَ رفع نَسَبِ آدمَ الطَّيْلاً إلى الله – سبحانهُ وتعالى عما يقولون علواً كبيرا- [2]، لتستتب لهم فكرة الاصطفاء.

[1] أنظر: (تك ١١: ١٠- ٢٦)

[2] ومما يجدرُ ذكرُهُ أن تلك السلسلة المزعومة –الباطلة بداهةً-، قد أبطلتها دائرة المعارف الفرنسية؛ حيث تذكر أن كتب العهد الجديد من عمل بولس أو من عمل أتباعه، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماءً مستعارة. أنظر: حول موثوقية الأناجيل، إعداد: مُحَمَّد السعدي، ط١، ١٩٨٥م، من منشورات رسالة الجهاد، طرابلس - ليبيا. ص٢٢

ومما سبق نخلص إلى أن:

- المراد بالإنسان في قصة الخلق في العهد القديم، هو آدم عليه السلام.
- آدم في العهد القديم هو الإنسان الأول، وهو أبو البشر.
- أصل تسميةِ آدم في العهد القديم والتصور اليهودي، والدين الإسلامي يعود لشخصيةٍ واحدة هي أبينا آدم عليه السلام.
- مادة خلق آدم عليه السلام في النصوص التي أوردناها هي التراب دون ذكر للطين.
- آدم في أدبيات التلمود، عبارة عن مخلوقٍ مزدوج، مؤلفٍ من ذكر وأنثى هما آدم وحواء عليهما السلام.
- أدبيات التلمود مغرقة في العنصرية فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام.
- التصور اليهودي لخلق آدم عليه السلام قد خلا من معاني التوقير والاحترام له عليه السلام باعتبار مكانته وأنه أبو البشر.
- كتاب أساطير اليهود يحكي رؤية مغايرة لرؤية التلمود فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام.
- ملامح التكريم لآدم عليه السلام في العهد القديم، تنحصر في خلقه على صورة الله، وتعليمه.
- تناقض التصور اليهودي فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام.

الفصل الثاني

خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد

الفصل الثاني

خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد

لقد رأينا فيما مرَّ معنا كيف هي نظرة العهد القديم خصوصاً، و التصور اليهودي عموماً إلى آدم عليه السلام، وسنعرضُ فيما يلي من الأسطر لنظرة العهد الجديد، التي يمكن القول بأنها لم تبتعد كثيراً عن نظرة العهد القديم –وإن بدت أقلَ عنصريةً عنه-.

ومما يجدر ذكره عند الحديث عن خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد، التنبيه إلى أن:

١/ ذكر آدم عليه السلام بالعَلَمية كان نادراً وبشكلٍ لم يخلُ من الترميز في الغالب.

٢/ العهد الجديد أهمل ذكر بداية وكيفية خلق الإنسان الأول.

٣/ ذكر آدم عليه السلام أو الإنسان الأول لم يكن بمعزلٍ عن عقائد النصرانية الأساسية كعقيدتي التثليث والفداء.

يقول د. سامي عابدين :"برغم أن الأناجيل المعتمدة من قِبل الكنيسة الجامعة لم تأتِ قولاً واحداً على ذكر كيفية خلق الإنسان الأول، فمن المستغرب أن ترى مواقف رجالها من معطياتِ التوراة في هذا الشأن لا تخلو من الاضطراب والحيرة".[١]

ويقول بموضعٍ آخر: "فآدم عليه السلام في الأناجيل المعتمدة لم يُذكر حرفياً إلا في إنجيل لوقا، حينما أراد إثبات نسب المسيح عليه السلام... وآدم عليه السلام في الأناجيل المعتمدة، لم يُذكر كنايةً إلا في إنجيل متى، وفي إنجيل مرقس حينما أراد كشف شريعة الزواج منذ أقدم العصور".[٢]

ونحن إذا تأملنا العهد الجديد، نجد فيه إطلاق عبارة "الإنسان العتيق"، ويُقصد بها آدم عليه السلام باعتباره الإنسان الأول وإليه ترجع نسبة جميع البشر، فيروي النص الوارد في رسالة بولس لأهل أفسس،(٤: ٢٢) :"أن تخلعوا

---

[١] أصل الإنسان في التوراة والإنجيل، ط١، ١٤٢٦هـ، دار الحرف العربي، بيروت. ص١٥

[٢] المرجع السابق، ص٤٧

من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد"، -إشارة إلى معصية آدم- . كما ورد ذلك الإطلاق أيضاً في رسالة بولس إلى أهل كولوسي،(٢: ٩) :"لا تكذبوا بعضكم على بعض، إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله".

كما أن مما يجدرُ ذكره أن إطلاق الإنسان العتيق، يأتي في سياق المقارنة بالإنسان الجديد، وهو يسوع أو المسيح عليه السلام، إذ يأتي في مقابلة الخطيئة بالفداء بشكلٍ لا يخلو من الرمزية أحياناً. ولذلك لا يمكن الإفادة من قصة خلق آدم في العهد الجديد بذات درجة الوضوح الذي وردت به في العهد القديم. ولكن نقولُ إجمالاً، بأن "الإنسان العتيق" في العهد الجديد، يُطلق ويراد به آدم عليه السلام باعتباره الإنسان الأول وأبو البشر.[١]

أما في معرض ذكر كيفية خلق آدم عليه السلام، فقد جاء في متى،(١٩: ٤) : "فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى"، - إشارة إلى آدم وحواء- . وهذا شبيهٌ بما ورد في سفر التكوين (١ :٢٧) وَ (٢ : ٢٤).

وأما ذكر آدم عليه السلام باسمهِ صراحة فيكاد يندر في العهد الجديد، ونذكر من ذلك مواضع:

١/ في معرِضِ الخلق: "لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء".(تيموثاوس ٢ : ١٣)

٢/ في معرضِ ذكر الخطيئة :"من أجل ذلك كأنما بإنسانٍ واحد دخلت الخطيَّة إلى العالم ... لكن قد مَلَكَ الموتُ من آدم إلى موسى، وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم".(رومية ٥: ١٢-١٤)

٣/ في معرضِ المقابلةِ أيضاً: "هكذا مكتوب أيضاً: صار آدم، الإنسان الأول، نفساً حية، وآدم الأخير روحاً محيياً ... الإنسان الأول من الأرض ترابي. والإنسان الثاني الرب من السماء".(كورنثوس١ : ١٥: ٤٥-٤٧)

وعموماً فالذي يُعتقد أن قصة الخلق في العهدين القديم والجديد متحدةً روايةً ومادة وكيفية، إذ يؤمن النصارى بما جاء في العهد القديم لأنهُ شطرُ الكتاب المقدس الأول؛ الذي يؤمن به اليهود والنصارى على السواء، وعليه؛ فقصة خلق آدم عليه السلام في العهد الجديد ليست سوى امتداد لما ورد في العهد القديم. لأن النصارى يتناولون بالشرح والتفسير ما جاء في العهد القديم من قصصٍ تروي بدء الخلق، لكونها أساساً لملحمة الخلق في الكتاب المقدس ككل.

---

[١] وإذا أُطلقت عبارة "الإنسان الجديد" أو "ابن الإنسان"، فيرادُ بها المسيح أو يسوع القادم لتخليص البشرية على وجه الخصوص. وعلى سبيل المثال نورد الفقرة الواردة في سفر متى الإصحاح الثامن عشر: "لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يُخلِّص ما قد هلك".(١١)

ولذلك لا نجد تفصيلاتٍ في العهد الجديد كما هو الحال في العهد القديم. كما أن الذين تناولوا شرح قصة خلق آدم من النصارى، إنما اعتمدوا رواية العهد القديم، بشكلٍ لا يخلو من الترميزِ المتناول لعقيدتي الثالوث والفداء في الدين النصراني. ونذكر من تلك الشروح على سبيلِ المثال:

يقول القمص تادرس :"إن ما يشد أنظارنا في خلق الإنسان قوله "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا"، مؤكداً: "فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه"، الأمر الذي لم نسمع عنه قط في خليقةٍ أخرى، إذ أوجد النفس تحملُ صورة الثالوث القدوس، وتتسم بالتمثل بالله".[١]

ويشرح ذلك بموضعٍ آخر، فيقول: "خلق الله النفس البشرية على صورته ومثاله، أي على مثال الثالوث القدوس، فهو كائن ناطق حي".[٢]

وعند التأمل نجد أن عبارة النص "على صورتنا كشبهنا"؛ لها ارتباط بعقيدة التثليث عند النصارى، حيث يؤولونه ليتماشى مع عقائدهم المزعومة.

يقول القمص تادرس: "في خلق الإنسان وحدهُ دون سائر الخليقة يقول الله: (نعمل) بصيغة الجمع، إذ يلذ للثالوث القدوس أن يعمل معاً بسرور من أجل هذا الكائن المحبوب".[٣]

ولكن هل هذا الذي صُنع على صورة الله هو آدم عليه السلام أم غيرُه؟!، و هل هذا الكائن –المحبوب- قد سَمَت درجته في الفكر النصراني أم أنهُ رمزٌ للشر بخطئه؟!.

وأيضاً؛ لو أخذنا مثال الثالوث على إطلاقهِ من مبدأ السمو على النحو الذي شرحهُ القمص تادرس، "كائنٌ حيٌ ناطق"، نجد أن تخرصاتهم وتأويلاتهم لصورته فيما بعد الخطيئة محض كذبٍ أو غموض!، لأن تلك الصورة الثالوثية لم تتبدَّل بسبب الخطيئة!، فهو لم يزل؛ كائنٌ حيٌ ناطق، فكيف المخرج إزاء هذا التناقض؟!.

إننا إذا تأملنا بعض تفسيرات النصارى لهذا النص، نجد فيها تأويلاتٍ عدة؛ فمن ذلك ما يرويه المؤلف عن أوريجانوس[٤] فيقول: "الذي صُنع على صورة الله هو إنسـاننا الداخلي غير المنظور، غير الجسدي، غير المائت

[١] تفسير سفر التكوين للقمص تادرس يعقوب ملطي، د.ط ، د.ت ، العباسية القاهرة، ص٥٣

[٢] المرجع السابق، ص٥٦

[٣] المرجع السابق، ص٥٦

[٤] يُقال أنه ولد في الإسكندرية حوالي عام ١٨٥ م. واهتم به والده فهذبه بمعرفة الكتاب المقدس، وقد أظهر الابن شغفًا عجيبًا في هذا الأمر. شهد له بعض الدارسين من أبناء ملته بدوره الفعّال في الاهتمام بالكتاب المقدس، وقد تأثر به حتى مقاوموه، لكن الكنيسة القبطية حرمته في حياته عندما شعرت بخطورة تعاليمه، بينما حرمته الكنائس الخلقيدونية في أشخاص

ولا فانٍ".[1]

وهذا التفسير -القديم- يلزمُ منه اعتقاد أن الذي خُلق على صورة الرب -بحسب رواية النص- إنسانٌ آخر غير آدم عليه السلام، إذ قد شُوّهت تلك الصورة –بحسب زعمهم- بسبب الخطيئة. وفي هذا الصدد يذكر «تادرس» رأياً لـ «أُغسطينوس» فيقول: "أن السيد المسيح جاء إلى الإنسان في الحقبة السادسة ليجدد الإنسان ويردهُ إلى صورة الله".[2]

فهم يعتقدون أن آدم عليه السلام حين خُلق، خُلقت صورته الداخلية على صورة الله عز وجل، ثم لمَّا وقع في الخطأ بأن أكل من الشجرة، شُوِّهت تلك الصورة مما ألحق ذلك التشويه بالإنسانية جمعاء. لذلك جاء المسيح وهو آدم الأخير لتخليصِ البشرية وتجديدِ الإنسان بإعادة صورة الله كما كانت!. فما هذه الصورة التي يزعمونها؟.

يقول تادرس في تفسيره لفَقَرات اختباء آدم عليه السلام: "هكذا اختفى آدم بعد السقوط ولم يقدر أن يعاين الرب، لا لأن الرب مرعب ومخيف وإنما لأن الإنسان في شرّهِ فَقَدَ صورة الله الداخلية ... فالعيب في الإنسان الذي فقد نقاوة طبيعته وخسِر استنارة بصيرته الداخلية".[3]

وهنا نلمحُ الاضطراب في التفسير والشرح!؛ ففي حين يذكر بأن الإنسان على مثال الثالوث "كائنٌ حيٌّ ناطق"، نجدهُ الآن يتناول الصورة الداخلية لآدم عليه السلام، دون ذكر رابطٍ أو علاقة بين القولين. فالكينونة حالٌ معنوية كانت قبل الوقوع في الخطيئة ولم تزل!، وكذلك الحياةُ أمرٌ معنوي حسي كانت قبل الخطيئة ولم تزل، وكذلك النطق أمرٌ حسيٌّ ظاهر كان قبل الخطيئة ولا يزال، فكيف انتقل عن صورة الثالوث المزعوم؟!!. وما رابطُ الصورة الداخلية والنقاوة المذكورة والبصيرة، بمثال الثالوث "الكينونة والحياة والنطق"؟!.

إن هو إلا اضطرابٌ وتناقض لشروحٍ ومحاولاتِ جمعٍ فاسدة لم تصح في أصولها، فكيف تستقيمُ فروعها؟!.

لكنهُ يُتابع فيروي عن أحدِ آباء الكنيسة قوله: "كان يلزم بحق لربنا أن يُجرب بنفسِ الأهواء التي جُرِّب بها آدم حين كان في صورة الله قبل إفسادها".[4]

تابعيه سنة ٥٥٣ م. لُقِّب بالعلاَّمة أوريجينوس و بـ "أدمانتيوس" أي "الرجل الفولاذي"، إشارة إلى قوة حجته التي لا تقاوم وإلى مثابرته. أنظر: سِيَر القِدّيسين في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: http://goo.gl/s0bSA9

[1] تفسير سفر التكوين، ص٥٥

[2] المرجع السابق، ص٥٧

[3] المرجع السابق، ص٧٣

[4] المرجع السابق، ص٧٠

ويستطرد: "لقد لُقِّب كلاهما بآدم، أحدهما الأول في الهلاك والموت، والثاني كان الأول في القيامةِ والحياة. بالأول صارت البشرية كلها تحت الدينونة، وبالثاني تحررت البشرية".[1]

وهذه الفلسفة نلمسها جلية واضحة عند استعراضنا للنصوص التي ذكرت آدم العتيق وآدم الجديد في معرض المقارنة، حيثُ يعتقدون أن آدم عليه السلام قد تسبب بجملةِ المعاني السلبية للبشرية والإنسانية عامة، بأكله من الشجرة، مما ألحق الهلاك ببني الإنسان. ثم حصلت النجاة والخلاص بتقديم المسيح نفسه قرباناً فداءً للبشرية، فأصبح بذلك ممثلاً للمعاني الإيجابية؛ من التحرر والخلاص.

أما بشأنِ توقيت خلق آدم عليه السلام -في اليوم السادس- بحسب رواية العهد القديم، فيذكر المؤلف تفسيراً رمزياً لا يخلو أيضاً من إشارةٍ واضحة لعقيدة الفداء والخلاص المزعومة، يقول:

"وكما خلق الإنسان في اليوم السادس، قدم السيد المسيح حياته فدية على الصليب ليعيد خليقته أو يجددها روحياً في اليوم السادس في وقت الساعة السادسة".[2]

فيزعم أن ذلك التجديد أو تلك الإعادة متعلقة بالروح، في حين يأتي بموضعٍ آخر ليذكر أن ذلك الخلاص والفداء للروح والجسد معاً، يقول: "إن سقوط آدم استلزم عمل المسيح الخلاصي لإقامةِ الإنسان ككل بروحهِ وجسدهِ معاً".[3]

ويربط ذلك بفكرة التجسد المزعومة، فيقول: "وليس لخلاص روحه وحدها، فلو أن الجسد الإنساني وليد خطايا إرتكبها الروح قبلاً لما كانت هناك حاجة للتجسد الإلهي وخلاص الجسد مع الروح".[4]

ولا نعلم مالذي يريد أن يقولهُ المؤلف تحديداً؟!، فحديثهُ لا يخلو من اضطراب وتناقض. إذ كيف لا تكون هناك حاجة للتجسد الإلهي في حال كان الجسد وليد خطايا الروح من قبل؟!. بل على العكس ونذكر هذا تنزلاً – لمزاعم التطهير والخلاص بحسب أصولهم-، فإن الحاجة للتجسد حال خطأ الروح أو الجسد تظل مُلحة!، بقطع النظر عن كون أحدهما وليد الآخر!.

---

(1) المرجع السابق، ص٧٠
(2) المرجع السابق، ص٥٦
(3) المرجع السابق، ص٦١
(4) المرجع السابق، ص٦١

لكن وكما أسلفنا، فإننا لن نستطيع قراءة قصة خلق آدم عليه السلام، أو أيّاً من معطياتها في العهد الجديد بعيداً عن تأثيرات عقيدة الثالوث النصرانية، التي جعلت موقف العهد الجديد من قصة خلقِ آدم عليه السلام من الغموضِ بمكان!. ولعل هذا المعنى يتضح بجلاء عندما نتأمل فقرات نَسَبِ المسيح عليه السلام، إذ يتم رفعه أخيراً إلى آدم عليه السلام باعتباره ابن الله – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، يقولُ النص: "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما يُظَن ابن يوسف، بن هالي، ... بن آدم، ابن الله".(لو ٣ : ٢٣- ٣٨)

ولا يخفى بُطلان عقيدة الفداء والثالوث الوثنيتان المقتبستان من الديانات القديمة؛ باعترافِ علماء النصارى بحصول ذلك التأثير والتأثر بين الكتاب المقدس والوثنيات القديمة.

يقول أحدُ قديسيهم في تفسيره لسفر التكوين: "أن غاية الوحي الإلهي من الحديث عن الخلق هو تصحيح الأفكار الخاطئة التي تسربت إلى إسرائيل في هذا الشأن من العبادات الوثنية المصرية".[١]

وأما أبوة آدم عليه السلام للجنس البشري، فنجد مفسري النصارى يفصحون عن إيمانهم بها صراحة، وذلك عندما تخلو مقالاتهم وتفسيراتهم من الرمزية والإشارة، فنلمسُ منهم تسليماً على نحو ما ورد في العهد القديم من معناها.

يقول القمص تادرس في تفسيره لهذا النص "ودعا آدم امرأتهُ حواء، لأنها أم كل حي"،(تك ٣: ٢٠): "إن كان آدم وحواء قد سقطا تحت التأديب، فإنهما أبوانا الأولان، نجد في آدم أباً لكل البشرية، وفي حواء أماً للجميع ... لكن خلال هذه الوالدية تسربت إلينا الخطيَّة وسقطنا معهما تحت ذات التأديب حتى جاء آدم الثاني يهب الحياة الحقة للمؤمنين، وصارت امرأتهُ الجديدة الأم الصادقة لكل حي".[٢]

ولكن من هو آدم الثاني الذي يقصده النص؟ وما هي الأم الصادقة التي يعنيها؟!.

وحتى نجيب على هذا التساؤل، نعودُ لكلام المؤلف حيث يسوق تفسيراً لأحدِ القديسين، فيقول: "الكنيسة هي أم المؤمنين، والمسيح هو أب لهم"، وتفسيرٌ آخر نصهُ: "كما توجد حواء واحدة هي أم كل الأحياء، هكذا توجد كنيسة واحدة هي والدة كل المسيحيين".[٣]

فهنا نرى الرمزية التي لا تكاد تفارق أقوال شُرَّاح العهد الجديد، في مقارنةٍ واضحة بين الإنسانين؛ القديم باعتباره سبباً للشر والخطيئة والجديد باعتباره سبباً للخلاص والفداء.

[١] المرجع السابق، ص٢٩
[٢] المرجع السابق، ص٧٧
[٣] المرجع السابق، ص٧٧

وإذا تأملنا مواقفهم تلك على الحقيقة، نجد فحواها عدم إيمانهم بالوجود الحقيقي لآدم وحواء عليهما السلام، أو أن وجودهما شيءٌ لا يكاد يُذكر. وهذا المنحى يُترجمهُ التفسير الرمزي الآخر؛ بأن "الخليقة الجديدة عودة إلى البدء، إلى حالة النعمة، إلى آدم قبل السقوط، ونهاية آدم الساقط[1] المتمثِّل باليهودية لتجديده، أي لتحويلهِ إلى خليقة جديدة".[2]

ويؤيد ما ذكرناه تأويلهم لمفردة "البدء" الواردة في مطلع سفر التكوين "في البدء خلق الله السموات والأرض"،(تك ١: ١)؛ فيقول أحدهم –وهو القديس أُغسطينوس-: "الإبن نفسهُ هو البدء، فعندما سألهُ اليهود من أنت أجابهم: أنا هو البدء. هكذا في البدء خلق الله السموات والأرض".[3]

وإذا أخذنا بهذا التفسير، نصل إلى جحد حقيقة وجود آدم وحواء، أو جحد تقدمهما على سائر البشرية زمناً إذ يروي النص الذي أوردهُ أغسطينوس ما يُفيد هذا المعنى.

لكننا إذا رجعنا إلى النص الذي استشهد به أغسطينوس في تفسيره، نجد تحريفاً متعمداً يخرجهُ عن معناهُ الذي يمكن أن يُفهم عليه. فبتتبع العزو إلى (يوحنا ٨: ٢٥)، نجد عبارة النص: "فقالوا له: من أنت؟، فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أُكلمكم أيضاً به"، وشتَّان بين العبارتين شتّان؛ إذ يختلف المعنى كُلياً في عبارة "أنا هو البدء"، عنه في عبارة "أنا من البدء"!.

فالأولى تفيدُ كونهُ مساوياً للبدء إذا أطلقت بمعنى الترادف؛ فيصحُّ حينئذٍ معنى كونه بدء الخليقة على المعنى الذي ذهب إليهِ أغسطينوس، أما الثانية فتفيدُ زمناً أو وقت بدايةِ كلامهِ معهم كما هو واضح من عبارة النص.

وهناك تفسيرٌ فلسفي يذكره مؤلف كتاب "رد على التوراة" –في سياق حديثه عن المادة والروح-، مؤادهُ -على الحقيقة- كون الابن هو بداية الخليقة: "نقول: أن الله أي الروح هو المبدأ المذكر، ونقول إن المادة هي المبدأ الأنثى، وإن الحياة هي الوجود، أي ما تولّد عن هذين المبدأين، ونسميهِ الإبن، فالإبن هو الإنسان، وفي هذا المجال نقول إنهُ آدم الأول".[4]

---

[1] إنما أوردنا هذه العبارة لأمانة النقل العلمية، وإلا فليست مما يليق حكايته فضلاً عن اعتقاده في حقِ نبيٍ مُكرّم هو أصل البشر ووالدهم.

[2] رد على التوراة، ص٦٥

[3] تفسير سفر التكوين، ص٤١

[4] رد على التوراة، ص٢٤٦

كما نلمحُ وحدة الوجود في فلسفته عن أصل البشر، وهو في كلٍ ذلك لا ينفي المعاني الرمزية والمجازية في تفسيره. يقول: "... وإن وجود المبدأ الأول مبدأ الذكر، في المبدأ الثاني، مبدأ الأنثى، وانبثاثه فيها أو حلوله فيها أو وجوده فيها، أدى إلى ولادة الوجود فكانت الحياة، أي الإنسان، أي الإبن".[١]

ويستطرد متسائلاً: "وماذا نسمي هذا الحلول؟ إننا نسميهِ باللغة الرمزية السرية؛ حبلاً. فهل كان حبلاً بلا دَنَس؟ نعم. إن حلول الروح في المادة دون وساطة إنسان يعني حبلاً بلا دنس ... يعني الإنسان الأول الروحي، أي الابن".[٢]

وهنا تتجلى عقيدة النصارى المحرفة بتقديس –الابن المزعوم- بأوضحِ صورة، حيثُ جعله البعض الإنسان الروحي الأول، لأنهُ وفق عقيدتهم نشأ دون وساطة إنسان –والتي يعدُّونها دَنَساً-، وهذه مماراةٌ ظاهرة، لأن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام أولى بوصفهم ذلك حيثُ وُجد عليه السلام من العدم بخلقٍ إلهي مباشر دون أي وساطاتٍ بشرية.

لكن لماذا يرفضون تلك الحقيقة؟!

يبيّن اليازجي ذلك بقوله: "لم يعد آدم يصلح لأن يكون صورة الإبن، بكر الخليقة، لأنهُ سقط من النعمة ومن البنوة ... هكذا نستنتج أن المسيح هو آدم الثاني، أي الخليقة الجديدة، لكنهُ آدم السماوي وليس آدم الأرضي أو صاحب الجسم الحيواني"!.[٣]

وإذا كان كذلك، فكيف يتم التوفيق بين حقيقة تقدم وجود آدم عليه السلام على وجود المسيح؟!. يرد المؤلف: " ... لكن آدم هو أول من حيث الوجود الزمني والمسيح ثانٍ من الزاوية ذاتها. أما الأول حتى امتداد زمني معيَّن، فإنهُ يمثِّل العتيق لأنهُ لم يمثِّل حقيقته ولم يحققها ... آدم هذا عصى الإرادة الإلهية وسقط سقوطاً مريعاً ... وأصبح آدم مثالاً لسيطرة ناموس الجسد ونوازعه وغرائزه وماديته".

ويستطرد: "حاول الإنسان بعد سقوطه أن يكفر عن خطيئته. فلم يقدم نفسه لله بل قدَّم الذبيحة الحيوانية. لكن الله لم يرضَ لأن الأمور كانت بحسب ناموس الخطيئة وليس بحسب ناموسه. ولذلك، فقد احتاجت البشرية إلى فداء، لكي يعود الإنسان إلى مستواه الذي سقط منه إلى حالة البر والنعمة. كان المسيح هو الفداء

[١] المرجع السابق، ص٢٤٦
[٢] المرجع السابق، ص٢٤٦
[٣] المرجع السابق، ص٢٥٦

أو الذبيحة ... ولما تم تقديم الجسد فإنه نزع الأول أي الجسد الحيواني، وثبت الثاني أي الجسد الروحاني، وهكذا فقد أصبح خليقة جديدة كل من يتبع المسيح".[١]

وهكذا نرى تعدد أساليبِ أصحاب العهد الجديد في تفسيراتهم الرمزية لقصة خلق آدم عليه السلام، مما أدى لاختلافهم وتناقض آرائهم.

وعلى أيةِ حال تظلُ فلسفةً يملؤها الغموض، الذي يصلح دليلاً على تهافتها، ناهيك عن التناقض الذي لم تسلم منه. شأنها في ذلك شأن كل انحرافٍ يحاول أربابهُ إيجاد موطء قدم له على أرضِ الحقيقة.

ولو أردنا طرح اعتراضٍ عليهم لقلنا: هاهم أتباع المسيح يملكون أجساداً حيوانية –بحسب فلسفتكم!-، كما أن المسيح عندما تُصوّرونه بأدبياتكم وترسمونه على الصليب إنما تصوّرونه مجسداً في الشكل الحيواني!!، وهذا عينُ التناقض إن كان –كما تزعمون بأنهُ- قد خلع الجسدَ الحيواني الأول الخاطئ وأتى بالجسد الروحاني، فما لنا لا نرى غير الأول؟!. فإن زعمتم أن المقصد عموم الخير والحب بأنفس البشر وفي علاقاتهم، أجبنا: شهادة التاريخ والواقع تثبتان خلاف ذلك!.

وأما خلق آدم من ذكر وأنثى فيفسره «أوريجانوس» تفسيراً رمزياً أيضاً، فيرى في الرجل رمزاً للعقل وفي المرأة رمزاً للروح. ويعقّب «تادرس» على ذلك بقوله: "وكأنه يلتزم اتحاد العقل مع الروح في حياةٍ مقدسة كعنصرين متفقين معاً ينجبان أبناء لهما سلطانٌ على الأرض، أي على الجسد بكل طاقاته".[٢]

وهنا نجد تأويلاً مغرقاً في الرمزيةِ التي إن تأملناها صدرنا عن حقيقةٍ يمليها الشرح ضمناً وإن لم يفصح بها، وهي نفي الوجود المادي لآدم وحواء. في مقابلة إثبات قوى الطبيعة كالأرض، وملكات الإنسان المعنوية دون إثبات حقيقة وجوده المادية.

ولا يتوقف الأمر عند تأويل خلق آدم وحواء وحقيقة وجودهما؛ ولكن الجنة التي أُسكِنَاها كذلك لها تفسيرٌ رمزيٌ أيضاً في الفكر النصراني. يقول مؤلفُ تفسير التكوين: "إن كنا لا ننكر حقيقة هذه الجنة كتاريخ واقعي عاشه آدم، لكننا نرى أيضاً في هذه الجنة رمزاً للسيد المسيح الذي جاءنا من الشرق، فيه يدخل آدم ليجد

---

[١] المرجع السابق، ص٢٦٥

[٢] تفسير سفر التكوين، ص٥٨

شبعهُ وفرح قلبه. فإن كانت جنة عدن تعني (بهجة) أو (نعيم)، فإن السيد المسيح ربنا هو البهجة الحقيقية وسر نعيمنا الأبدي".[1]

ويستطرد: "إن كانت الجنة ترمز للسيد المسيح بكونه سرُّ بهجتنا، فإنها من الجانب الآخر ترمز للكنيسة بكونها جسد المسيح، تُحمل في داخلها (شجرة الحياة) في وسطها كرمز للسيد المسيح رأس الكنيسة وسر حياتها".[2]

وهكذا يُلاحظُ أن تفسيراتهم تلك تتسم بالتأويل والغموض عندما تتناولُ في طيَّاتها معانٍ رمزية أو أساليب فلسفية، بخلاف التفسيرات و الشروح التي تتناولُ النص على ظاهره، فإنها تتحدث عن آدم عليه السلام كقصةٍ مستقلة، قريباً من نظرة التصور اليهودي لذلك الأنسان الأول الذي تفرع منه سائر البشر. ولكن بالتأكيد دون إغفالٍ لخطيئته كونها إحدى المُلماتِ التي مُنيت بها البشريةُ جمعاء!.

هذه -باختصار- رؤية العهد الجديد أو الأناجيل المعتمدة وشُرَّاحِها من النصارى فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام، فهل هي القول النهائي في قصة خلق آدم عليه السلام، أم أن هُنالك مصدرٌ آخر لم تعتمده الكنيسة النصرانية؟!.

---

[1] المرجع السابق، ص٦١

[2] المرجع السابق، ص٦٢

* خلق آدم عليه السلام في إنجيل برنابا: [1]

إننا إذا نظرنا إلى قصة خلق آدم عليه السلام، حسبما يوردها إنجيل برنابا نجد أن ثمة نقاط اختلافٍ كثيرة بينها وبين قصة خلق آدم في العهد الجديد، بل والعهد القديم على السواء!. كما نلاحظ أنها أكثر طولاً وتفصيلاً منهما.

وفيما يلي سنستعرضُ نص قصة خلق آدم عليه السلام كما وردت في إنجيل برنابا، ثم نتناولها بالتحليل والنقد:

- ما ورد في الفصل التاسع والثلاثين:

(حينئذٍ قال يوحنا: حسناً تكلمت يا مُعلم، ولكن ينقصنا أن نعرف كيف أخطأ الإنسان بسبب الكبرياء. أجاب يسوع: لما طرد الله الشيطان، وطهر الملاك جبريل تلك الكتلة من التراب التي بصق عليها الشيطان، خلق الله كل شيء حي من الحيوانات التي تطير ومن التي تدب وتسبح، وزيَّن العالم بكل ما فيه، فاقترب الشيطان يوماً ما من أبواب الجنة، فلما رأى الخيل تأكل العشب أخبرها أنهُ إذا تأتى لتلك الكتلة من التراب أن يصير لها نفس أصابها الضنك، ولذلك كان من مصلحتها أن تدوس تلك القطعة من التراب. على طريقةٍ لا تكون بعدها صالحة لشيء، فثارت الخيل وأخذت تعدو بشدة على تلك القطعة من التراب التي كانت بين الزنابق والورود، فأعطى الله من ثم روحاً لذلك الجزء النجس من التراب الذي وقع عليه بصاق الشيطان الذي كان أخذه جبريل من الكتلة، وأنشأ الكلب فأخذ ينبح فروَّع الخيل فهربت، ثم أعطى الله نفسه للإنسان

---

[1] يُنسب إنجيل برنابا إلى رجلٍ يُعتقد أنهُ أحد حواريي المسيح عليه السلام واسمهُ يوسف، ويُلقَّب بـ"ابن الوعظ"، وهو لاوي قبرصي الجنسية، كان من دعاة النصرانية الأوائل، ويرى النصارى أنهُ من الدُعاة الذين لهم أثر ونشاطٌ ظاهر.

وأقدم خبر عن إنجيل برنابا كان قريباً من عام ٤٩٢م، وذلك حين أصدر أحد باباواتهم أمراً يُحرِّم فيه مطالعة عدد من الكتب؛ كان منها كتاب "إنجيل برنابا". وقد كان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ، ثم لم يظهر لهُ خبر بعد ذلك إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، حيث عثر أحد الرهبان اللاتينيين على رسائلَ لأحد النصارى يُنددُ فيها ببولس وأسند تنديدهُ إلى إنجيل برنابا. فحرص هذا الراهب على الاطلاع على هذا الإنجيل، واتفق أنهُ أصبح مقرباً لأحدِ الباباوات فدخل معهُ يوماً إلى مكتبته، فأخذت البابا سِنةٌ من النوم، فأخذ هذا الراهب يطالع في مكتبته رغبة في قطع الوقت، فوقعت يدهُ على هذا الكتاب فوضعهُ في ثوبهِ وأخفاه ثم استأذن بعد أن أفاق البابا وخرج، فطالع الكتاب بشغفٍ شديد ثم أسلم على إثر ذلك. وقد بيَّن هذه المعلومات أحد المستشرقين في مقدمةِ ترجمته للقرآن الكريم.

ثم تتابع تداول هذا الإنجيل بلغاتٍ مختلفة وتُرجِمَ إلى العربية على يد الأستاذ خليل سعادة. كما أحدث ظهورهُ ضجةً في الأوساط النصرانية لما فيه من العقائد المضادة لعقائدهم الباطلة، فحاولوا دفعهُ بوسائل كثيرة. وأهم المبادئ والعقائد التي يتضمنها هذا الإنجيل هي: ١/ تصريحهُ بأن المسيح إنسان وليس بإله ولا ابن الله. ٢/ أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق كما زعَمَ اليهود في كتابهم، ٣/ التصريح بالبشارة بالنبي محمد ﷺ باسمهِ وأنهُ المسيح المنتظر. ٤/ أن المسيح لم يُصلب وإنما رُفِعَ إلى السماء. أنظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، ط١، ١٤١٨هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض. الصفحات من ١٧٢ إلى ١٧٥

وكانت الملائكة كلها ترنم: "اللهم ربنا تبارك اسمك القدوس". فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابةً تتألق كالشمس، نصها "لا إله إلا الله ومُحَمَّد رسول الله"، ففتح آدم فاه وقال: أشكرك أيها الرب إلهي لأنك تفضَّلت فخلقتني، ولكن أضرعُ إليك أن تنبأني ما معنى هذه الكلمات "مُحَمَّد رسول الله"، فأجاب الله: "مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك أنك أول إنسانٍ خلقت" ... فضرع آدم إلى الله قائلاً: يارب هَبني هذه الكتابة على أظفار أصابع يدي، فَمَنَحَ الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه ... فقبَّل الإنسان الأول بحنو أبوي هذه الكلمات ... فلما رأى الله أن الإنسان وحدهُ، قال: ليس حسناً أن يكون وحدهُ، فلذلك نوَّمه، وأخذ ضلعاً من جهة القلب، وملأ الموضع لحماً، فخلق من تلك الضلع حواء، وجعلها امرأة لآدم. وأقام الزوجين سيدي الجنة، وقال لهما: أنظروا؛ إني أعطيكما كل ثمر لتأكلا منه خلا التفاح والحِنطة، ثم قال: احذروا أن تأكلا شيئاً من هذه الأثمار، لأنكما تصيران نجسين فلا أسمحُ لكما بالبقاء هنا، بل أطردكما ويحل بكما شقاءٌ عظيم).[١]

ففي هذا الفصل نجد قصة آدم عليه السلام قد حوت معاني عِدة نجملها في الآتي:

أولاً: ورد ذكر مادة خلق آدم عليه السلام وهي التراب؛ "الكتلة من التراب"، "القطعة من التراب"، "الجزء النجس من التراب"، مع إغفال ذكر الطين هاهنا.

ثانياً: ورد في هذا الفصل معنىً شاذ لم يُذكر في العهد القديم و لا العهد الجديد؛ وهو بصق الشيطان على كتلة الطين والتسبب بتنجيسها، مما استلزم تطهير تلك الكتلة من النجس والبصاق الشيطاني الذي أصابها وقد تولى جبريل عليه السلام فعل ذلك التطهير.

وهذا المعنى فاسدٌ بالضرورة لمنافاته الثوابت الشرعية في الدين الإسلامي. لذا فلا يمتنع أن يكون كاتب الإنجيل قد تأثر ببعض قصص الخلق في الديانات الوضعية القديمة التي ورد فيها ذكر البصاق في عملية خلق الإنسان!؛ كاعتقادات إحدى قبائل الفلبين الوثنية القديمة كما سيمر معنا.[٢]

والأمر الأهم أننا لا نرى تدخلاً إلهياً في هذا المشهد؛ فالشيطان يبصق على كتلة التراب، ويوعز إلى الخيل لتطأها، فتعدو الخيل و تطؤها بشدة بلا هوادة!، ثم يتولى الملاك تطهير تلك الكتلة من النجاسة الشيطانية

---

[١] إنجيل برنابا، ترجمة من الإنجليزية الدكتور خليل سعادة، الطبعة الأصلية على نفقة مطبعة المنار لصاحبها السيد مُحَمَّد رشيد رضا، كتابة وإعداد وتنسيق: م. أحمد جبر عبد ربه. ص ٢١ - ٢٢

[٢] لا سيما مع ازدهار الحركة التجارية والمِلاحة التي أتاحت الاحتكاك بين الشعوب المختلفة من أقاصي الأقطار، لذا فلا يُستبعد وجود التأثر ببعض أساطير الخلق.

التي لحقت بها دون أن ينتظر توجه الأوامر العليا إليه. ولا يبدو للإله أي ظهور في هذا المشهد إلا عند إعطاءِ روحاً للجزء النجس وخلقهِ الكلب منه لينبح ويُروّع الخيل فيطردها عن كتلة التراب!. ثم بعد ذلك يعطي نفساً للإنسان فينتصب قائماً، في سردٍ أقرب للنَسَقِ الأسطوري منه إلى كتابٍ سماوي!.

كما أن خلق الكلب من تراب تلك الكتلة التي أصابتها النجاسة الشيطانية، يوحي للأذهان بانتساب أمة الكلاب إلى آدم عليه السلام!، والمعلوم من ديننا شرعاً؛ أن الله عز وجل قد أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. بمعنى أن أمم الأرض قد وُجدت على وجهٍ مستقل من حيثُ الخِلقة، ثم جُعلت مُسَخَّرَة للإنسان الذي أوجدهُ الله سبحانه وتعالى لعمارة الأرض.

ثالثاً: في رواية النص أن الله أعطى نفسه للإنسان، والضمير هنا –كما يفهم من السياق- يعود إلى الخالق تعالى علواً كبيراً. فيمكن أن يكون المراد؛ أن الله نفخ فيه من روحه، -كما هو وارد في التصور الإسلامي-، ولكن التعبير قد خان كاتب الإنجيل فجاءت اللفظة على هذا النحو؛ مما يدحضُ مزاعم السماوية وعدم التحريف.

أما ما يترتب على تلك العبارة إن كانت مقصودةً لدى كاتبها ومن يؤمن بإنجيل برنابا من النصارى؛ أن آدم عليه السلام قد حوى جزءاً إلهياً بإعطاء الله تعالى له نفسه –كما يروي النص-، مما يُسوّغ لعقيدة الحلول كلازمٍ من لوازمِ تلك العبارة – تعالى الله علواً كبيرا-.

رابعاً: ورد في النص الإخبار بأن آدم عليه السلام هو أول إنسان خلقهُ الله تعالى؛ "وإني أقول لك أنك أول إنسانٍ خلقت"، "فَمَنَحَ الله الإنسان الأول ...".

خامساً: ورد في النص كذلك الإخبار عن كيفية خلق المرأة أو حواء من ضلع آدم عليه السلام؛ "فلما رأى الله أن الإنسان وحدهُ، قال: ليس حسناً أن يكون وحدهُ، فلذلك نوَّمه، وأخذ ضلعاً من جهة القلب، وملأ الموضع لحماً، فخلق من تلك الضلع حواء، وجعلها امرأة لآدم".

سادساً: وردت في النص جزئية الإسكان في الجنة قريباً مما جاء في العهد القديم، مع تضمن النهي عن الأكل من شجرتين لا شجرة واحدة؛ "وأقام الزوجين سيدي الجنة، وقال لهما: أنظروا؛ إني أعطيكما كل ثمر لتأكلا منه خلا التفاح والحِنطة، ثم قال: احذروا أن تأكلا شيئاً من هذه الأثمار".

سابعاً: جاء تعليل النهي عن الأَكل من الشجرتين بلحوق النجاسة بهما، ومن ثم فلا يعودان صالحين للبقاء في الجنة، مما سيتسبب بطردهما من الجنة. بينما إذا نظرنا إلى رواية العهد القديم نجد أن سبب طرد الزوجين هو أَكلهما من شجرة معرفة الخير والشر ومنافستهما الإله في ذلك، فيتم طردهما تحسباً من أن تمتد أيديهما إلى شجرة الحياةِ أيضاً فيتسمانِ بالخلود والأبدية!.

ثامناً: نرى في النص إثبات أبوة آدم ؛ "فقبَّل الإنسان الأول بحنو أبوي هذه الكلمات". وسيأتي هذا المعنى واضحاً جلياً أيضاً في الأسطر القادمة؛ الأمر الذي لا نجد التصريح به في النصوص التي مرت معنا سابقاً.

تاسعاً: معنى الخطيئة لايزال ماثلاً على نحو ما هو موجود في الفكر النصراني إذ أُلحقت النجاسة بالإنسانية نتيجة خطيئة الإنسان الأول وأبوها آدم ، وسيمر معنا موضعٌ آخر أَكثر وضوحاً.

ولعل ما يمكن قولهُ هنا؛ أن كتلة التراب قد مكثت زمناً قبل إعطائها نفس الإله. وهذا المعنى قريب الشبه بما ورد في خلق آدم في التصور الإسلامي، حتى أن إبليس كان يطيفُ به وهو مُلقىً ويقول لئن سُلِّطت عليه لأهلكنه، بعد أن علِم أنه خلقٌ ضعيف لا يتمالك.

أما مشهد الخيل العادية والبصقة الشيطانية فكلُ ذلك مما لم يرد عليه دليلٌ صحيحٌ من الشرع؛ فيكون من أغاليطِ النصارى وتحريفاتهم.

- ما ورد في الفصل الأربعين:

(فلما عَلِم الشيطان بذلك تميَّز غيظاً، فاقترب إلى باب الجنة حيث كان الحارس حية مُخَوِّفة لها قوائم كجمل وأظافر أقدامها محددة من كل جانب كموسى. فقال لها العدو: اسمحي لي بأن أدخل الجنة، أجابت الحية: وكيف أسمح لك بالدخول وقد أمرني الله بأن أطردك؟ أجاب الشيطان: ألا ترين كم يحبك الله إذ أقامك خارج الجنة لتحرسي كتلة من الطين وهي الإنسان؟. فإذا أدخلتني الجنة أجعلك رهيبة حتى أن كل أحد يهرب منك، فتذهبين وتقيمين حسب إرادتك ... فمتى دخلت الجنة ضعيني بجانب هاتين الكتلتين من الطين اللتين تمشيان حديثاً على الأرض ... ووضعت الشيطان بجانب حواء لأن آدم زوجها كان نائماً، فتمثَّل الشيطان للمرأة ملاكاً جميلاً وقال لها: لماذا لا تأكلان من هذا التفاح وهذه الحنطة؟ ... إلخ).[1]

---

(١) إنجيل برنابا. ص٢٢

وفي هذا الفصل نلاحظ أموراً أهمها:

أولاً: محاولة الشيطان الكيد لآدم وحواء عندما علم بإسكانهما الجنة؛ "فلما عَلِم الشيطان بذلك تميَّز غيظاً ...إلخ".

ثانياً: ذكر مادة خلق آدم وحواء على لسانِ الشيطان؛ وهي الطين؛ "... لتحرسي كتلة من الطين وهي الإنسان؟"، "ضعيني بجانب هاتين الكتلتين من الطين".

ثالثاً: إغواء الشيطان لحواء بعد أن تمثل بهيئة ملك من الملائكة.

وهنا نلاحظ بعض الشبه مع ما ورد في العهد القديم، فصورة الحية ماثلة في كلا المشهدين مع اختلافٍ يسير. إذ قامت بإغواء حواء بنفسها في نص سفر التكوين، لأنها بحسب رواية العهد القديم كانت أَحْيَل حيوانات البرية. بينما في هذا النص نجد دور الحية قد تركز في إتاحة المجال للشيطان ليدخل الجنة في فمها حتى يتمكن من إغواء آدم وحواء.

رابعاً: رواية النص أن آدم عليه السلام كان نائماً وقت إغواء الشيطان لحواء، وهذا المعنى لا نكاد نجدهُ في موضعٍ آخر من قصة خلق آدم في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إلا في هذا النص من إنجيل برنابا.

وعموماً فالخطوط العريضة المشتركة للقصة تتجلى بوضوح؛ وهي إغواء الشيطان لآدم وحواء واستجابتهما بأكلهما من الشجرة التي نُهيا عنها. كما أن نتيجة عصيانهما قد تجلت بوضوحٍ أيضاً إذ حكم الله بإخراجهما من الجنة كما سنرى في الفصل التالي:

- ما ورد في الفصل الحادي والأربعين:

(ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتحبان: أُخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما ولا يضعف رجاؤكما، لأني أرسلُ ابنكما على كيفيةٍ يمكنُ بها لذريتكما أن ترفع سلطان الشيطان عن الجنس البشري، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شيء، فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فبكى عند ذلك وقال: أيها الإبن عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً وتخلصنا من هذا الشقاء).[1]

وهنا نجد الإخراج من الجنة عقوبةً لآدم وحواء جراء أكلهما من الشجرة، غير أن الأمر الجديد والذي لم يَرِد في العهد القديم؛ هو وعد الله بإرسالِ هدايته إلى الأرض وأمرهِ لهما بألا يضعف رجاؤهما. وهذا المعنى نجده واضحاً

---

[1] إنجيل برنابا. ص ٢٣

جلياً في التصور الإسلامي؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ طه (١٢٣)

كما نجد كذلك معنى أبوة آدم وحواء للبشر واضحاً جلياً بعبارتين مثبتتانِ للبنوة والذرية؛ "لأني أرسلُ ابنكما على كيفيةٍ يمكنُ بها لذريتكما أن ..."، "أيها الإبن عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً".

كما نلمح عقيدة الخلاص في آخر النص على لسان آدم عليه السلام؛ "وتخلصنا من هذا الشقاء". فهل كان ورودها لتقرير عقيدة الخلاص النصرانية أم أن ورودها هاهنا جاء اتفاقاً مع السياق؟.

وحتى نجيب على هذا التساؤل لابد لنا من تأمل سياقِ النص، ولننظر ما الشخصية التي قيلت فيها هذه العبارة ونحن نعلم أن عقيدة الخلاص في التصور النصراني تقوم على اعتبار عيسى عليه السلام قد أتى وصُلب لفداءِ البشرية وتخليصها من خطيئة آدم عليه السلام.

بينما في هذا النص نجد البشارة بنبينا مُحَمَّد ﷺ، وهي بشارة حق كما أخبر الله تعالى في محكم التنزيل على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ الصف (٦)

فمجيء النبي الخاتم يقترب العالم من نهايته؛ إيذاناً بإتيان اليوم الموعود الذي تصير فيه الخلائق إلى مصائرها بعد زمن الامتحان في هذه الحياة الدنيا وعرصات الآخرة وأهوال القيامة، فتنقسم الخلائق والأمم إلى فريقين؛ فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعير والعياذُ بالله. يقول ﷺ: "بُعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى"[1]. فالخلاص وفق هذا المفهوم معنىً صحيح دون شك، وهو المعنى الظاهر من سياق النص.

[1] أخرجهُ الشيخان؛ البخاري في كتاب الرقاق، "باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين"، حديث رقم (٦١٣٩)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، "باب قرب الساعة"، حديث رقم (٢٩٥١) وَ (٥٢٤٧)، واللفظ له.

ومما سبق نخلص إلى أن:

- ذكر آدم عليه السلام في العهد الجديد بالعَلَمية كان نادراً وبشكلٍ لم يخلُ من الرمزية.
- العهد الجديد قد أغفل ذكر قصة خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام.
- ذكر آدم عليه السلام أو الإنسان الأول في العهد الجديد لم ينفك عن عقائد النصرانية الأساسية كعقيدتي التثليث والفداء.
- شروح النصارى عندما تتسم بالرمزية، فإن حقيقة فحواها هو نفي الوجود الحقيقي لآدم وحواء.
- تأويلات بعض النصارى لفقرات خلق الإنسان ليست وليدة العصر، وإنما نشأت لدى قدمائهم.
- شروح النصارى عندما تراعي ظاهر النص، فإن المعنى المستفاد من قصة آدم عليه السلام قريبٌ من معناه في التصور اليهودي.
- ثمة اختلاف في رواية خلق آدم عليه السلام؛ بين العهد الجديد و إنجيل برنابا.
- مادة خلق آدم عليه السلام في إنجيل برنابا هي التراب أو الطين.
- آدم عليه السلام هو الإنسان الأول.
- مادة خلق آدم لم تخلُ من أن يصيب بعضها بصقة شيطانية تسبَّبت بتنجيسها.
- مشهد خلق آدم عليه السلام تخللهُ وجود جبريل عليه السلام، و كائنات أخرى كالخيل والكلب.
- أبوَّة آدم ثابتة للجنس البشري من خلال نص برنابا.
- بُنُوَّة الجنس البشري وانتسابهم لآدم وحواء ثبت بنص إنجيل برنابا.
- ملامح فكرة الحلول تتبدَّى من خلال الرواية.
- معنى الخطيئة لا يزال ماثلاً في إنجيل برنابا، ولكن بمعنىً مغاير لما عليه طوائف النصارى.

الفصل الثالث

خلق آدم عليه السلام في بعض الأديان الوضعية القديمة

وفيه:

أولاً: خلق آدم عليه السلام في ديانات العراق القديم.

ثانياً: خلق آدم عليه السلام في عقائد الهند القديمة.

ثالثاً: خلق آدم عليه السلام في عقائد مصر القديمة.

رابعاً: خلق آدم عليه السلام في عقائد وضعية أخرى.

الفصل الثالث

خلق آدم عليه السلام في بعض الأديان الوضعية القديمة[1]

توطئة:

لقد مرت البشرية بتغيُراتٍ عدة في مسارها الديني، منذ انبلاج فجرها من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. ولا أدل وأصدق من شهادة الوحي الشريف الذي قرر حقيقة الأصل الديني لدى بني الإنسان، بأنهُ كان توحيدياً في أرقى صوره. حيثُ كان ابتداءُ العهد البشري بنبيٍّ مُكرم هو أصل البشر وأبو النوع الإنساني على هذه الأرض؛ آدمُ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٣٠)، فكانت إرادةُ الله بأن يخلق أبانا آدم عليه السلام ليكون خليفةً في الأرض بإقامةِ ذكر الله عليها وعمارتها، وهذا مفهومٌ شامل لتلك الغاية التي أوجدنا الله سبحانهُ وتعالى لتحقيقها، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات (٥٦)

ثم لما وقعت العداوة بسبب كِبر إبليس وحَسَده لأبينا آدم عليه السلام، وقضى الله سبحانه وتعالى بإهباطهما إلى الأرض، أخبر سبحانه وتعالى أنهُ سيبعثُ هُدايتهُ للبشرية؛ وأنها ستكون سبب فلاحٍ ونجاةٍ في هذه الحياة والدار الآخرة لمن اتبعها وآمن بها وصَدَقَ مع ربه عز وجل. قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة (٣٨)، وقال أيضاً: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ طه (١٢٣).

فالهدايةُ هي الأصل، والتوحيد هو الأصل في العهد الإنساني، لأن الله سبحانه وتعالى خلق أبانا آدم عليه السلام بيديه، وعلَّمهُ الأسماءَ كلها، وأسجد له ملائكته، وأسكنهُ جنته، وتاب عليه بعد المعصية. فمن تكريمٍ إلى تكريم؛ ومن نعماء إل أخرى، فكيف اعتقادنا فيمن كانت هذه حالهُ؟!. لاشك أنه كان على التوحيد والعبودية لله سبحانهُ وتعالى، ولقد كانت أولَ كلمةٍ تلفظ بها أبونا آدم عليه السلام هي حمدُ المولى سبحانه وتعالى.

---

[1] الوضعي: ما كان من وضع البشرِ. أنظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة "وَضَعَ"، جـ٣، ص٢٤٥٨

قال ﷺ: "إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم؛ ثم نفخ الله فيه من روحه. وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك ...".[١]

وبشأن الأصل التوحيدي. قال الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ البقرة (٢١٣)

يقول الإمام القرطبي: "قوله تعالى: كان الناس أمة واحدة أي على دين واحد ... وقال ابن عباس وقتادة: المراد بالناس القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله نوحا فمن بعده".[٢]

كما ورد عنه ﷺ أنه قال: "كان بين نوحٍ وآدم عشرة قرون كلهم على شريعةٍ من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي قراءة عبد الله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾"[٣]، وفي رواية "كلها على الإسلام".[٤]

ومعلومٌ أن أول شركٍ طرأ في حياةِ البشرية كان في زمن نوحٍ عليه السلام، وما كان قبلهُ إلا التوحيد. فعنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد؛ أما ود؛ كانت لكلب بدومة الجندل. وأما سواع؛ كانت لهذيل. وأما يغوث؛ فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبإ. وأما يعوق؛ فكانت لهمدان. وأما نسر؛ فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعْبَد حتى إذا هلك أولئك، وتنَسَّخَ العلمُ عُبِدَتْ".[٥]

---

[١] فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب "خلق آدم صلوات الله عليه وذريته"، حديث رقم (٣١٤٨)

[٢] الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة البقرة، جـ٣، ص٣٠

[٣] صححهُ الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٨٥٤/٧)

[٤] رواه ابن كثير في تفسيره –وغيره- عن ابن عباس رضي الله عنه، جـ ٤، ص٢٨٥، و ذكره شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية وقال ثابت. جـ٣، ص٦٥

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب "سورة نوح "، حديث رقم (٤٦٣٦)

فلما دخل الشرك في أوساط البشر، استشرى الفساد وسرت موجةُ الكفر بالله ﷻ في الأرض، وظهر تبعاً لذلك الفساد في أمم الإنس على اختلافهم وتعدد مشاربهم إلا من رَحِم الله تعالى من عبادهِ المُخلَصِين.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: ".. وإني خلقت عبادي حنفاء و أنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرمت عليهم ما أحللت لهم، و أمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا".[١]

وأخبر ﷺ مبيناً حال البشر والأزمنة؛ بأنهُ لا يأتي على الناسِ زمانٌ إلا والذي بعدهُ شرٌ منه: فعن الزبير بن عدي[٢] قال: "أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نَلْقَى من الحجاج، فقال اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعدهُ شرٌ منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ".[٣]

أما بالنسبة للديانات الوضعية القديمة، فهي تمثِّلُ حِقباً مُظلمة في جانبها الديني والعقائدي وتوحيد الله ﷻ. حيثُ عجَّت بمختلف الوثنيات والممارسات الشِركية والعقائد الفاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان إلا اتباع الظن والهوى. وسنرى فيما سنستعرِضُ منها كيف كانت موجةُ الفكر فيها والعقيدة فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام على وجه الخصوص.

ولعل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ المائدة (٧٧)، إشارةٌ لتلك الوثنيات القديمة التي تأثر بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حيثُ كانت سابقةً عليهم. فالآية الكريمة تحتملُ هذا المعنى؛ وإن كان بعضُ المفسرين قد أوردوا غيره؛ من أن المقصود بهم غلاةُ اليهود والنصارى الذين كانوا على عهدِ رسول الله ﷺ، ألا يتبعوا من سبقهم من اليهود والنصارى ممن ضلوا عن سواءِ السبيل.[٤]

---

[١] رواهُ مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، "باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار"، حديث رقم (٢٨٦٥).

[٢] العلاَّمة الثقة أبو عدي الهمداني، اليامي، الكوفي، قاضي الري، من الطبقة الرابعة، حدَّث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وإبراهيم النخعي، وغيرهما. و حدَّث عنه سفيان الثوري، وجماعة. وثَّقه أحمد، وكان فاضلا صاحب سُنَّة. قال العجلي: ثقةٌ ثبت؛ من أصحاب إبراهيم. مات سنة إحدى وثلاثين ومائة. أنظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، جـ٦، ص١٥٧

[٣] أخرجهُ البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب "لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه"، حديث رقم (٦٦٥٧).

[٤] أنظر على سبيل المثال: تفسير القرطبي، جـ٦، ص١٨٧. وَ تفسير الطبري، جـ١٠، ص٤٨٧

أولاً: خلق آدم عليه السلام في ديانات العراق القديم:

اشتهر العراق القديم، بعددٍ من الحضارات والشعوب التي سكنته أصالةً، أو نتيجة الهجرات السامية كما يرى بعض الباحثين[1]؛ ومن بين هذه الشعوب؛ حضارة بابل وأكاد و آشور وسومر، وقد ازدهرت ثقافتها ببلاد الرافدين حتى عدَّها بعض المؤرخين أقدم الثقافات الإنسانية؛ فقد عرف العراقيون القدماء في حِقبة ما قبل التاريخ كما -يُصنف البعض-؛ عرفوا صناعة النحاس ودولاب الخزاف وصنعوا الآجر والمحراث والسفن الشِراعية، مما هيأ ومهد لظهور الحضارة السومرية أولى وأقدم حضارات العراق القديم.[2]

بيد أن الجانب الديني إذا ما نظرنا فيه، نجدهُ يعجُّ بألوان الوثنيات والشركيات التي ما أنزل اللهُ بها من سلطان!، فإضافةً لتعدد الآلهة في تلك البيئة العراقية، نجد ارتباطها بمظاهر الطبيعة حيث اعتقدوا وجود قوىً خفية خارقة وجعلوا لكلٍ منها آلهة تختصُ بها كـ«عشتاروت» المزعومة بأنها آلهة الخصب، و«إنكي» الذي جعلوه إلها للماء، و«آشور» إلهُ آشور المحلّي، و«مردوخ» إله بابل، وغير تلك الأوثان والمعبودات التي تنوعت بسببها سُبل الشرك؛ حيثُ قُدِّمت لها النذور والقرابين ومختلف طقوسِ العبادة الأمر الذي أدى للإغراق في الوثنية مع ما صحبها من أساطيرَ بعيدة كل البعد عن الأصل السماوي والمنهج الحق[3]. قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ يوسف (١٠٥ - ١٠٦)

ينقل مؤلف كتاب "معتقدات آسيوية" أن: "العبادة السومرية ظلت مقصورة على المطالب الدنيوية، فلم تتعلق بالحياة الآخرة ومن ثم لم تهتم ببناء القبور، أو بالحفاظ على الأجساد انتظاراً ليوم البعث والحساب والثواب أو العقاب، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان إلا طمعاً في النعم المادية الملموسة".[4]

وبشكلٍ عام فقد كان الفكر الديني في العراق القديم هشاً متهافتاً مُغرقاً في الشرك والوثنية، هذا بناءً على ما ذكرهُ المؤرخون عن تلك البلاد في عصورها القديمة. أما القرآن الكريم فقد قصَّ لنا أخبار بعض الرسل وطوى عنا أخبار بعضهم، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ النساء (١٦٤).

---

[1] أنظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص٣٥٥

[2] أنظر: معتقدات آسيوية، ص٢٣، ٢٤، ٤٤، ٤٥

[3] أنظر: المرجع السابق، ص٢٤، ٣٠، ٣١، ٣٢

[4] ص٣٨ نقلاً عن قصة الحضارة وول ديورانت.

وعليه فيكونُ ما وجد في تلك البقاع من رسالات الأنبياء –إن وُجد- سببٌ لاعتقاد وجود دعوة التوحيد، مما يحمل على اعتقاد وجود بعض أتباع الرسل من المؤمنين. حتى إذا ما اندرس العلم وتفشى الشرك سادت الوثنية من جديد حتى يبعث اللهُ رسولاً. قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ الإسراء (١٧)، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ هود (١١٦).

١/ديانة بابل:

تُعد بابل أحد حضارات العراق القديم، وقد مرت مملكة بابل بثلاثةِ أطوار هي؛ الدولة البابلية الأولى التي قضت عليها غزوات الحيثّيين، ومملكة بابل الثانية التي تُعرف بدولة "أرض البحر"، وقضت عليها هجمات الكاشيين الذين أسسوا مملكة بابل الثالثة والتي انتسبت إليهم فعُرفت باسم "الدولة الكاشية". ويُعد "حمورابي" الذي عُرف بتشريعاته وقوانينه، من أشهر حكام مملكة بابل، الذي حكم نحو ثلاثة وأربعين عاماً حتى تمكن الحيثيون من القضاء على دولته بعد أن حكم فيها ١١ ملكاً نحواً من ٢١٥ سنة. وأما الناحية الدينية فقد كانت وثنية يسودها الشرك والخُرافة والأساطير، كما اشتهرت بتعدد الآلهة المحلية، وأشهرها "مردوخ وعشتار"؛ بطلا ملحمة جلجامش الشهيرة.[١]

أسطورة خلق الإنسان البابلية:

تروي أسطورة الخلق البابلية أن الإله «مردوخ» أحد معبودات بابل، حين قرر خلق الإنسان ليقوم بخدمة الآلهة ويقدم لها القرآبين اختار أن يخلقه من دم أحدِ الآلهة، وعندئذٍ جيء بأحد الآلهة ويُدعى «كنكو»، فتم ذبحه ومزج دمه بالطين وخلق الإنسان من ذلك الخليط[٢]. بينما تروي أسطورةٌ أخرى أن «مردك» كبير الآلهة البابلية أطرق يفكر: "لقد كانت الآلهة في حاجة إلى من يصلي لها ويعبدها، إذن فلتكن المعجزة هي خلق

---

[١] أنظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، للدكتور مُحَمَّد أبو المحاسن عصفور، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت. الصفحات من ٣٦٦ – ٣٦٩. وانظر أيضاً: الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين، لأبكار السقَّاف، ط١، ٢٠٠٤م، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت. ص١٠٢ - ١٠٣

[٢] أنظر: مصر والعراق دراسة حضارية، للدكتور أحمد أمين سليم، ط١، ٢٠٠٢م، دار النهضة العربية، بيروت، ص٤٥١

الإنسان. وانحنى «مردك» على الأرض وشرع يعجن التراب بدمائه وصنع من الطين ناساً تقوم على خدمةِ الآلهة ... وطفق البشر يتزاوجون ويتناسلون".[(١)]

بينما نجد في التصور الإسلامي أن سبب خلق آدم عليه السلام وذريته، إنما هو لعبادةِ الله سبحانه وتعالى وتحقيق الاستخلاف في الأرض بإصلاحها وعمارتها. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات (٥٦)، وقال أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٣٠). فالله سبحانهُ هو الغني له ما في السموات والأرض وما بينهما.

كما نجد في الأسطورة أيضاً فكرة احتواء ذلك الإنسان من جزء إلهي وآخر طبيعي؛ فالآلهة عندما أرادت خلقه من الطين، عجنت ترابهُ بدمائها فدخلت بذلك أجزاءٌ منها في خلقه، وبات يحملُ شيئاً من سِمات الآلهة التي سنرى من خلال ما سيمرُ معنا من الأسطر، أنها لا تختلف عن الإنسان أو البشر الذي خلقته إلا في أمورٍ يسيرة جداً!.

يقول د. كامل سعفان: "كان البابليون ينسبون إلى آلهتهم صفات البشر؛ الروحية والمادية، ... فالآلهة تأكل وتمارس كل ما يمارسهُ البشر، ولا تكاد تتميَّز إلا بصفةِ الخلود".[(٢)]

وثمةَ روايةٍ بابلية أخرى، تحكي الأسطورةُ فيها، أن خالق الإنسان هي إلهة الأمومة «مامي» وتسمى «ننتو»، وهي الأم الكبرى، أي الأرض والتربة الخصبة، جاء في النص:" .. أنتِ عون الآلهة مامي أيتها الحكيمة، ياخالقة الجنس البشري، أخلقي الإنسان فيحمل العبء ويأخذ عن الآلهة عناء العمل، فتحت «ننتو» فمها وقالت للآلهة الكبار: فليعطني «أنكي» طيناً أعجنه، فتح «أنكي» فمه قائلاً: ستقوم «ننتو» بعجن الطين، إله وإنسان معاً سيتحدان في الطين أبداً".[(٣)]

وهنا نجد أيضاً نفس الغاية الواردة في الأسطورة الأولى لخلق الإنسان؛ وهي حمل العبء عن الآلهة أو خدمتها، كما نجد فكرة مثنوية الجسد ماثلةً أيضاً؛ فهو يتألف من جزءٍ إلهي وآخر إنساني تم اتحادهما في الطين!. ولعل هذا التصور الوثني وغيره أحد جذور الانحراف اليهودي و النصراني في العقائد، حيثُ ابتدعوا تصورات باطلة

---

(١) أشهر الأساطير في التاريخ، للمؤلف مجدي كامل، ط١، ٢٠٠٣م، دار الكتاب العربي، دمشق-القاهرة، ص٤١. وانظر: معتقدات آسيوية؛ العراق-فارس-الهند-الصين-اليابان، ط١، ١٤١٩هـ، دار الندى، مدينة نصر، ص٦٥

(٢) معتقدات آسيوية، ص٦٦

(٣) معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل، للأستاذ عبد الوهاب الراوي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار العلوم، عمَّان، ص١٩

ما أنزل الله بها من سلطان؛ كفكرة بنوة الشعب اليهودي لله –تعالى الله علواً كبيراً-، وفكرةُ التجسد للإله في الفكر النصراني المنحرف.

٢/ديانة آكاد:

يرى البعض أن الأكاديين يمثلون أشهر هجرات الساميين من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين، وأنهم الساميون الأول الذين استوطنوا العراق القديم. ويذهب الدكتور حسن ظاظا إلى أنهم أول شُعبة سامة تظهر على مسرح التاريخ، وقد عاشوا جنباً إلى جنب مع السوريين وكان تأسيس إمبراطوريتهم في الألف الثالثة قبل الميلاد، بينما يرى البعض أنهم كانوا بالعراق منذ أقدم العصور وقد عاشوا جنباً إلى جنب مع السومريين وعُرفت مناطقهم باسم «آكد»، ولذا يُطلق على الدولة التي أسسها «سرجون» فيها اسم الدولة الأكدية.[١]

أسطورةُ خلق الإنسان الأكادية:

فتروي الأسطورة أن العالم في بدء أمره كان يحتوي على عنصرين أزليين هما الماء العذب والماء المالح، وبتزاوجهما انبثقت الخليقة؛ الآلهة والبشر. وأن البشر خُلقوا من طينة الأرض وشُكلوا حتى يُشبهوا الآلهة.[٢]

وفي هذه الأسطورة نلحظ اشتراك الآلهة مع البشر في مسألة الخلق؛ فكلاهما مخلوق من اجتماع تلك المياه الأولى – عديمة الحياة-، وبهذا لم تفضُل الإلهة عن البشر بفرقٍ جوهري على الحقيقة، خلا في سمة الخلود كما ذكر الدكتور كامل سعفان –مما أوردنا آنفاً-.

فالمياهُ أصل لهما جميعاً، ثم زاد خلق البشر بدخول عنصر طين الأرض، لكن حتى هذا ليس لنا أن نعُدُّهُ فرقاً جوهرياً مادام أنه قد جرى تشكيل البشر حتى يشبهوا الآلهة!.

وهنا لا نجد دخولاً لأجزاء إلهية في صنع البشر، وإنما استقلالية كلٍ منهما عن الآخر، مع الاشتراك في أصلِ المادة التي خُلق منها كل فريق؛ الآلهة، والبشر!. وكذلك انتفاء معنى الأبوة بهذه الصورة التي وُجد من خلالها البشر وهي الانبثاق!.

---

[١] أنظر: تأثر اليهودية الأديان القديمة، للدكتور فتحي الزغبي، رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه، ١٤٠٧هـ، جامعة الأزهر. ص١٧٨. وانظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص٣٥٥-٣٥٦

[٢] أنظر: قصة الديانات، لسليمان مظهر، ط٢، ٢٠٠٢م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٧٠-٧١

٣/ديانة آشور:

كان الآشوريون من الساميين الذين سكنوا في شمال بلاد النهرين منذ الألف الثالثة ق.م، واكتسبوا اسمهم من اسم المدينة «آشور» الواقعة في بقعة استراتيجية بين «سومر» و «أكد» من جهة، وبين كردستان وأرض الجزيرة العليا من جهةٍ أخرى، فكانت دوماً مطمعاً للملوك الأقوياء الذين ظهروا في الجنوب أمثال «سرجون» وملوك «أور». ويقسم بعض المؤرخين تاريخ الآشوريين إلى فترتين: الفترة الأولى من ٢١٠٠إلى ٩٠٠ق.م تقريباً، وفيها كانوا يناضلون في سبيل النهوض سياسياً وعسكرياً. الفترة الثانية: وتمتد بعد الفترة الأولى إلى ٦٣٣ق.م وهي التي تمكنوا فيها من تكوين إمبراطورية. أما الناحية الدينية فقد كانت تعج بالوثنية والشرك حيثُ كان هنالك تعدد الآلهة إضافةً لكبيرها المحلي «آشور»[١]، كما أن من عقائدهم؛ فناء الروح وأن لا حياة بعد الموت ولا دينونة.[٢]

أسطورة خلق الإنسان الآشورية:

رغم أن الأساطير البابلية القديمة تروي أن «آشور» هو إلهُ الآشوريين القومي وملك الآلهة جميعاً وخالق البشرية[٣]. إلا أننا لا نكاد نجد بين ثناياها كيفيةً لذلك الخلق البشري أو مادته، ولكن اعتقادنا أنه لا يبتعد كثيراً عن سائر أساطير خلق البشر أو الإنسان الأول، على نحو ما ورد في جملةِ أقاصيص ومرويات ديانات بابل الأخرى عن الخليقة.

٤/ديانة سومر:

اختلف المؤرخون في أصل السومريين إذ يمكن إرجاع لغتهم إلى عائلة اللغات السامية أو إلى عائلة اللغات الهندو أوربية، ولذا فإن فريقاً من الباحثين يرى بأنهم جاءوا أصلاً من مكان في شرقي بلاد النهرين أو جنوبها الشرقي، ويرى فريقٌ آخر بأنهم جاءوا عن طريق البحر وأنهم من نفس الجنس الذي وصل إلى مصر في عهد ما قبل الأسرات، بينما يرى فريق ثالث أنهم نشأوا نشأة محلية وتطورت حضارتهم محلياً، أي أنهم لم يكونوا من الأجانب. ويعتقد السومريون أن الآلهة خلقت البشر ليقوموا على خدمتهم، و-كسابقتها- فقد كان الفكر الديني

---

[١] أنظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٣٧٢-٣٧٤، وانظر: الدين في مصر والعصور القديمة، ص١١٤

[٢] قاموس المذاهب والأديان، ص٢٣٩

[٣] أنظر: قصة الديانات، ص٧٣

مُغرقٌ في الشرك والوثنية والتعددية، لاسيما الثالوث السومري الشهير؛ "أنو" إله السماء بزعمهم، وَ "إنليل" وَ "أنكي".[(١)]

أسطورة خلق الإنسان السومرية:

وتحكي الأسطورة أن «أنكي» إله الماء والعلم والحكمة في الديانة السومرية، كان أحد أفراد الثالوث الرئيسي المقدس، حين أراد خلق البشر شَّكل الإنسان من الطمي ونفخ فيه نسمة الحياة. وهو الذي استنجد به «مردوك» عندما خلق الإنسان الأول.[(٢)]

وهنا نجد فكرة التثليث ماثلة بوضوح وجلاء، كما أن مراحل خلق الإنسان الأول لم تخلُ من شيءٍ من التشابه مع الأصول السماوية؛ إذ نلمحُ وجود المادة الطينية، ونفخ الحياة في ذلك المخلوق.

وكأن الأسطورة تقرر أن «أنكي» قد غدا ذا خِبرةٍ في خلق البشر، مما دفع «مردوك» للاستنجاد به عندما أراد خلق الإنسان الأول. ما يجعلنا نعتقد تعدد الأوادم أو الإنسان الأول تبعاً لتعدد الآلهة في الوثنيات البابلية!.

ثانياً: خلق آدم عليه السلام في عقائد الهند القديمة:

لقد ساعد اتساع بلاد الهند على شبه القارة الهندية –المترامية الأطراف-، على تنوع النسيج الاجتماعي وتعدده، تبعاً لتنوع التضاريس والأقاليم، مما أدى لتنوّع الموروث الفكري والديني على السواء نتيجة عوامل عِدة أسهمت في حدوث التأثر والتأثير.[(٣)]

فضمت العديد من الديانات الوثنية القديمة؛ كالهندوسية ذات الانتشار الواسع في المجتمع الهندي، والجينية ذات التأثير على الهندوسية والبوذية؛ والسيخية.[(٤)]

---

(١) أنظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى، ٣٤٦، وانظر: قاموس المذاهب والأديان، للدكتور حسين علي حمد، ط١، ١٤١٩هـ، دار الجيل، بيروت. ص٢٣٧

(٢) أنظر: قصة الديانات، ص٧٤-٧٥

(٣) أنظر: فصول في أديان الهند، للدكتور محمّد ضياء الأعظمي، ط٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية. الصفحات من ٥١٩ إلى ٥٢٤

(٤) أنظر: فصول في أديان الهند، ص٥١٩، ٦٣٧، ٦٦١، ٦٧٠، ٦٨٢

١/ديانة براهما:

«براهما» هو اسم الرب باللغة «السنسكريتية» وهو عند البراهمة أو الهندوس الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس، وإنما يُدرك بالعقل خالق الكون، لا حدّ له. و«البراهمة» طائفة دينية في بلاد الهند، تُنسب إلى «براهما»، وكتابها المقدس «الفيدا» و «البورانا» الذي يمثل الديانة مختلطة بالتثليث "براهما، فشنو، سيفا". ويقوم هذا الدين على أصلين رئيسين هما: وحدة الوجود والقول بالتناسخ، كما تسود الطبقية بين أفراده.(١)

وقد تعرضت «البراهمية» عبر مراحلها التاريخية إلى إصلاحات عديدة فظهرت عنها «البوذية» و«الجانتيسيّة»، كما اتسمت هذه الديانة بالطبقية والتمييز بين أفرادها.(٢)

وأما الفكر الديني لهذه الديانة فيدور حول جملة عقائد منها: الإيمان بتناسخ الأرواح، و قانون الجزاء أو ما عُرف بـ«الكارما» - حيثُ يعتقدون خلود النفس أو الروح-، والانطلاق الذي هو عبارة عن فكرة حلولية إذ يتم الامتزاج ببراهما. إضافةً لتقديس البقر، و إنكار البعث أو اليوم الآخر حيثُ يقومون بحرق جثث موتاهم تفادياً لتعرضهم للعقوبة أو الألم بعد الموت.(٣)

أسطورة خلق الإنسان في ديانة البراهمة:

تحكي الأسطورة أن براهما كان وحيداً حتى كره وحدته تلك، فصنع جسداً بأطرافِ أنامله، وكان ذلك الشيء كبير الحجم هائلاً، ثم نفخ في الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين؛ نصفٌ لرجل ونصفُ لامرأة. ونتيجة لذلك نشأ في العالم أول زوج وأول زوجة، واجتمعا فكان أول نسلهما البشر.(٤)

إذن؛ فسبب خلق أول بَشرَيْن –ومن ثمَّ سائر البشر منهما- بحسبِ هذه الأسطورة، هو معاناة الإله بالوَحدة!. فهو يفتقر وفق هذه الفلسفة لأن يملأ وَحدَته بخلقٍ يؤنسها!.

بخلافِ التصور المتسامي للإله ﷻ في الدين الإسلامي، فهو الغني عن جميع خلقه له ما في السموات والأرض وما بينهما، قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة (١٢٠)، وقال ﷻ: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ العنكبوت (٦). كما ثبت

(١) أنظر: قاموس المذاهب والأديان، ص٥٠
(٢) قاموس المذاهب والأديان، ص٢١٨
(٣) أنظر: المرجع السابق، من ص٢١٨ إلى ٢٢٠
(٤) أنظر: قصة الديانات، ص٨٠-٨١

في الحديث الصحيح أنهُ سبحانهُ كان ولا شيء معه وكان ولا شيء قبله [1]؛ ثم سائر الخلائق ستفنى وتزول كما كانت عدماً يوماً، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ الرحمن (٢٧)

كما تروي أسطورةٌ هندوسيةٌ أخرى، أن زوجة الإله فشنو «لاكشمي»؛ إلهة اللوتس التي تمثل الثراء والنعمة، هي المسؤولة عن ولادة البشرية. بينما تتحدث أسطورةٌ أخرى عن أن براهما هو المادة الأساسية للخلق، الموجودة منذ الأزل.[2]

وهاتان الأسطورتان؛ نلحظُ في الأولى منها إثبات بُنوة البشر للآلهة، إذ تمَّ خلق البشر عن طريق ولادتهم من قبلِ لاكشمي، بينما في الثانية فنلمحُ دخول جزء إلهي في خلق البشر حيثُ كانت مادةُ خلقهم الأساسية من براهما!.

ولعل هذا ما يميزُ أساطير الخلق الوضعية –كما رأينا وكما سيمرُّ معنا -، إذ تعتقد تارةً بالتجسّد الإلهي والبشري معاً، أو تعتقد إلهية المخلوق البشري بدخول بعض أجزاء من الآلهة في تركيبه ومادة خلقه.

بينما نجد في التصور الإسلامي غاية السُمُو في تنزيهِ الخالق جل وعلا، فهو سبحانهُ وتعالى قد قرر في كتابهِ الكريم بأنهُ لم يلد ولم يُولد، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ الإخلاص (١-٤). كما قرر عزوجل بأنه بدأ خلق الإنسانِ من طين، قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ السجدة (٧)

يقول المؤلف سليمان مظهر: "ومن هنا بدأت قصة الخلق كما يراها الهندوس، قصة الخلق التي قام بها «براهما»، روح العالم، عندما خلق «مانو» أول البشر. ومن أولِ البشر خُلقت البشرية".[3]

وقصة «مانو» يوضحها د. كامل سعفان بقوله: "و مانو (الولي الكبير) هو السلف الأسطوري الذي تسلسلت منه جماعة المانوية أو مدرستها الفكرية المؤلفة من براهمة، بالقرب من دلهي، وقد صَوَّرتهُ هذه النصوص إبناً لله، أو أبا البشر، يتلقى القوانين من براهما نفسه".[4]

كما نلمسُ أيضاً عقيدة تناسخ الأرواح من وراء تلك الأساطير في خلق آدم عليه السلام أو الإنسان الأول؛ كقصة الخلق التي تُعزى لأحد أسفار "يوبانشاد"، ومفادها أن الإله بعد أن خلق ذاتاً واحدة شقها نصفين فنشأ من

---

[1] سبق تخريجه.

[2] أنظر: أشهر الأساطير في التاريخ، ص٣١

[3] قصة الديانات، ص٨٢

[4] معتقدات آسيوية، ص١٨٢. ويقصد بالنصوص؛ "تشريع مانو" الذي ذكر أنهُ أقدم القوانين الهندية.

ذلك زوج وزوجة، فاجتمعا وأنسلا البشر وبذلك نشأ البشر من نفسٍ واحدة وكذلك أُخرجت منها زوجته، فتساءلت الزوجة كيف يكون ذلك وقد أخرجها من نفسه؟!، فأرادت الاختفاء منه فتحولت إلى بقرة، فانقلب هو ثوراً وكان باجتماعهما أن تولدت الماشية!، فحاولت الاختفاء منهُ ثانية فتحولت لهيئةِ الفرس، فاتخذ لنفسهِ هيئة الجواد. وهكذا تمضي الأسطورة في سردها لقصة الخلق حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى النمل والحشرات، فيقول: "حقاً إني أنا هذا الخلق نفسه لأني أخرجته من نفسي".[1]

يقول د. سعفان تعقيباً على هذه الأسطورة: "في هذه الفقرة الفريدة نلمسُ بذرة وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، فالخالق شيء واحد، وكل صورةٍ من الكائنات كانت ذات يومٍ صورةً أخرى ... وحدث إبَّان عصور طويلة أن تحولت ملايين الأنفس من نوع إلى نوع، ومن جسمٍ إلى جسم، ومن حياةٍ إلى حياة، في دوراتٍ من التناسخ لا تفتأ تتكرر".[2]

و حول جنة آدم وحواء؛ تعتقد "الجانتية" –وهي إحدى ديانات الهند-، أن آدم وحواء كانا يعيشان في الجنة بطُهرٍ كامل لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر، ولا يحملان هماً أو غماً، حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذا النعيم، فحملهما على الأكل من شجرة العلم بالخير والشر، فأُخرجا من الجنة.[3]

وإذا تأملنا نجد بعض ما في هذه الأسطورة، شبيهاً بما ورد في العهد القديم، كمسألة عدم حياء الزوجين وعدم خجلهما في الجنة!![4]، كما نلمح ببعض الأساطير، فكرة الخلاص على غرار ما في النصرانية المحرفة إذ تروي بعض الترنيمات الهندية: "ثمة إلهٌ واحد هو راما، خالق السماء والأرض، ومخلص الإنسانية ... ومن أجل عبَّاده المخلصين، جسَّد نفسه في إنسان، فبعد أن كان «راما» إلهاً صار ملكاً من البشر، ثم من أجلِ تطهيرنا عاش بيننا عيش رجلٍ من عامةِ الناس".[5]

ولا نزال نتساءل: هل ما ذكرناهُ ونذكره في هذا السرد يُمثِّل جذور الانحراف في الديانتين اليهودية والنصرانية فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام؟!.

ربما يصدق ذلك على بعض ملامح العنصرية التي مرت معنا كما في أسطورة براهما والطبقية التي صُنِّف الناس على أساسها، فكلُ ذلك لا يبعد أن يكون له تأثيرٌ قوي في نزعة العنصرية اليهودية جراء تأثرهم بحضارات بابل وما تسرب إليها، بعد أن مكثوا ردحاً ألفوا فيه الذلة والهوان في بلاط فرعون مصر!.

---

[1] أنظر: المرجع السابق، ص١٥٨

[2] المرجع السابق، ص١٥٨، ١٦٠

[3] المرجع السابق، ص١٩٧

[4] أنظر: (تك ٢: ٢٥)

[5] معتقدات آسيوية، ص٢٣٣

وأمام أساطير الهند القديمة حول خلق آدم ﷺ، يتبادرُ إلينا سؤالٌ مُفادُه: هل عُرف اسمُ "آدم" في أدبياتِ الهند القديمة أم لا؟.

وللإجابةِ على هذا السؤال، نذكر ما أوردهُ الدكتور مُحَمَّد ضياء الأعظمي تحت عنوان (قصة وجود آدم وحواء)؛ حيثُ نقل نصَّاً لأحد كتب الهندوس المقدسة، وهو كتاب «بهاوشيا بُران»: "خُلق رجلٌ اسمُهُ «آدمو»، وامرأةٌ اسمها «حيووتي»".[1]

ثم عقَّب على ذلك بقوله: "وردت كلمة «آدمو» في «بهاوشيان بُران»، ولم ترد هذه الكلمة في كتب الهندوس الأخرى؛ و «آدمُ» كلمة عبرية معناها «إنسان»، وقد جاء في الأصل الآشوري «آدامو» أي؛ يعمل وينتج ... وكلمة «حيووتي» لعلها من «حواء» وهي كلمة عِبرية ومعناها «حياة» ، وهي زوجة آدم، وسُميت بحواء لأنها أم كل حيٍ من البشر والله أعلم".[2]

وتحت عنوان (عصيان آدم ربه)، يوردُ د. أعظمي من نفس كتاب الهندوس المقدس «بهاوشيا بُران»: "في شرق قرية «بُردان» وفي حديقتها الجميلة التي بناها الله، ذهب آدم لرؤية زوجته، ففي تحت شجرة الذنوب جاء الشيطان بصورةِ ثعبان بحكمٍ من الله، فأكلت المرأة الثمرة من الشجرة التي أخرجتها من الجنة إلى الدنيا".[3]

وفي نصوص «بهاوشيان بُران» نلمسُ شكلاً من أشكال التأثر الذي يُحتمل أن يكونَ تأثراً بالعهد القديم، حيثُ نجد ذكر "الثعبان"، "جهة الشرق"؛ ففي نص «بهاوشيان» نجد الحديقة الجميلة شرق قرية «بردان»، وكذلك في العهد القديم غرس الرب الإله جنةً في «عدن» شرقاً[4]، وأكل المرأة من الشجرة.

كل ذلك يجعل احتمالية التأثر بالعهد القديم ترجحُ باحتمالية التأثر بالتصور الإسلامي على النحو الذي ذكرهُ الدكتور مُحَمَّد ضياء الرحمن الأعظمي في كتابه "فصول في أديان الهند"، وإن كان ذلك لا ينفي حصول التأثر الهندوسي بالاثنين معاً.

يقول د. مُحَمَّد الأعظمي عن "بشارات الهند"، التي أورد بعضاً من أجزائها في قصة وجود آدم وحواء: "إنها موضوعة، أدخلها الهندوس في كتبهم في العصور المتأخرة، كما أنهم ألفو كتباً في العهد الإسلامي وجعلوها مقدسة ومنزلة، مثل كتاب؛ «بهاوشيا بُران»".[5]

---

[1] دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ط٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية. ص٧١٠

[2] المرجع السابق، ص٧١٠ - ٧١١

[3] المرجع السابق، ص٧١١

[4] أنظر: (تك ٢: ٨)

[5] فصول في أديان الهند؛ الهندوسية-البوذية-الجينية-السيخية وعلاقة التصوف بها، للدكتور مُحَمَّد ضياء الرحمن الأعظمي، ط١، ١٤١٧هـ، دار البخاري، المدينة المنورة، بريدة. ص١٩٧

وهذا شأنُ أي ديانة وضعية من تآليف البشر، فإنها تسعى لجمع عقائدها من مشارب شتى، سواء اعتقدت صحة الأصل الذي اقتبست منه تلك العقائد أو لم تعتقدها، وقد تسعى لأن تضيف إليها ما يميزها من ابتداعات طقسية وتعاليم عبادية ما أنزل الله بها من سلطان، فيظن القارئ أو المطلع أنها شيءٌ من بقايا الحق، وتكونُ حقيقتها محض تسريبات متأخرة من أديانٍ أخرى!.

ثالثاً: خلق آدم عليه السلام في عقائد مصر القديمة:

لم يختلف الفكر الديني المصري القديم عن الصُور الوثنية التي أوردناها سابقاً؛ فقد تفشَّى فيها الإشراك بالله عزوجل وعُبد من دونهِ طواغيتٌ شتى. ويذكرُ المؤرخون أن تعدد الأوثان المصرية قد طرأ منذُ عصورٍ ما قبل التاريخ، الأمر الذي جعل البعض يُصنِّفها ضمن المجتمعات المتدينة بسبب ذلك التعدد!.[١]

فمن معبوداتٍ على هيئةِ حيوانات وطيور؛ كالأسود والثيران الوحشية والتماسيح والكلاب والقِردة والعجول والأفاعي، ممن يُعتقدُ بوجودِ قوىً خفية خارقة لها!. إلى تقديسِ الشمس وتأليهِ البشر وعبادتها من دون الله تعالى!.[٢]

وقد أخبرنا الله تعالى في كتابهِ الكريم عن هذه الوثنيةِ المصرية التي أثَّرت في الفكر الديني الإسرائيلي عبر أزمانٍ ممتدة حتى ترسخت فيه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة (٩٣). فالله تعالى يُخبر عن إشراك بني إسرائيل وتأثرهم بالبيئة التي كانوا يسكنونها، ومعلوم أن عبادة العجل كانت عبادة راسخة في الوثنية الفرعونية القديمة. وفي معرض نهي بني إسرائيل عن تنكُّب الجادة باتباع سبيل الأقوام السابقة عليهم، دليل على تلك الوثنيات القديمة التي سبقت الوجود الإسرائيلي، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ وَلاَ تَتّبِعُوَاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلّواْ كَثِيراً وَضَلّواْ عَن سَوَآءِ السّبِيلِ ﴾ المائدة (٧٧)

---

[١] أنظر مُقدمة كتاب: الديانة المصرية القديمة، للمؤلف: ياروسلاف تشرني، ترجمة د. أحمد قدري، ط١، ١٤١٦هـ، دار الشروق، القاهرة. ص هـ .

[٢] أنظر: المرجع السابق، الصفحات من ١٤ إلى ٣٦ ، وانظر: قصة الديانات لسليمان مظهر، ص٣٥-٣٧

وأما تأليهُ البشر فأبرزُ مِثالٍ حكى لنا القرآنُ الكريم قصته؛ هو فرعون، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص (٣٨). ومن المعلوم أن فرعون لم يكن من بني إسرائيل، وإنما هو امتداد ومثال لما كانت عليه الوثنية الفرعونية القديمة.

ومن عقائد مصر القديمة؛ فكرة الخلود التي اتضحت في مدى الاهتمام والعناية بشرابِ الموتى وطعامهم الذي يُدفن معهم!. يقول مؤلف كتاب الديانة المصرية: "استمرار الحياة بعد الموت؛ حيثُ كشفت الأواني التي تحتوي على الطعام والشراب فضلاً عن الأدوات والأسلحة والحُلي البدائية التي كانت توجد مع الموتى في مقابرهم عن أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون بضرورتها للموتى، وهذا يدل على أن الاعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت قد هيمن على هذه الثقافات".[1]

كما اعتقد المصريون القدماء في البعث والحساب بعد الموت؛ فظنوا أن الميّت في قبره يحيا حياةً خالدة في مملكة الغرب. وقد اسُتُدِل على ذلك بمختلف طقوس العقائد الجنائزية المصرية؛ من اهتمامٍ بطريقةِ حفظ أجساد الموتى وما يلزمهم من مأكلٍ ومشرب وزينةٍ استعداداً لحياةٍ أخرى!.[2]

١/أسطورة خلق البشر الفرعونية:

تحكي الأسطورة أن رع أشهر الآلهة في مصر القديمة حين أراد خلق البشر أخرجهم من فمه. وتنسب الأسطورة حديثاً لكبير الآلهة في مجمعها: "...ها أنتم أولاء ترون البشر، مخلوقاتي التي أخرجتها من فمي عندما لم تكن سماء ولا أرض ..".[3]

وهذه الأسطورة تشبهُ أساطير سبقتها لم تُراعِ فيها الوالدية بالانتساب لأصلٍ بشريٍ واحد أو الإنسان الأول، حيثُ أُخرجت تلك المخلوقات من فم تلك الآلهة الوثنية دفعة واحدة كما يفيد سياق الأسطورة، كما أن الامتزاج بالآلهة هنا قد يكون بشكلٍ أكبر من فكرة التجسيد –إن لم يكونوا آلهة مثلها!. في ظل خروجهم من فم الآلهة حين لم تكن أرض ولا سماء بحسب الأسطورة!، الأمر الذي ينفي بطبيعة الحال دخول عناصر طبيعية أخرى في أولئك البشر من طينٍ أو غيره!.

---

[1] ص٣، ١٠٦

[2] قصة الديانات، ص٤٧

[3] أشهر الأساطير في التاريخ، ص١٥، ٢٣

وهنا يمكن التساؤل ماهي مادة خلق أولئك البشر؟!، وكيف عاشوا بعد إيجادهم مُباشرة، دون أن تتوفر لهم مصادر الحياة وأسبابها؟!. فهل كانوا آلهة ضمن الآلهة وجرت تسميتهم بشرا؟!، هذا ما يفيدهُ معنى تلك الأسطورة! ويفرق عن أساطير أخرى تمت فيها ولادة البشرية من الآلهة في كيفية الإيجاد فحسب!.

رابعاً: خلق آدم عليه السلام في عقائد وضعية أخرى:

١/ أسطورة خلق البشر الرومانية الإغريقية:

وتتحدث عن خلق ثلاثةِ أجيالٍ من البشر والإنسان، الذي ابتدأ خلقه أحد آلهة الطبيعة الرومانية «برومثيوس بن يابيتوس»، حيثُ قبض قبضةً من تراب الأرض، وعجنها بماء المطر وسواها إنساناً على صورة الآلهة، وقد مرَّ الإنسان بأربعةِ عصور بحسب رواية الأسطورة.[١]

وفي هذه الأسطورة تشابهٌ مع ما سبقها من أساطير في وجود مادة خلق البشر وهي الطين، بل وتقترب في معناها –من حيث مادة الخلق- من النص السماوي، إذ وُجد عنصرا الإيجاد وهما الماء والتراب. مع انعدام ذكر النفخ في ذلك المخلوق الجديد!.

كما تقترب من رواية العهد القديم التي أفصحت بأن ذلك الإنسان على صورة الرب كشبهه!. وأما عصور وجود ذلك المخلوق، فقد يكون بسبب تصارع الآلهة المستمر وموجة الإفناء لبعضِ الخلق أو كُلهُ من آنٍ لآن!.

بينما تحكي أسطورةٌ يونانيةٌ أخرى: أنه عندما أراد «برومثيوس» خلق الإنسان، خلقهُ من ماء وتراب، ثم عندما استوى نفخت الآلهة «أثينا» فيه الروح.[٢]

وهنا نلحظ وجود خالقين في واقع الأمر!، إذ تولى أحدهما تشكيل المادة، وتولى الآخر النفخ فيها بعد استوائها!. كما نلحظ وجود آلهة روما «أثينا» في هذه الأسطورة في حين خلت من ذِكرها الأسطورة السابقة.

ولكن السؤال: هل هناك دلالاتٌ معينة من وراء تولي آلهتين؛ "ذكرٌ وأنثى" خلق الإنسان الأول، أم أن أحداثَ الأسطورة محض اتفاق جرت حكايته على الألسن دون تمييز، وكلاً يزيدُ فيه بما شاء؟!.

---

[١] أنظر: المعتقدات الرومانية من سلسلة التراث الروحي للإنسان، للدكتور خزعل الماجدي، ط١، ٢٠٠٦م، دار الشروق، عمَّان، ص٣١٥-٣١٧

[٢] أنظر: معجزات القرآن العلمية في الإنسان، ص١٩

٢/ أسطورة خلق البشر في فارس:[١]

وتروي أن «أهورامزدا» خلق الإنسان الأول «كيومرد»، وهو أول البشر. ثم إن روح الشر «أهرمان» عدت على الأرض وتمكنت من قتل الإنسان الأول الذي خلقه «أهورامزدا» ، ولكن بذور «كيومرد» كانت مخبأة في الأرض فأنبتت شجرةً خرج منها أول زوجين من بني آدم، بعد انقضاءِ أربعين سنة على تلك البذور.[٢]

وفي هذه الأسطورة الفارسية الفريدة، نلحظ وجود الأصول النباتية للإنسان بشكلٍ غير مسبوق!، إذ كان وجود أول زوجين آدميين من شجرةٍ نمت من بذور «كيومرد»!، ولعلنا الآن نتساءل عن ماهيةِ تلك البذور لنحدد نوع ذلك البشر الجديد إن كان ينتمي لفصيل الآلهة أم لا؟!. ومن الإنسان الأول في عُرف الأسطورة، أهو «كيومرد» أم الزوجين اللذين أنتجتهما الشجرة النابتة من بذور «كيومرد»؟!.

أما المجوس؛ فيقولون أن المبدأ الأول من الأشخاص هو «كيومرث»، وربما يقولون «زروان الكبير». و «الكيومرثية» يقولون «كيومرث» هو آدم ﷺ، وقد ورد في تواريخ الهند والعجم "كيومرث آدم".[٣]

وفي اعتقادهم أن العالم السفلي بدأ برجلٍ يُقالُ له «كيومرث»، وحيوانٌ يقال له ثور، فقتلهما «أهرمن» إله الظلام، فنبت من سَقَط ذلك الرجل «ريباس»، وخرج من أصل «ريباس» رجلٌ سُمي «ميشه»، وامرأة سُميت «ميشانة»، وهما أبوا البشر.[٤]

وأما «الأبستاق»[٥]؛ فيذكر أن «هرمز» برأ الإنسان الأول «كيومرث» الذي كان شمساً ساطعة على الضفة اليمنى من نهر جيحون الجاري في مركز الأرض ... وكان «كيومرث» بصيراً ناطقاً سميعاً، وجاء نسله على شاكلته

---

[١] ويُقصد بها ديانات إيران القديمة؛ فقد كان الفرس من الوثنيين المشركين حيثُ عبدوا قوى الطبيعة المختلفة التي جسَّموها وشخَّصوها على هيئةٍ وأشكالٍ زعموها آلهة؛ فعبدوا الشمس وجعلوها رمزاً لإله العدل والخلاص واسمُهُ «مثرا»!. كما عبدوا القمر والنار والماء والريح، وعبدوا إلههم المسمى بـ «أهورامزدا» الذي عُرفت به الوثنية الفارسية الإيرانية. وهو في الديانة الزرادشتية؛ الإله الأوحد الكامل الأبدي الكلي المسيطر المطلع على كلِ شيء، خالق البشر والعالم والكائنات.
وتدور عقيدة المجوس حول النور والظُلمة وامتزاجهما، حيثُ جعلوا الامتزاج مبدأً والخلاص معاداً. فأثبتوا أصلين هما النور والظُلمة، و زعموا أن النور أزلي والظُلمة حادثة. كما اعتقدوا بفكرة المبدأ الأول من الأشخاص وهو «كيومرث» عندهم؛ ويعتقدون أنهُ آدم ﷺ. أما معتقدات فارس فمنها: الإيمان بحياةٍ أخرى وبالبعث والحساب، وكذلك الاعتقاد ببقاء الروح. أنظر: معتقدات آسيوية، الصفحات من ٩٠ إلى ٩٢ ومن ١٠٣ إلى ١٠٨ . وانظر كذلك: قصة الديانات، ص ٢٧٦ وما بعدها.

[٢] أنظر: قصة الديانات، ص٢٩٩

[٣] معتقدات آسيوية، ص٩١

[٤] المرجع السابق، ص٩٢

[٥] كتاب إيراني قديم، مأخوذ من الفيدا. أنظر: المرجع السابق، ص١١٥ ، ١١٧

... وفي فتنة الخير والشر قُتل «كيومرث» فنبت من دمهِ حين قُتل ذكر يُسمى «ميشه»، وأنثى تسمى «ميشانة»، فتزوجا وتناسلا.[1]

إلى آخر تلك الأساطير في التراث الفارسي القديم، والتي يشترك –أغلبها تقريباً- في وجود إنسانٍ أول تم قتلهُ على يد قوى الشر، ونَتَجَ عن قتله أول زوجين تناسلا وأنتجا البشر، على اختلاف طريقةِ نشأتهما؛ من دمه أو ريباسه أو بذوره.

وإذا نظرنا للأساطير الآنفة نلاحظ أن وجود البشر من «كيومرث» أو «كيومرد» تم بطريقٍ غير مباشر، بينما تُنسب البشرية إلى الذكر والأنثى اللذين نشآ عن دمه أو ريباسه أو بذوره، وبذلك يمكن اعتقاد كونه الإنسان الأول، ولكن في أبوَّته للبشر نظر، مادام تفرعهم عنه بطريقٍ غير الطريق الذي تثبت به الأبوة والأمومة وهي التوالد أو الذي يكون بسبب الرضاع –كما هو وارد في ديننا الحنيف-.

٣/ أسطورة خلق البشر في الصين:[2]

وتروي الأسطورة أن السماء والأرض كانتا ممتزجتين امتزاجاً لا انفصام له، كبيضة الفرخ، فأنجب داخلها «با ان كو»، وبعد آلاف من السنين حدثت تحولات لهذه الكتلة البدائية فنشأ الخلق، وكان «با ان كو» يزداد حجماً مع كل مرحلة من مراحل الخلق، وبعد موته تحولت أنفاسه فصارت الرياح والسحب!، وهكذا كل جزء من أجزاء جسده تحوَّل إلى شيء من الخلق، وأما الناس أو البشر؛ فنشأوا من الطفيليات التي كانت على جسده، حيثُ شكَّلت الناس أو البشر عقب أن لفحتها الريح.[3]

---

[1] المرجع السابق، ص١١٥

[2] تعددت الآلهة عند الصينيين القدماء، وعبدوا –كغيرهم من الشعوب الوثنية- معبودات شتى من دونِ الله تعالى، فألَّهوا كثيراً من مظاهر الطبيعة؛ كالشمس والسماء والمطر والرياح والرعد والأشجار والجبال والأفاعي. كما عبدوا الأرواح الكامنة في جميع الأنحاء، وأضفوا القداسة على الأرض وما عليها. وقد اشتهرت الصين بعدد من الديانات والعقائد، كالديانة الكونفوشيوسية، والديانة الداوية، والبوذية. كما اعتقدوا بفكرة الخير والشر فصنَّفوا الأرواح إلى خيِّرة وشريرة. وآمنوا بفكرة الخلود في هذه الحياة.

وأما وجود العالم؛ فيعتقد الصينيون أنه لم يكن هناك شيء قبل خلق العالم، واستمر ذلك طويلاً ثم ظهر (شيء) ومن هذا الشيء خُلق «بان كو»!؛ الذي كان غايةً في القوة – بحسبِ الأدبيات الصينية-، وكان له رأس تنين وجسد أفعى، وقد استطاع خلق العالم عام ٢,٢٢٩,٠٠٠ ق.م!!. كما آمنوا بوجود قوة عليا تسيطرُ في جميع تلك المعبودات يجسدها حاكمٌ اسمهُ «شانج تي» هو الإله الأعظم. أنظر: قصة الديانات، الصفحات ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧

[3] معتقدات آسيوية، ص٢٥٤

وهذه الأسطورة الغريبة، عقَّب عليها د. سعفان بعد أن ساقها بقوله: "ربما لا تكون هناك أسطورة أخرى تفسر خلق العالم، وربما كانت هناك أساطير لا تبعد عن هذا التفسير، وهو دليل على انصراف القوم عن (الميتافيزيقيا)، أو عن زهدهم فيها، لأنها لا تصنعُ لهم حلولاً ولا تسعى إلى تغيير ما هم عليه منذُ آلاف السنين. وحسبهم –منذ وعوا- أنهم مجرد طفيليات تلفحها الريح، و تتقاذفها أقدار طبيعية، وأقدار إنسانية".[١]

لكن أبرز ما يميز هذه الأسطورة، إلى جانب انعدام معنى الوالدية بالنشأة الجماعية للبشر دفعة واحدة، ليس فقط انعدام معاني التكريم، بل ووجود ضدها من معاني الضَعَة والمهانة، إذ لم تتم نشأتهم إلا من جيفةٍ ميتة!، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل تعدى لأن يكونوا أهون ما في ذلك الجسد الميت وهو الطفيليات!!. في حين خُلق الذهب من والأحجار الكريمة من نُخاعه!.

ولربما تفسِّر لنا هذه الأسطورة حال المجتمع الصيني كمجتمع مادي أو شيوعي يغمط كرامة الإنسان، إذ اهتمت قصة الخلق بتوزيع الخليقة بحسب أهمية الأعضاء!، فالرياح مثلاً من –عنصر حيوي- وهي أنفاس «با ان كو»، والأنهار من دمهِ!، أما الإنسان فقدرُهُ يتجلى في كون نشأته من أحطِّ شيء في «با ان كو» وهي الطفيليات!!.

ومع اتساع النطاق الصيني ممثلاً في رقعة أراضيه وتنوع شعبه، فإن احتمالية وجود أساطير خلقٍ أخرى، يختص بها إقليم أو شعب من شعوب الصين الممتدة عبر تلك الأقاليم واردة.

يقول د. كامل سعفان: "وإذا كانت بقايا الإنسان القديم في الصين، المعروف باسم إنسان بكين، يشير إلى أقدم استيطان للإنسان في العصور الحجرية القديمة، فليس ما يؤكد أن هذا الإنسان سقط من السماء في هذه المنطقة".[٢]

٤/ أساطير أخرى:

ومما يروى أن بعض القبائل -كسكان استراليا الذين يقطنون ضواحي ملبورن[٣]- يعتقدون أن «بند جل» الخالق عندما أراد خلق البشر، وضع بعض الطين على قطعتين من لحاء الشجر ثم شكَّلها رجلاً وامرأة، ونفخ فيها أنفاسه فتحركا.

---

[١] المرجع السابق، ص٢٥٥

[٢] المرجع السابق، ص٢٤٦

[٣] هي عاصمة ولاية فيكتوريا الأسترالية، وأكبر مدنها. تعتبر ثاني أكبر مدن أستراليا بعد سيدني. الموسوعة الحرة: http://goo.gl/LIV7v

وفي هذه الأسطورة نجد الطين كمادة لخلق البشر، وكذلك نجد الزوجين الرجل والمرأة كمخلوقين وُجدا بشكلٍ مستقل منذ البداية، كما نجد أيضاً النفخ الذي حصلت حركتهما بسببه.

بينما يعتقد الماءوريون -سكان نيوزلندة- أن إلهاً معيناً يُسمى بأسماءٍ مختلفة هي «تو ، وتيكي ، وتاني» ، لما أراد خلق الإنسان أخذ طيناً أحمراً من جانب النهر وعجنه بدمه وشكله على صورته بعينين وذراعين وغير ذلك من الأعضاء، ثم بعث فيه الحياة بأن نفخ في فمه ومنخره، فاكتسبت الدمية الطينية الحياة وعطست.

وفي «تاهيتي»[١] يُعتقد أن الإله «تاروا» الإله الأكبر، خلق الإنسان الأول من الطين الأحمر، ثم سلط عليه النوم، فلما استغرق في نومه انتزع منه عظمة من عِظامه وصنع منها امرأة، ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية.

وهذا الاعتقاد في قصة خلق البشر التاهيتية، يمكن القول بأنهُ قريب الشبه جداً مع ما ورد في العهد القديم، وأساطير اليهود التي أوردت تصانيفاً للون التراب الذي خُلق منه آدم عليه السلام. كما ينعدم فيها التمازج بين الآلهة والبشر على نحو ما هو موجود في أغلب الأساطير.

أما قبيلة «الباجوبوس» القاطنة جنوب شرق «ميندانا و»[٢]، فتعتقد أن إلهها «ديواتا» حين أراد خلق البشر، أخذ حفنتين من تراب وشكلهما في هيئة شكلين آدميين، ثم بصق عليهما فتحولا إلى رجلٍ وامرأة.

وهنا تعاود فكرة التمازج بين الآلهة والبشر في الظهور، حيثُ حوى الشكلين جزءاً من أجزاء الآلهة وهو البصاق –تصور متدنٍ لأولئك البشر!-، فنجد أنهما تحركا حيثُ بصقت عليهما الآلهة، مع انعدامِ مرحلة نفخ الروح هاهنا. كما أن خلق الاثنان تم بشكلٍ مستقل، وليس بخلق أحدهما من الآخر، أو المرأة من الرجل.

وإذا انتقلنا إلى أفريقيا، نجد هناك بين قبائل «الشلوك» أسطورة منتشرة عن خلق الإنسان، مفادها أن الإله «جووك» شكَّل الناس جميعاً من التراب، وأنه كان يشكِّل أناس كل قُطرٍ من تراب ذلك القطر الذي يكتسبون خصائصه بالتالي تبعاً لذلك، ففي بلاد الأجناس البيضاء عَثَر على ترابٍ أو رملٍ أبيض نقي فشكَّل منه الناس ذوي البشرة البيضاء، ومن أرض مصر شكَّل أناساً ذوي بشرةٍ حمراء أو بنية من طمي النيل، ومن أرضِ الشلوك شكَّل من تربتها السوداء أناساً ذوو بشرةٍ سوداء.

---

[١] هي أكبر جزر بولينيسيا الفرنسية. تقع في المحيط الهادي. المرجع السابق

[٢] إحدى جزر أرخبيل الفلبين. المرجع السابق

وما يلفت النظر في هذه الأسطورة الأفريقية، هو انعدام معنى الوالدية -أيضاً-، أو الأبوة والأمومة، إذ تم خلق أناس كل قطر دفعةً واحدة، لا على نحو ما هو معهود في قصص الخلق؛ من تفرعهم من أصلٍ واحد، أو أول زوجين، وإنما يُلاحظ التركيز على نوع تُربة القطر التي شُكل منها أُناسها، وكأن الأسطورة هاهنا أرادت أن تراعي التناغم بين المخلوق البشري والبيئة التي وُجد منها باعتبار الإنسان جزء من الطبيعة لا يتجزَّأ. لذا جاء التركيز على محيطٍ خُلق منه ذلك البشر، مع إهمال كيفية إنشاء و إتمام ذلك الخلق. كما نلحظ كذلك استقلالية الخلق البشري عن الآلهة في تلك الصورة البسيطة التي حكتها الأسطورة.

ولا تختلف كثيراً أسطورة الهنود «البيما»، الذين يقطنون «أريزونا»[١] عن تلك الأساطير الآنفة عن خلق البشر، سوى في ماهية ذلك الطين الذي مزجه الإله بعرق جسده، ثم صنع منه كتلة راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحياة وتحولت من ثمَّ إلى رجلٍ وامرأة كانا أول البشرية.[٢]

---

[١] هي ولاية أمريكية تقع في المنطقة الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة. نفس المرجع السابق

[٢] أنظر: الفلكلور في العهد القديم، لجيمس فريزر، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ط٢، ١٩٨٢م، دار المعارف، جـ١، الصفحات ١١٥،١١٦، ١١٧، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥

ومن خلال ما سبق نستنتج أموراً:

- تكاد تتفق الروايات الأسطورية على اختلافها حول مادة خلق آدم ﷺ أو الإنسان الأول، وهي "الطين"، مع اتفاقٍ على عنصر التراب واختلافٍ حول مادة المزج بين ماء النهر، أو ماء المطر، أو بعض خصائص جسد تلك الآلهة الوثنية من دمٍ أو عَرَق وغيرهما.
- تتجلى في معظم الأساطير، فكرة مثنوية الخلق البشري، باشتمال البشر أو الإنسان الأول على أجزاء إلهية داخلة في تخليقه إلى جانب أجزاءِهِ الطينية المأخوذة من تراب الأرض.
- تتفق أغلب الروايات الأسطورية حول خلق آدم ﷺ، على ارتداد جميع البشر إلى أصلٍ واحد هو آدم وزوجه. خلا رواية قبائل «الشلوك» الأفريقية حيثُ تعدد الأوادم بتعدد أنواع تراب الأرض. وكذلك أسطورة خلق الإنسان المصرية حيثُ أخرجهم جميعهم من فمهِ دفعةً واحدة. وأسطورة الصين القائلة بتحوُّل طفيليات جسم «با ان كو» إلى بشر، ولا ننسَ إحدى أساطير بابل التي تولَّد البشر انبثاقاً نتيجة تزاوج المائين العذب والمالح!.

كما يُلاحظ في تلك الأساطير الوثنية، أن خلق الإنسان الأول –كما أسلفنا- متعددٌ تبعاً لتعدد الآلهة!. فآلهة بابل على سبيل المثال؛ منها إله مملكة «آشور» وقد خَلَقَ إنساناً أولاً وانتشر منه بشرٌ كثيرون كما تروي الأسطورة. وكذلك آلهة «سومر» خلقت إنساناً أولاً وتفرع منه بشر، وآكاد، وغيرها مما مرَّ معنا آنفاً، حيثُ نجد تعدداً -للأوادم البشرية- بحسب تعدد الآلهة في القُطر أو الديانة الواحدة. وكأن الأمر أشبه بالمباراة أو التنافس فيما بينها!.

ثم الاتفاق بين تلك الأساطير حول خطوطٍ عريضة في مسألة خلق آدم عليه السلام -كمادةِ خلقهِ وهي "التراب"-، وبث سائر البشر منه وزوجه. يشير إلى أن قصة خلق الإنسان أو البشر في تلك الأساطير قد ترجع في أصولها إلى قَصَصٍ سماوية قصها الله سبحانه وتعالى على أنبياء أممٍ غابرة ضاربة بأغوار التاريخ، وبالتالي فهي من بقايا الحق الذي حُرّف، نتيجة تفشي الإشراك بالله تعالى والعقائد الفاسدة بتلك المجتمعات.

أو نتيجة التداول من أمةٍ إلى أخرى فدَاخَلَهُ التشويه بالزيادة والنقصان تارةً، وبالحشو تارةً أخرى!، فوصل إلينا مزيجاً أسطورياً يتفق ويختلف. رغم تجليةِ الوحي المنزل -على جميع أنبياءِ الله الذين أرسلهم في أزمانٍ متفاوتة- لحقيقة خلق آدم عليه السلام من طين وبثِّ سائر البشر منه ومن زوجه حواء. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ﴾ ص(٧١)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾ النساء (١).

فنقطةُ الاتفاق -كما أسلفنا- واحدة فيما يتعلق بارتداد البشرية إلى أبوين أوَّليين، وما يتعلق بمادة خلقهما وهي التراب. وتبقى الحاكمية والتعويل في "الكيفية" على الوحي الإلهي الذي لا يمثلهُ اليوم سِوى دين الإسلام الذي تكفَّل اللهُ سبحانهُ وتعالى بحفظه.

وأما الأديان السماوية السابقة؛ من اليهود والنصارى فقد أخبر الله تعالى أن أهلها قد أخفوا كثيراً من الكتاب، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به أيضاً، لذا فقضية لها من الأهمية مالها؛ كقصة خلق الإنسان ومبدأ البشرية، لابد أن تكون قد ذُكِرت على نحو ما هو موجود في الدين الإسلامي، بيدَ أن يدَ التحريف والتغيير والتبديل طالتهُ كما طالت غيرهُ من الحقائق.

كما يَلفت الانتباه أيضاً، أننا لا نجد من بين تلك الأساطير صورةً للخلق على نحو ما تحكيهِ بعض النظريات العلمية والفلسفات الحديثة، الأمر الذي يجعل اعتقاد كونها -أي تلك النظريات والفلسفات- بِدعاً من الفكر الجامح، أمراً أقربُ إلى الجنان والتصديق -يُضافُ إلى بُطلانها وفسادها الظاهِرَيْن-.

وأما الإسكان في الجنة وفتنة الأَكل من الشجرة، فلا نكاد نراهُ في مشاهد خلق الإنسان بتلك الأساطير، وهذهِ مسافةٌ أخرى تضاف بينها وبين الحقيقة الساطعة الموجودة في الدين الإسلامي، وتقترب بعض نصوص أهل الكتاب وتبتعد بقدر ما تحمل من نقاط الاتفاق والاختلاف مع المصدر الإسلامي الصحيح.

إضافةً لذلك نجد أن كثيراً من قصص خلق الإنسان بتلك الأساطير الوثنية لا يخلو المشهد في كثيرٍ من الأحيان بوجود جزء إلهي في الإنسان الأول، كالأسطورة التي تحكي عجن تراب الخلق ببزاق الآلهة. في حين يخلو مشهد الكتاب المقدَّس من هذا المعنى، إلا في الترميز المعنوي الذي يكرِّس لبعض العقائد النصرانية.

وأما في التصوُّر الإسلامي، فالمشهد لا يخلو من التشريف بخلق آدم بيدي الله تبارك وتعالى، والنفخ فيه من روحه، وتعليمِهِ الأسماء، وإسجاد الملائكة له. أما تداخل الأجزاء أو امتزاج الماهيَّات فليس من الإسلام في شيء. وبذلك يُعرفُ انحراف بعض الطوائف المنتسبة للإسلام.

الفصل الرابع

أبرز النظريات الفلسفية والعلمية في خلق آدم عليه السلام

وفيه:

أولاً: خلق آدم ﷺ في نظرية وحدة الوجود.

ثانياً: خلق آدم ﷺ في نظرية الأوادم المتعددة.

ثالثاً: خلق آدم ﷺ في نظرية النشوء والارتقاء.

الفصل الرابع

أبرز النظريات الفلسفية والعلمية في خلق آدم عليه السلام

لم تفتأ محاولاتُ تفسيرِ أصلِ الوجود البشري وكيفيةُ بدايتهِ، بالظهور من حين لآخر، مما أدى لتعدد الفلسفات والنظريات التي تبحثُ في أصل ذلك الوجود قديماً وحديثاً تبعاً لذلك. ولاشك أن تلك المحاولات لم تخرج عن أحدِ حالين؛ فإما أن تكون حقاً وإما أن تكون باطلا.

فأما الحق فما كان على هَديٍ من الوحي الصادق المعصوم، إذ الإنسان وأصلُهُ وكيفية وجوده من قضايا الغيب التي لا سبيل إلى معرفتها بشكلٍ يقيني وصادق إلا من خِلال السمع أو الخبر الإلهي. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ الإنسان (١)، وقال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ الكهف (٥١)، ويقول عز وجل مخبراً عن الذين افتتنوا بعلمهم فصدهم عن التصديق والإيمان الحق: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ غافر (٨٣)

فمن سار في تفسيره ونظريته مهتدياً بخبر الوحيين، ملتزماً ضوابط تفسيرهما على الوجه الصحيح الواجب، بحيث لا يُعارضُ في تفسيرهِ أو نظريتهِ مُسَلَّماً شرعياً، فضلاً عن أن يؤولهُ أو ينفي دلالته!، جاءت نتائجهُ تحملُ قدراً من الصحة والواقعية.

وأما من سار في تفسيرهِ مُعتداً معتمداً أسباباً مادية وعوامل خارجية محضة؛ كالعقل أو نظريات تُنسب للعلم في ميدان التجريب وهو منها بُراء. أو كان محض هوىً واغترار –كما سنرى-. فضلاً أن يأخذ بأقوالِ غير المسلمين -ممن يُنسبون للعلم- على إطلاقها، في الوقت الذي يردُ فيه الحديث الشريف لأنهُ لم يثبت عنده بحجة أنهُ خبرُ آحاد!، وهل كانت أساطير الخلق إلا حكايا لم تثبت؟!.

وهل كان كلام بعضِ أولئك المنتسبين للعلم إلا حكايات رويت عنهم، قد تصدق نسبة بعضها إليهم وقد لا تصدق؟!. وأكبرُ الطوامِ وأشدها أن يأتي من كان عَدَمَاً بالأمس القريب قبل مولده!؛ -من أولئك المنتسبين للعلم والمنظِّرين-، ليدَّعي علماً يُفتنُ به أو يَفْتِن، ليضلُ الناس بغير علم، ويصرف وجوه الخلق عن نصوص الحق الهادية إلى سواء السبيل. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ

اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنعام (١٤٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ الحج (٨)

وفي هذا الفصل سنتناول -إن شاء الله- بعضاً من تلك المحاولات والنظريات المعتمدة على أسبابِ المادة، ونبيِّنُ ما عليها من المآخذ الشرعية.

أولاً:

خلق آدم عليه السلام في نظرية وحدة الوجود

إننا إذا تأملنا خلق آدم عليه السلام كما يعرضها الفكر الصوفي الفلسفي، نجدها على ضربين:

الأول: جانب مادي وهو خلقُهُ عليه السلام من مادةِ الطين.

الثاني: جانب فلسفي يتركز حول فكرة الإنسان الكامل.

وقبل أن نعرِض لهذين الجانبين نودُ التنبيه على أن حديثنا عن ذلك سيعتمد بشكلٍ أساس على فِكر ابن عربي[(١)] لسببين:

الأول: أنهُ يمثِّلُ رأس التصوف تقريراً وتنظيراً وتقعيداً.

الثاني: أنَّهُ أوَّل من أطلق فلسفة وفكرة الإنسان الكامل.

ففيما يتعلق بالسبب الأوَّل يقولُ الدكتور لطف الله خوجه: "ابن عربي يُمثِّل رأس التصوُّف تقريراً وتنظيراً وتقعيدا، فهو نقطة تحوُّل في تاريخ التصوُّف من ناحيةِ تطويره وتفصيله وشرحِهِ والإفاضةِ فيه باستخدام كافة الأدوات من نصوص شرعية، وأفكار بشرية، وثقافات أجنبية؛ هندية ومجوسية، ويونانية، ونصرانية، ورموز مثالية وخيال واسع، إذ لم يسبقهُ إلى ذلك أحدٌ من المتصوِّفة".[(٢)]

وأما فيما يتعلق بالسبب الثاني؛ فلأنهُ أوَّل من استعمل تعبير "الإنسان الكامل" في الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي، هذا من ناحيةِ اللفظ. أما المضمون فقد استقاهُ من روافد مختلفة.[(٣)]

---

(١) صاحب التواليف الكثيرة محيي الدين أبو بكر مُحَمَّد بن علي بن العربي، نزيل دمشق. وكان ذكيا كثير العلم، وعمل الخلوات وعلق شيئا كثيرا في تصوف أهل الوحدة. ومن أردأ تواليفه كتاب "الفصوص". قال عنهُ الذهبي: "فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله". وقد عظمه جماعة وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلامة ابن دقيق العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن العربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجا. توفي في ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ. سير أعلام النبلاء، جـ٢٣، ص٤٨ -٤٩

(٢) الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، إعداد: د. لطف الله بن عبد العظيم خوجه، ط١، ١٤٣٠هـ، دار الفضيلة، الرياض. ص١٣١

(٣) أنظر: المعجم الصوفي، للدكتورة سعاد الحكيم، ط١، ١٤٠١هـ، دندرة للطباعة والنشر، بيروت. ص١٦٠. وانظر: الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، ص١٤٣

كما أن مقولة "الإنسان الكامل" تكاد تكون الفكرة الرئيسة الوحيدة التي دارت عليها معظم نصوص محيي الدين بن عربي -على كثرتها-، وهي تربو على ثلاثمائة، فلا يكاد يخلو منها كتاب أو رسالة أو حديث. وقد عبَّر عنها وأشار إليها بجملة مصطلحات، أحصت منها الدكتورة سعاد الحكيم -وهي متخصصة في فكر ابن عربي-، ما يزيد على أربعين مُرادفاً لها.[١]

لاسيما أن من جاء بعد ابن عربي قد اعتمد على فِكرهِ، ولم يخدمهُ بشيءٍ زائدٍ عن مجرد شرح فلسفة ابن عربي دون إضافاتٍ حقيقية مهمة.[٢]

يقول أحد المهتمين بتراث ابن عربي، عن أحدِ مؤلفاته التي أسهمت في تشكيل بُنية الفكر الصوفي الفلسفي: "ولا مبالغة في القول بأن كتاب الفصوص أعظم مؤلفات ابن عربي كلها قدراً وأعمقها غوراً وأبعدها أثراً في تشكيل العقيدة الصوفية في عصرهِ، وفي الأجيال التي تلته. فقد قرر مذهب وحدة الوجود في صورته النهائية ووضع لهُ مصطلحاً صوفياً كاملاً استمدهُ من كل مصدرٍ وسعهُ أن يستمد منه؛ كالقرآن والحديث وعلم الكلام والفلسفة المشَّائية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والغنوصية المسيحية والرواقية وفلسفة فيلون اليهودي، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا، ومتصوِّفة الإسلام المتقدمين عليه".[٣]

وعليه فيمكن القول أن ابن عربي أول من أطلق فكرة الإنسان الكامل كفلسفة لتفسير الوجود البشري، وليس هذا فحسب بل إنه خدم فِكرته بشكلٍ كبير حتى أن كثيراً من المتأخرين عليه لم يستوعبوا تماماً فكرته الفلسفية التي أحاطها بلغةٍ كتابيةٍ غامضة.[٤]

- **الجانب المادي في خلق آدم عليه السلام:**

لا يختلف تصوّر الصوفية لبدايةِ النوع البشري عن التصوّر المعلوم في النصوص الإسلامية؛ فآدمُ عليه السلام قد ابتدأ خلقُهُ من طين وهو أبو البشر، وهو خلقٌ مستقلٌ بذاته لا كما يزعمُ أرباب النظريات الباطلة كالتطوريين[٥]، والفِكر الفاسد كبعضِ الديانات الوضعية. وإنما هو مخلوقٌ مُكرّم، وليس هذا فحسب؛ بل يزيدُ على ذلك التكريم

[١] أنظر: الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، ص١٤٤
[٢] أنظر: المرجع السابق، ص١٤٥
[٣] أبو العلاء عفيفي؛ فصوص الحكم لابن عربي، د.ط، د.ت، دار إحياء الكتب العربية. ص٧
[٤] فيما يتعلق بغموضِ أسلوبه؛ أنظر: المرجع السابق، ص١٢، ١٥
[٥] ستأتي معنا فكرة النُشوء والارتقاء في هذا الفصل إن شاء الله.

بكونِهِ أوَّلُ البشر، الأمر الذي يرفعُ من قدرِهِ ومكانتهِ مادام بعيداً عن الخطأ!، فإن تلبَّس به انحط إلى دركةٍ أدنى تُفقِدُهُ خواص الأوَّلية.[١]

ثم هذا البشر الإنساني مادام يتألَّف من روحٍ وجسد؛ فهو في الفكر الصوفي بحسبها؛ إن نظرنا إلى الجانب المادي وهو الجسد فهو بحسب مادتهِ حيوانٌ ليس أكثر!، وإن نظرنا إلى الجانب المعنوي منهُ وهي الروح الشاهدة أو الفانية؛ فهو بحسبها "الإنسانُ الكامل". وما من تشابهٍ بينهما سوى في التسمية!؛ أي لفظ "الإنسان" نظراً لاشتراكهما في الشكل دون الحقيقة!.[٢]

يقول ابن عربي: "الإنسان الكامل؛ إنما قلنا الإنسان الكامل، لأن اسم الإنسان قد يُطلق على المشبه به في الصورة، كما تقول في زيدٍ أنهُ إنسان وفي عمرو أنهُ إنسان، وإن كان زيدٌ قد ظهرت فيه الحقائق الإلهية وما ظهرت في عمرو، فعمرو على الحقيقة حيوانٌ في شكلِ إنسان".[٣]

ثم هذه الحيوانية ليست متمايزةٍ عن حيوانية سائر الكائنات!، وإنما الإنسان الحيواني في فكر ابن عربي بخصوص والفكر الصوفي بعموم من جملةِ الحشرات، ورتبتهُ من الإنسان الكامل رُتبة خلق النسناسِ[٤] منه![٥]، فهل شابه ابن عربي نظريات التطوريين بمقالته تلك؟!.

إن الناظر في فكر ابن عربي والتأثيرات المختلفة التي أسهمت في تشكيله يجد تشابهاً كبيراً بينهما، وإن كان يحاولُ المحافظة على أفكارهِ بشيءٍ من الاتزان؛ كما فعل على سبيل المثال -مما مرَّ معنا آنفاً-، عندما حاول تنزيه "الأول" وأن له الكمال مالم يُخطِئ. فهنا مُناقضةٌ لأصلهِ وفكرته في الإنسان الكامل سعى لمعادلتهِ وموازنته باشتراط عدم الخطأ!، وإلا فكيف تكون الحقيقة المحمدية هي الأكمل والأفضل بإطلاق وثمة أوَّلٌ بشري ينافسها الكمال والتمام؟!. لذا فما دام آدم قد أخطأ فقد نقصت رتبته وكماله كأوّلِ مخلوقٍ من البشر.

---

[١] ذكر هذا المعنى ابن عربي في شرحِ قوله تعالى ﴿ هُوَ الأَوَّلُ ﴾، فقال: "والخير كلهُ إنما هو في الأوائل، ألا ترى أن الخاطر الأول هو الإلهي الصادق الذي لا يخطئُ أبدا"، فالمرتبة الأولى لها الصدق ولا تُخطيء .. وكذلك النظرة الأولى والحركة الأولى والسماع الأوَّل، وكُلُ أوَّلٍ فهو إلهي صادق، فإذا أخطأ فليس بأوَّل". المعجم الصوفي، ص١٧٥

[٢] المعجم الصوفي، ص١٥٣

[٣] الإنسان الكامل والقطب والغوث الفرد من كلام محي الدين ابن العربي، جمع وتأليف: محمود محمود الغراب، ط٢، ١٤١٠هـ، دار الفكر، دمشق. ص١٢

[٤] نوع من القِردة.

[٥] المعجم الصوفي، ص١٥٦-١٥٧

ولعل ابن عربي مع سعةِ اطلاعه قد اطلع على شيءٍ من مقالةِ التطوريين الأقدمين –كإخوان الصفا كما سنرى- ، فعمد إلى تهذيب الفكرة بما يتفقُ ومبادئُ التصوُّف فقال بالمشابهةِ مادةً وهيئةً مع استقلال العناصر تبعاً لاستقلال الخلق، في حين اعتقد التطوريون اتحاد الخلق وانتقالِهِ من طورٍ إلى طورٍ مُغاير له شكلاً ومضموناً.

وقد انتقلت هذهِ الفِكرة إلى من أتى بعد ابن عربي، ونذكرُ على سبيل المثال:

يقول أبو العزائم: "الإنسان هو النوع الوسط بين الملائكة والحيوانات، فهو بالنسبة لغذائه ونموّهِ وحِسِّه وحركته حيوان، وبالنسبة لإدراكه وقوة تصديقه بالغيب وتخيّلهِ الغائب بالمشهود ورقيِّهِ في مراتب العلو حتى يُدرك ما وراء المادة ويبلغ درجة أن يأنس بالمفارق ملكٌ مقرّب، هذا هو الإنسان".[١]

وفي موضعٍ آخر يقولُ ناظماً:

أيا أيها الإنسان من طينِ فخار ** تكوَّنت كي ترى مظاهر أسراري
ومن نطفةٍ أنشئت آياً جلية ** وصِرت بمحضِ الفضل حِصن قرارِ
تدبَّر فأنت الطين والماء فاشهدن ** جمالي وإحساني وسري وأنواري[٢]

- **الجانب الفلسفي لفكرة الإنسان الكامل:**

سبق وأن ذكرنا بأن للإنسان في الفكر الصوفي ماهِيّتين تختلف كلٌ منهما عن الأخرى؛ فالأولى كما بيَّنا تشترك مع الحيوانات والكائنات الدنيا مضموناً، ومع الإنسان الكامل شكلاً ومظهراً.

بينما الإنسان الكامل الذي هو في حقيقتهِ تعبير عن الإنسان الصوفي؛ حيثُ أدرك في مرحلةٍ من مراحل كشفه وِحدته الذاتية بالحق، ووصل في تحققهِ هذا إلى كمال المعرفة بنفسهِ وبالله. إذن هو إنسانٌ كامل في معرفته.[٣]

يقول مؤلف كتاب "إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين": "الإنسان الكامل كهيئة الأرواح العالية؛ هذا ما قررهُ العلماء ومن شهِد مشهد الأسماء والصفات بعد التزكية والتحلِّي بمشهدِ أهلِ الحكمة ثم التوحيد ثم التوفيق، يعلمُ

---

[١] إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين رداً على نظريةِ دارون، لمحمد ماضي أبو العزائم، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتاب الصوفي. ص٤٣
[٢] المرجع السابق، ص٥١
[٣] المعجم الصوفي، ص١٦١

أسرار الحِكمة وأنوار القُدرة المنبلجة في كل رتبةٍ من رُتبِ الوجود، ولديها يتحقق أن الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية، وسدرة منتهى علوم الخلائق من عالم الإنس والجن والملائكة الروحانيين أجمعين".[(١)]

فالإنسان الكامل على رأسِ هرم الوجود إن جاز لنا التعبير؛ ولنا أن نتساءل: من هو الإنسان الكامل؟!

ولكن قبل إن نجيب على هذا التساؤل؛ يجدر بنا أن نبيّن أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين فكرة الإنسان الكامل والفلسفة التي انطوت عليها، وبين عقيدةِ وِحدة الوجود التي تعززها فكرة الإنسان الكامل وتدعو إليها.

- **الإنسان الكامل في الفكر الصوفي الفلسفي:**

تذكر مؤلفة المعجم الصوفي؛ أن المقصود بـ "الإنسان الكامل" في الفكر الصوفي الفلسفي هو محمدٌ ﷺ، وأن ابن عربي نفسه قد استعمل هذا المصطلح أحياناً للكلام على الحقيقة المحمدية، وأحياناً ليعبِّر عن آدم عليه السلام أو عن الكامل من الرجال. تقول سعاد الحكيم: "إن الإنسان الكامل هو مُحَمَّد ﷺ، أو بعبارة أخرى الحقيقة المحمدية ولكن هذه الحقيقة قطبٌ يدور في فلكهِ دائماً كل طالب للكمال، فلا يزال يدور؛ أي يتحقق بالصفات المحمدية ويدور ... وفي دورانِهِ يصغر قطر الدائرة ويصغر، حتى يتلاشى القُطر، ويتحقق الطالب بوحدته الذاتية مع مركز الدائرة، أي الحقيقة المحمدية. وهُنا في تحققهِ يُطلق عليه اسم من تحقق به، أي اسم الإنسان الكامل".[(٢)]

وإذا تأملنا هذا المعنى – للإنسان الكامل- نجد أن ثمَّ التحاماً، أو ذوبان شيءٍ في شيءٍ آخر؛ بحيث يصيرانِ شيئاً واحداً فيما بعد!، وهذا هو معنى الإنسان الكامل فلسفياً –باختصار-. فإذا قُصد به النبي ﷺ في مبدأ الأمر، فإن حقيقة المعنى أن ذلك ينطبقُ على كُلِ من وصل لنقطةِ التلاشي والالتحام بالحقيقة المُحمديَّة!.

يقول الجيلي[(٣)]: "وهو واحد منذُ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم لهُ تنوُّع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيُسمى باعتبار لباس، ولا يُسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو لهُ مُحَّد، وكُنيتُهُ أبو القاسم،

---

(١) ص٤٩

(٢) ص١٦١

(٣) عبد الكريم بن إبراهيم ن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني؛ من علماء المتصوّفين، لهُ كتبٌ كثيرة، منها: "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" في اصطلاح الصوفية، وَ "المناظر الإلهية خ"، و"مراتب الوجود خ"، وغيرها؛ توفي سنة ٨٣٢هـ. أنظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، ط١٥، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، بيروت، جـ٤، ص٥٠

ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، ولهُ في كل زمان اسم ما يليقُ بلباسهِ في ذلك الزمان"[١]، بمعنى أن الحقيقة واحدة والظهورات هي التي تتعدد تبعاً لنوع التجلي!.

وتؤكد سُعاد الحكيم هذا المعنى بقولها: "فعبارة الإنسان الكامل هي لصاحبها؛ أي لمحمدٍ ﷺ، ويصح أن نطلقها على المتحققين به الفانين، لأنهم أصبحوا عينهُ الصفاتية، فهي أصلاً لصاحبها الذي خُلق إنساناً كاملاً، وهي تحققاً لأكملِ الرجال الذين جاهدوا في سلوك طريقها".[٢]

فالإنسان الكامل في فكر ابن عربي خصوصاً والفكر الصوفي بعموم، لا يُطلق على شخصٍ واحد!، وإنما على عينٍ لها شخوصٌ عدة، وهم من بلغوا مرتبةً من الكمال، بدايةً من آدم عليه السلام، وانتهاءً بمحمد ﷺ، ومن وصل لتلك المرتبة فأصبح أحد الحقائق المحمدية!.

وقد يسميه ابن عربي تسمياتٍ عدة كالخليفة أو النور المحمدي يشير بذلك إلى أن أكمل تجلٍ للهِ تعالى هو النبي مُحَمَّد ﷺ، وهو الإنسان الكامل الأول، ثم إنه ظهر في صورةِ الأنبياء، ثم الصالحين في كلِ زمان ومكان، يصح أن يكون ذكراً أو أن يكون أنثى.[٣]

من هُنا نلمحُ مذهب وحدة الوجود ماثلاً بوضوح في فلسفة ابن عربي الذي حاول المواءمة بين المعاني المتناقضة!، فآدم عليه السلام أول موجودٍ بشري، ثم النبي مُحَمَّد ﷺ مُتقدمٌ على آدم عليه السلام رغم وجودهِ بعده بدهورٍ علمها عند الله تعالى!.

يقول ابن عربي: "آدم خُلق على صورته، وخُلقت حواء على صورة آدم، وخُلق البنون من امتزاج الأبوين لا من واحدٍ منهما، بل من المجموع حِساً ووهماً، فكان استعدادُ الأبناء أقوى من استعداد الأبوين، لأن الابن جمع استعداد الاثنين، فكمال الابن الكامل أعظم من كمال الأب، ولهذا اختص مُحَمَّد ﷺ بالكمال الأتم لكونِهِ ابناً، وكل ابنٍ في النشأة له هذا الكمال".[٤]

---

[١] الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، لعبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن مُحَمَّد بن عويضة، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. ص٢١٠

[٢] المعجم الصوفي، ص١٦١

[٣] أنظر: الإنسان الكامل، د. لطف الله خوجه، ص١٣٢

[٤] المرجع السابق، ص٢٨٦

غير أن ابن عربي ربما فاتهُ أن هذا المعنى الذي قال به يشمل كذلك جميع أبناء آدم وحواء عليهما السلام، وبالتالي فهم أفضل من والديهما آدم وحواء عليهما السلام، لا يُستثنى من ذلك إنسانٌ حيوانيٌ ولا غير حيواني تمشياً مع القاعدة التي ابتدعها!.

فهذا سبب تقدم مُحَمَّد ﷺ على آدم عليه السلام، بكونهِ من امتزاج الأبوين، في حين يقول بموضعٍ آخر: "فما أرسل إلا بلسان قومِهِ ليبيَّن لهم، فإذا أرسلهُ عامة كانت العامة قوة، فأعطاهُ جوامع الكلم، وهو فصل الخطاب، وما كُمل إلا آدم بالأسماء، وكمال مُحَمَّد بجوامع الكلم"[1]، فذكر سبباً معنوياً لم يُفسِّر حتى الآن كيف لغيرهما أن يدخل في تلك الحقيقة المزعومة، وهو لم يظفر لا بالأسماء ولا بجوامع الكلم!.

- **حقيقة فلسفة "الانسان الكامل" في الفكر الصوفي الفلسفي:**

عندما نستعرض فلسفة ابن عربي التي قررها في أبرزِ كُتبه؛ ككتاب الفصوص والفتوحات المكية؛ نجدهُ يُصرّح أن الإنسان أو آدم عليه السلام ليس إلا أحد التجليات الإلهية – تعالى الله علواً كبيراً-. وبالتالي فخلق الإنسان أو آدم عليه السلام، إنما هو لغايةٍ أخرى غير الغاية التي أخبرنا بها الله سبحانهُ وتعالى كما سنرى، وكذلك نجدهُ ينحرف بمعنى الخليفة أو الاستخلاف في الأرض بما يخدم فكرته المنحرفة.

يقول ابن عربي: "إن الحق سبحانه لما شاء – من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء – أن يرى أعيانها، وإن شئت قُلت: أن يرى عينه فى كون جامع يحصر الأمر كله، لكونِهِ متصفاً بالوجود، ويظهر به سرَّه إليه، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمرٍ آخر يكون له كالمرآة، فإنهُ يُظهر له نفسه في صورةٍ يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل ولا تجلّيه له ... فاقتضى الأمر جلاء مرآةِ العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة، وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المُعبَّر عنهُ في اصطلاح القوم **بالإنسان الكبير**".[2]

إذن؛ فسبب إيجاد الإنسان الأول أو آدم عليه السلام، في رأي ابن عربي، إنما كان لغاية تجلية الذات الإلهية أو أسمائها الحسنى في صورةٍ ظاهرة تعبيراً عما في صورتها المُقابلة وهي الباطنة[3]، وهذه التجلية لا تختص فقط بآدم عليه السلام - إن تأملنا هذه المقالة-، وإنما تشمل كل من وصل لمرتبةِ الكمال من الناس، وهذه هي فلسفة

---

[1] المرجع السابق نفس الصفحة.
[2] فصوص الحِكم لابن عربي، ص٤٨ - ٤٩
[3] أنظر: المرجع السابق، ص٥١

الإنسان الكامل الذي يفضُل ويزيد على الإنسان الحيواني بمراتب!. فهي "ظاهرة فردية لا تنطبق على الواقع الإنساني العام".[١]

يقول الدكتور حامد طاهر موضحاً عقيدة ابن عربي في خلق آدم عليه السلام من وجهةٍ فلسفية: "الإنسان عند ابن عربي هو النسخة المختصرة من العالم الكبير. وقد خلقه الله بيديه، أي بالصفتين اللتيْن يتصف بهما، وينعكسان على الإنسان: فالله ظاهر وباطن، لذلك أوجد العالم: عالم غيب وشهادة، ليدرك الإنسان الباطن بغيبه، والظاهر بشهادته. ووصف الله نفسه بالرضا والغضب، وجعل الإنسان ذا خوف ورجاء: يخاف غضبه ويرجو رضاه، ووصف نفسه تعالى بأنه جميل وجليل، فأوجد الإنسان على هيبة وأنس: يأنس بجماله ويهاب جلاله".[٢]

ويستطرد الدكتور حامد بقوله: "ويرى ابن عربي أن هذا هو السر الذى لم يدركه الملائكة حين اعترضوا على خلق آدم، وأنه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، وكذلك رفض إبليس السجود له، بسبب أنه خلق من نار، بينما خلق آدم من طين، اسودّ لونه وفسدت رائحته! لكن المشيئة الإلهية قررت أن يكون هذا الإنسان جامعًا لكل ما يتطلبهُ العالم منه، لأنه سوف يكون خليفة عليه، ومحتويا أيضا بصورته الباطنة على صورة الله تعالى، وهكذا جمع بين فضيلتين كبيرتين لم يحصل عليهما الملائكة ولا إبليس".[٣]

وإذا توقفنا قليلاً أمام هذا الكلام لابن عربي، نجد حقيقة مفاده أن الذات الإلهية –تعالت وتقدست- وآدم شيءٌ واحد!، بل أشد من ذلك، وكما ذكر شيخ الإسلام بأنه أفضل أجزائه وأبعاضه. وليس هذا فحسب أيضاً، وإنما ادعاءُ هذا الضال أن الذات الإلهية تقدست وتعالت قد احتاجت لترى نفسها!!، وهنا قدحٌ في عقائد عِدة منها استغناؤه تعالى عن خلقه، وعقيدة العلم الإلهي المطلق، وعقيدة التصرف والتدبير وفق المشيئة الإلهية المُطلقة، وغيرها.

وصدق قول الإمام الذهبي –رحمهُ الله-؛ فإن كان لا كُفر في كتاب الفصوص الذي حوى تلك العقيدة الفاسدة، فما في الدنيا كفر![٤]. لأن لذلك الانحراف العقدي لوازم خطيرة تُفضي إلى كفر معتقده عياذاً بالله تعالى. ولعلنا نذكرُ مثالاً واحداً مما صرَّح به ابن عربي في كتابهِ المضل:

---

[١] المعجم الصوفي، ص١٦٠

[٢] http://goo.gl/IMuPvE

[٣] http://goo.gl/IMuPvE

[٤] سير أعلام النبلاء، جـ٢٣، ص٤٨

يقول: "فالأمر الخالق المخلوق والأمر المخلوق الخالق كل ذلك من عين واحدة لا بل هو العين الواحدة وهو العيون الكثيرة ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾، والولد عينُ أبيه فما رأى يذبح سوى نفسه، ففديناه بذبح عظيم فظهر بصورة كبش، مَن ظهر بصورة إنسان؛ وظهر بصورةٍ لا بحكم ولد، مَن هو عينُ الوالد. ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فما نكح سِوى نفسه".[1]

وهنا نرى تأويل ابن عربي الفاسد للآيات، قد حرفها عن معانيها إلى عقيدةٍ كفرية لا تخفى على عاقل. ففي حين جعل الولد والابن والفداء أو الكبش صورةً واحدة، نجدهُ لم يتورع عن تأويل آيةِ النساء إلى معنىً قادح لا يقولهُ مؤمن موحد، فضلاً عن أن يكون اعتقاداً راسخاً لديه.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية –رحمه الله-: "ولما قرأوا هذا الكتاب المذكور على أفضل متأخريهم؛ قال له قائل: هذا الكتاب يخالف القرآن. فقال: القرآن كله شرك. وإنما التوحيد في كلامنا هذا: يعني أن القرآن يفرق بين الرب والعبد، وحقيقة التوحيد عندهم أن الرب هو العبد".[2]

وهكذا نرى التناقض في عقيدة ابن عربي، في قوله بوحدة الوجود وجمعهِ بين القِدم والحدوث في نفس الوقت أو الشيء وهذا من أشد البطلان عند المتكلمين. وأما تطبيقه على الإنسان عند ابن عربي: أنه في حين يزعم أن آدم عليه السلام ليس إلا تجلياً للذات الإلهية وأسمائها في صورة ظاهرة أو مرآة مجلوة مما يستلزم اعتقاد تأليه الإنسان، نجده يقول بأن الإنسان أعلى الكائنات وأشرفها!، يقول د. حامد طاهر:

"أما بالنسبة إلى الإنسان فهو عند ابن عربي أشرف أنواع الكائنات؛ والله تعالى هو الذى منحه هذا التشريف: منذ خلقه على صورته، وجعله خليفته، وأسجد له ملائكته، وأتاح له فرصة التخلق بالأخلاق الإلهية، التي تتراوح فى عمومها بين صفتي الجلال والجمال".[3]

وممن يمتثل منهج ابن عربي أيضاً؛ الصدر القونوي[4]، الذي قسَّم مراتب الوجود إلى أربعين مرتبة –وجعل المرتبة الأخيرة هي مرتبة **الإنسان الكامل**- : "المرتبة الأربعون من مراتب الوجود هي الإنسان الكامل؛ وبهِ تمَّت المراتب وكَمُل العالم، وظهر الحق للعالم سبحانهُ بظهوره الأكمل على حسب أسمائهِ وصفاته. فالإنسان أنزل

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٢، ص١٢٢

[2] المرجع السابق، جـ٢، ص١٢٧

[3] http://goo.gl/lpJMLp

[4] مُحَمَّد بن إسحاق بن مُحَمَّد بن يوسف بن علي القونوي الرومي، صدر الدين؛ صوفي من كبار تلاميذ الشيخ محيي الدين ابن العربي. تزوَّج ابن العربي أُمَّهُ وربَّاه، وكان شافعي المذهب. من مؤلَّفاته: "اللُمعة النورانية في مشكلات الشجرة النعمانية لابن عربي خ"، وَ "إعجاز البيان في تفسير الفاتحة"، وغيرهما. مولِدُهُ ووفاتُهُ بقونِيَّة. الأعلام، جـ ٦، ص٣٠

الموجودات مرتبةً في الظهور، وأعلاهم مرتبة في الكمالات، ليس لغيرهِ ذلك. وقد بيَّنا أنهُ الجامع للحقائق الحقية، والحقائق الخلقية جملة وتفصيلاً، حكماً ووجوداً بالذات والصفات، لزوماً وعرَضاً، حقيقةً ومجازاً، .. –إلى أن قال- .. فالإنسان هو الحق، وهو الذات، وهو الصفات، وهو العرش وهو الكُرسي، وهو اللوح وهو القلم، وهو المَلَك وهو الجن، وهو السموات وكواكبها والأرضون ...".[١]

ولعلَّنا نقف عدة وقفات مع هذا الكلام الذي أوردهُ القونوي، ولكن قبل ذلك نُورد شرح ابن عربي لمنزلة آدم عليه السلام بالنسبة إلى الله - تعالى علواً كبيراً-. يقول: "وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر، وهو المعبَّر عنه بالبصر، فلهذا سُمي إنساناً، فإنهُ به ينظر الحق إلى خلقهِ فيرحمهم، فهو الإنسان الحادث الأزلي، والنشء الدائم الأبدي، والكلمة الفاصلة الجامعة. قيام العالم بوجوده"[٢] ،"وسماهُ خليفة من أجل هذا لأنهُ تعالى الحافظ خلقه كما يحفظ الختم الخزائن".[٣]

فوظيفة آدم عليه السلام وسبب تسميتهِ إنساناً وخليفة وفق كلام ابن عربي، هي رحمة الخلق وحفظهم. بينما الله عز وجل يخبرنا عن الغاية من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ الذاريات(٥٦-٥٨). ويخبرنا أيضاً عن شمول مُلكهِ وقدرته المطلقة وعدم احتياجهِ لشيءٍ من خلقه، فقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة(١٢٠)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ النساء (١٣١).

أما بالنسبة لما أوردهُ القونوي وهو نفس مذهب ابن عربي وفلسفته في خلق الإنسان، فيمكن تحليل مقالتهُ وتوضيح تناقضاتها من خلالِ ما أورده؛ فنقول:

معلوم أن مذهب ابن عربي الذي أسس له من خلال فلسفته عن الإنسان الكامل، هو مذهب وحدة الوجود؛ الذي يعني بأوجزِ عبارة: أن الله تعالى والعالم شيئٌ واحد.[٤]

[١] الإنسان الكامل، لعبد الرحمن بدوي، ص١٤٧
[٢] فصوص الحكم، ص٥٠
[٣] المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٤] عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، للدكتور أحمد بن عبد العزيز القصير، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، الرياض. ص٢٨

وتبعاً لذلك فالصوفية بعموم وابن عربي بخصوص، ممن يُنكرون ثُنائية الوجود باعتقادهم أن الوجود واحد، وأنهُ لا حقيقة لانقسام الوجود إلى وجود واجب ووجود ممكن، وإنما الوجود -عندهم- حقيقة واحدة، وهي وجود الله تعالى، أما الكائنات والمخلوقات التي تتوهم عقول المحجوبين – أي غير الصوفية- وجودها، فمعدومة أزلاً وأبداً.[1]

وحسبنا ما في هذا القول من مغالطاتٍ كثيرة؛ فإنهم عندما يُقررون ذلك في كُتبهم لا ينفكُ حديثهم عن ثُنائيةٍ تتضح لكلِ ذي لُب!. فمثلاً في قولهِ "وظهر الحقُ للعالم"؛ نجد شيئين: أحدهما ظاهرٌ وهو الحق، و الآخر مظهورٌ له وهو العالم!. ففي حقيقة الأمر أن هناك (حق وعالَم) بحسب عبارة القونوي!، وهذه ثُنائيةٌ يحاولون الدمج بينها في فلسفتهم عن الإنسان الكامل!، ناهيكَ عن أن دعوى (المراتب) تهدمُ أصلهم في الوِحدة، لأن المرتبة تُغايرُ الأخرى شكلاً ومضموناً كما تدل على هذا المعنى عِبارة القونوي، وبذلك لا تصحُّ ولا تسلم لهم هذه الدعوى التي تُظهر فساد مذهبهم!.

يقول شيخ الإسلام -رحمهُ الله-: "واعلم أن المذهب إذا كان باطلاً في نفسه، لم يمكن الناقد له أن ينقلهُ على وجهٍ يُتصور تصوراً حقيقياً، فإن هذا لا يكون إلا للحق. فأما القولُ الباطل فإذا بُيّن فبيانُهُ يُظهر فسادُه، حتى يُقال: كيف اشتبه على أحد"؟!![2]، فتناقض القول في نفسهِ أو تعذُّر تصويره تصويراً حقيقياً يُظهر بطلانه وفساده، كالمثال الذي بين أيدينا.

ثم إن مجيء الإنسان الكامل ضمن آخر المراتب ليكون –فيما بعد- هو الحق، وهو الذات، وهو الصفات، وهو العرش وهو الكُرسي، وهو اللوح وهو القلم، يلزمُ منهُ أن ذلك لم يكن موجوداً قبل وجوده –تعالى الله علواً كبيراً-، وحسب ما في هذه المقالة من القُبح والسوء.

وكذلك زعم وجود الإنسان بمثابة المرآة المجلوَّة؛ يقتضي لوازم لا تليق بمقام الرب سبحانهُ وتعالى، وهذه اللوازم قادحة في العلم الإلهي –تعالى الله علواً كبيراً-، فيلزم منه أنهُ ما كان يرى عينهُ أو ذاته -كما زعم الزاعم- حتى خَلَقَ آدم عليه السلام.

كما أنَّا إذا تأملنا عبارة ابن عربي نجدها تناقض مفهوم مباينة الله تبارك وتعالى من خلقه تماماً؛ وليس هذا فحسب، بل تؤله الإنسان وتجعلُه جزءاً من الرب سبحانهُ وتعالى عما يقولون علواً كبيرا. وكذلك قوله بأن الرب تعالى نظر الخلق بهذا الإنسان فرحمهم؛ ينسب إليه تعالى علواً كبيراً معانيَ لا تليق، إذ حدث العلم والإبصار بخلق هذا المخلوق!.

---

[1] أنظر: المرجع السابق، ص٢٨ - ٢٩

[2] مجموع الفتاوى، جـ٢، ص١٤٥

والله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف(٥٤)، ويقولُ أيضاً: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ التغابن(٣). وهو عزوجل أعلم بذاته العلية، وقد أخبرنا عن نفسه القدسية في كتابه الكريم، وأخبر عنه رسولهُ مُحَمَّد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ تبارك(١٤)، فكيف يزعم الزاعمُ بعد ذلك مالم يخبر أو يأذن به الله ﷻ، فضلاً عن كونه معلوم الفساد والبطلان بالضرورة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ هود(١٨)

يقول شيخ الإسلام –رحمهُ الله-: "وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها: على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته".[١]

وهذا المعنى واضحٌ بجلاء من خلالِ نصوص الكتاب والسُنة الواجب على كل مسلم اتباعها شرعاً والانقياد والتسليم لها. قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف(٣).

فالذي أُنزل إلينا من ربنا في خلقِ آدم ؑ، هو ما بيَّناهُ سابقاً من نصوص الوحي الشريف[٢]. وكذلك الذي أنزل إلينا من ربنا في شأن الصفات الإلهية، فهو ما بيَّنهُ الله تعالى في كتابه وبيَّنهُ النبي ﷺ في سنتهِ المُطهرة على فهمهِ ﷺ، وفهم السلف الصالح الذين تربوا في مدرسةِ النبوة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ دون ابتداعٍ أو تأويل أو تحريف.

- **تناقضٌ وَ رد:**

ومع أن مذهب ابن عربي موغلٌ في عقيدة وحدة الوجود، إلا أنهُ في ذات الوقت يقول بالحدوث والقدم. يقول شيخ الإسلام مفنِّداً أقوالهم: "لكن يقولون: هو قديم وهي محدثة وهؤلاء جعلوه عين المخلوقات وجعلوه نفس

---

[١] مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جـ٢، ص١٢٦

[٢] راجع الباب الأول من هذا البحث.

الأجسام المصنوعات ووصفوه بجميع النقائص والآفات التي يوصف بها كل كافر وكل فاجر وكل شيطان وكل سبع وكل حية من الحيات، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم وسبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا".[١]

ونظراً لما في هذا المذهب الخطير من الكفر والإلحاد الذي انطوى عليه، انبرى علماء الإسلام لدحضهِ والرد على القائلين به من الفلاسفة قديماً وحديثاً؛ ولكن ما يهمنا في بحثنا هذا هو ما يتعلق بمسألةِ خلق آدم عليه السلام.

يقول الدكتور حامد طاهر[٢]: "لم يتوقف الصوفية الأوائل عند مسألة خلق الإنسان، ولكن التصوف الفلسفي المتأخر هو الذى ركز عليها، باعتبارها تمثل الأساس الأول في مذاهبه التي وضعها، ومن أشهرها مذهب وحدة الوجود، الذى نجده مفصلاً على نحو غير مسبوق لدى ابن عربي (ت ٦٣٨هـ)".[٣]

فهذه الآراء الفلسفية عند ابن عربي في مسألة خلق الإنسان، مُحدثة لم يقل بها أحدٌ من الصوفية الأوائل، الأمر الذي يؤكد كونها تأثيرُ ضلالاتٍ سابقة من أهلِ الأهواء، تأثر به ابن عربي و أضفى عليه شيئاً من طابع أفكاره.[٤]

وعليه؛ فمذهب ابن عربي ليس باطلاً في ملة الإسلام فحسب، بل حتى في مذاهب أهل الكلام وأصولهم باطلٌ أيضاً –نذكر هذا تنزلاً لا اعتقاداً بصحةِ أرآئهم-، لأن المخلوق الذي هو الإنسان حادث، والرب تعالى قديم؛ فكيف يكونُ هذا الإنسان الحادث الناشئ أحد صفاته؟!، فحقيقةُ كلام ابن عربي -كما ذكر شيخ الإسلام-؛ أن الاثنين واحد –تعالى الله علواً كبيراً-، ولم يبقَ فصلٌ أو تمايزٌ إلا في المسميات والظواهر فحسب، مع اتحاد حقيقة الذوات على حدِّ زعمه!.

كما أن قول ابن عربي في حقيقته يُفضي إلى نتيجة؛ وهي أنه لا إنسان على الحقيقة. وإذا كان كذلك، فما الفرق بين انحرافات اليهود والنصارى وقولهم بالتجسيد والحلول والاتحاد، وهذه العقيدة الواضحة الفساد والبطلان عند بعض من ينتسب للإسلام؟!

---

[١] مجموع الفتاوى، جـ٢، ص١٢٦

[٢] الأستاذ الدكتور حامد طاهر حسنين فؤاد؛ وُلد بالقاهرة عام ١٩٤٣م، حصل على دكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٨١م، وتدرج في مناصب أكاديمية وعلمية عديدة. وتنبع أهمية الاستشهاد بما كتبه عن ابن عربي كونه من أبرز المطلعين على تراث ابن عربي المبثوث في مؤلفاته، حيثُ تناول في أطروحته لنيل درجة الماجستير، كتاب "روح القدس فى مناصحة النفس" لابن عربي : تحقيق ودراسة، بإشراف الدكتور محمود قاسم –رحمهُ الله-، ولهُ بحوث أكاديمية تتناول فلسفة ابن عربي مثل: "الدولة المثالية عند محى الدين بن عربي"، وَ "مكانة المرأة عند ابن عربي"، وغيرهما. أنظر: http://goo.gl/MAEPyi . و انظر: http://goo.gl/Rk3l11

[٣] نظرية خلق الإنسان في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور حامد طاهر. http://goo.gl/IMuPvE

[٤] أنظر مقدمة الفصوص، ص٧

يقول شيخ الإسلام –رحمهُ الله-: "وقد علم المسلمون واليهود والنصارى؛ بالاضطرار من دين المرسلين: أن من قال عن أحد من البشر إنه جزء من الله فإنه كافر في جميع الملل إذ النصارى لم تقل هذا - وإن كان قولها من أعظم الكفر- لم يقل أحد إن عين المخلوقات هي جزء الخالق، ولا أن الخالق هو المخلوق ولا الحق المنزه هو الخلق المشبه".[١]

ويقولُ أيضاً راداً على تشبيه ابن عربي: "هذه الكلمات المذكورة المنكورة؛ كل كلمة منها هي من الكفر الذي لا نزاع فيه بين أهل الملل من المسلمين؛ واليهود والنصارى؛ فضلا عن كونه كفرا في شريعة الإسلام، فإن قول القائل: إن آدم للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر: يقتضي أن آدم جزء من الحق تعالى وتقدس وبعض منه وأنه أفضل أجزائه وأبعاضه؛ وهذا هو حقيقة مذهب هؤلاء القوم وهو معروف من أقوالهم".[٢]

ولنا أن نسأل ابن عربي وأمثاله: ماذا لو لم يوجد الإنسان أو آدم عليه السلام؛ فاللازم لهذا القول المنكر جدُ فاسد ويُفضي إلى معانيَ غاية في القُبح والفساد. ولعلهُ لو تفكر حين أطلق عقيدته الضالة هذه، في هذا التساؤل لأعاد الفكر فيما جال فيه، فضلاً عن أن يفتري أن رسول الله ﷺ، قد أعطاهُ كتاباً يحويها وأمرهُ أن يخرجها للناس!.[٣]

وفي محاولةٍ يائسة للجمع بين تناقض ابن عربي فيما يتعلق بالإنسان، نجد الدكتور أبو العلا عفيفي[٤] **يشرح ذلك شرحاً فلسفياً فيقول:** "أن وحدة الوجود لديه ذات طابع روحي، وليست مادية. ومعنى هذا أنها قريبة بل ومنبثقة مما يسمى لدى الصوفية: (وحدة الشهود)، أي الحالة الروحية العليا التي يشعر بها الصوفي خلال تجربته الروحية أنه قد ذاب عشقا فى محبوبه الأسمى، وفنى فيه، واتحد به".[٥]

وكلام هذا الأخير يجعلنا نعيدُ النظر مجدداً في فلسفة ابن عربي، من زاويةِ من كتبوا فيه أمثال هذا الأخير وتحليلهُ لتناقض ابن عربي!، فهل قَصَد الكاتب بقوله (أن وحدة الوجود لدى ابن عربي لها طابع روحي)، أن

[١] مجموع الفتاوى، جـ٢، ص١٢٧-١٢٨
[٢] المرجع السابق، جـ٢، ص١٢٢
[٣] المرجع السابق، جـ٢، ص١٢١
[٤] محقق كتاب الفصوص لابن عربي وأحد المهتمين بدراسة فلسفة ابن عربي.
[٥] http://goo.gl/lpJMLp

ابن عربي ممن يزعم المعاني الباطنة ليكون باطنياً بامتياز؟!. -إنهُ سؤالٌ من الأهمية بمكان-؛ فإن صحَّ ذلك أمكننا اعتقاد أن ابن عربي قد شكَّل –ولايزال- رافداً من روافد الغنوصية[1] في العالم الإسلامي!.

[1] الغنوصية: من الكلمة اليونانية «المعرفة - أو العرفان»، ويمكن ترجمتها بالعرفانية، هي نزعة دينية صوفية معاً، وسميت بهذا الاسم لأن شعارها هو أن بداية الكمال هي معرفة غنوص الإنسان، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية، أما اهتمام الغنوصين فهو بالكمال الذي يمكن بلوغه بالمعرفة. أو هي المعرفة الباطنية لعلم الغيب أو ما يسمى بما فوق الحس، وهي فلسفة للجانب الروحي فيها أكبر الحظ والنصيب. موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي، ط١، ١٩٨٤م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. جـ٢، ص٨٦ . و انظر: موسوعة الأديان الميسرة، ص٣٨١ - ٣٨٢

ومما سبق نستخلص أن:

- وحدة الوجود فلسفة تسربت إلى العقيدة الصوفية من مصادر وثقافات مختلفة.
- خلق الإنسان في فلسفة وحدة الوجود ليس إلا جانباً من التجليات الإلهية في هذا العالم.
- مفهوم خلق الإنسان في الفكر الصوفي على ضربين؛ مادي ومعنوي.
- خلق الإنسان وفق المفهوم المادي لدى ابن عربي وأهل التصوف بعموم هو نفس خلق آدم ﷺ.
- خلق الإنسان وفق المفهوم المعنوي تجسِّدهُ فلسفة الإنسان الكامل لدى ابن عربي خصوصاً والصوفية بعموم.
- حقيقة كلام ابن عربي تأليهٌ للإنسان وإن زعم خلاف ذلك.
- ابن عربي يؤول الآيات تأويلاً فاسداً ليتماشى مع عقيدة وحدة الوجود.
- لا وجود حقيقي للإنسان وفق دعوى ابن عربي.
- التناقض في فلسفة ابن عربي واضح بجلاء.
- الإنسان أشرف الكائنات والخلق، وهذا الجانب المادي لفلسفته!.
- آراء ابن عربي تحملُ في طياتها أفكاراً غامضة هي أقرب للفكر الغنوصي.

ثانياً:

خلق آدم عليه السلام في نظرية الأوادم المتعددة

إن الرأي القائل بوجود أوادم عِدة قبل آدم عليه السلام، ليس وليد العصر[١]. ولكن إذا أردنا له تأصيلاً فيمكن الرجوع إلى روايات الإمامية -المعترف بها عندهم- في ذلك، والتي ينسبونها إلى بعضِ آلِ البيت. فقد أوردَ صاحبُ «بحارِ الأنوار»[٢] في كتابه تحت عنوان "باب العوالم ومن كان في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام". أوردَ عدداً من رواياتِ الشيعة في عوالم ما قبل آدم عليه السلام، التي بالنظر إلى مجموعها يمكننا التوصل إلى مفهومٍ لهذه النظرية، فنقول:

من خلال استعراضِ بعض رواياتِ الإمامية في خلقِ آدم عليه السلام، فإن نظرية الأوادم المتعددة؛ يُقصد بها اعتقاد وجود أوادم آخرين قبل آدم عليه السلام، وأن أبانا آدم عليه السلام هو آخر تلك الأوادم، وهو أبو البشر الإنسي.

ومن هذه الروايات:

١/ ما رواهُ عن جابر بن يزيد[٣]، قال: "سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ق (١٥). فقال: يا جابر، تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النار، جدَّدَ الله عزوجل عالماً غير هذا العالم،

---

[١] من المعاصرين من سلك هذا المذهب أمثال «الصافي حمدون» الذي زعم مزاعم شتى باسم البحث العلمي، وأخذ في ترويجه بين العامة وفي الأوساط الإلكترونية الأمر الذي زرع فتنةً بين البعض!، بالرغم أن المتتبع لتلك الآراء يشك في انتهاج المذكور للمنهج العلمي، فضلاً عن انتسابه لأهل العلم. ولما أفحمته حُججُ بعضِ أهلِ العلم وسُقِط في يده جرّاء تلك الآراء الغريبة التي كان يدَّعي فيها العلم بل ويحصرهُ في نفسه!، عندها أشاعَ خَبر موته، وتوقف تباعاً عن نشرِ تلك الآراء الغريبة تحت مسمى الصافي حمدون. علماً أن إدارات بعض المواقع الألكترونية قد حجبت عنه خاصية الرد، وبعضها أوقف نشاطه بالكلية لأسلوبه الفظ.

[٢] بحار الأنوار أحد كتب الحديث المشهورة لدى الشيعة الاثني عشرية. ألفه محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ هـ-١١١١ هـ) في زمن الدولة الصفوية. يحتوي على الكثير من الأحاديث، ويعد من أكبر كتب الحديث ذات الرواية الشيعية؛ حيث يتكون من ١١٠ مجلدات. أنظر التعريف بالكتاب في الموسوعة الحرة: http://goo.gl/3KuWrU

[٣] جابر بن يزيد أبو عبد الله، وقيل: أبو مُحَمَّد الجعفي. لقي أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام، ومات في أيَّامِهِ سنة ١٢٨هـ، كان في نفسِهِ مختلطاً وقلَّ ما يُورد عنهُ شيءٌ في الحلال والحرام، لهُ كتبٌ منها التفسير. قال يحيى بن معين: مات سنة ١٣٢هـ. وقال القتيبي: هو من الأزد، وفي أصحاب الصادق عليهِ السلام قائلاً: "جابر بن يزيد؛ أبو عبد الله الجعفي، تابعي أسند عنه، روى عنهما عليهما السلام. وعدَّهُ المفيد في رسالته العددية ممن لا مطعنَ فيهم. وقال ابن الغضائري: إن جابر بن يزيد الجعفي الكوفي ثقة في نفسهِ، ولكن جُل من روى عنهُ ضعيف. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة لأبو القاسم الموسوي الخوئي، ط٥، ١٤١٣هـ، جـ ٤، باب الجيم، ترجمة رقم (٢٠٣٣)

وجدد عالماً من غير فحولةٍ ولا إناث يعبدونه ويوحدونه ويخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماءً غير هذه السماء تظلهم، لعلك ترى أن الله ﷻ إنما خلق هذا العالم الواحد! أو ترى أن الله ﷻ لم يخلق بشراً غيركم؟! بلى والله، لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين".[١]

٢/ و ذكر عن جامع الاخبار[٢] قوله: قال رسول الله ﷺ: "إن موسى سأل ربه عزوجل أن يعرفه بدء الدنيا منذ كم خُلقت ... ثم خلقتُ ثلاثين آدم ثلاثين ألف سنة من آدم إلى آدم ألف سنة، فأفنيتهم كلهم بقضائي وقدري، ثم خلقت فيها خمسين ألف ألف مدينة من الفضة البيضاء، وخلقت في كل مدينة مائة ألف ألف قصر من الذهب الأحمر.. -إلى أن قال- ثم خلقتُ أباك آدم عليه السلام بيدي يوم الجمعة وقت الظهر ولم أخلق من الطينِ غيره وأخرجت من صلبه النبي مُحَمَّدا".[٣]

ثمّ عقَّب على هذه القصة بقوله: "بيان: هذه من روايات المخالفين[٤]، أوردها صاحب الجامع فأوردتها ولم أعتمد عليها"[٥]، وفي الحاشية علق بقوله: "هذه الرواية أشبه بالقصص التخيلية، والاعراض عن الشرح والتوجيه لها أولى، على أنها مرسلة لا تعويل عليها".[٦]

ولا أدري ماذا يقصد بـ "المخالفين"!، فإن كان يقصد بهم أهل السنة فيُردُ عليه بأنهُ لاوجود لهذه الروايات التي أوردها عندهم، -وهذه النتيجة ثمرةَ بحثٍ عن هذه الروايات في مظانِّها من كتب السنة-. ومادامَ كذلك فلا

---

(١) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي، باب "العوالم ومن كان في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام ومن يكون فيها بعد انقضاء القيامة وأحوال جابلقا وجابرسا"، ط٣، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفا، بيروت – لبنان. جـ ٥٤ ص٣٢١

(٢) أصلُ كتاب جامع الأخبار نقلٌ من كتاب تصانيف الشيعة لمحمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرك الطهراني؛ وهو مطبوع تكراراً منذ عام ١٢٨٧م، ومرتب على مائة وواحد وأربعين فصلاً، وقد اختُلف في تعيين مؤلفه، وقيل أنهُ الملقَّب بالشيخ الصدوق. أنظر مقدمة جامع الأخبار، د.ط، ١٣٥٤هـ، كتاب خانة مبين، أصفهان، ص(هـ).

(٣) بحار الأنوار، جـ ٥٤ ص٣٣١

(٤) لا أدري ماذا يقصد بـ "المخالفين"!، فإن كان يقصد بهم أهل السنة فيُردُ عليه بأنهُ لاوجود لهذه الروايات وأمثالها عندهم، -وهذه النتيجة ثمرةَ بحثٍ عن هذه الروايات في مظانِّها من كتب السنة-. ومادامَ كذلك فلا يُستعبدُ وضعها على آلِ البيت، إذ قد عُرِف عن أهلِ التشيع وضعهم للروايات المختَلَقة المكذوبة على النبي ﷺ وآلِ بيتهِ الكرام ممن عُرفوا بالصلاح و الرواية أمثال جعفر الصادق –رحمهُ الله-.

(٥) بحار الأنوار، جـ ٥٤ ص٣٣١

(٦) بحار الأنوار، جـ ٥٤ ص٣٣١

يُستعبدُ وضعها على آلِ البيت، إذ قد عُرِف عن أهلِ التشيع وضعهم للروايات المختَلَقَة المكذوبة على النبي ﷺ وآلِ بيتهِ الكرام ممن عُرفوا بالصلاح و الرواية أمثال جعفر الصادق –رحمهُ الله-.

وأما حديث الأوادم السبعة فمروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه مطاعن من جهة ثبوته، يقول رضي الله عنه في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الطلاق (١٢). قال: "في كل أرض مثل إبراهيم، ونحو ما على الأرض من الخلق"[١]، وأخرجه الحاكم والبيهقي من طريق عطاء بن السائب عن أبي الضحى مطولا وأوله: "أي سبع أرضين في كل أرض آدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وعيسى كعيسى ونبي كنبيكم". قال البيهقي : إسناده صحيح، إلا أنه شاذ بمرة.[٢]

ومن أقوال أهل العلم في الحديث: ذكر البيهقي بعد تصحيحه أنهُ شاذ بمرة. وقال الذهبي: "وروي عن عطاء بن السائب بزيادة غير أننا لا نعتقد ذلك أصلاً .. شريك وعطاء فيهما لين لا يبلغ بهما رد حديثهما، وهذه بلية تحير السامع كتبتها استطرادا للتعجب، وهو من قبيل اسمع واسكت"[٣]. وقال ابن كثير: "هو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات".[٤]

وعلى فرض صحته وثبوته فليس فيه ما يفيد معنى وجود أوادم سابقين على آدم عليه السلام على نفس الأرض، إنما كل ما يفيده هو وجود أوادم على أراضٍ أو عوالم أخرى غير أرضنا وعالمنا، وليس هذا مجال حديثنا لاختلافها عن أرضنا وخلقها ونواميسها التي ورد ذكرها في النصوص الشرعية.

فرواية الألف ألف آدم وألف ألف عالم ليست محل حديثنا – إن ثبتت -، فكيف وهي لم تثبت في أي من كتب الحديث المعتبرة؟!. وكذلك الرواية المنسوبة إلى – المخالفين!-، التي ورد فيها ذكر الثلاثين آدم، فلم تثبت ولم توجد في مظان الحديث الشريف. و كلام ابن كثير رحمهُ الله، يشير إلى حقيقة معروفة معلومة، وهي اعتماد كثير من العقائد الشيعية على العقائد اليهودية، وبالتالي فتكون تلك الروايات من الإسرائيليات التي تسربت إلى الفكر الشيعي!، والله أعلم.

---

[١] صححهُ ابن حجر في فتح الباري، جـ٦، ص٢٩٣

[٢] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

[٣] العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها للذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف عبد المقصود، ط١، ١٤١٦هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض. ص٧٥

[٤] البداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط١، ص١٤٠٧هـ، دار الفكر، جـ١، جـ١، ص٢١

٣/ ومنها أيضاً ما نَقله من روايةِ البرسي[١] في «مشارق الانوار»، عن الثمالي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: "إن الله خلق مُحَمَّدا وعليا والطيبين من ذريتهما من نور عظمته وأقامهم أشباحا قبل المخلوقات، ثم قال: أتظن أن الله لم يخلق خلقا سواكم؟ بلى والله! لقد خلق الله ألف ألف آدم، وألف ألف عالم، وأنت والله في آخر تلك العوالم".[٢]

وأما من روَّج لهذه النظرية من المعاصرين، وسعى لإثباتها تحت غطاءِ العلم، فسنكتفي بعرضِ رأي المدعو بـ «الصافي حمدون» كمثال.[٣]

يقول الصافي حمدون[٤] في معرض رده لتفسير ابن كثير -رحمه الله- للآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ النساء (١): " .. لدينا ما ينقضه علمياً وقد تم إثبات إن جينات الصيني التي تعطيه شكله ولونه تختلف تماما عن جينات الأفريقي وبالتالي يستحيل أن يكون الصيني والإفريقي أبوهم واحد وبالتالي يستحيل أن تكون الأجناس جاءت من آدم وحواء فقط ومن أراد التحقق من هذا الموضوع فعليه سؤال من يشاء من مُدرِسي الوراثة أو خريجي أي كلية علمية.."!.[٥]

ويستطرد: "إن من أساسيات هذا البحث؛ ما يسمى علم الجينات فباختلاف الجينات اختلف البشر، بمعنى إن هناك جينات متميزة لكل جنس من أجناس البشر تحفظ له صفاته الجسمية والشكلية ولا يمكن لها أن تتغير أو تتبدل، فالصيني هو صيني ولم يكن عربي من صلب آدم ثم تغير وأصبح صيني، وكذلك الأفريقي وكذلك

---

[١] رضي الدين رجب بن مُحَمَّد بن رجب البرسي الحلي، صاحب كتاب «مشارق أنوار اليقين في حقائق أسرار أمير المؤمنين»، (ت ٨١٣ هـ). فقيه ومُحدّث شيعي عراقي. يُسبق الشيعة اسمه عادةً بكلمة «الحافظ». أنظر: الموسوعة الحرة «ويكيبيديا»: http://goo.gl/5XRGTG

[٢] بحار الأنوار، جـ ٥٤ ص٣٣٦

[٣] راجع: آدم عليه السلام بين حقائق القرآن ونظريات العلم الحديث، دراسة نصية عقدية لقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، للباحثة. ص٢٠ - ٢٢

[٤] كما يخبر عن نفسه: هو باحث معاصر يكتب بمواقع الكترونية عدة تحت اسمٍ مستعار ويذكر أن لديه أبحاثاً كثيرة حظيت بقبول عدد من العلماء!. وما دفعني لتناول رأيه هذا أن آراءه بالفعل قد تسببت ببلبلة بين أوساط كثيرين في تلك المنتديات والمواقع، وبدأ البعض ينادي بأن يُعطى العلم حقه!. هذا النداء الأخير سيكون على حساب النص بلا شك ما لم تكن ضوابط. أنظر: آدم عليه السلام بين حقائق القرآن ونظريات العلم الحديث، دراسة نصية عقدية لقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾، للباحثة. ص٢٠

[٥] http://goo.gl/iHbwpb

باقي الأجناس وهي سبعة أجناس. فلذلك لو عاش أفريقي أسود بعائلته في الصين فلن يتغير مهما طال الزمن إلا لو تزاوج مع صينيين، وهذا من عظمة خلق الله سبحانه وتعالى، فإن الجينات تحتفظ بالنسب للشخص فلا تضيع الأنساب. والله خلق جميع الأجناس، فهم بشرٌ كثير قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ يس (٨١)، فالله ينكر على من ينكر على الله مقدرته على خلق بشر آخرين وللأسف نسبوا كل البشر لأدم عليه السلام وهذا ما أنكره الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة وعلم الجينات يثبته"!.[١]

وأما دليلُهُ فيستشهد بقوله ﷺ: "كلكم لآدم وآدم من تراب"، فيذهب إلى أنه يعني أن كل البشر بمن فيهم الصيني والأفريقي والعربي و كل منهم ينتسب لأبوه آدم وهذا من الإعجاز النبوي الذي أتاه الله جوامع الكلم فكل واحد ينتسب لأبوه، فالصيني لأبوه آدم الصيني الذي لا ندري ما أسمه بلغتهم! وكذلك الأفريقي، كما أنه يستحيل أن ينجب آدم صيني وأفريقي إلا بالتزاوج من صينية أو أفريقية.[٢]

أما المستند فيما ذهب إليه من الرأي، فهي "الجينات الوراثية للإنسان"، إذ يرى علماء الأحياء أن الحقائق العلمية تثبت أن "الجينيوم أو الكروموسوم" الذي يحمل الصفات الوراثية للجنين لا يتغير أبداً[٣]. وعلى ذلك بنى بعض أبناء جلدتنا نظرية مفادها: أن أصول السلالات البشرية اليوم يستحيل أن ترجع جميعها إلى آدم عليه السلام!.

والجينات أو الموروثات كما يعرفهُا علماء الأحياء: هي الوحدات الافتراضية والعمليّة الأساسيّة للوراثة والتي تُحمل على الكروموسومات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء **وهى مسئولة عن تكوين صفات معينة في أفراد ينتمون**

---

[١] الموقع السابق. وقد استدل الباحث بعددٍ من الأدلة التي يظهر منها قصور علمه بأحاديث رسول الله ﷺ، فللاستزادة يرجى زيارة الموقع المذكور، علماً أنه يزعم أن له أبحاثاً تثبت ذلك بالأدلة الدامغة –من القرآن الكريم- وأنها قيد الفسح والنشر بعدما حظيت بقبول من عُرضت عليهم من علماء الإسلام وغيرهم، وقد ذكر من جملتهم مفتي عام المملكة!. -وقد تمت مراسلة مكتب سماحة المفتي بالرياض لإشعار فضيلته بهذه الدعوى، ولم ترِد أيَّ إفادةٍ حول الموضوع، ولكن نأملُ من الله الكريم أن يكون قد اتُخذ حيالها اللازم.

[٢] أنظر الموقع السابق.

[٣] هذا رغم إيمانهم بـ "الطفرة" التي هي في الحقيقة دليلنا عليهم. فلو لم تكن الطفرة لقلنا بإمكان ذلك عقلاً لا شرعاً، لأن النصوص الشرعية واضحة في ذلك وضوح الشمس في رائعة النهار!.

إلى بيئة معينة. ويشّبه علماء الأحياء الجين بالذرّة، فكما أن الذرة هي الوحدة الأساسية المكونة للمادة عند الكيميائيين، فكذلك الجين هو الوحدة الأساسية للوراثة.(١)

وأما الردُ على ذلك، فمن زاويتين:

أولاً: زاوية العلم: إذ يثبت ظاهرة " الطفرة " التي تحدث للجينات الوراثية. وتُعرَّفُ الطفرة بأنها: "ظهور صفات مظهرية جديدة لم تكن موجودة في الآباء، ناتجة عن تغيرات فجائية في كمية المادة الوراثية أو تركيبها. وقد تسبب هذه الطفرات ضرر بالكائنات الحية بصورة أمراض وراثية، أو تعود بالفائدة كمصدر لظهور أنواع جديدة من الحيوان أو النبات أو أنها تساعد الكائن الحي على التكيف مع التغيرات البيئية".(٢)

فهذه الطفرة يمكن اعتبارها الحلقة الأقوى التي تعطي الحل لكثيرٍ من الإشكالات المتعلقة بعلم الوراثة، إذ لو لم توجد في القاموس البيولوجي؛ البشري منه أو الحيواني، لتوقف العلم الحديث حائراً أمام كثيرٍ من الحالات والظواهر التي سيعجز عن إيجادِ تفسيراتٍ منطقية لها تقوم على قدرٍ من الصحةِ و الواقعية.

وهنا نستحضر مشهداً من السيرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة ﷺ: "أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، وُلِدَ لي غلامٌ أسودُ، فقال: هل لك من إبلٍ. قال: نعم، قال: ما ألوانُها؟. قال: حُمْرٌ، قال: هل فيها من أَوْرَقَ. قال: نعم، قال: فأنى ذلك. قال: لعلَّه نَزَعَه عِرْقٌ، قال: فلعل ابنَك هذا نَزَعَه".(٣)

وفي قصة زيد بن حارثة وابنهُ أسامة رضي الله عنهما، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "إن رسول الله ﷺ دخل علي مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال ألم تري أن مجززاً نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال إن هذه الأقدام بعضها من بعض"(٤). والحديث أوردهُ أبو داود في سننه وعلّق بقوله: "وسمعت أحمد بن صالح يقول كان أسامة أسود شديد السواد مثل القار وكان زيد أبيض مثل القطن".(٥)

(١) ورقة عمل بعنوان " تعريف الجينات ودورها" إعداد الأستاذ محمد بروجي الفقيه، باحث علمي بمعهد بحوث الموارد الطبيعية والبيئة بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ضمن حلقة النقاش التي نُظمت عام ١٤٢٤هـ بعنوان " من يملك الجينات..؟!".

(٢) http://goo.gl/1z5gL3

(٣) كتاب الطلاق، "باب إذا عرَّض بنفي الولد"، حديث رقم (٤٩٩٩)

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الفرائض "باب القائف"، حديث رقم (٦٣٨٨)

(٥) أخرجه أبوداود في سننه وصححه الألباني، حديث رقم (٢٢٦٧)

فتوجيه النبي ﷺ لذلك الرجل يدل على الصفات الموروثة التي قد تظهر في الأبناء مع فقدها في الآباء، لأن الرجل وامرأته كانا أبيضين، وكذلك الحال مع زيد بن حارثة وابنه أسامة، واستبشارُه ﷺ بفراسة القائف التي أثبتت انتماء الإبن إلى أبيه.

و يؤكد العلم اليوم بأنهُ لا اختلاف في عدد خلايا الصبغيات المسؤولة عن لون بشرة الإنسان والمعروفة بالميلانين، لا اختلاف في عددها بين الأشخاص البيض والملونين، وإنما الاختلاف في كثافة تلك المادة التي تحددها الموروثات في نواة الخلية.(١)

فأدمة الجلد تحوي خلايا عنكبوتية تمتد على جوانبها زوائد رقيقة يصل عددها في كل بوصة مربعة إلى ستين ألف خلية. وهذا العدد ثابت في جميع البشر. ثم إن الفرق بين إنسان ناصع اللون وإنسان داكن اللون لا يزيد على غرام واحد، ولكن المادة الداكنة من خصائصها أنها تمتص الأشعة فوق البنفسجية الضارة، وهذا ما يفسِّر وجود الألوان الداكنة لشعوب مناطق خط الاستواء حيثُ تشتد فيها أشعة الشمس العمودية.(٢)

ثانياً: زاوية الشرع: فالنصوص الشرعية تقرر أن البشر المخلوقين من طين يُنسبون إلى آدم عليه السلام. وقد مر معنا العديد من النصوص(٣)، إضافة كذلك لحديث رسول الله ﷺ الذي يقرر أن مرد اختلاف طبائع البشر عائدٌ إلى تباين القبضة الترابية التي خُلق منها آدم عليه السلام، وحتى لا يقول قائل –كما في المثال الذي بين أيدينا– بأن المراد الصفات دون الهيئة والأشكال!، فقد ورد صراحةً في عبارات الحديث "منهم الأبيض والأحمر والأسود"(٤)، فهذا من جانب.

ومن جانبٍ آخر فإن الآيات التي تناولت ذلك الاختلاف بين البشر قد جاءت في معرِض بيان القدرة الإلهية، وهذا أبلغ في القوة والدلالة من القول بأن بني آدم ليسوا سوى استنساخٍ مكررٍ من أبيهم آدم، بل التغير سنة من سنن الله في الكون والخلق، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ الروم (٢٢). لذا فاختلافُ ألسنةِ وألوان بني آدم عليه السلام، دلالة على

---

(١) أنظر: آيات الله في خلق الإنسان وبعثه وحسابه، للدكتور ما هر أحمد الصوفي، د.ط، ٢٠٠٨م، المكتبة العصرية، بيروت. ص١٦٣

(٢) المرجع السابق، ص١٦٤

(٣) راجع الباب الأول من هذا البحث.

(٤) سبق تخريجه في الباب الأول.

قدرة الباري تبارك وعز بتفرع هذه الأنواع المتعددة المتباينة عن الأصل الواحد وهو آدم عليه السلام وزوجه المخلوقة منه، كما دلت على ذلك مختلف الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصحيحة الثابتة.

فلو صحت دعوى هذه النظرية، للزم ألا ينتج التقاء الأجناسِ المتغايرة وفق سُنن الطبيعة!، وللزم أن تكون ثمة أحكام تمنع نكاح الملونين مع غيرهم وفق سُنن الشريعة. ولكن الحقيقة الشرعية تؤكد أن ذلك التغاير وذلك الاختلاف إنما هو أحد معالم القُدرة الإلهية في الخلق، وأن العبرة بالمعاني دون المباني. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ فاطر (٢٧-٢٨). و قال ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".[١]

[١] رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، "باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله"، حديث رقم (٤٦٥١)

ومما سبق نستنتج أن:

- فكرة الأوادم المتعددة ليست وليدة عصرنا الحالي.
- فكرة الأوادم المتعددة تعود بجذورها إلى الفكر الشيعي القديم.
- «الصافي حمدون» من المعاصرين الذين روَّجوا لفكرة الأوادم المتعددة.
- فكرة الأوادم المتعددة ليس لها مستندٌ أو دليلٌ شرعي صحيح.
- فكرة الأوادم المتعددة تعارض النصوص الشرعية الثابتة.
- فكرة الأوادم المتعددة يدحضها العلم الحديث.

ثالثاً:

خلق آدم عليه السلام في نظرية النشوء والارتقاء

في هذا المبحث لن نعيد تكرار ما سَبَقت به مؤلفاتٌ علميةٍ عدة كشفت زيف وعُوار نظرية التطور وبرهنت على بطلانها[١]، ولكن سنذكر حقيقة شرعية معلومة من ديننا بالضرورة، ثم سنركز على نقاط سيدور الحديث حولها.

- **حقيقة استقلال الخلق الإنساني:**

فإضافة لما سبق في الباب الأول من هذا البحث، مما تقدَّم معنا من نصوص خلق آدم عليه السلام، سنذكر هنا دليلاً يُضافُ معناه إلى جملةِ الأدلة الشرعية السالفة معنا، والدالة على استقلال الخلق البشري المبدوء بآدم عليه السلام. وهو قولُ الله عزوجل: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة (٧)

قال ابن كثير: "يقولُ تعالى إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ثم لما ذكر خلق السماوات والأرض، شَرَعَ في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ﴾، يعني: خلق أبا البشر آدم من طين".[٢]

وروى القُرطبي عن مُجاهد: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾؛ قال: "أتقنه، وهو مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾، أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان[٣]، وقوله تعالى: وبدأ خلق الإنسان من طين يعني آدم".[٤]

ولعل المعنى الذي ذكرهُ الامام القرطبي في تفسير آيةِ إعطاء كل شيءٍ من الخلقِ هدايته أبلغُ في هذا المقام، ورأياً سديداً موفقاً ألهمهُ الله تعالى إياه؛ فكُلُ طائفةٍ من الخلق لها هِدايتها الخاصة بها والتي لا يصلُحُ أمرها إلا بها، كما أنها لا تُطابقُ هِدايةَ سائرِ أنواعِ الخلقِ وإن أشبهتها. فللإنسان هِدايتُه الخاصة به كمخلوقٍ عاقل؛ – بل

---

[١] بأقلام باحثين غربيين وشرقيين على السواء، وانظر على سبيل المثال: "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية" لموريس بوكاي. وَ "هدم نظرية التطور في عشرين سؤالاً" للمؤلف يحيى هارون، وَ "إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين" لعز الدين ماضي أبو العزائم، وغيرها.

[٢] تفسير ابن كثير، جـ٦، ص٣٦٠

[٣] تفسير القرطبي، جـ١٤، ص٨٤

[٤] المرجع السابق، جـ١٤، ص٨٥

لكلِ إنسانٍ نوعٌ من الهِدايةِ الخاصة به كفردٍ مستقل وإن اشترك مع جنس البشر أو الإنس في الهِداياتِ العامة للبشر -، ولسائرِ أنواعِ الخلقِ هِدايتها الخاصة بها، وكفى بشهادةِ الواقع دليلاً وآية.[1]

- **حول نظريةِ التطور:**

وتحت هذا العنوان سنتناولُ عِدةَ نقاط من الأهمية بمكان، تتصل بهذه الفَرَضية التي أثبت العلم الحديث فشلها وبطلانها؛ على النحو الآتي:

أولاً: مؤسس نظرية التطور والخلفية العلمية:

يُعد "تشارلز روبرت داروين[2]"؛ هو مؤسس نظرية النشوء والارتقاء أو ما يُعرف بمذهب التطور. والذي انتشر على نطاقٍ واسع وخلَّف آثاراً لا تخفى على مستوى العالم أجمع.[3]

وأما خلفيته العلمية؛ فالمشهور أنهُ عالم تاريخ طبيعي إنجليزي[4]. في حين يرى البعض أمثال الأستاذ هارون يحيى[1]، أنه عالِم طبيعيات إنكليزي هاوي، لم يتلقَ أي تعليم رسمي في علم الأحياء، ولكنهُ اهتم بموضوع الطبيعة والكائنات الحية اهتمام الهُواة".[2]

---

[1] على سبيلِ المثال يثبتُ العلمُ الحديث أن نظام بصمة الأصابع في البشر لا تتشابه حد التطابق لدى اثنين من الناس، حتى وإن كانوا توائم متشابهة، فسبحان الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسانِ من طين.

[2] جاء في ترجمة ابنه «فرانسيس داروين» في الكتاب الذي نشرهُ عن حياة والده "تشارلز داروين حياته ورسائله": هو الابن الخامس لروبرت وارنج داروين، الذي كان طبيباً مشهوراً مما وفَّر لابنه حياةً منعَّمة مستقرة. توفيت والدته وهو في سن الثامنة، ونشأ في الريف ثم تنقَّل في عددٍ من التخصصات التعليمية، من الأدب القديم إلى الطب والجيولوجيا وعلم الأحياء، إلى دراسة اللاهوت. ثم اشتغل بدراسة علم الحيوان إلى جانب اهتمامه بعلم طبقات الأرض والأحافير، فبدأت نظريته تتبلور في رأسه. وأخذ في تأليف كتبه المستمدة من كراسات ملاحظاته، ثم اجتاحته فترةٌ مَرَضية حيثُ أصابه مرضٌ غريب الأعراض، شُفي منه بعد ذلك عدا بعض الأعراض التي راودته من حينٍ لآخر، وتسببت آثارها في وفاته عام ١٨٨٢م. من مؤلفاته: "النباتات المفترسة"، "النباتات المتسلقة"، "نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي"، "نشأة الإنسان". أنظر: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، لتشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمود المليجي، ط١، ٢٠٠٥م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. ص٦٣-٦٨

[3] على سبيل المثال؛ تأثر كارل ماركس ولينين بهذه النظرية العنصرية كان له أبلغ الأثر في سطوة الشيوعية حيناً من الدهر. كما سيأتي بيانه.

[4] منذ زمن داروين تأملات في التاريخ الطبيعي، لـ ستيفن جوولد، ترجمة د. ستار سعيد زويني، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث. ص١٧. وَ الموسوعة الحرة http://goo.gl/0xvRSS

ثانياً: معنى التطور والأسس التي يستند إليها:

تعني نظرية التطور؛ النمو التدريجي في بُنية الكائنات الحية وسلوكها خلال العصور التاريخية، أو هي نشوء متعلق بأنواع كاملة أو مجموعات كبيرة من الكائنات الحية.[٣]

وهذا النمو أو التحول التدريجي في شكل وبُنية الكائنات الحية، إنما هو وليد الصدفة بحسب نظرية دارون. يقول الأستاذ شمس الدين: "إن نظرية التطور تستند بأكملها على أساس الصدفة. وعبثاً يحاول البعض العثور على نقاط التقاء بين هذه النظرية وبين عقائدهم الدينية، ذلك أن صاحب النظرية "تشارلز دارون"، يرى أن الكون والحياة هما نتيجتان للصدف، والتطور ليس إلا سلسلة من الصدف كذلك".[٤]

ولكن هذا السبيل، أو القول بالصدفة لم يحظ بقبولٍ علمي –مع رده ورفضه شرعياً من قبل-، لافتقاده الواقعية. يقول أستاذ شمس: "من بين الأسباب التي ساقت دارون إلى شرح كل شيء وتفسيره بالصدفة، وبهذه الدرجة من البساطة فضلاً عن ضعف منطِقِهِ، ضحالة علمهِ في الرياضيات، وهو يذكر ذلك صراحة فيقول: "إن قابليتي محدودة في مجال الفكر المجرد والتأمل الطويل، لذا لم أوفق أبداً في الرياضيات وفي العلوم الميتافيزيقية""[٥]، فما الأسس التي قام عليها التطور؟.

---

[١] عدنان أوكطار المعروف باسم هارون يحيي، كاتب وباحث تركي مسلم. ولد في أنقرة عام ١٩٥٦م وعاش فيها حتى عام ١٩٧٩م عندما انتقل لإسطنبول حيث التحق بكلية الفنون الجميلة في جامعة المعمار سنان، وخلال سنواته الجامعية، قام ببحوث مفصلة في الفلسفة المادية والايديولوجية السائدة التي تحيط به، قام بإنشاء مؤسسة البحث العلمي في تركيا. تركز كتاباته على تفنيد وتكذيب نظريات التطور والارتقاء والنشوء وبيان تناقضها. الموسوعة الحرة http://goo.gl/lrAi1C، وَ موقع المعرفة http://goo.gl/MuxK3T ، كما تتوفر سيرته الذاتية باللغة الإنجليزية على موقعه الشخصي http://goo.gl/1WxCKx.

وجدير بالذكر أن للمؤلف مخالفات شرعية تعدُ قدحاً في العدالة والأمانة، لكن ما يهمنا هو ردوده على نظرية التطور لتخصصه في تفنيدها والرد عليها، فكتابه جيد في الجملة والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

[٢] خديعة التطور، ص٣٠. وأما قصة جَوبِهِ العالم، فنتابع من الأستاذ هارون: "وحفَّزهُ هذا الاهتمام على الانضمام إلى رحلةٍ استكشافية على متن سفينةٍ أبحرت من إنكلترا عام ١٨٣٢م، وجابت مناطق مختلفة من العالم لمدة خمس سنوات. وانبهر الشاب دارون انبهاراً كبيرا بمختلف أنواع الأحياء. وخاصة بنوع معيَّن من العصافير (الحساسين)، التي شاهدها في جُزر غالاباغوس، واعتقد دارون أن التنوع في مناقير العصافير يُعزى إلى تكيّفها مع موطنها. وبوجود هذه الفكرة في عقلِهِ افترض أن أصل الحياة و الأنواع يكمن في فِكرةِ التكيّف مع البيئة"، ص٣٠

[٣] معجم اللغة العربية المعاصرة، جـ٢، ص١٤٢٠

[٤] دارون ونظرية التطور، لشمس الدين آق بلوت، ترجمة: أورخان مُحَمَّد علي، ط٧، ١٩٨٠م، دار الصحوة، القاهرة. ص١٤

[٥] دارون ونظرية التطور، ص١٥

- **أسس نظرية التطور ونقدها:**

لنظرية التطور أربعة أسس أو دعائم تقوم عليها، وهي الآتية:

أ – الانتخاب الطبيعي.
ب – دعوى التطور والتشابه الموجود بين الأحياء.
ج – التكيف ومسألة الأعضاء المستعملة وغير المستعملة.
د – المراحل الجنينية.

- **نقد الأسس:**

أ- الانتخاب الطبيعي:

ومفاده أن التزايد السكاني سيتسبب في شح الغذاء، مما سيؤدي للتصارع بين الأحياء. والطرف القوي في هذا الصراع هو المؤهل للبقاء والاستمرارية في الحياة، أما الضعفاء المغلوبون فمصيرهم هو الزوال حتماً.[١]

يقول داروين: "وبما أن جميع الحيوانات تميل إلى التكاثر بمعدلٍ يفوق الوسائل الخاصة بإعاشتها، فلابد من أن هذا كان هو حال الجدود العليا للإنسان، وهذا كان من شأنهِ أن يؤدي إلى التنازع من أجل البقاء على قيد الحياة وإلى الانتقاء الطبيعي".[٢]

ولعل في هذا المثال الواقعي دليلاً آخر على زيف نظرية الاصطفاء الطبيعي؛ حيث يقول الاستاذ شمس الدين: "لم تعد أفكار دارون تبدو صحيحة؛ ذلك لأنه لا وجود للانتخاب الطبيعي في صراع الحياة بحيث يبقى الأقوياء ويزول الضعفاء؛ فمثلاً (ضب الحدائق) يستطيع الركض بسرعة لأنه يملك أربع أرجل طويلة، ولكن هناك في الوقت نفسه أنواع أخرى من الضب له أرجلٌ قصيرة حتى ليكاد يزحف على الأرض وهو يجر نفسه بصعوبة. أما الثعبان الأعمى الذي هو نوعٌ آخر من الزواحف فليست له أرجلٌ بالمرة.

إن هذه الأنواع الثلاثة من الزواحف تملك البُنية الجسدية نفسها، حتى بالنسبة لأرجلها، وتتناول الغذاء نفسه وتعيش في البيئة نفسها والظروف الحياتية نفسها فلو كانت هذه الحيوانات متكيفة لبيئتها لوجب عدم وجود مثل هذه الاختلافات بين أجهزتها. وبالرغم من تماثل بيئة وغذاء (ضب الحدائق) مع بيئة وغذاء الأنواع الأخرى من الضب إلا أنهُ بالمقارنة معها في وضعٍ أفضل. ويظهر لنا وكأنهُ يملك قابلية أكثر للعيش، أما الأنواع الأخرى

---
[١] حقيقة الخلق ونظرية التطور، لمحمد فتح الله كولن، ط٢، ١٤٢٦هـ، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ص٣٠
[٢] نشأة الإنسان، ص١٨١-١٨٢

فإنها لم تُمح ولم تُزل من الوجود على الرغم من الصعوبات التي تواجهها من جراء ضعف بعض أعضائها، بل استمرت في الحياة والتكاثر مثلها في ذلك مثل (ضب الحدائق) التي هي في مركزٍ متميّز بالنسبة لها، أي أننا لا نجد في هذا المثال أي دليل أو إشارة للادعاء بأن الأقوياء يتكيفون للحياة ويبقون، وأن الضعفاء يزولون نتيجة ضعفهم وعجزهم".[١]

ومعلوم أن بعض أفراد النوع الإنساني أقل ملائمة لظروف الحياة والبيئة؟!، فالسؤال حينئذٍ: ماذا يُقصد بالملاءمة؟!، وكيف يُفسَّر وجود من لا يملكون أدنى مقومات الحياة من البشر إلى الآن؟!. فها هي الأمراض والعوارض المختلفة من فقر وجهل وآلام تجتاح المجتمعات البشرية، ومع ذلك لايزال الكثيرون منهم على قيد الحياة رغم جميع عوامل الضعف وأسبابه!.

يقول مُحَمَّد فتح الله: "على الرغم من زعم التطوريين حول الانتخاب الطبيعي، فإن الكوارث الطبيعية التي لا قبل لأحد بمواجهتها كالسيول والزلازل وما يتبعها من خراب وانهدام، لا تقضي على الأفراد الضعفاء من الأحياء فقط، بل تقضي على حتى على أقوى الأقوياء منها ... ثم إنهُ على الرغم من هذا الادعاء فإننا نرى في كل عهد من عهود التاريخ وفي كل سنة وموسم ويوم، أن أضعف الأحياء يعيش ضمن القوانين الإلهية الموضوعة في الطبيعة مع أقوى الأحياء جنباً إلى جنب، حيث نرى أن التوازن البيئي والطبيعي مستمر بدرجة الكمال منذ ملايين السنين دون أن يصيبه أي خلل".[٢]

وأما مزاعم الاصطفاء الجنسي، فيؤكد د، موريس بوكاي: "إن الجنس العريق ما هو إلا وهم، ولا وجود له حالياً على الإطلاق إذا كان قد وُجد في السابق، والبشر جميعهم خلاسيون من أعراقٍ مختلفة ولكن بدرجاتٍ متفاوتة"[٣]، وهذا يبطل الخدعة والأكذوبة التي ليس لها أي مستند علمي، باعتراف داروين نفسه بأنه اخترعها من أمّ أفكاره!، عندما عجز عن تفسير الكثير من التراكيب الخاصة بجسم الإنسان.

فأما العاقل فيطلب الدليل والبرهان في كلِ أمرٍ ذي بال، فكيف إن تعلق ذلك بكبريات القضايا؟!؛ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة (١١١).

---

[١] داروين ونظرية التطور، ص١٩

[٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٦٩

[٣] أصل الإنسان، ص١٠٤

ب- دعوى التطور والتشابه الموجود بين الأحياء:

ترى الداروينية أن بعض الأعضاء الضامرة الموجودة في بعض الأحياء الراقية هي آثار عن أسلاف بدائية كانت مفيدة لها، ولكنها أصبحت دون فائدة بعد قطع هذه الأحياء لمراحل تطورية معينة.[٢]

يقول داروين تحت عنوان (الدليل على انحدار الإنسان من أحد الأشكال المتدنية): "طبيعة الأدلة المشيرة إلى نشأة الإنسان –التراكيب المُشاكِلة الموجودة في الإنسان والحيوانات المتدنية، أوجه التطابق المتنوعة، التطور، التراكيب الجسمانية غير المكتملة الباقية، والعضلات والأعضاء الحِسِّية، والشعر والعِظام، وأعضاء التكاثر، وخلافهم. تأثير تلك المجموعات الثلاثة الكبيرة من الحقائق على النشأة الخاصة بالإنسان".[١]

فداروين هنا بعقلهِ الذي لم يستطع تصور التشابه ظاهراً أو في المسميات، دون الماهيات و الحقائق قد أخذ بتشابه الأعضاء بين الكائنات، وبنى على ذلك نظريته المرتكزة على الصدفة في نشأة الأنواع وتطورها. ولا يخفى على القارئ البسيط ما في هذه النظرة من سطحيةٍ وضعف وابتعاد عن المنطقية والواقعية أيضاً، ناهيك عن أن العلم الحديث ذاته قد دحضها بعد اكتشاف الخلية وتنوع دراساتها.

يقول مؤلف كتاب حقيقة الخلق ونظرية التطور: "مثل هذه الادعاءات لداروين لا تستند إلى برهان حقيق، لأن وجود الوجه والعين والأذن في الإنسان لا يُشكِّل دليلاً على أنه تطور من القرد، كما لا يشكل وجود هذه الأعضاء في بعض الأحياء دليلاً على أن بعضها قد تطور من بعض لأن هناك تشابهاً كثيراً بين العديد من الكائنات الحية في العالم، لأن جميع هذه الكائنات الحية تستند إلى عناصر رئيسية أربعة هي النيتروجين، الكاربون، الأوكسجين، والهيدروجين. كما أن الإنسان والحيوان يتغذون أغذية مشتركة. والإنسان خاصة يتغذى من الأغذية نفسها، ومع ذلك فإن جميع أنواع الموجودات، وكذلك أفراد الإنسان يُبدون في نواحٍ عديدة فروقاً كبيرة فيما بينهم".[٢]

ج- التكيف ومسألة الأعضاء المستعملة وغير المستعملة:

وهذا الأساس يعني أن الأعضاء غير المستعملة ستضمر بمرور الزمن وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسالها.[٣]

---

[١] نشأة الإنسان، ص٨٩

[٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٣١

[٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٣٥-٣٦

يقول داروين في ص١٢٠: "فليس علينا إلا أن نفترض أن أحد الجدود العُليا قد كان يمتلك تلك الأجزاء محل التساؤل، وهي في حالة كاملة، وأنهُ قد حدث تحت تأثير الاختلاف في سلوكيات المياه أنها قد أصبحت مختزنة بشكلٍ كبير سواء نتيجة لمجرد عدم الاستخدام أو من خلال الانتقاء الطبيعي لهؤلاء الأفراد الذين كانوا الأقل إرهاقاً بتحمل ثقل جزء غير ضروري".[١]

ويقول في ص٣١٠: "وكون أن مثل هذا التطور على الأقل ممكناً، فإنهُ شيءٌ لا يجب أن يتم إنكاره، وذلك لأننا نرى أن هذه الملكات يتم تطويرها يومياً في كل طفل، ومن الممكن لنا أن نقوم بتتبع تدرجٍ كامل ابتداءً من المخ الخاص بمعتوهٍ كامل، والذي هو على مستوىً أقل بكثير من أي حيوان منخفض في المستوى إلى المخ الخاص -بنيوتن-"(!!).[٢]

وفي هَذيْن المثالين السابقين؛ نلاحظ تصدير المؤلف لكلامِهِ بعباراتٍ أقل ما يُقال عنها أنها اعترافٌ ضمني بفشل نظريته الفاسدة؛ كقوله: "نفترض"، "على الأقل ممكناً"، وَ "لا يجب أن يتم إنكاره". ثم عقدهُ مقارنة بين المعتوه الكامل على أنهُ يمثِّل أو يشبه درجة حيوانٍ مُنخفض، وبين مُخ نيوتن!!. دون اعتدادٍ بأية معانيَ مشتركة، كالإنسانية على سبيل المثال فضلاً عن أخلاقياتها.

يقول مُحَمّد كولن: "لو كانت هناك شجرة لها جذور حيَّة وقوية، وجذع متين وأغصان وأوراق وثمار في تمام العافية والنضج، فإن من الخطأ الفاحش القول بأن هذه الشجرة شجرة ميتة وغير صالحة لمجرد وجود ثمرتين عفنتين على غصن منها. كذلك فإن التوصل إلى استنتاج بوجود تطور بين الأنواع من مجرد وجود عضو أو عضوين ضامرين، وبالتالي الظن بأنهما غير مفيدين خطأ بنفس الدرجة وتصرف غير علمي".[٣]

فهنا تتبدى عنصرية داروين وتكشف عن وجهها الكالح المستبد. لأن المعتوه مادام حيواناً عند داروين، فبالتالي لا يستحق أدنى ما تستحقهُ الشعوب المتحضرة، إذ لا يمثِّل ذلك الحيوان إلا درجة الهمجية والوحشية ولا يستحق تبعاً لذلك أكثر مما يستحقهُ أيّ حيوانٍ مُسخَّر للمستويات الإنسانية كي تفعل به ما تشاء –وفق مفهومها المادي-، بينما الذين يملكون عقولاً كنيوتن، فأولئك الذين ارتفعوا وارتقَوا عن رتبة الحيوانية!.

إنها نظرةٌ عنصرية مادية تُضادُ حقيقةً عظيمة قررها الشرع الإسلامي المطهر، ألا وهي كفالة التكريم للنوع الإنساني بعموم؛ فهو ثابت للفرد لبشريته وآدميته سواء كان معتوهاً أو حتى من ذهب عقله، فكل أولئك جعل الشارع الحكيم على أوليائهم رعايتهم والاهتمام بهم، وألزمهم بذلك حفاظاً وحرصاً عليهم. فهم معصوموا الدم

[١] نشأة الإنسان.
[٢] نشأة الإنسان.
[٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٣٤

والنفس لا يحل الاعتداء عليهم بأي طائل وتحت أي مبررٍ كان، إلا ما تفرضهُ الضرورة الشرعية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء (٧٠)

كما أن التكريم لكافةِ النوع الإنساني محضُ تشريف وإنعام وإفضال على أبينا آدم ﷺ ابتداءً، ثم ذريته من بعده. يقول الإمام ابن كثير في تفسيرِهِ للآية: "يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين (٤)، أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها و مضارها في الأمور الدنيوية والدينية".[١]

د- المراحل الجنينية:

يدّعي التطوريون أن الجنين عندما يمر بمراحل النمو في رحم الأم يكون، مشابهاً للمراحل الأولى لنمو أجنة الحيوانات الفقرية الأخرى[٢]. ولا يمكن عد هذا دليلاً للتطور بأي حال من الأحوال، لأن أجنة الحيوانات الفقرية تكون متشابهة فيما بينها في المراحل الأولى، كما أن مشابهة الجنين الإنساني لأجنة الحيوانات الأخرى مشابهة ظاهرية، وفي المظهر الخارجي فقط.[٣]

فالدليل العقلي بلا شك ينفي مزاعم التطور و يدحضها، وهذه بدهية يفرضها قانون السببية في الكون والخلق، واعترافاً بذلك يقول البروفيسور «أيدوين كونكلين[٤]»: "إن القول بأن الحياة وُجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة"!!.[٥]

في حين حَشَد العديد ممن ردَّ على هذه الفَرضية الباطلة وكشف عُوارها، أدلة الرد وبراهين النقض والبطلان لنظرية التطور. منها على سبيل المثال ما أوردهُ الدكتور موريس بوكاي وهارون يحيى من أمثلة تهدم فكرة التطور والاصطفاء الطبيعي.[١]

---

[١] تفسير ابن كثير، تفسير سورة الإسراء، آية "٧٠"

[٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٣٩-٤٠

[٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٤٤

[٤] ادوين المنح كونكلين (١٨٦٣- ١٩٥٢) عالِم الأحياء والحيوان، أمريكي، وُلد في الدو أوهايو، وتلقى تعليمه في جامعة أوهايو وغيرها من الجامعات. كما شغل منصب أستاذ البيولوجيا في ولاية أوهايو ويسليان، وأستاذ علم الحيوان في جامعة نورث وسترن وغيرهما. ثم أصبح مساعد رئيس تحرير إحدى المجلات، كما عُيّن رئيساً للجمعية الأمريكية لعلماء الطبيعة في عام ١٩١٢، وتولى عدداً من المناصب. حصل على جائزة جون من الأكاديمية الوطنية للعلوم. أنظر: الموسوعة الحرة: http://goo.gl/QXHTGh

[٥] الإسلام يتحدى، ص٨٥

يقول هارون يحيى: "باديء ذي بدء، يجب القول بأن الادعاء القائل أن المواد غير الحية يمكن أن تجتمع معاً لتكوِّن حياة هو ادعاء غير علمي، لم تثبته أي تجربة أو ملاحظة حتى الآن. ذلك أن الحياة لا تتولد من غيرِ الحياة، إذ تتكوَّن كل خلية حيَّة بالنسخ من خليةٍ أخرى، ولم ينجح أبداً أي شخص في العالم في تكوين خلية حيَّة بالجمع بين المواد غير الحيَّة ولا حتى في أكثر المختبرات تطوراً".[٢]

ويقول في سياقٍ آخر: "توجدُ كثير من الأدلة والقوانين العلمية الأخرى التي تُبطلُ نظرية التطور، ولكننا لم نستطع أن نناقش في هذا الكتاب إلا بعضاً منها. إلا أن ما توصَّلنا إليه يكفي لكشف حقيقة في غايةِ الأهمية، وهي أن نظرية التطور -على الرغم من تخفيها في رداء العلم- ماهي إلا خُدعة يتم الدفاع عنها فقط لصالح الفلسفة المادية؛ خدعة تقومُ على غسل المخ والدعاية والتزوير والتزييف دون أن تستند بأي حالٍ من الأحوال إلى أي أساسٍ علمي".[٣]

ولعلنا نتناولُ دليلاً من أدلة التطوريين، وهو تاريخ المتحجرات الذي يدحض مزاعم الإنسان منتصب القامة: فقد كتب أستاذ هارون تحت عنوان "نظرية التطور عقيدة غير علمية"، فقال: "ذكر أحد التطوريين أنه قد توصل إلى نتيجة من خلال إجراء البحوث على المتحجرات، نتيجة تقضي بعدم وجود شجرة عائلة من هذا النوع في الحقيقة".[٤]

وحسبما أورد، فإن سجل المتحجرات يبطل نظرية التطور[٥]، لذا يؤكِّد: "تتجسد المتحجرات التي عرَّفت العالم بالإنسان منتصب القامة في متحجرتي إنسان بكين وإنسان جاوة المكتشفتين في آسيا، ولكن اتضح بمرور الوقت أن هاتين المتحجرتين لا يمكن الاعتماد عليهما، لأن إنسان بكين ليس سوى بعض عناصر من الجبس فقدت أصولها(!). في حين أن إنسان جاوة كان مُركباً من جزء من جمجمة أضيف إليه عظمةُ حوض تم العثور عليها على بُعدِ امتار من الجمجمة، دون وجود أية دلائل على أن هاتين القطعتين تنتميانِ إلى نفس الكائن الحي، لهذا السبب حظِيت متحجرات الإنسان منتصب القامة التي عُثر عليها في أفريقيا بأهميةٍ متزايدة".[٦]

---

[١] راجع ص٤٤ من كتاب أصل الإنسان. وكذلك "خديعة التطور"، الصفحات؛ من ١٨٤ إلى ٢٠١

[٢] خديعة التطور، ص١٠٤

[٣] المرجع السابق، ص١٨٠

[٤] المرجع السابق، ص١٠٢

[٥] المرجع السابق، ص١٠٤

[٦] خديعة التطور، ص٨٩ . ومما يجدر ذكره أن بعض مفكري المسلمين قد اغتروا بمثل تلك النتائج مما حاد بهم عن الجادة فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام، أمثال محمد عبده، والدكتور عبد الصبور شاهين، وغيرهما. وسيمر معنا ذلك في الفصول القادمة إن شاء الله.

فعلى الحقيقة، "لا يوجد أيُّ فرق بين الهيكل العظمي للإنسان العصري وما يسمى الإنسان منتصب القامة"[1]، كما أن "من الحقائق المتفق عليها عادةً -كما يذكر أستاذ هارون-، أن الاختلافات في سعة الجمجمة لا تنم بالضرورة عن وجود اختلافات في الذكاء أو القدرات، ذلك أن الذكاء يعتمد على التنظيم الداخلي للمخ أكثر منه على جُمجمة".[2]

ثالثاً: حقيقة النظرية:

إن المتأمِّل لبعضِ عبارات داروين التي ضمَّنها مؤلفاته، يستجلي حقيقة ما أرادهُ دارون من نظريته المشبوهة، بحيث لا تدع مجالاً للشك بمدى إلحادية دعوتها التي تسببت في تداعيات خطيرة فيما بعد.

يقول موريس بوكاي: "كان للاصطفاء الطبيعي جاذبٌ مذهل للنفوس ... في حين أن أعماله كانت قد حملت أدلةً لصالح الوثنية في المواجهة بين الدين والعلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر".[3]

ويقول بموضعٍ آخر نقلاً عن «غراسيه»[4] الذي هاجم دارون بأشدِ عبارة: "إن الداروينية بمداخلها ومخارجها هي المذهب المادي المضاد للدين"[5]، وكذلك قوله: "إن كارل ماركس[6] الأكثر نباهة، حصل من كتاب أصل الأنواع على الإيحاء المادي والملحد، حيث أبدى إعجابهُ الشديد به، والإفادة منه، ووجد فيه عامل انحلال لكل عقيدةٍ دينية. وهكذا كان رأي مؤسسي دولة الاتحاد السوفياتي وبصورة خاصة لينين[7]".[1]

---

[1] خديعة التطور، ص٨٨

[2] المرجع السابق، ص٨٨

[3] أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص٣٩

[4] لم أعثر له على ترجمة.

[5] أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص٤١

[6] كارل ماركس: مفكر اقتصادي وسياسي ألماني؛ وُلد في مدينة «ترير» عام ١٨١٨م، وكان أبوه محامياً يهودياً، تعلَّم القانون القانون واهتم بفلسفة «هيجل» وتأثر بمؤلفات «فورباخ». كان يقضي معظم أوقاته في المتحف البريطاني مما وفَّر له اطلاعاً واسعاً على كتب التاريخ والاقتصاد السياسي، وإليه تنسب "الماركسية" التي اتخذت عدة مفاهيم متباينة في مستهل القرن العشرين بأوروبا. كما أنهُ يُعد أحد مؤسسي تجمع العمال «الدولية» في أنحاء العالم. توفي عام ١٨٨٣م في لندن. موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي، ط١، ١٩٨٤م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. جـ٢ ص٤١٨ . وانظر: موسوعة مشاهير العالم، إعداد مجموعة من المؤلفين، ط١، ٢٠٠٢م، دار الصداقة العربية، بيروت. جـ٥، ص٥٣ وما بعدها.

[7] فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بلينين: قائد الثورة الروسية ١٩١٧م، ومؤسس الاتحاد السوفياتي والشيوعي الذي كرس أول دولة شيوعية مركزية في العالم لتنطلق منها الحركات الشيوعية وتفرض نفسها بأفكارها وآرائها على مختلف أنحاء العالم، ولد عام ١٨٧٠م وتوفي عام ١٩٢٤م بعد أن أسَّس أوَّل دولة شيوعية في العالم تقوم على مبادئ وتعاليم كارل ماركس الهادفة إلى تحويل روسيا إلى مجتمع اشتراكي. من مؤلفاته: "المادية والنقدية التجريبية"، "كراسات فلسفية"، وَ "الدولة

إذن فمذهب التطور –كما يرى هارون يحيى-، قد اكتسب أهميته من حيثُ كُرِّس لفلسفة خادعة، هي الفلسفة المادية. يقول: "إن نظرية التطور أو الداروينية لا تمثِّل في رأي بعض الناس سوى دلالات علمية، ليس لها حسبما يبدو لهم أي تأثير مباشر في حياتهم اليومية. وهذا بالطبع سوء فهم شائع. ذلك أن نظرية التطور تتجاوز إلى حدٍ بعيد مجرد كونها موضوعاً في إطار العلوم البيولوجية، لتشكِّل أساس فلسفة خادعة كان لها تأثير بالغ على عدد كبير من الناس، وهي الفلسفة المادية".[٢]

وبناء على هذه التصريحات يمكننا أن نؤكد بأن القول بالتطور ليس مقصوداً لذاته عند أولئك التطوريين –وعلى رأسهم تشارلز داروين-، وإنما لمرامي أخرى من وراءه تتلخص في التكريس لمفهوم المادية والتأكيد عليه.

رابعاً: ماذا وراء نظرية التطور؟:

يجب هنا أن نؤكد على الخلفية المادية لفَرَضية التطور، وهي الهدف الأساس الذي طَمَحت إليه. إذ لو اقتصرت على القول بمجرد تطور الكائنات فحسب، لما كان لها من الأثر والصدى الذي أحدثتها.

ويوضحه قول داروين: "وبما أن جميع الحيوانات تميل إلى التكاثر بمعدلٍ يفوق الوسائل الخاصة بإعاشتها، فلابد من أن هذا كان هو حال الجدود العليا للإنسان، وهذا كان من شأنهِ أن يؤدي إلى التنازع من أجل البقاء على قيد الحياة وإلى الانتقاء الطبيعي".[٣]

وفي موقفٍ آخر يبدو أكثر شراسة وتطرفاً وعنصرية، فيقول: "في فترةٍ مستقبلية ليست بعيدة بمقياس القرون، يكاد يكون مؤكداً أن الأجناس المتحضِّرة من البشر ستتمكن من استئصال الأجناس الهمجية والحلول محلها في كلِ أنحاءِ العالم. وفي نفس الوقت ستكون القردة الشبيهة بالإنسان قد استؤصلت بلا شك"[٤]، وهذا يؤيد الرأي القائل بأن التطور قد خرج من كونه مسألة علمية إلى كونهِ أيدولوجية وعقيدة!.[٥]

والثورة" وغيرها. كما أنهُ مؤسس المذهب اللينيني السياسي الذي رفع شعار (الأرض والخبز والسلام). أنظر: موسوعة مشاهير العالم، جـ٣، ٨٩، ٩١، ٩٢. وَ الموسوعة الحرة: http://goo.gl/liiR3m

[١] أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص٤١

[٢] خديعة التطور، ص٢٠

[٣] نشأة الإنسان، ص١٨١-١٨٢

[٤] خديعة التطور، ص٣٢

[٥] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٥١

خامساً: إعترافات وهدفٌ مقصود:

يمكن القول بأن بعض ما ورد على لسانِ داروين بعباراتٍ مختلفة، ليس إلا اعترافاً منه بقصور نظريته وهشاشتها وعدم جدواها، ومن ذلك قوله: "إن النقص الأهم في كتابي باعتقادي، كان في عدم تفسير كيف يحصل بأن كل الأشكال لا تتطور بالضرورة، وبوسع الأجسام البسيطة الاستمرار بالوجود".[1]

وقولهُ: "إنني عندما وجدتُ أن الكثير من التفاصيل الخاصة بالتركيب الجسماني الموجود في الإنسان لا يمكن تفسيرها من خلال الانتقاء الطبيعي، فإنني قمتُ باختراع الانتقاء الجنسي. وذلك بالرغم من أنني كنتُ قد قمتُ بتقديم هيكل كافٍ بشيء واضح بشكلٍ مقبول خاص بهذا المبدأ، في الطبعة الأولى من كتاب (نشأة الأنواع الحية)، وقد صرَّحتُ فيه بأن هذا قابل للتطبيق على الإنسان".[2]

ودون شك أن استثناء بعض الكائنات من هذه الفَرَضية أو النظرية –باعترافه-، بعد زعم تعميمها على الكائنات الحية، كفيلٌ بنقضها وتأكيد بطلانها!. فكيف إن شهدَ العلم الحديث نفسه ببطلانها؟!.

وأما الهدف المقصود لداروين، فلم يكن مما يحتاج معهُ داروين إلى المواربة أو التخفي، فقد أوضحَ بعبارةٍ أكثر وضوحاً في ردٍ على معارضيه!: "فإنني على الأقل قد قمتُ بتقديم خدمة جليلة في إسقاط عقيدة عمليات الخلق المنفصل"[3]. مما يؤكد أن محاربة حقيقة استقلالية الخلق البشري كان أحدَ أهدافه، ليسوِّق لفكرة الأجناس أو الأعراق -التي أقام عنصريته المقيتة على أساسها-، بأيسر سبيل وأقصر طريق.

وكذلك «آرثر كيث[4]»؛ يؤكد: "إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا مالا يمكن حتى التفكير فيه".[1]

---

[1] أصل الإنسان، ص٤٣

[2] نشأة الإنسان، ص٧٦

[3] نشأة الإنسان، ص١٨٠

[4] عالم بريطاني متخصص في التشريح والأنثروبولوجيا "علم الإنسان"، وُلد في أبردين بأسكتلندا. ودرس بجامعة أبردين. عاش في الفترة بين (١٨٦٦-١٩٥٥م). وكان عمله الرئيسي تفسير وشرح بقايا أحافير الإنسان الأول وأثرها في تطور البشرية. من ضمن كتاباته في علم الإنسان "آثار الإنسان"، وما يتعلق بأصل الإنسان، ومقالات في التطور البشري، إضافةً لنظرية التطور الجديدة. أنظر: موسوعة المعرفة: http://goo.gl/I7tayq

إذن فالغاية الحقيقية لأتباع نظرية التطور –رغم ظهور بطلانها-، هو التكريس للمادية ونفي مفهوم الخلق المباشر للأنواع، الدال على وجود الله ﷻ كما صرَّح بذلك كيث!.

يقول «أوبارين»[٢]: "إن قوانين الكيمياء العضوية لا تستطيع تفسير العمليات ذات المستوى الرفيع الجارية في الخلايا الحية"[٣]. و يعقَّب الأستاذ شمس الدين على كلام «أوبارين» بقوله: "ونرى هذا العالم نفسه –المغرم بالصدفة- يعترف أن نظرية التطور لا تستطيع تفسير كيفية ظهور الخلية إلى الوجود، فيقول: إن كيفية ظهور الخلية إلى الوجود تشكِّل أظلم ركن في نظرية التطور مع الأسف"!.[٤]

سادساً: تزييفات مقصودة:

إن العمل البشري مهما بلغ، فلابد من أن يعتَوِرُهُ النقص والخلل - في أحسنِ أحواله-، مما يجعلُ تسليمنا المطلق (بإطلاق) لكل جهدٍ بشري ضرباً من المجازفة. هذا في حال اتسم بالمصداقية والموضوعية وطلب الحق، لذا أدرجنا عبارة –في أحسنِ أحواله!-.

فكيف حين يُصبحُ التزييف والكذب سمة ذلك العمل، لمجردِ الانتصار للرأي والهوى لا طلب الحق؟!. عندها لابد من إعادةِ النظر في أصلِ ذلك الجهد البشري لمعرفةِ الهدف الحقيقي من وراءه.

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التطوريين قد سعوا جهدهم لإثبات نظرية داروين رغم يقين البعض ببطلانها وعدم جدواها –كموقف آرثر كيث الذي مر معنا-، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة والمصداقية اللذَيْن يتطلبهما المنهج العلمي.

يقول مُحَمَّد فتح الله: "قدَّم التطوريون سمكة على أنها كانت الحلقة الوسطى بين الأحياء المائية والأحياء البرية، وأن نسلها قد انقرض قبل سبعين مليون سنة، ولكن تم العثور على هذه السمكة حيَّة قرب جزيرة مدغشقر عام ١٩٣٩م، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن عُثر على مايزيد على خمسين سمكة من هذا النوع، وعلاوة على هذا فلم تكن أعضاء هذه السمكة بالأوصاف التي ذكرها التطوريون والتي ساقتهم إلى توهم أنها الحلقة الوسطى بين الأحياء البرية والمائية. - وكما يذكر العالِم التطوري كلارك - فالخلاصة هي أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي متحجرة أو على أي نوع من أنواع الكائنات الحية يمكن عدَّها حلقة وسطى، لذا فقد اضطروا إلى الاعتراف

---

[١] الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان، لوحيد الدين خان، ترجمة: الدكتور ظفر الإسلام خان، د.ط، د.ت، مكتبة الرسالة. ص٣٦

[٢] عالم روسي وهو أحد أنصار التطور.

[٣] دارون ونظرية التطور، ص٢٩

[٤] المرجع السابق، ص٢٩

بأنهُ ما من حلقات وسطى قد وجدت في أي عهدٍ من العهود"[١]، وكذلك خدعة إنسان "بلتداون" التي مرت معنا.[٢]

أما إنسان نبراسكا الذي زُعم أيضاً بأنه ذو أصلٍ قردي متطور لإنسان، استناداً إلى متحجِّرة عبارة عن ضرسٍ زُعم أنها تحمل صفاتاً مشتركة بين القرد والإنسان، فلم تكن تلك المتحجِّرة في حقيقتها إلا سِناً لأحد الخنازير الأمريكية المنقرضة!.[٣]

وكذلك «أوتا بينغا» الذي زُعم بأنهُ حلقة الانتقال والتطور بين القرد والإنسان، لم يكن في الحقيقة إلا قزماً أفريقياً، وهو أب لطفلين، تم اختطافهُ من الكونغو وحبسهُ في قفصٍ بحديقة حيوانٍ في نيويورك، تحت مسمى "السلف القديم للإنسان"، في إهدارٍ واضح لإنسانيته وكرامته إذ وُضع إلى جانب قرود الشمبانزي، الأمر الذي جعلهُ ينتحر.[٤]

يقول د. موريس بوكاي، في معرِض حديثهِ عن موقفِ المدافعين عن فَرَضيةِ التطور: "بمجرد اكتشاف أسنان وجزء من فك، أو بقايا مستحجرة لا تكاد تُذكر، يتسرعون باستخراج استنتاجات ثابتة، بعد أن يُعطوا اسماً علمياً للفرد الذي يعيدون تكوينهُ بطريقة تخيلية جداً من قبلهم. وهكذا حصلت الأمور بصدد الكائن المسمى (Ramapitheque) وهو بالواقع أصل القرود الكبيرة مهما كان كذلك، وقدَّمهُ البعض على أنهُ أصل الإنسان.[٥]

وفي السنوات العشر الأخيرة، علَّقوا أهمية كبيرة على بقايا كائن آخر محتمل أن يكون أصل القرود وهو ما يسمى (Dryopitheque)، الذي قالوا عنه دون تقديم أي دليل، بأنهم كانوا قد أمسكوا أخيراً بالشكل الذي انطلاقاً منه انحدرت البشرية والقرود".[٦]

فالواقع أن أنصار التطور لم يتفقوا حول رأيٍ واحد حيال مكتشفاتهم المزعومة من المتحجرات، مما يُضعف الثقة بتخرصاتهم تلك – إن صدقت-، فكيف وقد شهدت دلائل الحقيقة وبراهينها على كذب دعاويهم وتهافتها؟!.

---

[١] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٥١.

[٢] المرجع السابق، ص٥١-٥٢، وانظر أيضاً خديعة التطور، ص٧٠

[٣] أنظر: خديعة التطور، ص٧٢-٧٣

[٤] أنظر: المرجع السابق، ص٧٣-٧٤

[٥] أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص١٢١

[٦] المرجع السابق، ص١٢١

سابعاً: نظرية التطور والجذور اليونانية القديمة:

تحت هذه النقطة سنوردُ كلاماً لهارون يحيى، يقضي بأن نظرية التطور عميقة الجذور، حيث تمتد إلى الفكر اليوناني القديم!. وهي وإن كانت مقولة من باحثٍ له مكانته في البحث العلمي لاسيما في دحض نظرية التطور والرد عليها، إلا أن ذلك لا يمنع من تحري مزيداً من البحث في الفكر اليوناني للوصول إلى تفاصيل فلسفته فيما يتعلق بخلق الإنسان.

يقول: "إن الفلسفة المادية التي لا تقبل وجود شيء سوى المادة، وتفترض مقدماً أن الإنسان كومة من المادة، تؤكد أنهُ ليس سوى حيوان، يُشكِّل "الصراع" القاعدة الوحيدة لوجوده. وبالرغم من الترويج لها بوصفها نظرية حديثة تقوم على العلم، فإن المادية في الحقيقة ليست سوى عقيدة قديمة تفتقر إلى أي أساس علمي، فهذه العقيدة التي تم اعتناقها في اليونان القديمة قد أعاد اكتشافها الفلاسفة الملحدون في القرن الثامن عشر. وبعد ذلك تم غرسها في القرن التاسع عشر في فروعٍ علمية عديدة بواسطة مفكرين مثل كارل ماركس، وتشارلز داروين، و سيجموند فرويد، وبعبارة أخرى فقد تم تشويه العلم ليُفسح المجال للفلسفة المادية".[١]

وكما ذكرنا آنفاً، فإن التطور في الفكر اليوناني يحتاج إلى مزيدٍ من البحث لإثباته. وربما يكون استناد الأستاذ هارون في إرجاعِ جذوره إلى الفكر اليوناني، بسبب تعريف أرسطو للإنسان في منطقه بأنهُ "حيوانٌ ناطق"، مما يُفهم منه مشابهة الإنسان للحيوان، والزيادة بعد ذلك بالنطق!. فهل يقصد أرسطو أن الإنسانَ "حيوانٌ" ارتقى وتطور حتى صار متكلماً؟!، هذا وراد. ولكن على أيةِ حال لا غنىً عن البحث الموسَّع عن التطور في الفكر اليوناني.

وأما ما يتعلق بخلق الإنسان في الفكر الأرسطي؛ فنقول باختصار:

لقد أكد أرسطو صراحة على أنه من المستحيل أن يكون أول إنسان من غير أب و لا أم. وقد بنى حُكمهُ هذا بناء على قوله بأزلية الكون و التوالد الحيواني[٢]، كما أن الوظيفة عند أرسطو –أي وظيفة الإنسان- هي التي تُوجد العضو و تعدمه، فذهب إلى أن الإنسان لما كان أعقل و أحكم من جميع الحيوان، صارت له يدان، و قال أيضا: "فليس الإنسان حكيما جدا لحال أن له يدين، بل لأنه حكيم جدا صارت له يدان".[٣]

---

[١] خديعة التطور، ص٢٠

[٢] أنظر: جنايات أرسطو في حق العقل والعلم- مظاهرها ،آثارها ، أسبابها-"قراءة نقدية لكشف جرائم أرسطو في حق العقل و العلم"، للأستاذ الدكتور خالد كبير علال، ط١، ١٤٣٢هـ، دار المحتسب، الجزائر. ص٣١- ٣٢

[٣] أنظر: المرجع السابق، ص٦١

وفي هذا الرأي لأرسطو نلمح فكرة تطور الملكات العليا للإنسان، وتطور الهيئة الخارجية تبعاً لها. ولعل هذا يُذكرنا بفكرة الأنواع البشرية الهمجية أو المتوحشة التي مرت معنا سابقاً.

وقد رد د. علال على هذا الزعم الأرسطي بقوله: "و ليست الحكمة العالية جدا في الإنسان هي التي أوجدت له يدين، فهذا تعليل لا يصح، لأن وجود اليدين في الإنسان هما صفة كمال و نقص معاً، و ليستا صفة كمال فقط. فالإنسان لما كان محتاجا إلى اليدين خلقهما الله تعالى له. و لا شك أن الإنسان لو كان يستطيع أن يلبي حاجياته دون يدين لكان ذلك بالنسبة إليه أحسن و أكمل، لكن الله تعالى لم يُرد له ذلك ليجعله يحس بأنه مهما تميز عن الحيوان بصفات ممتازة انفرد بها، فهو يبقى- مع ذلك- مخلوقا ناقصا".(١)

وأما الغاية من وجود الإنسان في الدنيا و مكانتها في فكر أرسطو؛ فهي غاية زائفة، و من ثم فهي خرافة بعد وفاته. لأنه زعم انه بعد الموت يحدث خلود للنوع لا للأفراد.(٢)

يقول د. خالد علال: "و أما إذا قيل: إن أرسطو كان يقول بخلود العقل المفارق بعد الموت و لم يكن ينكره، و لا شكك فيه. فنحن نقول: إن كلام أرسطو في ذلك لا يُقدم و لا يُؤخر، و ليس بجديد، لأنه يندرج ضمن قوله بأزلية الكون، و أبدية توالد أنواع الكائنات الحية من جهة، و هو خلود لا دليل صحيح عليه، و إنما هو من أوهام و تخمينات و رغبات الرجل من جهة أخرى. و هو أيضا خلود زائف و لا معنى له، لأنه لا ينتهي إلى معادٍ أخروي يتحقق فيه العدل المطلق بين بني آدم. فليس من العدل و لا من الحق القول بخلود لا قصاص فيه، و ليس من العقل و لا من العدل أن يعيش الإنسان في دنياه بعقله و لحمه، و شحمه و عظمه ثم عندما يموت يخلد عقله فقط!!. فالعقل و العدل يقولان بخلود الإنسان بكل مكوناته ليحاسب عن أعماله كلها يوم المعاد الأخروي. و هذا الذي قلناه قد نص عليه الشرع الصحيح و يُرجحه العقل الصريح و العلم الصحيح".(٣)

وأما الأجناس البشرية في فكر أرسطو، فتنقسم إلى ثلاثة أصناف؛ أجناس الشمال وهي مليئة بشعلة الحياة، و أجناس الجنوب وهي أجناس مُتحضرة، و اليونانيون؛ وهم وحدهم الذين يجمعون الطرفين، فشعلة الحياة تملؤهم و هم في الوقت نفسه مُتحضرون.(٤)

وهنا تتبدى لنا ملامح عنصرية أرسطو بإعلاء شعب اليونان ووهبه امتيازات لا تجتمع في سائر الأجناس الأخرى، كما نلمس فكرة الشعوب المتحضرة في مقابلة الشعوب المتوحشة أو الهمجية.

---

(١) جنايات أرسطو، ص٦٦

(٢) أنظر: المرجع السابق، ص٦٤

(٣) المرجع السابق، ص٦٤

(٤) المرجع السابق، ص١٩٧

فأما الشعوب المتحضرة فهي التي وهبتها الطبيعة حق الإمرةِ والسيادة، بخلاف المتوحشين فليس منهم من هو كائنٌ للإمارة. يقول الدكتور خالد علّال: "أن أرسطو زعم أن الطبع- الطبيعة- لم يجعل من المتوحشين من هو كائن للإمارة، فليس فيهم حقا إلا من عبد و من أمة، و لم ينخدع الشعراء إذ يقولون: أجل للإغريق على المتوحش حق الإمرة، فهذا عند أرسطو صحيح ما دام الطبع قد أراد أن يكون المتوحش و العبد سيين".(١)

وربما يتشابه هذا الرأي الذي أطلقهُ أرسطو مع فكرة الانتخاب الطبيعي، ما دام أن الطبيعة أو ما أسماهُ بالطبع هو الذي حرم المتوحشين من حق الإمرة، وحباها للإغريق بوصفهِ شعباً متحضراً!.

ويرد د. علّال على هذا الزعم بقوله: "و أقول: هذا كلام باطل جملة و تفصيلا ... و مملوء بالعنصرية و الاحتقار لغير اليونانيين. و الرجل أشبع غروره و كبرياءه من دون أي دليل صحيح من العقل و لا من العلم. أولاً إنه لا يُوجد أي دليل عقلي يقول بذلك الزعم، و إنما خلافه هو الذي يقوله العقل الصريح، لا العقل المُتعصب المريض. و مفاده أنه بما أن البشر كلهم من أب واحد، فلا يُوجد أي امتياز لجنس دون آخر من الناحية الخَلْقية، فكلهم يتمتعون بالقدرات العقلية و النفسية و البدنية على بقدر متساوٍ على العموم، و إنما يختلفون و يتفاضلون أساساً بأعمالهم الصالحة، و أفكارهم الصحيحة، و إبداعاتهم النافعة. و هذه الأعمال ليست خاصة بجنس دون آخر، فبمقدور أي جنس أن يحقق ذلك إذا توحّد و جدّ و اجتهد".(٢)

ويستطرد: "و الحقيقة أن الطبيعة تشهد ضده، لأن الثابت قطعاً شرعاً و تاريخاً و عقلاً أنه لا يُوجد جنس وُلد قوياً مُتحضراً، و غيره لم يكن كذلك، و إنما الأصل هو أن أبانا آدم عليه السلام و أولاده كانوا كلهم في مستوى واحد من القوة و التحضر، ثم اختلفوا في ذلك حسب أعمالهم و ظروفهم الاجتماعية و الطبيعية. و هذا الأمر يشهد به التاريخ قديماً و حديثاً، فكم من شعب كان مُتخلفاً ثم أصبح قوياً مُتحضراً، و كم من شعب حدث له العكس. و ألم يكن الشعب اليوناني متوحشاً مُتخلفاً قبل نهضته، ثم بعدها فقد قوته و حضارته، و عاد إلى تخلفه و ضعفه و استمر على ذلك قرونا عديدة، و دولته اليوم هي في مؤخرة دول الغرب تطلب منها المساعدات الاقتصادية؟!".(٣)

والحق أن الشواهد الشرعية والتاريخية التي ساقها د. علّال لا ترد على زعم أرسطو بامتياز الجنس اليوناني واستحقاقه للإمرة على سائر الشعوب فحسب، وإنما تدحضُ أيضاً أكذوبة الانتخاب الطبيعي، لأنهُ بإسناده

(١) جنايات أرسطو، ص١٩٨
(٢) المرجع السابق، ص١٩٨
(٣) المرجع السابق، ص١٩٩ - ٢٠٠

ذلك الامتياز وحق الإمرة والسيادة لشعب الإغريق إلى الطبيعة، قد وافق دارون في فكرةِ الانتخاب الطبيعي الزاعم بأن الطبيعة تقومُ بترشيح الأصلح للبقاء!؛ سواء أكانت صلاحيتهُ لقوتهِ أو لخاصيةٍ أخرى تميَّز بها.

ثامناً: حديثُ الصورة يردُ على مزاعم التطوريين:

سبق وأن تناولنا حديث الصورة ضمن أدلة السُنة النبوية الشريفة الدالة على خلق آدم عليه السلام[1]، وأوضحنا أن هذا الحديث الشريف حديثٌ صحيحٌ ثابت مشهور تلقتهُ الأمة بالتصديق والقبول في قرونها الثلاثة الخيّرة قبل ظهور بدعة الجهمية.

فمما يجدرُ ذكره أن هذا الحديث الشريف بطُرقهِ المختلفة التي تقدَّم ذكرها، قد دلَّ على أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على أحسنِ صورة، وفي هذا أبلغُ ردٍ على المقالة الخبيثة التي تُنسب إلى داروين وتُسمى نظرية النشوء والارتقاء. فقد جاء في هذهِ المقالة الخبيثة؛ أن الإنسان أصلُهُ قرد، وأنهُ بعد النشوء والارتقاء صار إلى هذهِ الصورة الموجود عليها بنو آدم اليوم. وهذا كفرٌ صريح لما فيه من التكذيب بما أخبر اللهُ به في كتابه، وما أخبر به رسولهُ ﷺ في الأحاديث الثابتة عنه، فقد جاء في آيات كثيرة من القرآن أن الله تعالى خلق آدم من طين، وأنَّهُ خلقهُ بيديه ونفخ فيه من روحه وعلمهُ الأسماء كُلها وأمر الملائكة بالسجودِ له. وهذه فضائلُ عظيمة خصَّ اللهُ بها آدم دون سائر المخلوقات.[2]

ويستطرد الشيخ حمود التويجري: "وقد تضمنت المقالة الداروينية نفي هذه الفضيلة العظيمة عن آدم عليه الصلاة والسلام، ونفي الفضائل المذكورة قبلها عنه، وهذا من أعظم المُحادة للهِ تعالى ولرسولِهِ ﷺ، ومن أعظم العقوق لآدم حيثُ قد جعلهُ الداروينيون منفصلاً من القِرَدة التي هي من أخبث الحيوانات طبعاً وأشدَّها قُبحاً وتشويهاً في الخِلقة، فقاتل الله من قال بهذه المقالة الخبيثة ومن تلقَّاها بالقبول وقدَّمها على ما أخبر الله به ورسولُه ﷺ عن ابتداء خلق آدم عليه الصلاة والسلام".[3]

---

(١) أنظر ص من الباب الأول.

(٢) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن،ص٤٧

(٣) المرجع السابق، ص٤٧-٤٨

- **حقيقة راسخة:**

تحت هذا العنوان ننقل تأكيد د. موريس بوكاي، على ما سبق لنا تقريره؛ من أنه لا تعارض بين الكتب السماوية وحقائق العلم الثابتة، وهو المبدأ الذي أرساهُ شيخ الإسلام رحمه قبل قرون، في مؤلفهِ الفذ الفريد "درء تعارض العقل والنقل". أما اليوم فنحنُ أمام نموذج معاصر غربي من معقلِ نظرية التطور، يؤسس لهذه الحقيقة [1]. يقول د. موريس في كتابه "أصل الإنسان": "ليس من العدل أن نأخذه –أي تفسير كتبة العهد القديم ورؤاهم- حجة ضد الكتاب المقدس في مواجهة بين العلم والكتاب السماوي، وعلينا أن نردهُ إلى دورِ الإنسان في كتابةِ محتواه".[2]

ويقولُ بموضعٍ آخر: "وإذا كانت اعتباراتٍ كهذهِ غير مُستوعبة، آخذين بعين الاعتبار الخطأ البشري أو التفسيرات البشرية، فإننا نتوصَّل إلى إصدار أحكام على الكتب السماوية ليست في محلها".[3]

وفي معرضِ حديثه عن إعجاز القرآن، يصرّح: "إن مقابلة النصَّيْن التوراتي والقرآني، مثيرة جداً، إذ أن كلاً منهما يذكِّر بالإله الخالق، غير أننا ندرك من خلال هذه المقابلة بأن التفاصيل الوصفية عن الخلق الواردة في التوراة، وهي غير مقبولة علمياً، لا نجدها في القرآن الكريم، بل على العكس فإن القرآن الكريم يتضمن في آياته المتعلقة بالإنسان أشياء مذهلة".[4]

وفصلُ القول هاهنا، أنه يجب التأكيد على أن القرآن الكريم هو الكتابُ الحق الصادق بإطلاق؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وعليه فعلينا صيانته عن العبثِ والتشكيك فيما جاء به باسم العلم الحديث أو البحث العلمي، إذ لا مقارنة بين نبأٍ الصدق كما قرر الحق سبحانهُ وتعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾. وبين علومٍ بشريةٍ يعتورها القصور والخلل والنقصان مهما بلغت من الكمال ظاهراً.

---

[1] وإن كنا نؤمن تماماً بأن التحريف قد وقع في كتب اليهود والنصارى كما أخبر الحق عزوجل، لكننا هنا بصدد فكرةِ التعارض بين العلم والكتاب السماوي، لا الحديث حولَ التأليفين وما خالطهما من أهواء البشر والكتبة آنذاك. وإلا فالله تبارك وعز إنما أخبرنا عن التوراة التي أنزلها على موسى الكليم عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام. فيبطل أساساً –من حيثُ التسمية- الاستشهاد بشيءٍ يُدعى العهد القديم أو العهد الجديد!.

[2] ص١٤

[3] أصل الإنسان، ص١٥

[4] أصل الإنسان، ص١٣

يقول الأستاذ عبد الدائم كحيل: "هناك أبحاث تصدر في الغرب وينبغي أن نأخذها بحذر شديد، فعلماء الغرب قد أسسوا علومهم ونظرتهم للكون والإنسان على أساس الإلحاد، فعندما يدرسون الكائنات الحية فإنهم يحاولون إيجاد تفسير مناسب لسر وجود المخلوقات، و أساهم في ذلك المصادفة والتطور وقوانين الطبيعة، ولذلك تخرج نظرياتهم خالية من أية إشارة لوجود قوة حكيمة مدبرة في هذا الكون!".[١]

وأخيراً؛ بقي أن نُذكِّر بأن نظرية النشوء والارتقاء ليس لها محلٌ سوى في أوساط اللادينيين، أما من ينتمون لدين فإنهم يرفضونها رفضاً قاطعاً لأنهم يرون فيها مُصادمة لوجود الله سبحانهُ وتعالى وقدرته، سواء كانوا أهل دينٍ صحيح كالمسلمين، أو دينٍ باطل كنصارى اليوم على سبيل المثال.

فأما أهلُ الدينِ الصحيح وهم أهلُ الإسلام؛ فهم لا يرفضونها لمجرد كونها تنافي وجود الله ﷻ فحسب، بل لكونها أيضاً تعارض حقائق الخلق –خلق الإنسان بخصوص وسائر المخلوقات بعموم-، الواردة في الوحيين الشريفين؛ القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفي هذا ردٌ وتكذيب لنبأ الوحي المعصوم المقدس، مما يهددُ عقيدة المرء و إيمانه –والعياذ بالله-.

قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك (١٤)، كما أنكر سبحانهُ على الذين يتخرصون بغير علم فقال: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾البقرة (١٤٠)، وحذرنا من الاتباعِ الأعمى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ آل عمران(١٠٠)

وأما مثالُ الآخرين؛ فكقولِ أحدِ أساتذة العهد القديم: "ومرةً أخرى نقرر استحالة تطور الإنسان عن الحيوان، كما سبق أن رفضنا إمكان تطور الحيوان عن حيوانٍ آخر. ونقول مع رينك: إن الحقيقة الوحيدة الجديرة بالاحترام هي أن العلم لا يعلم شيئاً عن أصلِ الإنسان"!.[٢]

---

[١] نظرية التطور بين العلم والإيمان، للمهندس عبد الدائم كحيل: http://goo.gl/Ywg0WE

[٢] مقدمات العهد القديم، لـ أ. د. وهيب جورجي كامل، ط٣، ٢٠٠٤م، رابطة خريجي الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، القاهرة. ص٣٣. وقد جاء حديثُه في معرض تفسيره لبعض فقرات خلق الإنسان الواردة في العهد القديم، الذي يقرر أن الإله هو خالق الإنسان؛ يقول: "وبعد أن أكمل الله تعالى خلقه الكون، جبل الرب الإله آدم من تراب، ونفخ في أنفهِ نسمة حياة، فصار آدم كائناً إلهياً، ليس كباقي الكائنات، كائناً على صورة الله ومثاله: أي له روح خالدة وعاقلة ومريدة، ولها حرية وسلطة على غيرها من الكائنات"، ص٣٣

وهكذا نرى تهافت هذه اللوثة الفكرية المنتسبة للعلم والعلمُ منها براء. ناهيك عن معارضتها للفطرة والحقيقة الشرعية التي أنزلها الله ﷻ في كتابهِ الكريم قبل ظهور هذه المفسدة الفكرية بأربعةَ عشر قرناً.

فأما الفطرة فكلُ إنسانٍ يلمسُ في ذاته حاجةً إلى التقدير والاحترام، وتأنفُ فطرته السوية كل أشكال الامتهان والتحقير –فضلاً عن أن يُقال بأن جَدَّه القرد!- ؛ وهذا معنىً يجدهُ حتى أرباب الأعمال الحقيرة أو الوضيعة؛ وحتى من وُجدوا أو ولدوا في ظروفٍ سيئة أو غير سوية، لحكمة إلهية تخفى علينا.

وقد نصلُ إلى أن تلك الحاجة التي يجدها كل إنسانٍ في نفسه، ربما تكونُ ثمرة التكريم الأول للبشرية جمعاء وهي لم تزل في صُلب أبيها آدم عليه السلام.

وحتى تُدرك الإنسانية هذه النعمة العظيمة، وتعلم فصل الحق فيها، أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن الخلق البشري الأول، وصنوف التكريم التي أجراها له بفضلهِ ورحمته، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص (٧١- ٧٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء (٧٠)

فهل يعتقدُ بعد هذا كلِهِ مؤمنٌ يؤمن بالله واليوم الآخر، أنهُ وجد بغير الطريق التي أخبر الله بها في كتابهِ الكريم، وشرحتها السنة الشريفة المطهرة؟!. أو أن أصلهُ تطوريٌ عن كائناتٍ أخرى وهو يقرأ قول الله عزوجل: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة (٧)

إن فساد نظرية التطور لا ينحصر في نفي وجود الخالق سبحانه وتعالى -وإن كان أشدها-، ولكن في معارضة نبأ الوحي الشريف بتخرصاتٍ وادعاءاتٍ فكرية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا دليل عليها من علمٍ أو عقل أو منطق.

نقولُ هذا ونحنُ نرى البعض من بني جلدتنا[1]، يحاولون الجمع بين النقائض بالقول بالتطور مع إثبات وجود الله سبحانه وتعالى!، بينما يذهب أرباب التطور في معاقل الغرب ومسقطِ رأسِ فَرَضِيتهم –صراحةً أو ضمناً- إلى أن الغاية من القول بالتطور هو نفي وجود الخالق ﷻ.

فمثلاً حاول الأستاذ فهد الأحمدي التنظير لنظرية التطور في ظل المشيئة الإلهية!، في مقالة له بعنوان: ومن أيضاً سبق داروين؟"[1]. ففي هذه المقالة يرجع الكاتب جذور نظرية التطور إلى ابن خلدون، باعتبار سبقه

[1] أمثال الأستاذ فهد عامر الأحمدي الذي حاول التنظير لنظرية التطور في ظل المشيئة الإلهية!، في مقالةٍ له بعنوان "ومَن أيضاً سبق داروين؟". أنظر: http://goo.gl/pRkbpX

على دارون في القول بالتطور مع الإيمان بوجود الخالق عزوجل، وبالتالي فلا تعارض بين القول بنظرية التطور وبين الإيمان بوجود الله تعالى!.

ورغم أن الكاتب حاول تأصيل نظرية التطور وصبغها بصبغة إسلامية، حيثُ قال بها ابن خلدون قديماً – وهو عالم مسلم -، وبالتالي لا غضاضة بين اعتقادها لتفسير نشأة الخلق وبين الإيمان بالخالق عزوجل، إلا أن الكاتب فاته معارضتها الصريحة لنصوص الخلق في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا وحدهُ يؤدي إلى بطلانها وفسادها حتى لو افترضنا جدلاً عدم معارضتها لوجود الخالق سبحانه!. لأن النصوص الشرعية الواردة في خلق آدم عليه السلام تفيد معنى الخلق المباشر لآدم وزوجه عليهما السلام بعد أن لم يكونا. بينما التطور يفترض وجوده في صور ونماذج شوهاء قبل ارتقاءه إلى صورته النهائية الأحسن!. وهنا منعطف خطير لما له من تعلق بمسألة الخبر الإلهي الذي هو الصدق بإطلاق، وما يجب فيه من التصديق والقبول والإذعان والتسليم؛ فهذا من جانب.

ومن جانب آخر، فيقول الأستاذ مُحَمَّد فتح الله: "من المستحيل التوفيق بين أفكار دارون ونظرية التطور مع الآيات القرآنية أبداً، لأن دارون يقول بأن الحياة نشأت بالمصادفات العشوائية نتيجة عدة عوامل. بينما الإحياء والإماتة فعلان خاصَّان بالله تعالى. وحتى لو كان في الإمكان البحث عن أسباب مادية لبدايات هذين الفعلين، فإن النتيجة ولاسيما في موضوع نفخ الحياة – هي فوق جميع الأسباب تماماً. فنفخ الحياة إجراء مباشر دون حجاب، وإلهي محض غير متعلق بأي سبب. وبما أنهُ لا يمكن تفسير الحياة بأي سبب مادي، لذا كان من غير الممكن أن تتجاوز الداروينية مرحلة النظرية، كما كان من المستحيل التأليف بينها وبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية".[٢]

فلازم الجانب الأول؛ وهو القول بالتطور مع اعتقاد وجود الله تعالى، ردٌ لمعنى الخلق المباشر الذي أفادته النصوص الشرعية. ولازم الجانب الثاني؛ وهو القول بالتطور مع اعتقاد الصدفة الانتهاء إلى الإلحاد -والعياذُ بالله-.

ناهيك عن أن أفكار ابن خلدون التي ساقها في مقدمته عن تطور الكائنات وارتقاءها تتشابه إلى حدٍّ كبير مع جملة الأفكار الواردة في رسائل إخوان الصفا، حتى في الصياغة اللغوية أحياناً!. مما يجعل احتمالية استفادة ابن خلدون من رسائل إخوان الصفا أقرب إلى التأكيد.

---

[١] انظر: http://goo.gl/pRkbpX

[٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، لمحمد فتح الله كولن، ص٢٤

فمثلاً يقول في أحد المواضع: "ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن، ثم النبات، ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدرج، وآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات، .. وآخر أفق النبات مثل الكرم والنخل متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف؛ ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط".[١]

ونفس الفكرة في رسائل إخوان الصفا: "واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بآخر المرتبة المعدنية، وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب كما بينا من قبل. فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط، وهو الحلزون".[٢]

وكذلك التشابه في القول باتصال مرتبة الإنسان بمرتبة الملائكية[٣]، والتشابه بينهما في القول بنشأة الكائنات وتولدها من العناصر الطبيعية[٤]، والتشابه في القول بمشابهة القردة لمرتبة الإنسانية وبذلك فهي آخر مرتبة الحيوانية مما يلي الإنسانية، متصلة بها![٥]. وغير تلك المواضع. فهل أفكار ابن خلدون كانت عالة على رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا فيما يتعلق بقضية الخلق عموماً، وخلق آدم على وجه الخصوص؟!. هذا ما تشهد به المقارنة البسيطة بين المؤلَّفَيْن!.

على أن علاقة التأثر والتأثير سنة إلهية في الكائنات، وبالتالي فلا إشكال فيها لذاتها، وإنما الإشكال أن تشتمل على جوانب سلبية أو باطلة، لاسيما مع وجود ما يعصم من ذلك التأثر السلبي أو الشطط - وهي نصوص الوحيين اليقينية الصادقة-، فكيف إن كان موضوع التأثر لا يخرج عن مجرد كونه دعوى يفتقر إلى الدليل والبرهان القاطع؟!.

فالخلق المباشر حقيقة شرعية اشتملت عليها نصوص الوحيين الشريفين، ومجرد الزعم بتطور الإنسان عن كائناتٍ قبله، يتعارض تماماً مع قوله ﷻ ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ - وهي آية ظاهرة المعنى واضحة الدلالة-. كما يتعارض أيضاً مع كثيرٍ من نصوصِ الخلق الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فالحق أن القول بالتطور - سواء كان بمحض الصدفة أو وفق المشيئة الإلهية -؛ فكلا القولين مؤداهما واحد؛ وهو إنكار البداية المستقلة للإنسان كمنظومة متفردة عن سائر الخلق، وهي كما أخبرنا ﷻ إحدى آياته الدالة على تمام قدرته وعظمته ﷻ. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝

[١] مقدمة ابن خلدون، جـ١، ص٢٠٦- جـ٢، ص١٦٣

[٢] رسائل إخوان الصفا، ص٢٥٤ – ٢٥٥

[٣] انظر: مقدمة ابن خلدون، جـ١، ص٢٠٧، ورسائل إخوان الصفا، ص٢٥٥، ٢٥٨

[٤] انظر: مقدمة ابن خلدون، جـ٢، ص٢٦٧، ورسائل إخوان الصفا، الصفحات ٢٦٢، ٢٣٩، ٢٤١

[٥] انظر: المقدمة، جـ٢، ص١٦٣، ورسائل إخوان الصفا، ص٢٥٤- ٢٥٥

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم (٢٠- ٢١)

كما يترتب على تلك النظرية ضرورة اعتقاد استمرارية الترقي الإنساني إلى أزمان لاحقة، فهل يمكن التنبؤ بما ستكون عليه هيئة البشر بناءً على مقدمات نظرية النشوء والارتقاء؟!. فهذا سؤال من الأهمية بمكان!.

فإن قال قائل ليس في الإمكان التخرص بما سيكون عليه الإنسان في المستقبل، أو أن ذلك ممتنع أو من العسير بمكان، كان الجواب: فكيف جاز التخرص بما مضى وتعذر فيما يُستقبل ويكون؟!، فكلاهما من الغيب الذي لم يشهدهُ أولئك الطبائعيين!.

وإن زعم زاعم أن الهيئة الحالية التي عليها البشر هي آخر صور الارتقاء، قيل له: هذا محضُ تحكم ودعوى يفتقران للشواهد والأدلة القاطعة!. كما قد يقول قائل بأن آلات العلم الحديث وأدواته الحالية لا تسعف في تخرص واستشراف ما سيكون عليه شكل الناس مستقبلاً نتاج عمليات الارتقاء والتطور المستمرة!، فيُردُ عليه بأن تخرصها واستشرافها لما سبق على وجودها أبعد وأكثر استحالة!. ويمكن الإيضاح بمثالٍ بسيط: ففي المجال التقني على سبيل المثال أجيال الحاسوب قبل عشر سنوات أو أقل بكثير لا يمكنها أن توكب الأجيال الجديدة المطروحة في الأسواق حالياً مالم تجرى لها تحديثات عديدة قد تنجح وقد لا تنجح!. هذا فقط في المجال التقني الذي هو صنعة الإنسان، فكيف بصنعة الخالق عزوجل؟!.

كما أنه ليس لأي ماهر في هندسة التقنية والالكترونيات أن يزعم إحاطته بتاريخ الحاسوب وتفصيلات علومه، فضلاً عن أن يقول: إن بدايتهُ قطعة معدن تم تعريضها لموجات مختلفة فارتقت إلى حاسب وتطورت أجيال الحاسب بعد ذلك تلقائياً فنتج عنها أجهزة عديدة متطورة حتى انتهينا إلى عالم الأجهزة الذكية. بالتأكيد سيعترض أرباب التخصص على ذلك أشد الاعتراض!.

فكيف بالنبأ الصادق بإطلاق، الذي أخبر عن قصةِ وجود تفوق حساسيتها وتعقيدها، حساسية وتعقيد أجهزة الحاسب، وتتفوقُ إحكاماً ودقة في الصنع على أجهزة الحاسب؟!. يقول مُحَمَّد فتح الله بعد أن ساق نقداً لعلماء المتحجّرات: "فإن تم الاعتراض على طرق قياس الأعمار لأي متحجّرة من المتحجرات، انفتح باب الاعتراض على أعمار جميع المتحجرات الأخرى. لذا يجب عدم غض الطرف عن مدى صحة طريقة استخدام الكربون في قياس الأعمار وعلى الطرق الأخرى المستعملة في قياس أعمار المتحجّرات".[١]

---

[١] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٥٢

وعليه؛ فالاعتقاد بأيِ نظريةٍ أو طريقٍ للخلق الإنساني، غير ما أخبر به الله في كتابهِ وأخبر به رسولهُ ﷺ في سنته الشريفة يُعدُ افتراءً وكذباً على الله ورسوله ﷺ وتخرصاً من أوهام البشر وتخاليطهم. قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف (٥١)

كما ردَّ من قبل على مزاعمِ مُشركي قريش الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ الزخرف (١٩)، ثم جاء في ختامِ آيةِ المحاجّة والرد؛ قوله تعالى: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾.

فكأن الله تعالى ينبهنا إلى قضيةٍ خطيرة من الأهمية بمكان؛ وهي أن أنباء الغيب لا يحصل العلمُ اليقيني الحق فيها إلا بشهادةِ الأمر وحضورهِ، أو بأخبار الكتب الإلهية المنزلة منه ﷻ -أم آتيناهم-، فهي تقومُ مقام الشهادة بل أبلغُ منها، لأنها إخبارُ الحي القيوم عالم الغيب والشهادة ﷻ، وهي النبأ الصادق اليقيني بإطلاق، الذي لا يخطئ ولا يتبدل أو يتخلف، بخلاف شهادة الحواس إذ قد يُصيب تلك الحواس خلل أو عطب يعطّلها عن وظائفها، أو ينحرف بها عن مسارها الصحيح.

- **كيف تسربت الداروينية إلى العالم الإسلامي؟!:**

لقد شهِد الغرب خلال القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، تأثيراتٍ فكرية شتَّى، كان لها الأثر البالغ على العالم الإسلامي عامةً والمشرق العربي بخصوص. حيثُ انتقلت تلك الأفكار من محيطها الأوروبي إلى الوسط الإسلامي وأسهمت في إحداث خللٍ فكريٍ عميق، اصطدم في معظم جزئياتهِ بالعقيدة الإسلامية والثوابت الشرعية المُحكمة، المعلومة من الدين بالضرورة.

ولعل أظهر مثالٍ على ذلك ما نحن بصدد الحديث عنه؛ وهي الفِكرة الداروينية أو نظرية التطور التي غَزَت الفكر والثقافة الإسلاميين، حتى وجدت من أبناءِ الإسلام من يُدافعُ عنها وينتصرُ لها!.

يقول مؤلف كتاب جذور العلمانية: "كانت الداروينية قد غزت الأوساط الثقافية والإسلامية منذُ أواخر القرن

التاسع عشر، وبلغت مبلغاً كبيراً من الانتشار في بدايةِ القرن العشرين في مصر. وشغلت المثقَّفين النظريين - لا العاملين الذين تخصصوا في علم الأحياء - ... وبلغ من طُغيانها على الفِكر الإسلامي، أنها غزت كُتب تفسير القرآن الكريم وسيطرت على بعضِ علومه في هذه الحِقبة".[١]

أما انتقال هذه الأفكار إلى الشرق الإسلامي، فكان مع بداية الاحتلال الإنجليزي الذي تسبب في احتكاك العالَمين الإسلامي والغربي، الأمر الذي أدى لزلزلة الفكر الديني لدى الشباب المسلم.[٢]

وكان ممن افتُتن بنظرية دارون و حملَ لواء الدعوة إليها في المشرق العربي؛ أحَدَ أبناءِ الإسلام واثنين من نصارى العرب ببلاد المسلمين. يقول مؤلف كتاب أعلام وأقزام في ميزان الإسلام عند ترجمة أحد المتغربين: "لقد كان إسماعيل مظهر ضمن ثلاثةٍ أسهموا بصفة بارزة في نقل الداروينية إلى الشرق بطريقِ الترجمة المباشرة، وبالدراسة المستفيضة للصحف، وهم: شبلي شميل، سلامة موسى، و إسماعيل مظهر. والأولان نصرانيان أشهرا إلحادهما وكفرهما بكلِ دين، أما الأخير فمسلم الأصل إلا أنهُ كتبَ ما لا يتردد أحدٌ في نسبة قائلهِ إلى الكفر، وكان لكتبهم وأبحاثهم الأثر الكبير في جيلهم ومن تلاه".[٣]

ويقول د. حسن الأسمري: "وقد نشأ تيار فكري نصراني الأصل ماركسي المذهب يتبنَّى هذه النظرية داخل مصر، وحظي بدعم وحماية من المستعمر، من أبرزهم: شبلي شميل، وسلامة موسى".[٤]

وسنعرض للأوَّلَيْن بشيءٍ من التعريف:

- **أولاً: شبلي شميل:**

هو طبيب بحَّاث، كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشته وآرائه، وُلد في قرية «كفرشيما» بلبنان، وتعلَّم بالجامعة الأميركية ببيروت. وقضى سنةً في أوروبا وسكن مصر فأقام في الإسكندرية ثم في طنطا ثم في القاهرة، وتوفي فيها فجأة.[٥]

---

[١] الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية منذُ البداية وحتى عام ١٩٤٨م، للدكتور السيّد أحمد فرج، ط٤، ١٤٠٨هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة. ص٧٣

[٢] المرجع السابق، ص٧٥

[٣] الدكتور سيِّد بن حسن العفاني، ط١، ١٤٢٤هـ، دار ماجد عسيري، جدة. جـ١، ص١٣٥

[٤] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفِكرية وأسلوب الفكر التغريبي في التعامل معها –دراسة نقدية-، للدكتور حسن بن محمّد الأسمري، ط١، ١٤٣٣هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعودية، جدة. ص٥٢٠

[٥] الأعلام للزركلي، جـ٣، ص١٥٥

أصدر مجلة الشفاء سنة ١٨٨٦-١٨٩١م، وكان أوَّل من أدخل نظريات داروين إلى العالم العربي من خلال كتاباته في المقتطف، ثم تأليفهِ لـ"فلسفة النشوء والارتقاء"، ومجموعة من المقالات مما نشرهُ في الجرائد والمحلّات، ولهُ نظمٌ وليس بشاعر. وكان يُجيدُ الفرنسية ويكتب بها.[١]

وإذا نظرنا لمكوِّنات ثقافة شبلي شميل؛ نجد ثقافة التنصير قد هَيمنت عليها شعُر بذلك أم لم يشعر!. فناهيك عن ديانتهِ النصرانية فإن تتلمُذهُ بالجامعةِ الأميركية يؤكِّدُ هذا الرأي. لاسيما وأن تلك المؤسسات التعليمية الأجنبية في بلاد الإسلام، قد أُنشئت لأغراض تنصيرية محضة. وأظهر دليل ما آل إليه حالُ خِرّجيها من أبناء المسلمين من عدائهم السافر للإسلام وكل ما يمُتُّ إليهِ بصلة. فكيف بمن هو ليس بمسلمٍ أصلاً؟!.

يقول مؤلف كتاب "أجنحة المكر": "إذا تدبَّرنا في الغاية التي أُسست هذه المدارس من أجلها، لم يخفَ علينا أنها أبعدُ المؤسسات التعليمية عن العلمِ الصحيح والنزاهة العلمية، لأنها في جميع ما تُقدِّمهُ إلى طلابها من أبناء المسلمين تهدف إلى محاربةِ الإسلام في الصميم، وهدم كيان جماعة المسلمين".[٢]

وينقل عن أحدِ المبشرين قوله: "إن أهداف المدارس والكُليات التي تُشرف عليها الإرساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة. إن المدارس والكُلّيات كانت تُعتبر في الدرجة الأولى وسيلة لتحيق أهداف التبشير، حتى إن الموضوعات العلمية البحتة التي تُعلَّم من كُتبٍ غربية وعلى أيدي مدرِّسين غربيين تحملُ معها الآراء التبشيرية".[٣]

ولنعُد إلى بعض آراء شبلي شميل لنتعرف على فكرهِ المادي، يقول في مُقدِّمةِ كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء": "كون الإنسان يمكن قوام شأنهِ وصلاح حالهِ بدون الديانات، فما لا يجب أن يكون شكٌ فيه، بل لا يصلح حال الأمة إلا كلما ضعفت فيها شوكة الديانات، ولا يقوى شأن الديانة إلا كلما انحطَّ شأنُ الأمة".[٤]

ويقولُ بموضعٍ آخر: "... فأصل العقائد جميعاً وهمُ الإنسان، إذ كان في عهد الخشونة. وكما نشأ هذا الوهم في الإنسان سار معهُ أيضاً".[٥]

---

[١] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة. وانظر: http://goo.gl/n3VjiX

[٢] أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها؛ التبشير - الاستشراق - الاستعمار، عبد الرحمن بن حبنكة الميداني، ط٨، ١٤٢٠هـ، دار القلم، دمشق. ص٨١

[٣] المرجع السابق، ص٧٧

[٤] شبلي شميل، ط٢، ١٩٨٣م، دار مارون عبود. ص٢٩

[٥] المرجع السابق، نفس الصفحة.

فشميل رغم نصرانيته – إن لم تكن ضرباً من التُقية! -، قد وجه مسارهُ الهدمي ضد الأديان والعقائد بعموم، بخلافِ سلامة موسى[1] كما سنرى.

وأما السبب الذي دفعهُ لهذا الاتجاه، فكما يقول إسماعيل مظهر: "لماذا حمل الدكتور شميل على الأديان؟!، حمل عليها متابعةً لرأيهِ المادي. بل جرياً وراء غايةٍ محدودة، غاية سعى إليها كثير من ماديي القرن الثامن عشر، وتنحصر تلك الغاية في أن يتبدَّل الناس بدينهم الأدبي ديناً آخر. وما هو ذلك الدين؟ هو عِبادة المادة".[2]

- **ثانياً: سلامة موسى:**

القبطي المصري، يُعرِّفهُ مؤلف الأعلام بأنهُ: كاتب مضطرب الاتجاه والتفكير. وُلد في قرية كفر العفي بقرب الزقازيق. وتعلَّم بالزقازيق وباريس ولندن، ودعا إلى الفرعونية، وشارك في تأسيس حزب اشتراكي لم يلبث أن حلَّهُ الإنجليز واعتقلوه وسجنوه مُدَّة. وجحد الديانات في شبابه، ثم دعا إلى الكنيسة في سن الأربعين. وأصدر مجلة "المستقبل" قبل الحرب العالمية الأولى، وتعطَّلت بسبب الحرب. وعمل في التدريس ثم رأَس تحرير مجلة الهلال وكل شيء حتى عام ١٩٢٧م.[3]

صنَّف وترجم ما يزيد على ٤٠ كتاباً طُبعت كلها. منها "نظرية التطور وأصل الإنسان"، الذي نحن بصدد موضوعه. وكتب في مجلاتٍ وصحفٍ متعددة، لم يكن يستقر في الانقطاعِ إلى إحداها، إلى أن مات في أحد مستشفيات القاهرة. وكان كثير التجنِّي على كتب التراث العربي، يُناصرُ بدعة الكتابة بالحرف اللاتيني.[4]

وإذا كان شميل قد أبغضَ الأديان وحاربها بعموم، فسلامة موسى قد صبَّ جام حِقدهِ على الإسلام بخصوص. يقول مؤلف كتاب "أعلام وأقزام": "سلامة موسى الكارِه للإسلام، الدجَّال، كالشجرة التي تُنبتُ مُرَّاً، لا تحلو ولو زُرعت في ترابٍ من السكر ... لقد كانت كل كتابات سلامة موسى وأفكاره في حقيقتها جِماع خيوط

---

[1] ستأتي ترجمته.
[2] ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء، د.ط، د.ت، المطبعة العصرية، مصر. ص٤٣
[3] الأعلام للزركلي، جـ٣، ص١٠٧
[4] المرجع السابق، نفس الجزء، ص١٠٧-١٠٨

المخطط الماسوني التلمودي بباطلهِ وهدمهِ وأخطارِه، ولقد عُرِف أن سلامه موسى كان يلفظ الإسلام والمسيحية معاً، وهو الذي أضاف إلى قائمة الرسل والأنبياء: فرويد وماركس وداروين ولينين".[١]

ويقول بموضعٍ آخر: "دعا سلامة موسى إلى الفرعونية وإلى استعمال العامية وهدم العربية، كما دعا إلى الماركسية. ولكن دعوتهُ باءت بالفشل. والحقيقة أن سلامه موسى لم يكن إلا رجلٌ يحملُ التراب فيذروه في وجه الناس حقداً وكراهية لهذه الأمة أن يتحقق لها امتلاك إرادتها وخدمة لكلِ التيارات الحاقدة عليها والكارهة لها كما، كان يدعو لموالاة الاحتلال البريطاني".[٢]

أما الخلفية الثقافية والتكوين الفِكري لسلامه موسى، فيقول عنه: "ولاريب فقد تخرَّج سلامه موسى من مدرستين: من مدرسة تربية أبناء العرب الذين يقعون في فِخاخِ القوى العُظمى. فقد ذهب سلامه إلى بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت الباكر، وجُنِّد لهذهِ الغاية. أما الأخرى فقد كان تابعاً لمدرسة شبلي شميل، هذه المدرسة التي كوَّنها التبشير في بيروت، ثم قذف بها إلى مِصر والبلاد العربية فتولَّت مقاليد الصحافة والثقافة وحملت حقدها الوافر على الإسلام والخِلافة الإسلامية، واللغة العربية، وتاريخ الإسلام، وسيرة الرسول ﷺ".[٣]

أما سلامه موسى نفسه فلم يُنكر اتجاهه المغرِق في الحقد ضد الإسلام ورموزه، يقول: "هذا هو مذهبي الذي أعملُ له طول حياتي سراً وجهراً، فأنا كافرٌ بالشرق، مؤمنٌ بالغرب، وفي كلِ ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا في العصرِ الحديث، وأن أجعل قُرَّائي يولون وجوههم نحو الغرب، ويتنصَّلون من الشرق. ليس هناك حدٌ يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوروبية".[٤]

ويقولُ أيضاً: "وليس علينا للعرب أيُّ ولاء!، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب، وبعثرة لقواهم. وكيف يمكننا أن نعتمد على جامعة دينية، بينما في العالم نظريةٌ تقول: أن الإنسان لم يكن راقياً فانحط كما تقولُ الأديان. بل هو كان مُنحطَّاً فارتقى؛ نعني بها نظرية التطور. بل كيف يمكن لإنسانٍ مُستنير قرأ تاريخ السحر والعقائد أن يُطلب منهُ أن يخدم جامعة دينية، إن الجامعة الدينية في القرن العشرين وقاحة شنيعة".[٥]

---

[١] الدكتور سيِّد العفاني، جـ١، ص١٨٢. وانظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، للدكتور محمَّد عمارة، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار الشروق، القاهرة. ص١٠٩ ، ١١٤، ١١٧

[٢] أعلام وأقزام، جـ١، ص١٨٣. وانظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، ص١٢٥-١٢٦

[٣] نفس المرجعين السابقين، جـ١، ص١٨٤. ص٩٩، ١٠٣

[٤] المرجعين السابقين، جـ١، ص١٨٦. ص١١٧

[٥] أعلام وأقزام، جـ١، ١٨٦

وتزدادُ نشوتهُ بانتصارهِ للداروينية، فيقول في مقدمةِ تأليفه: "ومن سعادة حياتي أني أَلَّفتُ هذا الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنة، واحتاجت الطبعة الأولى نحو ٢٥ سنة حتى نفدت، أما الطبعة الثانية فقد نفدت في أقل من خمس سنوات، وفي هذا برهان على انتصار النور على الظلام، وعلى أن النظر العقلي العلمي المادي يأخذ عند جمهورنا مكان النظر الغيبي الأسطوري الخُرافي".(١)

هذا الموقف التحاملي من سلامه موسى على الإسلام والعرب، ليس بمستغربٍ على أمثالهِ، ولكن الغريب أنهُ يُصرِّح بأنها نظرية –لم ترتقِ لأن تكون حقيقة!-، فكيف يُعوِّلُ على مالم يثبت عقلاً ولا تجربةً؟! -نقولُ هذا تنزُّلاً-. ولكنهُ التعصُّبُ الأعمى والحقد الذي يوجِّهُ مساره -كما يبدو من كلماته-. يقول: "فنظرية التطور هي نظرية الرجاء والرُقي، وهي المفتاح الذي يفتحُ لنا مغاليق الماضي المُبهم ويرسم لنا مصير الإنسان".(٢)

ليس هذا فحسب، بل التطور مرشحٌ عند سلامه لأن يكون ديناً!!، يقول: "فالإحساس بحقيقة التطور هو نوع من الديانة الطبيعية، بها نشعر أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة نشترك وإياها في وحدة وجودية!، وهذا الإحساس يحملنا على احترام الحياة كائنة ما كانت"!!.(٣)

وفي تمجيدٍ مبالغ لدارون، في مقابل الطعن في الدين يقول: "وأخرج كتابهُ العظيم (أصل الأنواع)، فارتجَّت الدنيا به كما لو كان قنبلة قد انفجرت وأسمعت الجامعات التي كانت تُدرِّس الآداب، بل الغيبيات الخُرافية، والتي كان كثير من مدرِّسيها دكاترة في الإلهيات يعتقدون أن أسطورة آدم وحواء تكفي لتفسير الخلق"!.(٤)

وخُلاصةُ القول أن "مفتاح شخصية سلامة موسى هو كراهيته للإسلام، والعمل في كلِ معسكر معادٍ للهِ، ويبدو أن سلامه موسى حين ذهب إلى لندن جنَّدته الماسونية العالمية بذكاء خارق، واستغلت نِحلتهُ على النحو الذي استُغِل به شميل في مهاجمة الدين بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة".(٥)

---

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان، ط٣، ١٩٥٧م، مدينة نصر، القاهرة. ص١٤

(٢) المرجع السابق، ص١٩

(٣) المرجع السابق، ص٢١

(٤) المرجع السابق، ص٢٢٢-٢٢٣

(٥) أعلام وأقزام، جـ١، ص١٩٥

أما ما بعد سلامه موسى، فقد حاولت قوى التغريب دفع أفكاره إلى أبعد مدى بعد أن هلك، ولكن لم يكن ذلك ليجد أي صدى. فقد تقادم العهد الذي كانت كتاباتهُ تملأ نفوس الشباب ببريقٍ خاطف وتبيَّن فساد النظريات الثلاثة التي دافع عنها وسقوطها؛ كنظرية داروين التي تكشَّفت الأخطاء عن فسادها وزيفها.[1]

يقول الأستاذ لمعي المطيعي: "إن سلامه موسى وجَّه قلمهُ مباشرة إلى عقيدة المصريين جميعاً، حيثُ ترجم في وقتٍ مبكر كتاب "نشوء فكرة الله" لجرانت إليه، فهم يؤمنون إيماناً راسخاً بالخالق (خالق السموات والأرض)، فلماذا يأتي هذا الكاتب ليعرض عليهم هذه الأفكار؟!... ، وإن كان قد تتلمذَ على أفكار شبلي شميل، وكتب عن الداروينية ونظرية التطور ودعا إلى العلمانية".[2]

---

[1] أنظر: المرجع السابق، جـ١، ص١٩١

[2] أعلام وأقزام، جـ١، ص١٩١

ومما سبق نستخلص أن:

- استقلال الخلق البشري حقيقة شرعية دلت عليها نصوص الوحي الشريف.
- أصل التكريم للنوع البشري حقيقة دلت عليها النصوص الشرعية.
- نظرية التطور لا مستند علمي لها، مما أضعف موقف سياقات الاستدلال العلمي عليها فجاءت هشَّة وضعيفة جداً.
- «تشارلز داروين» ليس أول من قال بالتطور وإنما ترجع جذور فَرَضيته إلى «لا مارك» و «مالتوس».
- القول بالتطور جاء نتيجة محاولات التكريس للمادية الغربية الحديثة.
- منطق داروين جاء في كتابه ساذجاً ومتهافتاً.
- الكثير من عبارات داروين في كتابه تؤكد افتقار نظرية التطور للدليل.
- التطور في حقيقته هو المذهب المادي المضاد للدين.
- العامل الاقتصادي أحد الدوافع الحقيقية من وراء القول بالتطور.
- نظرية التطور قد بررت لكثيرٍ من العمليات الوحشية بحق الإنسانية.
- كثيراً من التطوريين قد سجلوا اعترافاتهم بقصور نظرية التطور وعدم جدواها.
- العديد من التزييفات المقصودة حدثت بغرض الانتصار لنظرية التطور بعد أن ثبت فشلها وعُدم الدليل الصحيح عليها.
- نظرية التطور يرفضها العقل السليم و تأباها الفطر السوية.
- نظرية التطور ليس لها محل سوى في أوساط اللادينيين.
- القول بالتطور يهدد إيمان المسلم وعقيدته.
- نظرية التطور ربما تعود لجذور يونانية قديمة.
- شهادة الشرع والعقل تدحض أكذوبة الانتخاب الطبيعي.
- شهادة التأريخ والواقع تدحض أكذوبة الانتخاب الطبيعي.

الباب الثالث

خلق آدم في رأي بعض الشخصيات الإسلامية المعاصرة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: خلق آدم عليه السلام في رأي محمد عبده.

الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام في رأي طنطاوي جوهري.

الفصل الثالث: خلق آدم عليه السلام في رأي عبد الصبور شاهين.

توطئة

إن المتأمل لمجمل الآراء المنحرفة في خلق آدم عليه السلام لدى شخصيات الباب يجدها جميعها تنتمي إلى البيئة المصرية، لذا كان من الأهمية بمكان أن نوجز حديثاً عن أوضاع تلك البيئة، لنتعرف على أبرز المؤثرات التي أفرزت تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بخلق آدم عليه السلام نتيجة الاتصال بالغرب وثقافته، والتي تسربت فيما بعد إلى العالم الإسلامي.

أولاً: الوضع السياسي والاحتلال الصليبي للأراضي المِصرية:

لقد كانت ولا تزال أرض الكِنانة تتمتع بموقعها الحيوي الهام في قلب العالم الإسلامي، الأمر الذي أطمع فيها أعداء الإسلام، فخاضوا تجارب احتلالٍ عدة لتلك الأراضي المُسلمة، طمعاً في استلابها ونهبِ خيراتها من جهة، وحرباً للإسلامِ وأهله من جهةٍ أخرى؛ وهذا هو الهدف الأعلى والممتد لروح الصليبية الأوروبية مُنذُ الحملات الصليبية التي قادتها في عصورها الوسطى ضد العالم الإسلامي، ومُنيَت فيها بهزيمةٍ نكراء. قال تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ الممتحنة (٢)

يقول مؤلف كتاب التاريخ الإسلامي: "فإن التاريخ المعاصر لوادي النيل ذو أهمية خاصة، إذ للموقع الذي يحتله مكانة خاصة بين دول العالم وعند المسلمين. إن وقوعه في منطقة التقاء القارات، ومنطقة صِلة الغرب بالشرق عن طريق قناة السويس قد جعل العالم يتجه بأنظاره إلى هذا الموقع، وتُفكِّر القوى الكُبرى في السيطرة عليه أو جعله على الأقل تحت نفوذها".[١]

هذا يأخذنا للحديث عن الاحتلال الفرنسي الذي دخل مصر نهاية القرن الثامن عشر الميلادي مع حملة نابليون بونابارت[٢] عام ١٧٩٨م، كجزء من مشروع تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بعد أن تسرب إليها

---

[١] التاريخ الإسلامي، التاريخ المُعاصر وادي النيل مصر والسودان ١٩٢٤م- ١٩٨٩م، لمحمود شاكر، ط٢، ١٤٢١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت. ص٥

[٢] قائد الحملة الفرنسية على مصر، وُلد في ١٧٦٩م في جزيرة "كورسيا" لعائلة كورسية إيطالية من طبقة النبلاء العاديين، والتحق بمدارس عسكرية وهو في سن المراهقة، ثم التحق بالحياة العسكرية كضابط في الجيش. وبعد التخرج من الأكاديمية العسكرية في باريس في سن السادسة عشرة، انضم إلى سلاح المدفعية. ثم أعلن نفسه امبراطوراً لفرنسا عام ١٨٠٤م بعد سلسلة انتصارات قادها داخل أوروبا وخارجها. واتسمت سياسته بالعداء. وفي عام ١٨١٤م تنازل عن الحكم ونُفي إلى جزيرة "إلبا" ثم فرَّ منها عائداً إلى فرنسا وواصل هجومه وانتصاراته بعد التفاف أنصارِ السابقين حوله، حتى وقع في هزيمةٍ ساحقة أمام قوَّات "دوق ويلنجتون"، فنُفي إلى جزيرة سانت "هليلينا" البريطانية في جنوب المحيط الأطلسي حيثُ مات

الضعف والخوار فضعفت سلطة الخليفة حتى أصبحت سُلطة صُورية، واستبدَّ المماليك فعلياً بزمام دولة الخلافة.[1]

لقد شجعت حالة الضعف الإسلامي أنذاك، أعداء الإسلام ليطمعوا في خيرات بلاد الإسلام وثرواتها، فغدت أرضها مسرحاً للتنافس الاستعماري بين القوى الصليبية الكُبرى[2]. ونحنُ إذ نستعرضُ حِقبة مظلمة في تاريخ أمتنا لا يهمنا الوضع السياسي بشكلٍ رئيس في هذا البحث –وإن كان من الأهميةِ بمكان-، بقدرِ ما تهُمُنا تبعات ذلك الاحتلال الأجنبي وآثاره على الفِكر الإسلامي عامة، وفيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام على وجه الخُصوص.

ولجُملةِ أسباب – بعد تقدير الله تعالى-، لم يستمر وجود الاحتلال الفرنسي طويلاً حتى اضطر للخروج من أرضِ مِصر بعد ثلاث سنوات فقط من دخوله.[3]

خرج الاحتلال الفرنسي ولكنهُ قد زرع شرَّاً مستطيراً بأرضِ مصر المسلمة -كما سنرى-. وبعد مضي ما يقارب ثمانية عقود من الزمان دخلت قوةٌ صليبية أخرى إلى أرض الكِنانة، بسبب ضعف البلاد والقائمِ عليها آنذاك، فكانت بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر، والتدخل الأجنبي في شؤونها عام ١٨٨٢م.[4]

استمر الاحتلال الإنجليزي لمصر قُرابةَ خمسة وسبعين عاماً [5]، أحدث فيها من الخلل الديني والفكري الثقافي والاجتماعي الشيء الكثير، مما أدى لتدهور الأوضاع وازدياد الأمر سوءاً عما كان عليه أيام الغزو الفرنسي الذي ابتدأ ذلك الفساد بكل ما أوتي من قوةٍ و إمكانات.

ونظراً لما كانت عليه الدولة العثمانية من الضعف آنذاك، - حتى سُميت بالرجل المريض-، فقد تكالب الأعداء حولها لنهب ثراوتها واستباحة ممتلكاتها، وكان مما شجعهم لذلك محاولات مُحَمَّد علي باشا[1] الانفصاليـــة، التي

هناك عام ١٨٢١م، بعد سنة واحدة من نفيه، وعمرهُ ٥٢سنة. أنظر: موسوعة مشاهير العالم، إعداد جمعٌ من المؤلفين، ط١، ٢٠٠٢م، دار الصداقة العربية، بيروت. جـ٣، ص١١-١٥

[1] أنظر: دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمُعاصر، للأستاذ الدكتور مُحَمَّد محمود السروجي، د.ط، ١٩٩٨م. ص١٥

[2] أنظر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة أفريقيا)، للدكتور إسماعيل أحمد ياغي، د.ط، د.ت، دار المريخ، المملكة العربية السعودية –الرياض. جـ٢، ص٢٣

[3] أنظر: المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والإدارية، للدكتور ناصر الأنصاري، ط٢، ١٤١٧هـ، دار الشروق، القاهرة. ص٢٤٠

[4] أنظر: مجمل تاريخ مصر، ص٢٢٢. وَ تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة أفريقيا). جـ٢، ص٢٩. وَ واقعنا المعاصر للدكتور مُحَمَّد قطب، ط٤، ١٤١٨هـ، دار الشروق، القاهرة. ص٢٠١

[5] تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج٢، ص٢٩

أظهرت عجز الآستانة عن مقاومته والتصدي له.[٢]

فما الدور الذي لعبهُ مُحَمَّد علي باشا لتحويل مصر المسلمة إلى دولة علمانية؟

دور مُحَمَّد علي باشا في التغييرات التي حدثت بمصر:

لقد كان حقيقة الدور الذي لعبهُ مُحَمَّد باشا بمصر تغريبياً محضاً، للوصول بالمجتمع والهوية إلى صورة الحضارة والثقافة الغربيتين، مما أدى لآثارٍ ونتائج سلبية على المدى البعيد لا تزال موجودة إلى اليوم.[٣]

ويذكر مؤلف كتاب "أعلام وأقزام في ميزان الإسلام"، أن مُحَمَّد علي هو مؤسس العلمانية بمصر الحديثة، فيقول: "أعمال مُحَمَّد باشا الكبيرة: ١/ تأسيس حكومة مدنية بمصر (أي علمانية)، كانت مقدمة لاحتلال الأجانب لها. ٢/ قِتالُهُ للدولة العثمانية مما أظهر للعالم كُلُهُ، ولأوروبا خاصة ضعفها وعجزها وجرَّأهم على التدخل في أمورِ سياستها ... وكانت مساوئهُ في نسخ الأحكام الشرعية وإعلان العلمانية في مصر، وتجرؤه على استبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية، وقتالُهُ لخليفة المسلمين مما يُعدُّ حِرابةً في الشريعة الإسلامية".[٤]

يقول صاحب كتاب "واقعنا المعاصر": "عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذ مخططاتها الصليبية اليهودية .. ولكن الأقدار ساقت لها من يقوم عنها بتنفيذ كل مخططاتها في شخص مُحَمَّد علي الكبير"[٥]. كما أشار مؤلف "تاريخ

---

[١] مُحَمَّد علي باشا بن إبراهيم أغَّا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير؛ مُؤسس آخر دولة ملكية بمصر. ألباني الأصل، مُستعرب، وُلد في "قولة" التابعة الآن لليونان، وكانت من البلاد العثمانية، واحترف تجارة الدخان فأثرى. وكان أمياً، تعلّم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره. وقدِم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها "قولة"، تتألف من ٣٠٠ رجل نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر، فشهد حرب أبي "قير" عام ١٢١٤هـ، ثم صار والياً على مصر عام ١٢٢٠م، فعني بتنظيم الحكومة وقتل المماليك سنة ١٢٢٦هـ . أنشأ السفن في النيل وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة "ترسانة" للسفن. قضى على الدعوة السلفية في الجزيرة العربية عندما أعلن الحرب على الدولة السعودية الأولى. وفي عام ١٢٥٧هـ صار له حكم مصر وراثياً. وكثرت في أيَّامه المدارس والمعامل في الديار المصرية، وأرسل= =البعثات لتلقي العلوم الأوروبية، عهد بالأمور لإبنهِ إبراهيم باشا عام ١٢٦٤هـ، وأقام في قصور رأس التين بالإسكندرية مريضاً إلى أن تُوفي بها، ودُفِن بالقاهرة عام ١٢٦٥هـ. أنظر: الأعلام جـ٦، ص٢٩٨-٢٩٩

[٢] أنظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، لعلي بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الصلابي، د.ط، د.ت. ص٥٨٥

[٣] أنظر: المرجع السابق نفس الصفحة.

[٤] للدكتور سيّد العفَّاني، جـ١، ص٨ . وانظر: الدولة العثمانية، ص٥٦٨، ٥٨٥

[٥] للأستاذ مُحَمَّد قطب، ص١٩١ . ولا يفوتنا التأكيد بأن ذلك إنما هو بقدر اللهِ مقدّرِ الأقدار سبحانهُ وتعالى، إذ الأقدار لا تملكُ مشيئة ولا إرادةً لذاتها.

العالم الإسلامي المعاصر"، إلى نوعِ تلك التغييرات التي أحدثها مُحَمَّد علي باشا، فقال: ".. ثم أخذ يعمل على إرساء نهضةٍ ثقافية وعمرانية واسعة، غير أنها كانت نهضةً افرنجية".[١]

فماذا فعل مُحَمَّد علي باشا؟

امتد حبل الموالاة والمودة للكافرين في عهد مُحَمَّد علي، فأصبحت مِصر في عهدهِ وبالذات القاهرة محط نزول الكافرين من كلِّ جنس، وذلك باستدعائه لكثيرٍ منهم وفتحهِ المجال أمام استثماراتهم وتجاراتهم، مما جعل البلد تضيقُ بالسكان وتغص بالقادمين من الكُفَّار الذين ضايقوا المسلمين في معايشهم، حتى إن الإنسان ليُقاسي الشدة والهول إذا مرَّ بالشارع، من الازدحام الشديد.[٢]

كما استدعى -بالإضافة إلى طوائف اليهود والنصارى-، أعداداً غفيرة من الدروز والنصيرية وغيرهم من الفِرق الخارجة عن الإسلام، وكانت الاضطرابات تكثرُ في تلك الفترة وتشيع الفتن والمصادمات خصوصاً بسبب ثورات العسكر المتلاحقة لقطع المرتبات وغير ذلك.[٣]

وأما نصارى الأرمن الذين أصبحوا من خواصِ الدولة، فقد أنشأوا دوراً وقصوراً وبساتين بمصر القديمة. فهم يهدمون وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا ولا حرج عليهم، وإنما الحَرَج والمنع والحجر على المسلمين من أهلِ البلدة فقط!.[٤]

وعندما تولَّى الحسبة من أراد إرجاع الكفار إلى حالتهم التي كانوا عليها قبل مجيء مُحَمَّد علي، قطع مُحَمَّد علي عليه طريق الإصلاح هذا، وأمر بكفِّ هذا المحتسب بعد أن تم زجره وتأنيبه.[٥]

وباختصار ففي عهد مُحَمَّد علي بدأت مصر تتحوَّل وتتجه نحو الاصطباغ بالصبغة الأوروبية [٦]، بما فرضهُ من الاحتكاك القسري مع المسلمين أصحاب الأرض، بجلبه لطوائف اليهود والنصارى والفرق المنحرفة مما أدى – بالضرورة- للتأثر الفكري بعلومهم وثقافتهم وتقاليدهم على المدى البعيد.

---

[١] الدكتور إسماعيل أحمد ياغي، جـ٢، ص٢١

[٢] أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، جـ١، ص١٦. وانظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص٥٨٦ ، ص٨٣٠

[٣] أعلام وأقزام، نفس الجزء، ص١٧ . كما كان لهم دورهم في انتشار الانحراف الديني والعقدي وكذلك في سقوط دولة الخلافة، انظر: الدولة العثمانية، ص٩١٥

[٤] أعلام وأقزام، جـ١، ص١٨. وانظر أيضاً: الدولة العثمانية، ص٥٨٦

[٥] أعلام وأقزام، نفس الجزء والصفحة السابقين.

[٦] نفس المرجع والجزء، ص١١. الدولة العثمانية، ص٥٨٥

كما أن ماسونيته وتشبعه بأفكارها وتعلقه الشديد بالغرب، كان له الدور الكبير والأثر البارز في تأسيس محافل ماسونية على أرض مصر المسلمة، ومسخ هويتها تدريجياً، مما أضعف روح الانتماء الإسلامي في نفوس كثيرٍ من أبناء المسلمين، سبَّبه شعورهم بالهزيمة النفسية أمام العدو، وهزيمة العقيدة نتيجة الانبهار بما لدى الغرب[١]. وليس هذا فحسب، بل كان أسوأ قدوة تأسَّى بها من بعده أمثال مصطفى كمال أتاتورك الذي قضى كلياً على الخلافة الإسلامية في تركيا.[٢]

ثانياً: الوضع الفكري الثقافي:

نتيجة الاحتلال الفرنسي والإنجليزي وجهدهما في تغريب الفكر والثقافة الإسلاميين بمصر، بما أنشآهُ من وسائل وسُبل؛ كمطبعة "بولاق" –التي جاء بها نابليون في حملته-، أو ما جعلاهُ قنطرة عبور لإنفاذ مخططاتها كمحمد علي، فقد تغلغلت الأفكار الغربية في عقولِ كثير من أبناء الشعب المصري المسلم، و لاقت رواجاً وقبولاً أدى لانسلاخِ الهوية الإسلامية، مما جعلها تُربةً صالحة لقبول ما يأتي من الغرب – في ظل الانبهار بالحضارة الغربية والعلوم التجريبية المادية- دون تمحيصٍ أو نظر.

فقد عمل مُحَمَّد علي على تغريب المجتمع المصري المسلم، بما انتهجهُ من سياسة الابتعاث المفتوح لدول أوروبا، يقول مؤلف كتاب "واقعنا المعاصر": "إنما كانت صياغته النفسية والتوجيه الذي يتلقاه كلهُ إلى الجانب الآخر؛ جانب التغريب. لذلك أرسل الشُبَّان الصغار بأعداد متزايدة إلى أوروبا، وهم في سن الفتنة غير محصَّنين بشيء، لينهلوا من العلم إن شاءوا، ومن الفسادِ إن شاءوا، أو من العلم والفساد معاً في غالب الأحيان، ثم يعودوا ليكونوا رأس الحربة المتجه إلى الغرب، الذي يجر بلادهُ كلها إلى هناك".[٣]

وثمة لونٌ آخر من الابتعاث رحَّب به مُحَمَّد علي أشدَّ ترحيب، وفتح الباب فيه على المصراعين؛ وهو استقبال الوفود الأوروبية الدخيلة على مصر المسلمة تحت غطاء "البعثات العلمية"، للتنقيب والكشف عن آثار الفراعنة![٤]. وما هو إلا لونٌ آخر من ألوان الخداع والدهاء الصليبي لزعزعة العقيدة والروح الإسلامية في قلوب أبناء الإسلام في القُطر المصري، وما شخصيات الباب الذي نحنُ بصددهِ إلا ضحايا تلك المؤامرات التي حيكت تحت شِعار العلم التجريبي الحديث أو الآثار المكتشفة!. نعم لقد تزعزعت ثقة البعض منهم في أحاديث

---

[١] أنظر: المرجع السابق، الصفحات: ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٨٢

[٢] المرجع السابق، ص٥٨٣

[٣] الأستاذ مُحَمَّد قطب، ص١٩٥. وانظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص٥٨٤

[٤] أنظر: واقعنا المعاصر، ص١٨٨. وَ أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، جـ١، ص١٩

المصطفى الشريفة فردوا خبر الآحاد أو الأحاديث جُملةً واحدة بحُجَّةِ أن العلم الحديث قد اكتشف نتائجاً تخالفها!.

أما حقيقة تلك البعثات والغاية من وراءها، فجاءت على لسان أحد المستشرقين، يقول: "إننا في كل بلدٍ إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائهِ بين الإسلام وبين تلك الحضارات"[١]. وهذا ما سيتضح معنا جلياً خلال الصفحات القادمة عند حديثنا عن آراء شخصيات الباب في خلق آدم عليه السلام.

فقد كان هذا هو الهدف المخطط للبعثة العلمية المرافقة للحملة، لم يكن هدفاً "علمياً"، إنما كان هدفاً صليبياً مغلفاً بالعلم، شأنهُ شأن الرحلات العلمية الاستكشافية التي قام بها الصليبيون ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي.[٢]

كذلك لا يفوتنا الحديث عن دور مطبعة "بولاق"، التي جاء بها نابليون إذ بان الغزو الفرنسي على مصر، وما أسهمت به بشكل كبير في نشر كتب الاستشراق وأهله الطاعنة في الإسلام وعقائده وتشريعاته بطريق دسِّ السُمِّ في العسل، مما زعزع عقائد كثير من الشباب المصري المسلم.

يقول د. مُحَمَّد قطب: "وأما المطبعة؛ تلك المأثرة العظيمة من مآثر الحملة!، فقد جاء بها نابليون لأكثر من سبب. ففيها يطبع المنشورات التي يُطالب فيها الشعب المصري المسلم بالخضوع لأوامر المغتصب الصليبي، كالمنشور الذي قال فيه إن الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم الاستسلام الكامل للفرنسيين وعدم مقاومتهم، لأن تغلّبهم على مصر والاستيلاء عليها كان بقدر الله!. كما كان يطبعُ فيها المنشورات الحاوية "لقانون نابليون" التي يُصدرها لإبطال الشريعة الإسلامية بالتدريج".[٣]

كما يجدرُ التأكيد على الدور الثقافي الفكري الذي حملت لواءهُ مدارس التنصير الأجنبية في أرض مِصر، فقد كان لدولتا الاحتلال فرنسا وبريطانيا طموحٌ عالٍ لزعزعةِ العقيدة والشريعة بشكلٍ أسرع في نفوس المسلمين بمصر، فأنشأتا المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية؛ ذات المناهج الأجنبية لتحقيق أهداف التنصير بأرضِ الإسلام.

---

[١] المرجعين السابقين، نفس الصفحات.
[٢] واقعنا المعاصر، ص١٨٩
[٣] واقعنا المعاصر، ص١٨٨

يقول المنصِّر صموئيل زويمر[1]: "إن أهداف المدارس والكليات التي تُشرف عليها الإرساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة، إن المدارس والكليات كانت تُعتبر في الدرجة الأولى وسيلة لتحقيق أهداف التبشير، حتى إن الموضوعات العلمية البحتة التي تُعلَّم من كُتب غربية وعلى أيدي مدرسين غربيين تحمل معها الآراء التبشيرية".[2]

كما لا ننسى أن نذكر أن تلك الدول المستعمرة كانت حريصةً كل الحِرص على تعليم لُغاتها للشباب المسلم، ليكون ذلك بوابة عبور واستقبال لكل شاردةٍ وواردة من ذلك الفكر الأجنبي بدعوى التجريب والعلم، يقول د. عبد الصبور شاهين[3] –وهو أحد شخصيات الباب-: "كانت فرنسا حريصة على نشر لسانها الفرنسي، فأنشأت هذه الرابطة التي كانت فروعها أكثر من ثلاثمائة وستين فرعاً منتشرة فى أنحاء العالم لتعليم شعوبه اللسان الفرنسي".[4]

ويقول مؤلف كتاب "تاريخ العالم الإسلامي": "رسمت بريطانيا سياسة للتعليم ترمي إلى الحد من توسعته، وإلى تحويلهِ إلى جهة تخدم مصلحتهم الاستعمارية بحسب مناهج مرسومة لتقوية اللغة الإنجليزية وإهمال التاريخ الإسلامي وتعديله وفق مصلحتهم، وإهمال اللغة العربية والدين الإسلامي، كما أكثروا من المدرسين الإنكليز".[5]

فإذا أضفنا لتلك الجهود التغريبية السابقة للمجتمع المسلم بمصر، ما ورد في أجندة الشر العالمية من اليهود ومن سار على منوالهم، اتضحت الصورة وتجلَّى المشهد. فقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون ما نصُّهُ: "نحن نعرفُ من تجارب قرون كثيرة أن الرجال يعيشون يهتدون بأفكار، وأن الشعب إنما يُلقَّن هذه الأفكار عن طريق التربية التي تمد الرجال في كل العصور بالنتيجة ذاتها، ولكن بوسائل مختلفة ضرورية. وأننا بالتربية النظامية سنُراقب ما قد بقي من ذلك الاستقلال الفِكري الذي تستغله استغلالاً تاماً لغايتنا الخاصة منذُ زمانٍ مضى. ولقد وضعنا من قبل نظام إخضاع عقول الناس بما يُسمى نظام التربية البرهانية (التعليم بالنظر)، الذي

---

[1] أحد المنَصِّرين المتعصبين الممتلئين حقداً على الإسلام وأهله.

[2] أجنحة المكر، ص٧٧

[3] ستأتي ترجمتُه.

[4] الموقع الرسمي للدكتور عبد الصبور شاهين. http://goo.gl/sJ8iXT

[5] تاريخ العالم الإسلامي الحديث المعاصر للدكتور إسماعيل أحمد ياغي، جـ٢، ص٣١

فُرض فيه أن يجعل الأميين غير قادرين على التفكير باستقلال، وبذلك سينتظرون كالحيوانات الطيّعة برهاناً على كل فكرة قبل أن يتمسَّكوا بها".[1]

وهُنا نلحظ الخُبث والمكر اليهودي لتنفير الناس من العلم القائم على الاستدلال والبُرهان، وهل كانت أكثر علوم الإسلام إلا قائمةً على البرهنة والاستدلال؟!، فهم هُنا يريدون تنفير الناس بزعم أنهم رُوَّاد هذا النوع من أنواع العلم وأنهُ وسيلتهم لضرب الإبداع وقتل الاكتشاف المعرفي!.

وللأسف قد انطلى المكر والخِداع على مُترجم البروتوكولات حيثُ قال في تعريفه للتربية البُرهانية: "المراد بالتربية البرهانية أو التعليم بالنظر، تعليم الناس الحقائق عن طريق البراهين النظرية والمناقشات الفِكرية، والمضاربات الذهنية لا التعليم من طريق ملاحظة الأمثلة وإجراء التجارب عليها للوصول إلى الحقائق أو القواعد العامة. والتربية في أكثر مدارسنا بُرهانية تهتم بإثبات الحقيقة بالبرهان النظري عليها، ومن شأن هذه الطريقة أن تفقد الإنسان ملكة الملاحظة الصادقة!، والاستقلال في إدراك الحقائق، وفهم الفروق الكبيرة أو الصغيرة بين الأشياء المتشابهة ظاهراً. وهي على العكس من طريقة التربية بالمشاهدة والملاحظة والتجربة ودراسات الجزئيات، وهذه الطريقة الأخيرة تعوّد الإنسان على حسن الملاحظة والاستقلال الفكري والتمييز الصحيح بين الأشياء، والتربية البرهانية غالباً استدلالية، والثانية غالباً استقرائية تجريبية، ولم تتقدَّم العلوم وتنكشف الحقائق منذُ عصر النهضة إلا باتباع الطريقة الاستقرائية التجريبية ...".[2]

نعم هناك مناقشات جدلية محضة لا طائل ولا فائدة من ورائها، كمناقشات أهل الكلام لدى بعض الطوائف المنتسبة للإسلام في عصورٍ خلت؛ كالمعتزلة والأشاعرة والقدرية وغيرهم. فهؤلاء جنحوا عن الصراط السوي والهَدي القويم في الاستدلال والنظر والبرهنة، بزعم الاستدلال العقلي في إثبات العقائد الإسلامية.

وأما الوسائل المشروعة لبيان العقائد الإسلامية وتقريرها، والتي أستخدمها القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ كالاستدلال –مثلاً- بالخلق ونظام الكون على وجودِ الله تعالى و ألوهيته ووحدانيته، فهذه مُعتبرة شرعاً. واقتداؤنا بها أخذاً بنصوص الوحيين في إثبات العقائد والاستدلالِ عليها، لا يضرُّنا في ذلك قول متقوّلٍ جاهل أو ذمّ ذام!. فوجب التفريق بين نوعي الاستدلال عند الحديث لا التعميم الأعمى، ليُعلم أن ثمّةَ ما هو محمودٌ منه وما هو مذموم.

---

[1] الخطر اليهودي "بروتوكولات حكماء صهيون"، لمحمد خليفة التونسي، ط٤، د.ت، دار الكتاب العربي، بيروت. ص١٨٥

[2] المرجع السابق، نفس الصفحة.

نعودُ لما جاء في البروتوكولات أيضاً، وهو قولهم: "لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس و نيتشه قد رتَّبناهُ من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكونُ واضحاً لنا على التأكيد".[١]

فهي في الحقيقة –أعني أراء داروين خصوصاً- فكرٌ منحل مخالفٌ لثوابتنا الشرعية المعلومة من دين الإسلام بالضرورة، وما المعاهد الأجنبية ذوات المناهج الأجنبية وتعليم اللغات الأجنبية، إلا وسائل نشرٍ لهذا الفكر الباطل بدسِّه في عقول شباب الإسلام تحت جلباب العلم الحديث أو التجريبي!.

وقد أثمرت تلك الجهود التغريبية التي حمل لواءها مُحَمَّد علي باشا، في إبعاد الشباب المُسلم عن عقيدته، أو تشكيكه فيها بدعوى أن العلم الحديث قد تعدى مراحل النظر المجرّد، إلى التجريب والاكتشاف الأثري الحديث، وأن نتائجهُ هي الصدق المُطلق وما عداهُ ليس إلا حشو المحدثين القدماء مما لا يؤيدهُ عقلٌ ولا تجربة![٢]

فأتت بواكير البعثات للدول الأجنبية[٣] –عندما عادت- تنظر لمجتمعها نظرة ازدراء وتخلُّف، في مقابلة الانبهار بما عند الغرب والدعوة بأن تصبح صورة المجتمع المصري المسلم وجهاً آخر لنمط المعيشة والحياة الأوروبية، ولعل في رفاعة الطهطاوي[٤] ومن على شاكلته أصدق الأمثلة!.

يقول مُحَمَّد قطب: "لقد كان رفاعة الطهطاوي واحداً من أولئك الأئمة العِظام!، أو هكذا كان يوم ذهب إلى فرنسا، ولكنهُ عاد وهو واحد من أئمة التغريب! ... ثم أَلَّف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار «باريز» ودعا فيه إلى تحرير المرأة أي إلى السفور والاختلاط، وأزال عن الرقص المُختلط وصمة الدنس! ..".[٥]

---

[١] المرجع السابق، ص١٢٣-١٢٤

[٢] سنلحظ هذا المعنى واضحاً جلياً عند حديثنا عن شخصيات الباب وآرائها في خلق آدم الطَّيْكِلاً.

[٣] البعض يُسمي ذلك استنارة وانفتاحاً على العالم المتحضر!، ونرى الكثير من الكتابات والمؤلفات –لمسلمين للأسف- على هذا المنوال تتعامى عن الجوانب السلبية، التي لا تخفى على ذي لبٍ عاقل أو بصيرة مسلمٍ حق. وهاهم بنو الإسلام يرون آثارها المدمِّرة المشوّهة للعقيدة الصحيحة خصوصاً، والهوية الاسلامية عامة. أنظر على سبيل المثال مقدمة مؤلف "دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر"، عند حديثه عن البعثات التي أرسلها مُحَمَّد علي لأوروبا، ص (د)

[٤] رفاعة بن رافع بن بدوي الطهطاوي، عالم مصري، ذكر صاحب الأعلام أن نسبهُ يتصل بالحسين السبط. وُلد في طهطا وتعلَّم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشُبَّان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة. درس الفرنسية وترجم عنها كُتباً كثيرة. توفي بالقاهرة عام ١٢٩٠هـ. أنظر: الأعلام، جـ٣، ص٢٩

[٥] واقعنا المعاصر، ص١٩٥

هكذا كان حال التعليم والوضع الثقافي والفكري -بشكلٍ عام- في عهد الاحتلال الصليبي لأرض مصر، و ما بعده من عهود استفحل فيها الأمر وازدادت موجة التغريب فاكتسحت المجتمع اكتساحاً إلا من رحم الله.

ولعل من المهم أن نذكر أن نظرية داروين لا تزال تُدرَّس في المناهج المصرية إلى اليوم على أنها حقيقة مُسلَّمة، وهذه إحدى آثار التغريب الذي قاده محمد علي باشا، نتيجة الولاء للكفار الذين احتلوا البلاد المسلمة حيناً من الدهر، ثم غادروها ولكن أفكارهم وما زرعوه من الفساد العريض؛ فكرياً وثقافياً واجتماعياً لم يزل قائماً إلى اليوم.

على الجانب الآخر قوبل الأزهر بمحاربة شعواء، إذ كان لايزال يؤدي دوره في تخريج طلاب العلم الشرعي من أبناء المسلمين. تلك الحرب التي حملت أكثر من مسار، حيث تدنَّت نظرة الناس له بسبب الدور الذي لعبه الاحتلال الأجنبي للحط من شأنهِ وقدره. فجاءت أقلام المستشرقين تحملُ السُم الزُعاف، كما حملته أيضاً أقلامُ بعضِ بنيه من أبناء المسلمين، بعد أن تم تغريب ثقافتهم وعقولهم شعروا بذلك أم لم يشعروا.

فمثالاً على الأول؛ نستشهد بقولِ أحدِ الأوروبيين وقد كتب بخبثٍ ودهاء: "ولئن كانت أنماط التعليم والبحث في الأزهر تختلف عما هو مستعملٌ في الغرب الآن اختلافاً أساسياً، فهي لا تختلف في شيءٍ عن الأنماط التي كانت عندنا قديماً"!. وكذلك قوله: "أثر العلوم النقلية في قهر العقول الذي أخذ في التلاشي عندنا منذ قرون لايزال عنفوان سطوته في الجامعات الإسلامية"!.[١]

ومثالاً على الثاني نذكر قول مؤلف "أعلام الفكر"، وهو يبيّن رأياً لمحمد عبده -أحد شخصيات الباب التي سنأتي عليها إن شاء الله-، فيقول: "ونُسارع إلى بيان أن أستاذنا صرَّح في تفسير سورة (العصر) بفساد ما عليه الناس من ذم عصورهم، ونسبة ما شاءوا من الخير إلى ما كان قبلهم من العصور، كما صرَّح في كثيرٍ من أقوالهِ وكتاباته بعيب التعليم الأزهري ومناهجه".[٢]

ونسي الناقلُ والقائل قول رسول الهدى ﷺ: "لا يأتي عليكم زَمانٌ إلا الذي بعدَه شرٌّ منه، حتى تَلقَوا ربَّكم"[٣]، وقوله ﷺ: "خيرُكم قرني، ثمَّ الَّذين يلونهم، ثمَّ الَّذين يلونهم .."[٤]، الأمر الذي يؤكد معنى الحديث الأول.

---

[١] أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لأحمد تيمور باشا، د.ط، ١٤٢٣هـ، دار الآفاق العربية، القاهرة. ص١٤٨

[٢] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٣] رواهُ البخاري، حديث رقم (٧٠٦٨)

[٤] أخرجهُ البخاري، برقم (٦٦٩٥) وَ(٦٤٢٨) وَ (٢٦٥١). ومسلم، برقم (٢٥٣٥)

ثالثاً: الوضع الاجتماعي الأخلاقي:

لم تكن الحالة الاجتماعية والأخلاقية بمنأىً عن الإفساد الذي أحدثتهُ يدُ الاحتلال والتغريب الأثيمتان في القُطر المصري المسلم، بل إن التدهور والفساد كان عاماً في كافة الجوانب بما في ذلك الجانب الاجتماعي.

يقول مؤلف "تاريخ العالم الإسلامي": "كانت سياسة بريطانيا من الناحية الاجتماعية، تقضي بتشجيع الانحلال الخُلُقي في مصر، وإهمال التدابير التي تحول دون انتشار الربا، والبذخ، وشرب الخمر، فكثرت المفاسد الاجتماعية ... -كما- عمدت بريطانيا إلى قتل الروح الوطنية لدى الشعب المصري، إذ حجرت حُرية الفكر، ولاحقت الوطنيين الشُرفاء بالاعتقال والسجن والنفي و التنكيل".[1]

ويقول مُحَمَّد قطب عند حديثه عن الحملة الفرنسية: " .. فإذا أضفنا إلى ذلك "بغايا الحملة" اللواتي جاء بهن نابليون، يسرن في شوارع القاهرة حاسراتٍ مُتخلِّعات يثرن الفتنة وينشرن الفاحشة، ويغرين بعض النساء المسلمات بتقليدهن ...".[2]

"وإذا أضفنا نداء نابليون الخطير الذي أذاعهُ غداة احتلاله لمصر ليهود العالم كي يعودوا لوطن آبائهم ليستوطنوه... فقد اتضحت المؤامرة الصليبية الهائلة التي جاء بها نابليون إلى مصر".[3]

ومعلوم أن أمة اليهود رائدة الانحلال والتفسخ الأخلاقي في العالم، فإذا فتحت لهم أرض الإسلام وغدت مرتعاً مُباحاً لهم تفشت الرذيلة والفاحشة، التي هي جزءٌ من أجندتهم وخططهم الشريرة لإفساد شعوب العالم.[4]

كما هو معلوم -أيضاً- أن إشباع الشهوات والرغبات عندما يُصبح غاية في نفسه، فإن الهمم تتدنى، ويصبح اللهاث خلف تلك الماديات والمتع العجلى هدفاً لذاته، فتتهيأ النفوس لأن تستقبل كل شاردةٍ وواردةٍ دخيلة على مجتمعها ودينها، حيث خَلَتْ من عامل الوقاية الأول والرئيس؛ وهو التسلُّح بالعلم الشرعي والعقيدة الصحيحة التي تحمي الفكر و الأجيال والمجتمعات.

يقول مُحَمَّد قطب: "في تلك الحروب الأولى وقع لويس التاسع ملك فرنسا في الأسر بعد هزيمة حملته الصليبية، وبقي سجيناً في المنصورة فترةً من الوقت حتى افتداهُ قومه وفك أسره. وفي أثناء سجنه أخذ يتفكَّر فيما حل به

(1) تاريخ العالم الإسلامي الحديث المعاصر، للدكتور إسماعيل أحمد ياغي، ص٣٠-٣١

(2) واقعنا المعاصر، ص١٩٠

(3) نفس المرجع والصفحة.

(4) أنظر بروتوكولات حكماء صهيون.

وبقومه، ثم عاد يقول لقومه: إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده، فقد هُزمتم أمامهم في معركة السلاح، ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكمن القوة فيهم".[١]

وما نظرية داروين وغيرها من النظريات، التي تفسِّر خلق الإنسان تفسيراً باطلاً مُخالفاً للعقيدة الإسلامية، إلا أحد وسائل التغريب والغزو الفكر الرامي لهدم العقيدة والشريعة الإسلاميتين، شعر بذلك من ينادي إليها من أبناء الإسلام أو لم يشعر!.

رابعاً: الوضع الاقتصادي:

لم تختلف الحالة الاقتصادية عن حالة التدهور والضعف العام، الذي أصاب القُطر المصري المسلم بعموم في تلك الفترة الظلامية من تاريخ أمتنا في ظل الاحتلال الصليبي للبلاد الإسلامية، فقد عمل الإنجليز على ربط اقتصاد مصر بعجلة الاقتصاد البريطاني، عن طريق ترقية إنتاج المحاصيل الزراعية وخاصة القطن لتزويد المصانع الإنكليزية به، وإهمال الصناعات الوطنية كي تصبح مصر سوقاً لتصريف المنتجات الإنكليزية.[٢]

كما قام مُحَمَّد علي بمسح الأراضي وتوزيعها على الفلاحين يزرعونها لحسابه، وأمدَّهم بالآلات والمواشي وحدد نوع الزراعات التي يزرعونها، واحتكر بيع المحاصيل.[٣]

ويكفي للدلالة على مدى التدهور الاقتصادي آنذاك، أن نعلم أن الأمور المالية قد أصبحت تحت إشراف المراقب الإنكليزي الذي أصبح مستشاراً مالياً للحكومة المصرية.[٤]

وإجمالاً فإن الاحتلال لم يهتم بالتجارة المصرية إلا بقدر ما يفي بتسهيل تصدير المواد الأولية إلى إنجلترا الأجنبية، وإقامة الشركات والمصانع والمصارف الأجنبية في البلاد واستغلال ثروات مصر لصالحها.[٥]

---

[١] واقعنا المعاصر، ص١٨٣

[٢] أنظر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، جـ٢، ص٣٠ . ولذلك نشطت التجارة الخارجية في عهد مُحَمَّد علي كما أسلفنا حيثُ جَلَبَ الأجانب إلى البلاد من مختلف الديانات والطوائف الأخرى حتى ضاق على المسلمين معاشهم في بلد الإسلام.

[٣] المرجع السابق، نفس الجزء، ص٢١ . وانظر: الدولة العثمانية، ص٥٨٦

[٤] تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، جـ٢، ص٣٠

[٥] المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

- **تداعيات وآثار:**

لقد كان من الآثار السلبية للاحتلال الأجنبي لبلاد الإسلام، أن شُوّهِ الفكر الإسلامي ببعض العلوم والنظريات الغربية الدخيلة عليه. ومن هذه النظريات التي وجدت صدىً في البلاد الإسلامية؛ نظرية التطور –كما سنرى عند الحديث عن شخصيات الباب-. لذا سنُجملُ محاورَ مهمة:

١/ رعاية المحتل للعلوم الفاسدة:

لقد كان من جُملةِ السُبل التي استخدمها الاحتلال لفرضِ سيطرته وإحكام قبضته على البلاد الإسلامية، إشاعة وبث كُل ما يُعارض العقيدة الإسلامية الصحيحة، لزعزعة الثقة بالدين الإسلامي في قلوبِ أصحابه من المسلمين، وصد من يلتفت انتباهه إلى هذا الدين من غير أهلِ ملَّته.

فإذا علمنا أن التخطيط للتعليم العلماني في المؤسسات التعليمية الوطنية، وتوجيهه لما يُحقق إبعاد كل تعليم إسلامي هدفٌ تنصيريٌ أصيل[١]، فهِمنا لماذا يدعم الاحتلال كل رأيٍ فاسد وفكرةٍ شاردة تُخالف الدين الحنيف والثوابت الشرعية.

وقد مرَّ معنا كلام أحد المستشرقين الصرحاء حيثُ قال: "إننا في كلِ بلدٍ إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعةِ الحال أن يرتدَّ المسلمُ إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائهِ بين الإسلام وبين تلك الحضارات"[٢]. وهذا ما حصل فعلاً على أرضِ الواقع حيثُ تذبذَبَتْ شخصياتٌ محسوبة في العلم، بين الثوابت الإسلامية الشرعية المتينة الأصيلة وبين تلك الآثار والمكتشفات ونظريات لم تثبت أصلاً –كما سنرى عند الحديث عن شخصيات الباب-.

يقول د. حسن الأسمري: "تُعد "نظرية الفلك والتطورية الداروينية" أشهر ما ظهر من نظريات في القرن التاسع عشر، وقد استمرتا في القرن اللاحق مع تحوُّلٍ كبير عرفهُ القرن الجديد، فهناك مستجدات كبيرة، منها: وقوع أغلب بلاد المسلمين في قبضة الاستعمار، ومن ثَمَّ تم توجيه النشاط العلمي والثقافي والفكري والاجتماعي وفق منظور غربي، كما أن المستعمر سعى إلى صناعةِ تيارات فكرية متغرّبة تُساعدهُ في المهمة أو تقوم بها بعد خروجه".[٣]

---

[١] أنظر: أجنحة المكر، ص١٨٢

[٢] واقعنا المعاصر، ١٨٨

[٣] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها. ص٥٢١

بل اللافت في الأمر أن صاحب النظرية إنجليزي، وفي العام نفسهُ التي تعرَّف فيها أهل الشام ومصر على النظرية احتل الإنجليز أرض مِصر[١]، الأمر الذي يؤكد نتيجة مُفادها: أن غزو الفكر والعقل من أنجح السُبل الممهّدة لغزو الأرض!. لأن بلبلة الفكر وجعلهُ يتردد متشكِّكاً في ثوابتهِ الأصيلة التي عرفها وعاش لها ومن أجلها، يجعلهُ يتطلع لوجه الصواب أو المعرفة الصحيحة، فتكون ردَّةُ فِعله حينئذٍ استقبال هذا العِلمِ الجديد ورواده والترحيب به في مشهدٍ لا يخلو من انهزاميةِ النفس أمام المتفوّق.

وحتى يُحافظ المحتل على مستوىً من بلبلةِ الأفكار -لتحقيق المزيد من المكاسب المادية بانتهاب خيرات البلاد المسلمة-، سعى لاتخاذ أبواقٍ بشرية مهمتها ترديد ما يقولُهُ -باعتبارها أنجح الأدوات في يده!-. ولكن اللافت في هذا المشهد أيضاً، أن كثيراً ممن قاموا بهذهِ المُهمة يدينون بدينِ المحتل سراً أو علانية، ولولا نظرة الانبهارِ إليهم لما انساق أحدٌ من بني الإسلام للوثتهم الفكرية، ولكن قدَّر اللهُ وما شاء فعل.

يقول د. حسن الأسمري: "إن كثيراً ممن يكتبون عن الفكر العربي المعاصر، ويضعون دعاة الداروينية كروَّاد لنهضتنا .. هم في الحقيقة روَّادٌ لتيار عربي المظهر واللسان، غربي القلب والعقل ممن تغرَّبوا وانساقوا لأكثر المذاهب تطرفاً في عدائها للدين، وليست المسألة فقط تقليداً وانهزاماً حضارياً أمام الغرب، بل هو أوسع من تلك الفئة التي نبتت في وقت انهيار العالم الإسلامي، أمام الاستعمار الغربي، لقد أصبحوا أداةً فكرية للاستعمار في هدمِ الإسلام".[٢]

ويقول بموضعٍ آخر: "كان العالم الإسلامي يمر بتحوُّلات خطيرة، وقد برزت أوضاع كثيرة منها التوجه الاستعماري الأوروبي وما صحِب ذلك من أدوات استخدمها الغرب لتحقيق توجهه، وأخطر ما قابل ذلك بروز فئة نصرانية علمانية -تبنَّاها الغرب ثم الاستعمار- تبنَّت بعض المذاهب الغربية الشاذة ووظَّفتها في تدمير الدين أو إقصائه عن الحياة، وأشهر تلك الفئات مجموعة اعتنقت الداروينية في أقبحِ صُورِها، وروَّجت لأسوأ ما فيها، مُدَّعية بشكل قطعي أن هذه حقائق علمية ستكونُ بديلاً عن الدين".[٣]

ولعلهُ أمرٌ وجيه أن نسوق تساؤلات المؤلف التي تكشف عن وجه دُعاةِ تلك النظرية المتهافتة، يقول: "بما أنهما[٤] يتحركان في إطار الفكر العربي وداخل الأمة الإسلامية في فترة التحول الحديثة، فإن هناك سؤالاً: هل كان ما ينقصنا هو الداروينية؟!، إنهُ سؤالٌ مهم يكشف جوابُهُ عن سرِّ تركيزهم على الداروينية. لماذا أخذت الداروينية كل هذه المساحة في مشروعهما الفكري وفي كتابات مجموعة عاصرتهما وعاصراها؟ لقد كان ينقص الأمة

---

[١] المرجع السابق. ص٦٠٧

[٢] المرجع السابق، ص١٣١١-١٣١٢

[٣] المرجع السابق، ص١٣٠٧-١٣٠٨

[٤] يقصد شبلي شميل وسلامة موسى.

الإسلامية أشياءٌ مهمة برع فيها الغرب، فلماذا أخذت تلك الأمور مستوىً أدنى؟ بينما رُفع من شأن الداروينية وكأن ما ينقصنا هو الداروينية، وأن شرط النهوض أن نتحوَّل إلى داروينيين!".[١]

ولعلنا نُجيبُ على هذا التساؤل المُلِح بأن الاحتلال ربما عَرَف من أين تؤكل الكتف، فأراد إغراق المجتمعات التي يريد احتلالها في لجج لا ساحل لها!، بين كيف السبيل إلى الوصول إلى ما وصل إليه المُحتل كي تصبح قوىً غالبة مثله حيثُ يزعم دارون أن الشعوب المتحضرة ستكون قادرة على إبادة الشعوب الوحشية بعد مدد من الزمان!، وبينَ التسليم للأقدر والأقوى الذي يُمثِّلُ ريادةً حضارية لا يرفضها إلا من لا عقل له!، فيكون أمثل الحلول استقبال المحتل كقوة غالبة نفسياً وحضارياً وعسكرياً، ثم نشر فِكره بين الناس لعل وعسى أن يكونوا يوماً شعباً حضارياً مثله، فيكون له من الامتيازات ما يؤهله لغزو الشعوب الوحشية والاستفادة من خيرات أرضها تماماً مثلما حدث معه!.

وقد مثَّل خطاب نابليون هذا المسار الثاني، عندما زعم أن الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم الاستسلام الكامل للفرنسيين وعدم مقاومتهم!.[٢]

٢/ الارتباط بين الداروينية ونظريات فاسدة:

يذكر معظم الكُتَّاب المؤرخين أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الداروينية والمذاهب المادية التي نشأت في المجتمع الغربي بعد ذلك. يقول د. الأسمري: "نظراً لأن الداروينية أصبحت تُمثِّل روح العلم وهي في الوقت نفسه ذات تصور مادي، فهي بهذا الوضع ستكون كالمغناطيس الجاذب للمذاهب المادية، ولذا جعل ماركس الإهداء في كتابه "رأس المال" لداروين".[٣]

فالداروينية لم تكن ذات قيمة علمية –في ذاتها- تؤهلها لأن تكون قاعدة تلك المذاهب الفاسدة بقدر ما كانت تحويهِ من إيحاءات لمن أراد أن يستخلصها ويستخدمها، مبنية كلها على فكرة حيوانية الإنسان وماديته، وقد وظَّفها اليهود واستخدموها أسوأ استخدام.[٤]

فماركس يرى بأن الداروينية قد شكَّلت أساساً جوهرياً للمادية والشيوعية [٥]، وكذلك فرويد، وإميل دوركايم في "عقله الجمعي!". يقول الأستاذ محمد قطب: "من بين الأسماء اللامعة التي شكَّلت الفكر الأوروبي الحديث

[١] المرجع السابق، ص١٣١١
[٢] أنظر: واقعنا المعاصر، ١٨٨
[٣] النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها. ص٢١١
[٤] مذاهب فكرية معاصرة، للدكتور محمد قطب، ط٧، ١٤١٣هـ، دار الشروق، القاهرة. ص١١٤-١١٥
[٥] المرجع السابق، نفس الصفحة.

ثلاثة أسماء على الأقل من كِبارِ اليهود: ماركس وفرويد ودوركايم ... كل منهم قام بدورِهِ في تحطيم الأعداء الألداء للمخطط اليهودي: الدين والأخلاق والتقاليد... وكلٌ منهم بنى أفكاره العلمية على أساس النظرية الدارونية من هنا أو من هناك".[١]

ليس هذا فحسب، بل إن حقيقة التأثر بالدارونية –كما يذكر د. حسن - تُظهر لنا بعض المعاني خلف مقولات فلسفية اشتهرت في القرن العشرين، مثل مقولة نيتشه عن "موت الإله"، وكأننا نرجع إلى عهد الديانات الوثنية الإغريقية التي تعرف تصارع الآلهة وموتهم، وكأنهُ يضع الحد النهائي للدين في الفكر العلماني.[٢]

وهكذا يعرفُ كلُ باطلٍ وفاسد بما يحويهِ من مخالفة ومناقضة ومضادة للدين القويم والثوابت الشرعية المنزلة من الله تعالى على أنبياءه ورسله الكِرام –مهما أُلبِسَ ثوب العلم زوراً وكذباً!-. تلك الحقائق الإلهية التي يمثلها دين الإسلام اليوم دون غيرِهِ من الأديان.

٣/ شُبهة التطوريين:

وهذه الشُبهة جاءت على لسان أستاذ أميركي على إثر اعتراض كاتبٍ من ذات الجنسيةِ عليه لثنائه على دارون –رغم إلحاده وإنكارِهِ للوحي-، فقال: " .. الله واحد، وهو المهبط الوحي والخالق الطبيعة، أيُناقضُ قوله عمله، أيُخشى من عملِهِ على قولِه"؟!.[٣]

فهو يقول بأن دارون لم يزد على أن اكتشف ما في الطبيعة من نشأةِ الأحياء وترقّيها، والله تعالى هو خالق الطبيعة وهو المهبط الوحي المتحدث عن قصة النشأة أو الخلق، ومادام كذلك فنظرية التطور ليست إلا واجهةً مُقابلة للوحي وبالتالي تكتسب نفس صحة الوحي وموثوقيته نظراً لاتحاد مصدرهما وهو الله تعالى!.

وسيرد الرد على هذِهِ الشُبهة وتفنيدها، ولكن قبل ذلك نورد رد المؤلف حفظهُ الله، حيثُ يقول: "نعلمُ علم اليقين أن الحق واحد، وأن ما في الطبيعة من خلقِ اللهِ سُبحانهُ لا يتعارض مع الوحي، فهذا كلامُهُ وهذا خلقُهُ، ولكن هناك فرق بين الطبيعة ذاتها وما فيها من سنن وآيات كونية، وبين ما يُعلنهُ العلماء من نظريات وقوانين كشفوها، وعندما تُوضع تلك المقابلة بما تعنيهِ من مساواة بين ما في الوحي وما في مكتشفات علماء

[١] مذاهب فكرية معاصرة. ص١٠٠

[٢] النظريات العلمية الحديثة، ص٢١٤

[٣] المرجع السابق، ص٦٠٧

الطبيعة فهي مقابلة ظالمة وباطلة، فكيف تُقام بين الوحي الحق وبين ظنيَّات البشر وجهودهم بما يعتريها من نقصٍ وضعف وأهواء".[١]

فهذه الشُبهة التي انطلت على البعض لا تخفى على مُتأملٍ ذي بصيرةٍ صحيحة، لأن الطبيعة شيء والأقيسة والأدوات البشرية المستخدمة لاكتشافها شيءٌ آخر، كما أن تلك العقول التي نظَّرت تلك النظريات وابتدعت تلك الأحكام والفَرَضيات إلهية الخلق، لكن مشاربها تختلف تبعاً لاختلاف أهواءِ أصحابها، فلا يمكن أن يقول قائل بأن كل ما يصدر عن العقل البشري صحيح لأن خالقه الله تعالى!، هذا لا يستقيمُ في منطق العقل البتة!، وإلا لما وقع الاختلاف بين الناس والجور والعدوان في الأرض، ولما احتاج الناسُ إلى مصدر إلهي كي يهديهم ولتعدد الحق بتعدد الآراء كتعددِ الباطل!، ولوازم كثيرة تترتّبُ على هذه المقالة. هذا من جانب.

ومن جانبٍ آخر نتساءلُ أيضاً: أيُّ طبيعةٍ يقصد؟!، هل الباقية على أصلِ خلقتها التي أوجدها الله تعالى لم تتغيَّر، أم التي عبثت بها يدُ الإنسان فأفسدتها أيما إفساد؟!، فعلى سبيلِ المثال قد تتغيَّرُ نتائج بعض أبحاث علومِ البحار تبعاً لتغيّر البُنية التركيبية الحاضرة عما كانت عليه سابقاً، فهنا لا يمكن أن نقول بأن خالق الطبيعة واحد لذا ظهرت لدينا نتيجتان على سبيل المثال!؛ الأولى تختلف جوهرياً عن الأخرى، لأن البحر في السابق كان على أصلِ خِلقتهِ التي أوجدهُ الله عليها، بينما اليوم قد اختلف كثيراً جرَّاء عبث الإنسان إذ لوَّثتهُ كيماويات المصانع والمهملات النفطية فاختلفت تبعاً لذلك النتيجة!. ثم النتيجتان بعد هذا كُلّهِ صحيحتان لأن خالق البحر واحد!!. هذا لا يقولُهُ عاقل.

وأما الوحي، فنتساءلُ أيضاً: أيَّ وحيٍ يقصد ذلك الأستاذ الأميركي؟!، إذ الوحي الحق صادقٌ ويقينيٌ بإطلاق، ولا يُمثِّلُهُ اليوم إلا الدين الإسلامي وتعاليمه، أما الأديان السابقة وإن كان أصلُها سماوي إلا أنها أقرب إلى الوضعية بما داخلها من التحريف، بل أكثرُ ما فيها تم إخفاؤه أو نسيانُهُ. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ الأنعام (٩١). وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ المائدة(١٣)، وقال عزوجل: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ المائدة(١٤).

وأما مسلك التطوريين المادي فبيّنٌ واضح لا يحتاج لتجليةٍ أكثر مما هو عليهِ من الإلحاد. فدارون نفسهُ يُصرّح أنهُ لا يعترفُ بنزولِ وحيٍ على الإطلاق، يقول: "أما من جهتي فأنا لا أعتقدُ بأنهُ هبط وحيٌ على الإطلاق"[٢]،

[١] المرجع السابق، ص٦٠٩
[٢] المرجع السابق، ص٦٠٨

بل إن التطوريين أنفسهم يعلنون خلو نظريتهم تلك من أي مستندٍ علمي، يقول الأستاذ وحيد خان: "هذه النظرية التي أجمع العلماء على صحتها، هل لاحظها أحدهم أو جرَّبها في معمله؟ .. الجواب: لا!، فذلك ضربٌ من المستحيل ... وهي على ما أكَّدهُ أحد التطوريين في كلمته: "وسيلة منطقية" لتفسير مظاهر الخلق، وليست بملاحظة واقعية".[(١)]

ثم يذكر أن هذا السبب هو الذي جَعَل أحد التطوريين المتحمسين يُسلِّم بأنها ليست بملاحظة ولا تجربة وإنما هي عقيدة، حيث قال: "إن نظرية الارتقاء "عقيدة أساسية" في المذهب العقلي".[(٢)]

ولئن كان داروين مادياً، فإن بعض المؤمنين بالكتاب المقدَّس سيجدون في نظريته تلك واجهة علمية لفكرةِ شعب الله المختار، بصفتها تجعل صلاحية البقاء للشعوب المتحضرة والأقوى. هذه الفكرة التي ترجمتها مخططاتٌ كثيرة تقودها الصهيونية العالمية اليوم والماسونية على مختلف الأصعِدة.

لكن من الموضوعية أن نذكر شيئاً من مواقف الرفض لهذه النظرية في الغرب، بصفتها حربٌ على البقيةِ الباقية من الإيمان والأخلاق في المجتمعات الغربية!. يقول د. حسن الأسمري: "رغم موقف الكنيسة وأهلها في هذه المرحلة إلا أنها ثارت ثائرتهم مع إعلان داروين لنظريته، لاسيما مع ما تحويهِ من ماديَّةٍ صلبة لا مثيل لها ومن إنكار قطعي للقيم والأخلاق، فهو لا يجعل فرقاً كبيراً بين الإنسان والحيوان. لقد صدمتها النظرية أوَّل الأمر وأعلنت كفر داروين وزندقته"[(٣)]، وقد عُرض مذهب دارون العلمي على المجمع السنوي لكنيسة المشيخة في أميركا، فأجمع أهل ذلك المجمع على رفضهِ بصوتٍ واحد وهم خمس مائة من القُسوس و الأساتيذ والكُتَّاب وطلبة العلم وغيرهم، ولم يكن منهم مؤيد.[(٤)]

وعلى أيةِ حال فقد كان لتلك النظرية وزنها يوماً من الدهر للمصالح التي أسهمتْ في تعزيزها أو تأسيسها ابتداء!، وهي وإن كان قد رُفضَ فحواها في تطور الكائنات وارتقاءها، إلا أن مبدأ الانتخاب الطبيعي لايزالُ مأخوذاً به في الحضارةِ المادية اليوم، والواقع أدلُّ شاهداً وأصدقُ برهان!.

والآن لسنا بصددِ الرد على عقيدة العقل تلك التي لم تثبُت يوماً!، وإنما بصدد التداعيات التي أحدثتها بنزعِ ثقة بعض أبناء المسلمين في نصوص الوحيين بزعم العِلمية!، مما تسبب في إساءةِ التعاطي مع النصوص الشرعية وإساءة الأدب مع رب العالمين سبحانهُ وتعالى، شعرَ بذلك المرء أو لم يشعر!. وهذا ما سيتضحُ معنا خلال الصفحات القادمة.

---

(١) الإسلام يتحدَّى، ص٤٥

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) النظريات العلمية الحديثة، ص٢١٣

(٤) المرجع السابق، ص٦٠٨

وإن كان اللهُ قد عاب على أهلِ الكتاب تحريف كتبهم، فهل التأويل الخارج عن مفهومِ السلف الصالح وما كان عليه النبي ﷺ إلا وجهاً آخر من وجوه التحريف المُغيِّرِ للمعاني؟!. وإلا فما الفرق بين تأويلِ آيات خلق آدم عليه السلام و آيات خلق الإنسان، وتأويلات الباطنية والقرامطة؟!!. ليس من فرقٍ في الحقيقة إلا في درجة التحريف وشِدَّتِه وبواعثه، لا صورته وشكلهِ الظاهر الذي به قلبُ المعاني!.

الفصل الأول

خلق آدم عليه السلام في رأي مُحَمَّد عبده

وفيه:

أولاً: نبذة عن الشيخ مُحَمَّد عبده.

ثانياً: منهجه في التفسير.

ثالثاً: رأيه في خلق آدم عليه السلام والرد عليه.

رابعاً: سبب الخلل.

خامساً: التأثيرات الفكرية على الشيخ مُحَمَّد عبده في رأيه في خلق آدم عليه السلام.

الفصل الأول

خلق آدم عليه السلام في رأي محمد عبده

أولاً: نبذة عن الشيخ محمد عبده:

هو مُحَمَّد بن عبده خير الله، من سكان قرية محلة نصر بمركز "شبرا خيت" من مديرية البحيرة. وُلد عام ١٢٦٥هـ. ونشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى، ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سِنِّه.[١]

يقول عن نفسه: "تعلمتُ القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلتُ إلى دار حافظ قرآن قرأتُ عليه وحدي جميع القرآن أول مرة، ثم أعدتُ القراءة حتى أتممتُ حفظهُ جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتبٍ آخر ليقرؤا القرآن عند هذا الحافظ، ظناً منهم أن نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ. بعد ذلك حملني والدي إلى طنطا حيثُ كان أخي لأمي الشيخ مجاهد -رحمهُ الله- لأجوّدِ القرآن في المسجد الأحمدي لشهرة قرَّائهِ بفنون التجويد، وكان ذلك سنة ١٢٧٩هـ". كما تأثر بوالدهِ تأثراً كبيراً.[٢]

يُلقب بيته ببيت التركمان، ويقال أن نسبهُ ينتهي إلى جدٍ تُركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدَّةً من الزمن. وأما بيت والدته فيُعرف ببيت عثمان وهو من بلدة تُسمى "حصة شبشير"؛ فتزوجها والدهُ وأنجب ثلاثة من الأبناء؛ مُحَمَّد عبده وأختان، ولم يُولد لوالده من أمهِ غيرُه من البنين. ويُقال بأن بيت والدته عربي قرشي وأنهُ يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.[٣]

حثَّهُ والدهُ للسفر إلى طنطا لطلب العلم، فغادر بلدته متوجهاً إليها، ثم غيَّر وجهتهُ إلى "كنيسة أورين"، فالتقى بالشيخ درويش خضر، واطلع على بعض رسائل الصوفية التي كانت تحوي شيئاً من علومهم وكلامهم وآدابهم.[٤]

---

[١] تاريخ الأستاذ الإمام، للسيد مُحَمَّد رشيد رضا، ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، دار الفضيلة، القاهرة. جـ١، ص٢٠،١٤،١٣

[٢] المرجع السابق، جـ١، ص٢٠

[٣] المرجع السابق، جـ١، ص١٦

[٤] المرجع السابق، جـ١، ص٢٢

يقول مبيناً تأثرهُ الشديد نتيجة اتصاله بالشيخ درويش: "فلم تمضِ علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالمٍ آخر غير الذي كنتُ أعهد، واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبقَ لي إلا همٌ واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجَّهتُ إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعةِ أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ... هو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا".[١]

ثم انتقل إلى الأزهر ودرس بعض علوم الفلسفة والمنطق على يد أحد مشائخ الأزهر آنذاك ويُدعى بالشيخ حسن الطويل إلى أن كانت سنة ١٢٨٦م، وزار مصر جمالُ الدين الأفغاني، فلازمهُ مُحَمَّد عبده منذُ سنة ١٢٨٧م، وأخذ يتلقى عنهُ بعض العلوم الرياضية والحكمية الفلسفية والكلامية. كما نتج عن اتصالهِ بجمال الدين الأفغاني أن أخذ على عاتقهِ الترويج لفكرةِ الإصلاح والتجديد.[٢]

وفي عام ١٢٩٤هـ نال شهادة العالمية بالدرجة الثانية، ثم صار مدرساً من مدرسي الأزهر، وأخذ يقرأ العلوم الكلامية والمنطقية. واستمر في طلب العلم على ثلاثة أدوار؛ الأولى على طريقة الأزهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير، ثم توجَّهت نفسه إلى الاستفادة من علوم شيخهِ جمال الدين الأفغاني، فقرأ لهُ علوماً أخرى وهذا هو الدور الثاني حيثُ لازم أستاذهُ جمال الدين. ثم الدور الثالث وكان عبارة عن النظر في علوم الإفرنج، فقرأ كثيراً مما تُرجم بالفرنسية ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوماً من الأيام. وكانت عنايتُهُ بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم.[٣]

ثم أخذ في الإنشاء وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية والخطابة بتشجيعٍ من أستاذهِ جمال الدين الأفغاني، وأصدرا الجريدة المسماة بـ "العُروة الوثقى". كما تدرج في المناصب المختلفة، فتولى سكرتارية المجلس الأعلى لوزارة المعارف، كما عُيِّن عضواً في مجلس إدارة الأزهر ومجلس الأوقاف الأعلى ومجلس شورى القوانين.[٤]

ومما هو معلوم أن الأستاذ الإمام قد عاش حياته الأولى بين نزعات الصوفية وتيار المتكلمين من الفلاسفة وأهل المنطق، مما جعله يستقل في تفكيره ويرخي لعقله العنان ويجعله الحكم على كثير من الأمور، حتى على بعض

---

[١] المرجع السابق، جـ١، ص٢٣

[٢] المرجع السابق، جـ١، ص١٢، ٢٤- ٢٥

[٣] المرجع السابق، جـ١، ص١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

[٤] المرجع السابق، جـ١، ص١٤، ٢٦

النصوص القرآنية التي وضحها الوحي مما ترك أثراً سلبياً على كثير من قضايا التفسير عنده. ومن أبرز تلاميذه الأستاذ مُحَمَّد رشيد رضا، الذي دوَّن بعض تفسيراته في كتابه الشهير بتفسير "المنار".[1]

ثانياً: منهجه في التفسير:

يُصنَّف الأستاذ مُحَمَّد عبده ضمن أوائلِ مفسري المدرسة العقلية الحديثة وأبرز روادها. والتي استندت إلى رأي العقل وأحكامهِ تارة، ونتائج البحث العلمي الحديث تارة أخرى، فحاولت التوفيق والجمع بينهما في كثيرٍ من الأحيان. يقول د. فهد الرومي: "لئن كان جمال الدين الأفغاني هو المؤسس لهذه المدرسة، فإن مُحَمَّد عبده هو الذي أقام صروحها ودعا إليها ونشرها بين الناس فكان بحق هو صاحبها وهو أستاذها وإمامها الأول، فكان له من الأثر فيها مالم يكن لأستاذه السيد جمال الدين".[2]

وقد دعا مُحَمَّد عبده إلى الاجتهاد ونبذ التقليد وإطراحه ناسباً ذلك إلى الإسلام فيقول: "انحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر"، ويقول أيضاً بأن الإسلام "صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثهُ عنهم الأبناء، وسجَّل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين".[3]

وليس هذا فحسب؛ بل إن الإسلام عندهُ يعتمد على الدليل العقلي ويُحتجُ به لا بالمعجزات: "فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيءٍ سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري؛ فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يُخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية"(!!).[4]

كما أن الإيمان بالله لا يؤخذ من الرسول ولا من الكتاب، ولا يصح أخذهُ منهما بل من العقل، يقول: "وقد اتفق المسلمون إلا قليلاً ممن لا يُعتدُ برأيه فيهم- على أن الاعتقاد بالله مُقدَّم على الاعتقاد بالنبوات، وأنهُ لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة، فإنهُ لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزلهُ الله إلا إذا صدَّقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنهُ يجوز أن ينزل كتاباً ويرسل رسولا".[5]

---

[1] أنظر: الإتجاه العقلي السلبي في تفسير المنار للأستاذ ماجد صبحي عبدالنبي الرنتيسي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير،١٤٢٢هـ، الجامعة الإسلامية غزة. ص ٥٧ ، وَ ٦٢.

[2] منهج المدرسة العقلية الحديثة، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، ط٢، ١٤٠٣هـ، طُبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية. جـ١، ص١٢٤

[3] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٨

[4] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٧

[5] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٨

وأما إذا تعارض الدليل العقلي والنقلي فالأصل عند مُحَمَّد عبده تقديم الدليل العقلي، يقول: "الأصل الثاني للإسلام؛ تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ... إتفق أهلُ الملة الإسلامية -إلا قليلاً ممن لا يُنظر إليه- على أنهُ إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما دلَّ عليه العقل، وبقي في النقل طريقان؛ طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناهُ مع ما أثبتهُ العقل"[1]، على رغم إيمانه بأن "العقل وحدهُ لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي"(!).[2]

ويستطرد: "وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، مُهِّدَت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيلهِ جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد".[3]

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ مُحَمَّد عبدهُ قد تناقض في مسلكهِ ذلك؛ ففي الوقت الذي يرى فيه تقديم العقل على النقل نجدهُ يؤمن بأن القرآن هادٍ ومرشد إلى يوم القيامة وأن معانيه عامة وشاملة؛ فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصين، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيرهُ وإنذارهُ بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب.[4]

يقول "خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يُوجِّه الخطاب إليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أُنزل القرآن لهدايته، يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فهل يُعقل أنهُ يرضى منا بألا نفهم قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظرٍ نظر فيه. لم يأتنا من الله وحيٌ بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا؟. كلا أنه يجب على كل واحدٍ من الناس أن يفهم آيات الكتاب بحسب طاقته".[5]

وكما مرَّ معنا فآراؤه جاءت نتيجة دعوته إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، واعتبارهُ من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه، وأنهُ على هذا الوجه يُعدُّ صديقاً للعلم.[6]

وقد كان لهذا المنهج أثرهُ في حياة السيد الإمام في أعمالهِ وأقوالهِ، فلم يقبل الحالة التي كان عليها الأزهر لأنها قائمة على التقليد، فدعا إلى الإصلاح والتجديد.[7]

---

[1] المرجع السابق، جـ١، ص٢٨٧
[2] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٧
[3] المرجع السابق، جـ١، ص٢٨٧
[4] المرجع السابق، جـ١، ص٢٤٢
[5] المرجع السابق، جـ١، ص٢٤٢
[6] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٦
[7] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٨

وهي وإن كان يُحمدُ لها بعض مسالكها الإصلاحية، إلا أن هناك الكثير مما يُؤخذ عليها كذلك، لاسيما توسعها العقلي في التفسير. يقول صاحب كتاب "التفسير والمفسرون" -بعد ذكر محاسنها-: "أما ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب. استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن".[1]

---

[1] الدكتور محمّد حسين الذهبي، د.ط ، د.ت، مكتبة وهبة، القاهرة . جـ٢، ص٤٠٢

ثالثاً: رأيه في خلق آدم (عليه السلام) والرد عليه:

لم يكن للشيخ محمد عبده رأيٌ صريح في خلقِ آدم (عليه السلام)، وإنما يتسعُ تفسيرهُ لاحتمالاتٍ وآراءٍ عدة يمكن أن تجد مدخلاً من خلالِ تأويلاته. وربما يكونُ السبب وراء عدم وجودِ رأيٍ صريحٍ، أو المزيد من تأويلاته في خلقِ آدم (عليه السلام)، أن الشيخَ لم يُتمّ تفسيرَه وإنما وصلَ تحريرُ تلميذه عنه إلى الآية السادسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾.

وبذلك فُسح المجال لمختلف نظريات خلق الإنسان، لأن تجد قبولاً لدى البعض لما أثارهُ محمد عبده من الشبهات حول بعضِ نصوص خلق آدم (عليه السلام)، والتي أبرزها عدم إفادة النص القرآني القطعية في الدلالة على ذلك.[1]

وسنتناولُ رأيهُ عرضاً وإيضاحاً ورداً؛ من خلالِ آيتين كريمتين من نصوص الوحي الشريف، وهما قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة(٣٠)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾النساء(١).

وقبل أن نشرع في سردِ رأيه في خلق آدم (عليه السلام)، من المهم أن نبين أن محمد عبده ممن يفرقون بين لفظتي "بشر" وَ "إنسان" كما هو الحال لدى من نحى ذلك المنحى؛ -أمثال عبد الصبور شاهين[2]- . وسيتم إيضاح ذلك والرد عليه في موضعه من هذه الفصل إن شاء الله تعالى.

- **تأويل محمد عبده لنصوص خلق آدم (عليه السلام):**

أولاً: تفسيرهُ لقولِ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾:

يقول -تعقيباً على تفسير المفسرين لكلمة "خليفة"- :"وإذا صح هذا القول فليسَ آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات والمادة، وتخالفها في بعضِ الأخلاق والسجايا".[3]

---

[1] أنظر: تفسير القرآن المنار للشيخ محمد رضا، تحقيق وتعليق: فؤاد سراج عبد الغفار، د.ط، د.ت، المكتبة التوفيقية، القاهرة. جـ٤، ص٢٧٩

[2] سيأتي التعريف به في الفصل الذي يتناولُ رأيهُ في خلق آدم (عليه السلام).

[3] المرجع السابق، جـ١ ،ص٢٦٣

وإذا تناولنا كلام الشيخ عبده بالتحليل أمكن أن نقول: **وأما الرأي بأن آدم ﷺ ليس أول الصنف العاقل من الحيوان** فهذا حقٌ لا غبار عليه، والقرآن الكريم دلَّ على ذلك. **وأما رأيهُ بأن الإنسان طائفة جديدة تماثل الطائفة البائدة في الذات والمادة وتخالفها في بعضِ الأخلاق والسجايا**، فهذا القول إذا تأملناه نجده يؤكد فكرة التطور البشري أو الإنساني.[(١)]

بمعنى أن البشرية أو الإنسانية كانت في طورها الأول غير عاقلة ولا مُدركة، بل أشبه ما تكون بمرحلة الطفولة. ثم بعد ذلك تدرجت في سلك التهذيب والتشذيب حتى وصلت إلى كمالها في عصرنا الحديث. لأن اعتقاد اتحاد أو تماثل الذات والمادة عدا السجايا والأخلاق، يدع المجال فسيحاً للفهم بأن ثمة تشابهاً كبيراً في الهيئة بين تلك الطوائف والخلق الإنساني. وإذا كان الجميع من طينٍ ويتمتعون بهيئةٍ واحدة، فلا مزية لآدم ﷺ بكونهِ أبا البشر يرجعون في أصلهم وأصل خلقتهِ إليه. وإنما الفرقُ بين الطائفتين؛ أن آدم ﷺ، قد بلغَ درجةً من الكمالِ بالعلم وإسجاد الملائكة له، وهذا ليس إلا تعبيراً عن طورِ البشرية الكاملة.

ومما يؤيدُ هذا الإيضاح، قول مُحَّد عبده نفسه في رسالة التوحيد، فقد كتب تحت عنوان (ترقي الأديان بترقي الإنسان) ما نصه: "جاءت أديان والناس من فهمِ مصالحهم العامة بل والخاصة، في طورٍ أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود،-إلى أن قال- كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسانِ أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده".[(٢)]

وفي موضعٍ آخر يقول:" ...فاستجمع للإنسان عند بلوغِ رشده كما ذكرنا، حرية الفكر واستقلال العقل في النظر، ما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ...إلخ".[(٣)]

كما ورد في معرضِ استدلاله بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ نوح(١٤). ورد عنه قوله: "فحاصلُ القول: أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة؛ .. –وعقَّب المحقق في حاشيته بقوله-: المتبادر في الآية هو خلق الأفراد من سلالةٍ من طين .. وما ذكرهُ الأستاذ أطوار لنوع الإنسان".[(٤)]

إذن؛ "فالإنسان" عند مُحَّد عبده يعبِّر عن خلقٍ متحدٍ ذاتاً ومادة، ومختلفٍ سجيةً وطبعاً، وأن سجاياهُ وطبعه مضيا نحو الاكتمال والصلاح فبلغ أشده وأصبح طوراً راقياً من الإنسانيةِ بما حصَّلهُ من الرشد الذي لم يسبق في أسلافه. –ويُفهم من هذا أن الأطوار السابقة قد كانت أطواراً همجية لم تزل ترتقي من طورِ السذاجةِ إلى

---

(١) سيأتي معنا ذلك بصورة أكثر وضوحاً في الفصلِ الخاص برأي عبد الصبور شاهين في خلق آدم ﷺ، حيثُ حاول التنظير والاستدلال بالقرآن الكريم لإثباتِ هذه الفكرة.

(٢) أعدها للنشر والطبع وقام بتحقيقها: محمود أبو ريه، ط٣، د.ت، دار المعارف، مصر. ص١٥٨-١٦٠

(٣) رسالة التوحيد، ص١٦٩

(٤) تفسير المنار، جـ١، ص٢٨٣

الرشد، والأديانُ تباعاً لها في ذلك!-. يقول واصفاً ذلك:" .. فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان، أو يُرقى إليه بسلم البرهان، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن".[1]

ولعل هذا الرأي يزداد وضوحاً، عندما نعرِض لتفسيره للآية الأولى من سورة النساء:

ثانياً: تفسيرهُ لقولِ الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء﴾:

يتضح رأي الشيخ مُحَمَّد عبده في خلق آدم الطَّيِّلا بجلاء، عند تفسيره لمطلعِ سورة النساء، وهو قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾ النساء(١). حيثُ يقول:

"ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر"[2]، و أدلته فيما ذهب إليه:

١/ التنكير في قوله تعالى: ﴿ رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾؛ فيقول: "والقرينة على أنهُ ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم، قوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾، بالتنكير: وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبث منهما جميع الرجال والنساء".[3]

ويقول بموضعٍ آخر: "نكَّر رجالاً ونساءً وأكّد هذا بقوله -كثيراً-، إشارة إلى كثرةِ الأنواع وإلى أنه ليس المراد بالتثنية في قولِهِ «منها» آدم وحواء، بل كل زوجين".[4]

والذي خَلَص به إلى القول بنظريةِ كثرة الأنواع، هو ما جنح إليه من تأويل «النفس» في الآية الكريمة، حيثُ قال: "هذا وإن المتبادر إلى الذهن بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلَّمة، أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات، أي خلقكم من جنسٍ واحد وحقيقة واحدة، ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية، أو بدئت بعدةِ أصول انبثت منها عدة أصناف كما عليه بعض

---

[1] رسالة التوحيد، ص١٥٨

[2] تفسير المنار ،جـ٤، ص٢٧٧

[3] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٧

[4] المرجع السابق، جـ٤ ،ص٢٨٤

الباحثين، ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق خلقاً مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر"[١]. وعلى هذا المفهوم فـ"النفس الواحدة عبارة عن الجنس والحقيقة الجامعة".[٢]

ويؤكد تأويله للنفس بأنها الحقيقة الجامعة بقوله: ".. فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر، سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك. وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنهم من نفسٍ واحدة لأنهُ مقدمة للكلام في حقوقِ الأيتام والأرحام، وليس كلاماً مستقلاً لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل، لأن هذا ليس من مقاصد الدين".[٣]

ومن أدلته أيضاً:

٢/ شمولية الخطاب لأهل الدعوة: ويقصد بذلك أن خطاب القرآن الكريم شامل للناس جميعاً باعتباره كتاب هداية ودعوة إلى دين الإسلام، فكيف يستقيم أن ينضوي مفهومٌ أو معنىً واحد تحت هذا الخطاب، مع تعدد فهوم البشر ومشاربهم؟. فيقول مستنكراً:

"وكيف ينص على نفسٍ معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب، وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم، فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما. وهذا النسب المشهور عند ذريةِ نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين، فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخاً متصلاً بآدم وحددوا له زمناً قريباً. وأهل الصين ينسبون البشر إلى أبٍ آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمنٍ أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون. والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين. ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود".[٤]

ويستطرد لإيضاح الفكرة: "وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم فلاشك أن كل أمةٍ تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أباً يحملون النفس على ما يعتقدون، والأصناف الكبرى هي؛ الأبيض القوقاسي[٥]، والأصفر المغولي، .. إلخ".[٦]

---

[١] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٨٠
[٢] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٨٤
[٣] المرجع السابق، جـ٤ ،ص٢٨٠
[٤] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٧-٢٧٨
[٥] لعله يقصد "القوقازي".
[٦] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٧

ومن أدلته كذلك:

٣/ عدم قطعية دلالة النص القرآني: وقد أوضح تلميذه رضا هذه النقطة بقول: "للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان: .. وثانيهما أنه ليس في القرآن نصٌ أصوليٌ قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم، والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة، المنتصب القامة الذي يُطلق عليه لفظ الإنسان. وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنفٍ منهم".[١]

و يعقّب تلميذه رضا على سداد هذا الرأي بقوله: "ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام، ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا، لأنه لا يقول إن القرآن ينفي هذا الاعتقاد. وإنما يقول إنه لا يثبته إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل".[٢]

ليس هذا فحسب ولكن نجد مُحَمَّد عبده يخالف دلالات الأدلة الشرعية ويقرر معنىً رمزياً فيقول: "وما حكاهُ الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذة عليه، وغاية ما علمناه من حكمته أنهُ كان سبباً لعمارة الأرض ببني آدم، كأن النهي والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام، أو مظهران من مظاهر النوع الإنساني في الوجود، والله أعلم، ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابةِ دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور".[٣]

٤/ نظريات الخلق العلمية: فقد اعتقد أن القول بأن آدم عليه السلام أبو البشر، يتعارض وبعض نظريات الخلق. حيثُ ترى هذه الأخيرة المنسوبة إلى العلم بأن آدم عليه السلام ليس أباً لجميع البشر. يقول رشيد رضا مورداً رأي أستاذه: "للأستاذ في هذا المقام رأيان؛ أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية والتاريخية له".[٤]

ويقول موضحاً في موضعٍ آخر: "وإنما بيَّن أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات، من أن للبشر عدة أصول ومن كونِ آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الأرض قديماً وحديثاً –كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه- ..".[٥]

---

[١] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٩

[٢] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٩

[٣] رسالة التوحيد، ص٩٠-٩١

[٤] المرجع السابق، حـ٤، ص٢٧٩

[٥] المرجع السابق، حـ٤، ص٢٧٩

وعليه؛ فلا دليل قاطعاً يُثبت أن النفس المراد بها آدم الطَّيِّلا، أو أنهُ هو أبو البشر أو أصل الإنسانية، وما اعتمد عليه جمهور الأمة من الرأي إنما أخذوه من المسألة المسلَّمة عندهم؛ أن آدم هو الإنسان الأول. في حين أنه لا فرق بين أن يكون آدم أو القرد أو غيرهما هو أصلُ الإنسان مادامت الإنسانية –وهي معنى النفس المذكورة في الآية الكريمة- هي جامع الوحدة ومناطها.[١]

كما نالت نظرية الانتخاب الطبيعي حظاً من القبول عند محمد عبده بما ذهب إليه في تفسيره لهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة (٢٥١)، حيثُ قال: "تؤيد السنة التي يُعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي أو بقاء الأمثل، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله، فإنهُ تعالى يقول: إن ما فطر الله عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض، أي هو سبب بقاء الحق والصلاح".[٢]

- **مناقشة رأي محمد عبده:**

أولاً: ما ذهب إليه من معنى التنكير: فيُردُ عليه بأن النكرة لها في اللغة مدلولاتٍ عدة، منها؛ **«إرادة النوع والجنس[٣]»**، وهذا واضح من خلال آياتٍ عدة قررت هذه الحقيقة، -حقيقة التنوع والاختلاف-، كقولهِ تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ **وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ** ﴾ الروم (٢٢). كما أن من معاني التنكير أيضاً؛ **«التعظيم[٤]»**، وهذا معنىً يُستفادُ من سياق الآيات، فبثُّ الناسِ الكثير من نفسٍ واحدة، دليلُ قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته عزوجل. ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ **أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** ﴾ الروم (٢٠). ومعلومٌ أن **«الآية»** تأتي بمعنى العلامة[٥]، أي؛ "ومن آياته" الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[٦]. ومن معاني التنكير أيضاً؛ **«التكثير[٧]»**. وقد دلت القرينة على ذلك، وهي قوله تعالى ﴿كثيراً ﴾.

فالآية الكريمة قد اجتمع بها أكثر من مدلول للتنكير الوارد فيها وهو قوله تعالى: ﴿ رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾. وأما المعنى الذي أرادهُ المؤلف، -من أن ذلك دالٌ على تعدد الأنواع وليس المقصود آدم وحواء-، **فلا يصح؛ بل**

---

[١] أنظر: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٧٨-٢٨٠
[٢] المرجع السابق، جـ٢، ص٤٣٦
[٣] البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، د.ط، ١٤١٠هـ، دار المعرفة. جـ٤، ص٨٠
[٤] المرجع السابق، جـ٤، ص٨٠
[٥] المعجم الوسيط، مادة "أيَّا".
[٦] أنظر تفسير ابن كثير للآية.
[٧] البرهان في علوم القرآن، جـ٤، ص٨٠

بطلانه أظهر لدلالة النصوص الصحيحة التي قررت نسبة البشر جميعهم إلى آدم عليه السلام، كقوله ﷺ في حديث الشفاعة: "يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك – وقال بن عبيد: فيُلهمون لذلك – فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ قال: فيأتون آدم ﷺ، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا.."[١].

***وأما قوله: "وإن المتبادر إلى الذهن بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلَّمة"**؛ فلا مستند ولا مسوغ له، لأن التسليم بأبوة آدم عليه السلام للبشر ناشئٌ عن جوب التسليم للنصوص الثابتة عنه ﷺ، والتي هي إحدى ضرورات الدين الواجب الإيمان بها والتسليم لها، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر(٧).

فما آتانا الرسول ﷺ، قد يكونُ أمراً وقد يكونُ إخباراً، وجميعُ ذلك لابد من الأخذ به والتصديق له والعمل بموجبه. وقد أوردنا إخباره ﷺ في حديث الشفاعة الآنف الذكر.

***وأما تأويلهُ للنفس الواحدة بأنها "الجنس والحقيقة الجامعة":** فباطلٌ لا يصح على المعنى الذي ذهب إليه، لأن الله تعالى قرر في كتابه الكريم أن الحقيقة الجامعة –من حيثُ الخلق- لكلِ البشر هو آدم عليه السلام، والحقيقة الجامعة -من حيثُ الوحدة والألفة- لكلِ البشر هو دين الإسلام[٢]. فدليل الأول هي الآية التي نحن بصددها ونظيراتها، ودليل الثاني كقوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة (٢٢).

***وأما قوله "سواء كان أباهم آدم عليه السلام أو القرد":** فاعتقاد بطلانه مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، حيث أخبر سبحانه وتعالى في كتابه العظيم عن خلق آدم عليه السلام خلقاً مستقلاً، ودلَّت آياتٌ كريمات على تكريم هذا الخلق، بتعليمه الأسماء وإسجاد الملائكة له، وخلقه بيدي الرحمن سبحانه وتعالى قبل ذلك. كما دلت الأحاديث الثابتة مما قد مر معنا على أن أول الخلق الطيني هو آدم عليه السلام، ولذلك فالمعنى الذي يحاول المؤلف تقريره هاهنا «التسوية» ظاهر الفساد والبطلان.

---

[١] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، "باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها".

[٢] أورد هذا المعنى الثاني، الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي في كتابه "منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير"، واستدل بالآية الكريمة ذاتها. أنظر: جـ٢، ص٦١١.

***وأما عبارته بأن "مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل ليست من مقاصد الدين":** فالعبارةُ حقٌ في جملتها. لكن يُردُ عليها بأن معرفة أصل الخلق ونسبتهم إلى آدم عليه السلام ليس من تفصيلات التكوين، بل مما هو من الأهمية بمكان تماماً كمعرفةِ المآل والمعاد وأمور الحساب والثواب والعقاب. فلأهمية معرفتها ذكرها الله تعالى في كتابه، ليحصل للمؤمنين العلم الحق في ذلك بدلاً من تخرصات المتخرصين من أهل الفلسفةِ وخِلافهم. وقد بيَّنتهُ النصوص الثابتة بما لا يدعُ مجالاً للحيرة أو الشك والحمد لله رب العالمين.

وفي الجملة، فإن الآية قررت أصل البشر وهو المراد «بالنفس الواحدة» التي هي آدم عليه السلام، ومن تأمل القرآن العظيم لم يجد بين دفتيه إطلاق لفظ **«النفس»** على غير العاقل البتة، وهذا استدلالٌ آخر يبطلُ به تأويل النفس بأنها الحقيقة الجامعة التي مناطها الإنسانية سواء كان أباهم آدم أو القرد!.

كما يبطل به الاستدلال بالسياق، -وأن المراد تذكير الناس بأنهم من نفسٍ واحدة لأنهُ مقدمة للكلام في حقوقِ الأيتام والأرحام، وليس كلاماً مستقلاً لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل-. فليس في سورة النساء من مفتتحها إلى منتهاها حديثٌ عن القرد أو شيءٌ من الكائنات التي يزعم البعض ترقي الإنسان منها!.

وأما الجامع الذي قررهُ القرآن بين جميع دواب الأرض من عاقلٍ وغير عاقل، فهو وصف الأممية، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام (٣٨).

ثانياً: نفيهُ أن تكون النفس الواحدة هي آدم عليه السلام لشمولية الخطاب لأهل الدعوة: فيقول "وكيف ينص على نفسٍ معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب، وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم"، وكذلك قوله: "وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم فلاشك أن كل أمةٍ تفهم منه ما تعتقده".[١]

ويُردُ عليه بالآتي:

***أما بالنسبة لكون خطاب القرآن الكريم شاملاً للناسِ جميعاً** فهذا حقٌ لا غبار عليه. وكذلك عبارته بأنا لا نُكلفُ تصديق اليهود، فهذا حقٌ بضوابطه التي أوضحها علماء الأمة.

[١] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٧-٢٧٨

***وأما قوله بأن اليهود هم من جعلوا للبشرية تاريخاً متصلاً إلى آدم عليه السلام**، فإن قَصد تفصيلاتُ ذلك مما داخلهُ الاختلاق والكذب والتحريف،- كذكر الأنساب وغرائب المشاهد والمواقف في ثناياها- فهذا حق. وأما إن كان يقصد القَصَص في عمومه فلقد جانب الصواب في ذلك، لأن السنة الشريفة بينت ذلك، وكم بين آدم ونوح عليهما السلام. كمثل قوله ﷺ: "كان بين نوحٍ وآدمَ عشرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحقِّ فاختلَفوا فبعث اللهُ النبيين مُبشِّرينَ ومُنذرِينَ".[١]

***وأما قوله بأن كل أمةٍ تفهم من الخطاب القرآني ما تعتقده وأن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولا سمعوا بهما:** فهذا قولٌ في غايةِ الفساد والبطلان، لأن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وأنباؤه وأخباره أصدق الأنباء والأخبار، وقد دخل على حياةِ القرشيين بمكة فأحدث فيها تغييراً وترقياً نحو مكارم الأخلاق ومحاسنها، كما علمهم مالم يكونوا يعلمون عن الله ربهم سبحانه وتعالى ووجوب عبادته وتوحيده[٢]، وكذلك عن أمورٍ أخرى كالمعاد والحساب واليوم الآخر والثواب والعقاب وأصل الخلق البشري وغير ذلك. فصدقوا به واقتدوا واقتفوا أثره واهتدوا بهدايته نابذين ما كانوا عليه من الجاهلية والمعتقدات الخاطئة وكل ما لا يصح. وهذا هو الأصل الواجب على من رضي بالله رباً و بشِرعة الإسلامِ منهاجاً و رسول الله نبياً هادياً مبشراً ونذيرا.

أما القول بأن كلَ أمةٍ تفهم ما تعتقده، فهاهنا ترد أسئلةٌ واستفساراتٍ عدة أهمها وعلى رأسها: ما الفائدة من الخطاب القرآني لمن يتلقاه إن لم يصحح معتقداته الخاطئة؟!. وكيف يكونُ التسليم لدين الإسلام، والإسلام هو الاستسلام لله سبحانه وتعالى، والداخلُ فيه يتشبثُ بقناعته ومعتقده الخاطئ بدلاً من أن يقبل هداية الله ووحي السماء الذي يقصُّ عليه وعلى الناس أجمع، أحسن القصص وأصدق الأنباء؟!. لا ريب أن ذلك إن حدث فهو خللٌ في الإيمان.

يقول الله سبحانه وتعالى -تأكيداً على هيمنة الكتاب العزيز وأن أنباءهُ هي الحق الذي لا مرية فيه، بل إن اتباعه والإيمان والتصديق به من سيما المؤمنين، حيثُ خُتمت الآيات بما يؤكدُ هذا المعنى- : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن

[١] أخرجه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، (٨٥٤/٧)

[٢] وهذا المعنى واضحٌ في محاورة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة، فكان مما قال: "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قال : فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به". رواه الإمام أحمد في مسنده؛ "مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين"، حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من طريق أم سلمة هند بنت أبي أمية، جـ١ ، حديث رقم (١٧٤٢). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف(١١١). ويقول عزوجل: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود(١٢٠)

ومما رُوي عن النبي ﷺ، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: "أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلا عليهم زمانا. فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فتلا عليهم رسول الله ﷺ زمانا. فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ الآية. كل ذلك يؤمرون بالقرآن"[1]. فالحق الذي لا لبس فيه هو ما قصّهُ القرآن الكريم، وبيَّنتهُ الأحاديث الشريفة الثابتة عن المصطفى ﷺ، سواء كان ذلك في قصة خلق آدم عليه السلام -مما نحن بصدده الآن- خصوصاً، أو أي حقائق أخرى عموماً فالمرجع فيها خبر الوحيين المعصومين.

ثالثاً: قوله بعدم قطعية النص القرآني على أن جميع البشر من ذريةِ آدم عليه السلام:

ويردُ عليه بالآتي:

***أما عدم وجود نص أصولي قاطع في نسبة البشر لآدم عليه السلام:** فغير مسلَّم، لأن الأحاديث الصحيحة الثابتة دلت على أبوة آدم عليه السلام للبشر، كحديثِ الشفاعة الذي مرَّ معنا سابقاً. وكما هو معلومُ أن السنة شارحة ومبيّنة لما جاء في القرآن الكريم، وقد أطبق جيل الصحابة رضوانُ الله عليهم على هذا المعنى وهو أبوة آدم عليه السلام للبشر، ولم يُعرف عنهم رأيٌ في ذلك غير هذا الرأي.

وأما مبتدعاتُ الرافضة في وجود الأوادم الكثيرة فمتأخرٌ عن عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ولعل أقدم رواياتهم في ذلك ما نُسب إلى جعفر الصادق رحمهُ الله – ولم يصح عنه ذلك -، وهو زمنٌ متأخر عن زمن الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضوان الله عليهم.

كما أن زعمهُ بأن من العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابةِ دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور[2]، قد جانب فيه الصواب وخرج قوله مخرج الدعوى. وقد أقمنا الدليل الشرعي والعقلي على مسألة خلق آدم وأبوَّتُه عليه السلام سابقاً. فادعاءُ عُسر ذلك واستحالته من البطلان بمكان!.

---

[1] أخرجهُ الهيثمي وصححه الألباني، برقم (١٤٦٢). وانظر: تفسير الطبري، جـ١٥، ص٥٥٢-٥٥٣

[2] رسالة التوحيد، ص٩٠-٩١

وأما قوله بأن ما حكاهُ الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة مما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذة عليه، و أن غاية ما علمناه من حكمته أنهُ كان سبباً لعمارة الأرض ببني آدم؛ فهذا معنىً صحيح ولا غُبار عليه، وليس هذا محل نقاشنا في هذا الباب. كما يجدرُ القول بأن معرفة ذلك ليس فيه كبير فائدة في الدين بزيادة الإيمان وحصول التقوى، لذا طواهُ الله ﷻ عنا. وبالتالي فالبحث خلفهُ ضربٌ من العَبث وإضاعة الوقت والجهد بلا طائل.

وأما تأويلُهُ ذلك بأنهُ رمزٌ إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهر من مظاهر النوع الإنساني في الوجود، فنوعٌ من المجازفة بتحريفِ اللفظ عن معناهُ الظاهر الذي فهمهُ السلف الصالح -رضوان الله عليهم- من مدرسة النبوة الشريفة منذ صدر الإسلام وإلى اليوم، وابتداعٌ فكري ضال مضل. فقد ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ: "هلاك أمتي في الكتاب و اللبن قالوا: يا رسول ما الكتاب و اللبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونهُ على غير ما أنزل الله ﷻ ... إلخ".[1]

وكذلك قبولهُ لنظريةِ الانتخاب الطبيعي - رغم مخالفتها لشواهد الواقع -، وكان حرياً به بدلاً من إطلاق القول تأييداً لنظرية الانتخاب عند الطبائعيين، أن يدخل تعديلاتٍ على ذلك المعنى ليكون الانتخاب بمعناهُ الشرعي في نصرة الحق وأهلهِ وإدالتهم على أهل الباطل.

فالبقاء لأهل الإيمان ضرورةً، وهم الذين يمثلون قوة الحق الآتي من عند الله ﷻ، لا مجرد قوى الطبيعة والمادة، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة (٢١)، وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ النور (٥٥).

وبما أن الغاية من خلق الإنس والجن هي عبادة الله وحده لا شريك له، فبالتأكيد سيكون البقاء لمن يحقق تلك الغاية، وهم أهلِ الحق وأولياءه من المؤمنين دون سواهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

[1] السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٢٧٧٨)

لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات (٥٦)، وقد تظافرت الأدلة الشرعية على أن انتهاء وجود أهل الإيمان في الأرض مؤذنٌ باختلالِ موازينِها وقيام الساعة، قال ﷺ: "لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يقالَ في الأرضِ: اللَّهُ، اللَّهُ".[١]

وكذلك في الحديث الآخر: "لا تقوم الساعةُ إلا على شِرارِ الخلقِ، هم شرٌّ من أهلِ الجاهليةِ، ... ثم يبعثُ اللهُ ريحًا كريحِ المِسكِ، مسُّها مسُّ الحريرِ، فلا تترك نفسًا في قلبِه مثقالُ حبَّةٍ من الايمانِ إلا قبضتْه، ثم يبقى شرارُ الناسِ، عليهم تقومُ الساعةُ".[٢]

يقول الأستاذ مُحَّد فتح الله: "والخلاصة أن الانتخاب الطبيعي – مثله في ذلك مثل ظاهرة التكيف – الذي كثيراً ما يُستند إليه من قبل التطوريين ليس إلا فرضية ضعيفة، وواهنة، ولا أساس لها من الصحة. فالمشاهدات العلمية لا ترينا – كما يظن الفكر التطوري – قيام البيئة أو الظروف المناخية برمي الأحياء الضعيفة خارج النوع، ولا قيام الأحياء القوية بامتلاك حق الحياة وإبادة الضعفاء، لذا فالأصوات المنعكسة في سماء الوجود ليست عبارة عن جلجلة أصوات الأقوياء، وأنين أصوات الضعفاء وهي تموت"!!.[٣]

***وأما تعريفهُ للبشر بأنهُ "الحيوان الناطق البادي البشرة، المنتصب القامة الذي يُطلق عليه لفظ الإنسان":** فهذا الحدُّ غير مسلَّم، لأن دلالة الآيات الكريمة الواردة يمكن الاستفادة من مجموعها للوصول لحدٍ أو تعريفٍ صحيح جامعٌ ومانع.

١/ ولنبدأ من قولهِ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ۞ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

[١] رواه مسلم في كتاب الإيمان، "باب ذهاب الإيمان آخر الزمان"، حديث رقم (١٤٨)

[٢] رواه مسلم في كتاب الإمارة، "باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم"، حديث رقم (١٩٢٤)

[٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، ص٧٠-٧١

وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ۞ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة (٣٠-٣٨)

فالبشر أو الإنسان هاهنا، وهو آدم عليه السلام، مخلوق عاقل مكرم بالعلم، بإسجاد الملائكة، بالإسكان في الجنة، بالتوبة والرحمة، بالهداية وإرسال الرسل. ومثيلات هذه الآيات، والتي تدلُ على نعوتِ الخلق الحسن المكرم والمستقل.

٢/ البشر أو الإنسان مستقل الخلقة وفي هذا تكريم: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾.

٣/ البشر أو الإنسان ناطق: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

٤/ البشر أو الإنسان مكرَّمٌ بالحواس والصورة الحسنة: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾.

وغير هذه الآيات التي دلت على حُسن الخِلقة من مبدئها، وبالمقابل آياتٌ كريمات تبين طِباع ذلك المخلوق المكرم إن هو أتبع نفسه هواها، فظلومٌ كفار، وجهولٌ وكنود، وجزوعٌ وقنوط، إلى غير ذلك.

لذا فليس له دلالةٌ في التعريف الذي ذهب إليه وإن كانت بعضُ جزئياته صحيحة لكنه غير مانع، فمثلاً يدخلُ فيه كلُ ذي بشرة!، وكلُ مخلوق منتصب القامة[1]. و الحقيقة الشرعية المستفادة من جملةِ الآيات الكريمة الواردة في خلق الإنسان أو البشر، أن البشر نوعٌ من الخلق مستقلُ الخِلقةِ من الطين، عاقلٌ مكرم بأنواعٍ من المكرمات الإلهية، أولهُ آدم عليه السلام وهو أبوهم وأصلهم الأول الذي وُجدوا وخلقوا منه ومن زوجهِ حواء عليهما السلام.

***وأما كلام تلميذه رضا بأن ما ذهب إليه استاذه يرد على الشبهات التي ترد في هذا المقام[2]:** فالحق أنهُ لا شُبهة هنالك أصلاً مادام أن النصوص الشرعية يُفسرُ بعضها بعضاً!، بل أن ما ذهب إليهِ محمد عبده من التأويل الجامح، قد فتح باب الشُبهةِ على مصراعيه، فصار بدلاً من أن يرُد عليها، مثيراً لها بصورة لا تخلُ من حدوثِ ريبةٍ لا قرار لها في نفوس العامة في حقيقة الأمر.

---

[1] هناك فصائل من القرود تسير منتصبة القامة، كبعض أنواع ما يُسمى بـ"الغوريلا"، وكذلك الجآن حينما يتشكلون في صورةٍ إنسية يدخلون في هذا التعريف رغم أن حقيقتهم ليست كذلك.

[2] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٩

وفي هذا يقولُ الدكتور فهد الرومي: "وبهذا أكَّد الشيخ أن آدم ليس أبا البشر ... وبهذا أضاء الشيخ عبده النور الأخضر لمن يريد أن يقول بنظريةِ داروين بأن يجعلَ تطبيقها على آباء البشر الآخرين عدا آدم عليه السلام".[1]

ونقولُ -تعقيباً- : حتى وإن جُعلت تطبيقاتها على آباءٍ آخرين، فإن خلق آدم عليه السلام لن يكون بمنأىً عن هذه اللوثة الفكرية والعقيدة المنحرفة في أصلِ البشر، مادام يشتركُ مع أولئك الآباء المزعومين في "الاسم، وسبق الخِلقة و الأبوة لسائر أفراد النوع". و ما داموا يشتركُون معه أيضاً – في طورٍ من أطوارهم- في بعضِ الصفات والسمات المعنوية. مما يتسببُ في معارضةِ النصوص الشرعية، أو مخالفتها بمختلف التأويلاتِ الباطلة التي قد تُفسدُ عقيدة المسلم لجحدهِ شيئاً من معلوماتِ الدين بالضرورة، أو تُهمة النصوص المعصومة -والعياذ بالله- لمجردِ نظرياتٍ لم تصح.

رابعاً: اعتماده على نظريات الخلق العلمية: يقول رشيد رضا مورداً رأي أستاذه: "للأستاذ في هذا المقام رأيان؛ أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية والتاريخية له".[2]

ويقول موضحاً في موضعٍ آخر: "وإنما بيَّن أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات، من أن للبشر عدة أصول ومن كونِ آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الأرض قديماً وحديثاً –كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه- ...".[3]

ويُردُ عليه بالآتي:

***على اعتقاده وجود التعارض:** فنؤكدُ على أن النص الصحيح لا يُخالفُ العقل الصريح[4]، ولا يُخالف المقررات العلمية الثابتة. ومادامت نتائج العلم الحديث قيد التجربة والأخذ والرد، فإنها لا تخرج عن كونها نظرية غير مثبتة، وبالتالي لا تُؤسسُ علماً ولا ترقى لمعارضةِ النص المعصوم.

ومن واقعٍ مُشَاهَد فإن كثيراً من الدراسات و الأبحاث توصلت إلى حقائق علمية، تماشت وتواءمت مع النصوص الشرعية[1]، وبالتالي فلم تكن ثمة تعارضٌ موهوم. أما إن خالف بعضها النصَّ مخالفةً بيّنة، فالشكُ

---

[1] منهج المدرسة العقلية الحديثة، جـ٢، ص٦٠٦-٦٠٧

[2] تفسير المنار، جـ ٤، ص٢٧٩

[3] المرجع السابق، جـ ٤، ص٢٧٩

[4] وقد أسس شيخ الإسلام -رحمه الله- لهذه القاعدة الجليلة بمؤلفه الشهير "موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول".

حينئذٍ في صدق النتيجة العلمية وصحتها لا في نصوصِ الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

وما يُعتقدُ في القرآن الكريم يُعتقدُ في السنة الشريفة المطهَّرة، فغايةُ ما يجبُ علينا هو التثبتُ من ورودها عن النبي ﷺ، فلئن قالها ﷺ فقد صدق. ولا يرتقِ شيءٌ لمعارضتها البتة، لا حقيقة علمية –في حقيقتها لم تثبت!-، فضلاً عن نظريةٍ افتراضية.

***على قولهِ بأن تأويلهُ لمسألة خلق آدم عليه السلام لا يعارض القرآن ولا يناقضه:** فنقول: بل قد عارض القرآن الكريم أشد المعارضة، لأن اجتزاء المعاني من الآيات الكريمة دون الجمع بينها –إذ القرآن يفسِّرُ بعضه بعضاً- بحيثُ تُفهم فهماً شاملاً، فإن ذلك مُوهِمٌ بوجود التعارض بينها، وإذا تأملنا في آياتِ خلقِ الإنسان نجدها تتسم بوحدةٍ موضوعية متكاملة، منها ما يخبرنا بوظيفةِ ذلك المخلوق وهو أن يكون خليفةً في الأرض، وليعبد الله فلا يُشرك به شيئاً.

ومنها ما يخبرنا عن مراحلِ تحوّلِ مادةِ خلقه؛ فتارة نرى الآية تتحدث عن التراب، وتارةً عن الطين، وتارةً تتحدث عن صلصالٍ من حمإٍ مسنون، وتارة عن صلصال كالفخار، وجميعها تدلُ على الإنسان الأول الذي بُثَّ منه سائر البشر فثبتت أبوتهُ لهم وانتسابهم إليهِ عقلاً وشرعاً.

لكن عندما يُجتزأُ معنى الآية بحيث تُفهمُ كلُ آيةٍ على وجهٍ مستقل، فسيُفهمُ من كلِ آيةٍ معنىً مغايراً مما يتسبب في معارضةِ الكتاب الحكيم وضربهِ ببعض!. فمثلاً؛ سيكون المخلوقُ الذي من طين يختلف عن الذي من صلصالٍ من حمإٍ مسنون، وكذلك القولُ في الذي خُلق من صلصالٍ كالفخار وهكذا. في حين لم يكن الصلصال الذي هو كالفخار –في حقيقته- إلا إحدى تحولات الطين المختمر وانتقالاته من الرطوبة إلى اليبوسة والجفاف!.

وما فسرهُ القرآنُ أكَّدته السنة المطهرة بما لا يدعُ مجالاً للحيرة أو الارتياب، وهي القسم الثاني من الوحي الشريف المعصوم، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النساء(١١٣)، "فالكتاب ما يتلى والحكمة السنة، وهو ما جاء به عن الله بغير تلاوة".[٢]

---

[١] كأطوار خلق الجنين وابتداء خلق العظام ثم كسوها باللحم. وكذلك احتواء أحد جناحي الذبابة على داء والآخر على دواء كما في الحديث الشريف: "إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه؛ فإن في أحد جناحيه داء، و في الآخر شفاء، و إنه يتقي بجناحيه الذى فيه الداء، فليغمسه كله ثم لينزعه"، صحيح الجامع، حديث رقم (٨٣٥)

[٢] فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، "باب ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي فيقول لا أدري"، حديث رقم (٦٨٧٩)

قال ﷺ: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه".[1]

وأخرج البيهقي بسندٍ صحيح: "كان جبريل ينزل على النبيﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن"، ويجمعُ ذلك كله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ النجم(٣).[2]

يقول شيخ الإسلام: "الرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك في غير موضع وقد علَّم أمته الكتاب والحكمة كما قال: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾، وكان يذكر في بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال:﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾، فآيات الله هي القرآن؛ إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منزل من الله، فهو علامة ودلالة على منزله. وَ «الحكمة» قال غير واحد من السلف: هي السنة".[3]

ومما ذكرناهُ آنفاً، يتضح أن في تأويل محمَّد عبده معارضة سافرة للوحي الإلهي بقسميه؛ القرآن الكريم وظاهر السنة المطهرة، وخرقٌ لإجماع أئمة المفسرين وأعلام الأمة بأن آدم ؑ، هو الإنسان الأول وأبو البشر المخلوق من الطين. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ الروم (٢٠)

---

[1] أخرجهُ أبو داود في سُننه، وصححهُ الألباني، حديث رقم (٤٦٠٤)

[2] فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، "باب ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي فيقول لا أدري"، حديث رقم (٦٨٧٩)

[3] مجموع فتاوى ابن تيمية، "رسالة معارج الوصول"، جـ١٩، ص١٧٥

رابعاً: سبب الخلل:

١) **رد الأحاديث الشريفة:** وفي هذا يقول الدكتور الذهبي: "كما أنها -أي المدرسة العقلية- بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة .. وطعنت في بعض الأحاديث؛ تارةً بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهلِ العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يُستهانُ بها".[١]

فرد الأحاديث الثابتة سبب خللٍ كبير و حَيْدة عن النهج القويم، لكل من حاول الاستقلال بالقرآن الكريم وحده دون السنة الشريفة التي وضَّحته وبينت الكثير من آياته، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل(٤٤)

٢) **مجاملة غير المسلمين بذريعة دعوتهم إلى الإسلام:** ويبين هذا قول رشيد رضا وفكرته في جواز التأويل –وهو من أشد المتأثرين بشيخه محمد عبده-، يقول: "فنحن قد سمعنا بآذاننا شبهات على بعضِ الآيات والأحاديث لم يسهل علينا دفعها وإقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله إلا بضربٍ من التأويل تقربها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقريب".[٢]

ولهذا عقَّب الأستاذ ماجد الرنتيسي بقوله: ".. فقد كان متأثراً بالشيخ درويش وببعض علماء الأزهر، فكان مدافعاً عن الإسلام، أما بعد اتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني وبعد عودته من المنفى إلى مصر وتكوينه صداقات حميمة مع اللورد كرومر وغيره من رموز الاحتلال البريطاني الجاثم على مصر آنذاك، وبحجة التقريب بين نصوص الإسلام وبين المدنية الغربية حتى يرضي خصومه ولو كان ذلك على حساب النص، فنجده قد تجنى على كثيرٍ من النصوص القرآنية وحمَّلها ما لا تحتمله، مما جعله يضل في كثيرٍ من تفسيراته سواء في حديثهِ عن أصلِ الإنسان وخلق آدم، أم في حديثه عن الملائكة والجن ..، كلُ ذلك كان بحجة الإصلاح وحتى يحبب الغربيين في اعتناق الدين الإسلامي على حدِّ زعمه".[٣]

---

[١] التفسير والمفسرون، جـ٢، ص٤٠٢-٤٠٣

[٢] تفسير المنار، جـ١، ص١٢

[٣] أثر الاتجاه العقلي السلبي في تفسير المنار، ص٥٩

٣) **التأثر ببعض نظريات البحث العلمي:** ومن ذلك قوله: "فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من الإفرنج من أن لكل صنف من البشر أباً، كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيها من النص الصريح في ذلك. وهو مما حمل باحثيهم على الطعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه"[1]. وكذلك تأويلهُ الذي جنح إليه –مما مر معنا سابقاً-، لمعارضة المباحث العلمية والتاريخية له بحسب اعتقاده.[2]

وبالجملة فإن أكبر أسباب الانحراف الفكري لدى بعض أهل الإسلام سواءً من الطوائف أو الأفراد، فإن مردهُ ومرجعهُ إلى عدم التسليم للنصوص الشرعية؛ إما بردها وعدم قبولها بالكلية، أو بتأويلها تأويلاتٍ فاسدة تُخرجها عن معانيها المرادة منها.

وحتى يتضح ما ذكرناهُ نقول: إن من رضي بالله رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً يتعيَّنُ عليه الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله دون اعتراضٍ أو مماراةٍ وتَشَكك، ويلزمُ من هذا القول بالضرورة، عدم قبول ما يُعارض ما جاء عن الله ورسولُهُ أيّاً كان ذلك المُعَارِض؛ سواءً أكانت نظريات أو تجارب أو آثار أو غيرها مما ينتسبُ إلى العلم التجريبي المعاصر.

لأن مجرد معارضة تلك العلوم للثوابت والنصوص الشرعية، يجعل إعادة النظر في نتائجها ومعطياتها ومزاعم علميتها من أوجب الواجب لإحقاق الحق ودحض الباطل، وللدفع عن دين الحق ونصوصه القدسية الشريفة. إذ ليس من الممكن أن يُعارض كتابُ الله المنظور كتابَهُ المسطور لأن مصدرهما واحد، وهو خالق الكون ومُنزلُ الكتاب ﷻ.

وعليهِ فالخلل في نتائج العلم التجريبي الحديث –المتناولُ لقضايا الطبيعة والكون-؛ قد يكون عائداً إلى خطأٍ في المعطيات و المُدخلات، أو قد يكونُ عائداً إلى خطأٍ في الفهم والتفسير البشري لهذه المدخلات والمعطيات، مما يتسبب معهُ في فساد النتائج وخطئها بالضرورة.

وأما وحيُ الله المعصوم، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، ولا يمكن أن يتسلل إلى فكر المسلم خطأ قادح ما دام مُسَلِّماً بالنص آخذاً بطريقةِ السلف في تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة الثابتة الشريفة.

---

(١) تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٨

(٢) أنظر المرجع السابق، ص٨

خامساً: التأثيرات الفكرية على الشيخ محمد عبده في رأيه في خلق آدم عليه السلام:

١) جمالُ الدين الأفغاني:

إن السؤال المُلح الذي يفرض نفسهُ هاهنا: هل كان جمال الدين الأفغاني يعتقدُ بنظريةِ الأوادم الكثيرة قبل آدم عليه السلام، ونظرية التطور في خلق الإنسان أم لا؟، وهل لذلك أثر في فكر تلميذه محمد عبده؟

وقبل أن نجيب حيال ما يتعلق بالتساؤل الأول، يجدر بنا أن نعرّج على تلك العلاقة الوطيدة بين الأستاذ الأفغاني وتلميذه مُحَمَّد عبده.

***علاقة محمد عبده بالأفغاني:**

لقد بلغ من افتتان الشيخ مُحَمَّد عبده بأستاذه جمال الدين الأفغاني، مبلغاً جعلهُ يشطح في كتاباته ورسائلهِ إليه، مما يكشف عن عمق ذلك التأثر وعمق العلاقة التي ربطت بينهما، وسنتناول ذلك بشيءٍ من الإشارة اليسيرة:

فمن أقواله مثلاً في وصف شيخه -والتي تُبيّن مدى افتتانه به- : "أما منزلته من العلم وغزارة المعارف، فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الإشارة إليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خُلق له. وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش، فنظرةٌ منه تفكك عقدها".[١]

ومنها أيضاً: "ليتني كنتُ أعلمُ ماذا أكتب إليك، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعتنا بيديك وأفضت على موادنا صورنا الكمالية، وأنشأتنا في أحسن تقويم .. أوتيتُ من لدنك حكمةً أُقلّبُ بها القلوب واعقل العقول وأتصرفُ في خواطر النفوس ..إلخ".[٢]

ثم إن كان والدُهُ صاحب فضلٍ عليه، فأستاذُهُ جمال الدين الأفغاني يفوق فضله ذلك الفضل، يقول الشيخ مُحَمَّد عبده: "والدي أعطاني حياةً يشاركني فيها علي ومحروس[٣] و السيد جمال الدين أعطاني حياةً أشارك بها مُحَمَّداً وإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم والأولياء القديسين".[٤]

---

[١] منهج المدرسة العقلية في التفسير، جـ١، ص٨٤

[٢] المرجع السابق، جـ١، ص١٥٣-١٥٤

[٣] يقصد إخوته.

[٤] تاريخ الأستاذ الإمام، جـ١، ص١٣

ومما أوردناه يظهر إلى أيّ حدٍ بلغ تأثر مُحَمَّد عبده الشديد بأستاذهِ جمال الدين الأفغاني، مما لا يُستبعدُ معه تبني آراؤهُ ورؤاهُ الفكرية و نشرها في مؤلفاته. فهل كان جمال الدين ممن يقولُ بنظرية الأوادم الكثيرة ونظرية داروين أم لا؟

***رأي جمال الدين الأفغاني في خلق آدم عليه السلام:**

أولاً: موقف جمال الدين الأفغاني من نظرية الأوادم الكثيرة قبل آدم عليه السلام:

إن الحديث عن فكرة الأوادم الكثيرة قبل آدم عليه السلام، يسوقنا قبل ذلك للحديث عن الأصل الذي يتحدر منه جمال الدين الأفغاني، وقد دلت قرائنُ عدةٍ ساقها كلاً من صاحب منهج المدرسة العقلية، ودعوة جمال الدين في ميزان الإسلام، على أنهُ شيعي الأصل والمذهب!.[1]

يقول الأستاذ مصطفى فوزي: "نُسب إلى جمال الدين أنهُ شيعي إثناعشري، وهو مذهب الإيرانيين ... ولو تتبعنا حياته الدراسية من مبدئها إلى منتهاها لبدا لنا أنها كانت شيعية كلها، فقد تنقَّل من مدرسةٍ إلى أخرى ومن بلدةٍ إلى أخرى ومن شيخٍ إلى آخر، وفي كلِ ذلك يتقلَّب في مجالاتٍ شيعيةٍ بحتة".[2]

وبعد أن ساق أماكن دراسة جمال الدين الأفغاني؛ منذُ دراسته الابتدائية إلى الدراسات العليا في العتَبَات المقدسة التي يحج إليها طلاب العلم الشيعي من جميع أنحاء العالم، قال المؤلف: "فهذه دراسته منذ البداية إلى أن تقلَّد شعار العلماء، كلها على المذهب الشيعي، ومن المحتمل أنهُ بقي محافظاً على مذهبهِ حتى نهاية حياته، ودليلنا على ذلك هو ترددهُ على المشاعر الشيعية في الحين بعد الحين واجتماعهُ المتواصل مع رجالات الشيعة، وما نزل في مكان إلا همَّ بالبحث عن شيعته".[3]

وفي النجف مكث جمال الدين أربع سنوات، ثم دخل مصر وذاع صيته على أنهُ سُني وأنهُ أفغاني، وأنهُ حنفي وأنهُ شريف ينتمي إلى النسب الطاهر. وصدَّق الناس ذلك لأنهم لا يعرفون سابقته واكتفوا بتصريحاته التي كان ينشرها في كل مجلس.[4]

---

[1] راجع منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، جـ١، ص٧٥ وما بعدها.

[2] تحت عنوان (جمال الدين الأفغاني شيعي المذهب). دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، للمؤلف مصطفى فوزي غزَّال، ط١، ١٤٠٣هـ، دار طيبة، المملكة العربية السعودية - الرياض. ص٧١

[3] المرجع السابق، ص٧٢

[4] المرجع السابق، ص٧٣

ولكن هذا التستر والتخفي بدأ يظهر ثانيةً للعيان بعد حلولهِ في استنبول مركز الحكم الإسلامي وحاضرة الخلافة العثمانية، وذلك عندما أراد السلطان عبد الحميد جمع الشيعة إليه. يقول الوردي: أخذ الأفغاني منذ حلوله يعمل على التقريب بين الشيعة والسنيين وعلى اجتذاب الشيعة إلى الجامعة الاسلامية، وقد استعان ببعض الإيرانيين الذين كانوا يسكنون إسطنبول آنذاك.[1]

وأما د. فهد الرومي فيذكر أن شيعية جمال الدين تتضح من الرسالة التي كتبها أبو الهدى الصيادي[2] من الآستانة إلى السيد رشيد رضا، يخاطبهُ فيها قائلاً: "إني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً، وقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً أنهُ مازندراني من أجلاف الشيعة".[3]

ولا شك أن شيعية جمال الدين تتأكد إن علمنا –إضافةً لما سبق-، أن جميع مشائخهِ قد كانوا من الشيعة[4]. يقول الأستاذ مصطفى فوزي نقلاً عن د. عبد المنعم حسنين: "وإن الأدلة التي تُثبت أن جمال الدين إيراني شيعي المذهب كثيرة وقاطعة، وليس هذا فحسب بل كان متعصِّباً لشيعيته، حتى في اتخاذ من يقوم بخدمته ويُعنى بمصالحه الخاصة، فقد اتخذ له خادماً يُسمى «أبا تُراب»، وكان هذا الخادم ملازماً له أينما ذهب. كما كان أميناً على أسرارهِ الخاصة. واسمُ «أبي تراب» من الألقاب الخاصة بعلي بن أبي طالب".[5]

ولكن ما الذي دعا جمال الدين الأفغاني إلى التكتم على هذه الحقيقة واتخاذ الغموض ستاراً يتخفى وراءه؟!. يُجيب الأستاذ مصطفى على هذا التساؤل فيقول: "ويجب ألا ننسى أن بين التَّقِيَّة والعمل في السِر تلازماً وكلاهما من بدع الشيعة، وهو قائمٌ على الكذب والخداع، وجعلوا الكذب تُقيةً ليضفوا عليهِ صفة التقديس".[6]

---

[1] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[2] هو مُحَمَّد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني(١٢٦٦- ١٣٢٨ هـ)، أبو الهدى: أشهر علماء الدين في عصره. وُلد في "خان شيخون" من أعمال المعرَّة، وتعلَّم بحلب وولي نقابة الأشراف فيها. ثم سكن الآستانة، واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، فقلَّدهُ مشيخة المشايخ وحظي عندهُ فكان من كبارِ ثِقاته، ولما خُلع عبد الحميد نفي إلى جزيرة الأمراء فمات فيها. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، ط٥، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت. جـ ٦، ص٩٤

[3] منهج المدرسة العقلية الحديثة، جـ١، ص٧٦

[4] دعوة جمال الدين في ميزان الإسلام، ص٧٤

[5] المرجع السابق، ص٧٥ . وقد ساق المؤلف عدداً من البراهين في ذلك، وللاستزادة يُنظر ص٧٥ وما بعدها.

[6] المرجع السابق، ص٣٨٧

ولعلنا نضيف: أن ما ذكرهُ الأستاذ مصطفى غزَّال حول التَّقِيّة ليس من بدع الشيعة فحسب، بل إن أصل تلك البدعة المقيتة هم اليهود، ولا ننسَ مبدأ فتنة التشيع وبذرتها وهو عبد الله بن سبأ، أنهُ كان من يهود اليمن.

أما علاقة ذلك بنظريةِ الأوادم الكثيرة قبل آدم عليه السلام، فمعلومٌ أن هذه الفكرة أو النظرية في أصلها فكرةٌ شيعية وردت في روايات بعض أئمة الشيعة. ومن ذلك ما استشهد به مُحَمَّد عبده نفسه في تفسيره لآية «النفس الواحدة»، بقوله: "وقد نُقل عن الإمامية والصوفية أنهُ كان قبل آدم المشهور عند أهلِ الكتاب وعندنا آدمون كثيرون، قال في روح المعاني: وذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبراً طويلاً نقل فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة. وأن الدنيا بقيت خراباً بعدهم خمسين ألف سنة، ثم عمرت خمسين ألف سنة، ثم خُلق أبونا آدم عليه السلام. وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد الصادق في حديثٍ طويلٍ أيضاً أنهُ قال: لعلك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله؛ لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين"[١]. وغير هذه الروايات.[٢]
فهل منعته التُقية من الجهر بذلك، واستفادهُ تلميذه مُحَمَّد عبده من فكره وبثهُ على شكل تفسير محتمل التأويل، أم أنهُ أفصح بذلك وغدى معلوماً عنه؟!.

إن القول بأن الأفغاني كان يعتقدُ بنظرية الأوادم الكثيرة قبل آدم عليه السلام، لن يكون مجازفةً مادام قد تأكد أنهُ شيعي الأصل، ولكن هل عُرفت عنه أم لا؟، وهل أخذ بها وحدها أم أنهُ نادى بغيرها؟!. فهذا التساؤل الذي يفتقر لإجابةٍ شافية.

وتبقى الخياراتُ متاحةٌ على مصاريعها بازدواجية أراءه حول أصلِ البشر، أو تعددها أكثر من ذلك مادام أنه قد فتح باب التأويل أيضاً على مصراعيه.

يقول صاحب كتاب "خاطرات جمال الدين الأفغاني": "ويرى أن القرآن بريء من مخالفة الحقائق العلمية الثابتة، فإذا لم نرَ في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل".[٣]

وهذا الكلام من جمال الدين الأفغاني يُبيّن مذهبهُ العقلي. ويزول العجب إن علمنا – بعد ثبوت شِيعيتهِ- أنه قد ورد في رواياتِ الشيعة المكذوبة أن آدم عليه السلام اختار العقل بعد أن عُرض عليه العقل والحياء والدين من

---

[١] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٨-٢٧٩
[٢] أنظر: المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٩
[٣] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، جـ١، ص٨٧

الله عزوجل[1]، فهل التجديد الذي كان يدعو إليه جمال الدين يتمحور –في حقيقته- حول القضاء على الثوابت الشرعية الإسلامية، فتلك هي دعوته الإصلاحية باختصار؟!.

ثانياً: موقف جمال الدين الأفغاني من نظرية التطور:

يقول الدكتور فهد الرومي: "وقد نُسب إليه بعضهم القول بنظريةِ داروين، والحق أنهُ لم يقل بذلك بل ردَّ عليها بما يبطلها، مع تعاطفه على من أيدها وحمدهُ لهم الجهر بمعتقدهم ولو خالف الجمهور".[2]

هذا ما ذهب إليه الدكتور فهد الرومي، في حين يؤكدُ البعض قول جمال الدين الأفغاني بالنظرية الداروينية، فهل هو تناقضٌ وازدواجية بموقف الأفغاني حيال مسألة أصلِ البشر أم ماذا؟، وما تفسير أنهُ كان يتعاطف مع من يقول بها ويحمد له جهره بمعتقده مع مخالفته لأصلٍ دلَّت عليه النصوص، وهو مجمعٍ عليه لدى علماءِ الأمة قديماً وحديثا؟!.

يقول الدكتور سامي عابدين –تحت عنوان "موقف الأفغاني من دارون"، وقد ضمَّنهُ فكرتين، عَنْوَنَ لهما بـ: «دارون القنفذ المنتكس الواهم في «الرد على الدهريين»،-وَ- دارون وثباته وصبره وخدمته للعلم الطبيعي في «خاطراته»-: "وكي لا يكون كلامنا مرمياً على عواهنه، دون إثباتٍ أو دليل؛ فهذه رسالته «الرد على الدهريين»، يقول فيها مصوّراً «دارون»: "لاريب يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة، يدفعه ريبٌ ويتلقاه شكٌ إلى أبد الآبدين. وكأني بهذا المسكين وما رماهُ من مجاهيل الأوهام، ومَهَامِهِ الخرافات، إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان. وكأن ما أخذ به من الشُبه الواهية، أُلهيةٌ يشغلُ بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية".

ويُتابع د. سامي: "وإذا بهذا القنفذ المنتكس، يحوّلهُ الأفغاني في «خاطراته» إلى رجلٍ سوي، معترفاً بفضلهِ "وثباته على تتبعاته، وخدمته للتاريخ الطبيعي من أكثر وجوهه".[3]

وفي الموضع الآخر يقول -في الرد على الدهريين-: "ورأس القائلين بهذا القول «داروين». وقد ألف كتاباً في بيان أن الإنسان كان قرداً، ثم عَرَض له التنقيح والتهذيب .. وعلى زعم «داروين» هذا، يمكن أن يصير البرغوثُ فيلاً بمرور القرون وكر الدهور، وأن ينقلب الفيلُ برغوثاً كذلك".

---

[1] بحار الأنوار للمجلسي، د.ط، د.ت، بيروت، جـ١٠٨، ص١٤

[2] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، جـ١، ص١١١

[3] أصل الإنسان عند الأفغاني ومُحَّد عبده ورشيد رضا، للدكتور سامي عابدين، ط١، ١٤٢٦هـ، دار الحرف العربي، بيروت، ص٩-١٠

ثم في -فلسفة الصناعة- يقولُ على لسانِ تلميذهِ مُحَمَّد عبده: "ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد، جمة الثمرات للعموم، رأيت من الواجب قياماً بالخدمة الإنسانية، أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها،... بيَّن حفظه الله أن الإنسان نوعٌ من أنواع الحيوانات الأرضية، وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربةٍ منها... والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الأمم التي كأنها قريبة عهدٍ بالإنسانية في جنوب أفريقيا، ... فإنهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطةِ الفطرة؛ لا يفهمون خطاباً، ولا يُحسنون جواباً، إلا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة، كجلب قوتٍ بسيط، ومدافعة عادٍ من الحيوانات".[١]

وهذه العبارة –إن صحت نسبتها- إلى جمال الدين الأفغاني، لا تدع مجالاً للشك في اعتقاده بنظرية داروين ما دام قد أدخل شعوب الأرض ضمن تصنيفاتها؛ إلى شعوب حيوانية بسيطة وأخرى متحضرة. وكذلك عبارته: "قريبة عهد بالإنسانية"؛ وهو ما يعني أنها كانت تحيا طور ما قبل عهد الإنسانية، ثم تحولت لعهد الإنسانية بعد ذلك!. وبحسب نظرية داروين فإن طور الحيوانية والهمجية هو عهد ما قبل الإنسانية التي ترقى إليها بعد ذلك.

يقول مصطفى فوزي غزال في جملة نتائجه التي انتهى إليها في دراسته لدعوة جمال الدين الأفغاني: "كما أنهُ يؤمن بصحة نظرية دارون، بل إنه يعتبر هذه النظرية هي من مفاخر المسلمين، وأنهم السبَّاقون إليها[٢] ... عدا عن التلاعب بالنصوص القرآنية وتكييفها لتنسجم مع العلوم العصرية التي لا زالت في نطاق التجربة والاختبار".[٣]

ولعلنا نسوق ما ذكره الأستاذ فوزي من شهادات بعض العلماء على جمال الدين الأفغاني في قوله بالتطور، قبل أن نذكر التفنيد الذي ارتآهُ المؤلف، يقول: "ومما يُنسب إلى جمال الدين قوله في نظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها دارون في كتابهِ المشهور «أصل الأنواع»؛ يقول الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حسين: "كلامُهُ في النشوء والترقي يشتبه بكلام دارون".[٤]

ويستطرد بقوله: "ويؤيدُ هذا الكلام الدكتور عمارة فيقول: فإذا أضفنا إلى ذلك موقف الأفغاني من نظرية التطور والنشوء والارتقاء، وحديثهُ عن تشارلز دارون وكيف تحدث باعتزاز عمن سبق العلماء العرب إلى هذه

---

[١] المرجع السابق، ص١٠-١٣

[٢] لعلهُ يقصد الرأي القائل بأن ابن خلدون هو أول من قال بالتطور من المسلمين.

[٣] دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، ص٣٨٤

[٤] المرجع السابق، ص٣٤٥

النظرية، بل وتفوقهم على الأوروبيين المحدثين فيها، حيثُ جعلوها شاملة للكائنات العضوية وغير العضوية...".[1]

فإذا نظرنا إلى تلك الأقوال عن جمال الدين نجدهم ينسبون إليه القول بنظرية التطور، بينما يرى الأستاذ فوزي، أن جمال الدين يؤمن بنظرية التطور بمفهومٍ أوسع، فيقول: "والظاهر أن جمال الدين يؤمن بنظرية التطور في المحسوس وغير المحسوس"، ثم يسوقُ جوابه على أحدِ الملاحدة حين سألهُ على حين غره فيقول: "وكذلك جوابه على أحد الملاحدة حين سألهُ عن المعبود الأول الذي اتخذهُ الإنسان من بين أشياء هذا الوجود؟، فقال: إن المعبود الأول للإنسان الأول كان يقتضي أن يكون في ثنايا الغيوم المتلبِدة أو هي نفسها".[2]

في حين يدافع رشيد رضا عن موقف جمال الدين من نظرية التطور بقوله: "كذلك يشتبه على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين، فقد حكى الأستاذ الإمام عن درس السيد للإشارات ما نصه...".[3]

ثم ساق ثلاثة أمثلة من أقوال جمال الدين نذكر بعضاً منها لنبين بعد ذلك المعنى الذي انتهينا إليه في هذا المبحث؛ يقول: "فمما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات، ترفُّع المعتقِد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية، واستنكافهِ عن ملابسة الصفات الحيوانية، ولاريب أنهُ كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحِهِ إلى العالم العقلي،... فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها والثيران البرية في حالتها".[4]

ويقول بموضعٍ آخر: "إن شئت فارم بنظر العقل إلى قومٍ لا يعتقدون هذا الاعتقاد، بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات، ثم تبصَّر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل، وإلى أي حدٍ تصل بهم الشرور، وبأي منزلةٍ من الدناءة تكون نفوسهم، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية".[5]

[1] المرجع السابق، ص٣٤٥
[2] المرجع السابق، ص٣٤٦
[3] تاريخ الأستاذ الإمام، جـ١، ص٨٠
[4] المرجع السابق، جـ١، ص٨٠-٨١
[5] المرجع السابق، جـ١، ص٨١

وخاتمة المقال أن موقف جمال الدين الأفغاني حيال نظرية التطور قد اكتنفهُ الغموض[1] من كل جانب، فهل كان حريصاً ألا يبينَ لهُ رأيٌ صريح وواضح في هذه النظرية؟!، وافتضح ذلك بإعجابُهُ وثناؤه على داروين ومن سبق بالقول بها من العرب؟!، أم أنهُ كان يريدُ معنىً آخر؟!

إننا إذا تأملنا ما ذكرهُ عنه تلميذه مُحَّد عبده مما نقلهُ إلينا تلميذهُ رضا، يتبدى لنا أن تلك الإشارات أقرب إلى الدعوة للرهبنة منها إلى نظرية التطور!، ويدعم هذا الرأي الذي ذهبنا إليه أمور:

١/ كونهُ من أهل وحدةِ الوجود القائلين بها؛ لذلك فما استشهد به الأستاذ مصطفى فوزي ظاناً أنهُ مبدأ التطور في المحسوس و اللامحسوس، إنما هو أقربُ دلالة إلى اعتقاد وحدة الوجود حين سألهُ ذلك الملحد عن المعبود الأول للإنسان الأول.

٢/ عزوفهُ عن الزواج، فهل كان يراهُ نوعاً من البهيمية أو الحيوانية؟!.

٣/ تركيزه على الجانب العقلي والحركات الفكرية، كنوع من الروحانيات واللاماديات في مقابل المحسوس أو المادة.

ولكن بماذا نفسِّر عبارته بشأن شعوب أفريقيا: "التي كأنها قريبة عهدٍ بالإنسانية"، أهو موقفٌ وسطي متأرجح؟!، وإن كانت العبارة لا تؤكد اعتقادهُ بنظرية التطور حيث أتى بصيغة التشبيه (كأنها)، إلا أنها تجعل الشبهة حولهُ قائمة دون شك.

وأبرز ما يقوي تلك الشبهة هو تلميذه مُحَّد عبده بقبولهِ نظرية التطور رغم أن الواجب منه كرجل دين –كما ينعتونه- أن يردها رداً قوياً لا شبهة فيه، لمعارضتها للثوابت الشرعية، وهذا الموقف الطبيعي الذي يُفترض صدوره عنه. لكننا بدلاً من ذلك وجدناهُ لا ينكرها ولا يعلن رفضه لها، وإنما يؤول آيات القرآن لتتسع مساحة احتمال المعاني لتلك النظرية وغيرها. كلُ ذلك بأسلوبٍ هشٍّ ضعيف.

---

[1] كغموضِ نَسَبه ونسبته، وغموضِ موقفه من الإنجليز، وغموض موقفه من أصلِ الإنسان كذلك. بازدواجيةٍ واضحة خالية من التنبيه أو الإيضاح، مما يُشعرُ بالتعمد والقصد!. فبخصوص الأولَيَينِ راجع ترجمته في منهج المدرسة العقلية الحديثة وَ دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام؛ وما يتعلق بأصل الإنسان فيمكن مراجعة كتاب الدكتور سامي عابدين، وكذلك كتاب دعوة جمال الدين الأفغاني، وكتاب تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول.

فهذا الموقف لم يكن ليحصل لولا وجود قدوة بالغة التأثير في شخصية مُحَمَّد عبده، يرخي لها العنان، ويُسلِّم بما ترى دون أن يسلَّ قلماً ليُعارض وإنما يلتمسُ لها مختلف المعاذير ويمهدُ ساحة الفكر والدين بمختلف التأويلات لتستوعب كل ما يصدر عنها!.

والعلمُ عند الله تعالى.

٢) الافتتان بعلوم الغرب:

وأما الافتتان بعلوم الغرب، حيثُ سعى لتعلم الفرنسية لإدراك علومها وثقافتها. يقول عنه العقاد: "علِم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه الإحاطة الواجبة بتلك المبادئ في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين، فشرع في تعلم اللغة الفرنسية".[١]

ويقول د. فهد الرومي: "وكان من سُبلِ طلبه للعلم أنه كان يقرأ علوم الإفرنج، فقرأ مما تُرجم من الكتب، ثم تعلَّم الفرنسية وصار يقرأ بها".[٢]

وإنما تناولنا هذا العامل، حيثُ وُجد من شابه مُحَمَّد عبده في تأويله لآيات خلق آدم ﷺ، وهو الدكتور عبد الصبور شاهين[٣]، فقد عكف هو الآخر على علوم الفرنسيين، وتمخَّض ذلك أخيراً عن صدور كتابه «أبي آدم» الذي أثار ضجة منذ ذلك الحين وإلى اليوم، والمشابه في فكرته لما ورد عند الشيخ عبده.

***ويبقى السؤالُ: هل استمر الشيخ عبده على ما كان عليه من التأويل الفاسد في خلق آدم ﷺ، أم رجع عنه؟:**

قد يكون -والعلم عند الله تعالى- أن الشيخ مُحَمَّد عبده قد رجع في آخر حياته عما ذهب إليه من التأويل، سواءً المتعلق بخلق آدم على وجه الخصوص، أو المتعلق بسائر المسائل الأخرى، لاسيما ونحنُ نقرأ في كلامه ما يشيرُ لعدم قناعته بما ذهب إليه من التأويل. كقوله –بعد أن ساق جملةً من تأويلاتِ الخلق-:

"وبهذا التفسير ينحل ما سيأتي من الإشكال اللفظي بأوضحِ مما حلوه به".[٤]

---

[١] أعلام وأقزام في ميزان الإسلام. جـ١، ص٨٦

[٢] منهج المدرسة العقلية الحديثة، جـ١، ص١٢٦

[٣] سيأتي ذكرهُ في الفصل الخاص به إن شاء الله.

[٤] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٨٠

وقوله: "فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من الإفرنج من أن لكلِ صنف من أصناف البشر أباً، كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيها من النص الصريح في ذلك وهو مما حمل باحثيهم على الطعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه".[1]

وكعبارةِ تلميذه رضا: "ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ يردُ الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنهُ لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنهُ لا يقول أن القرآن ينفي هذا".[2]

ثم هو لا يقولُ بأن القرآن الكريم ينفي أبوة آدم عليه السلام للبشر، ولكن يؤكد بأنهُ لا يُثبت ذلك قطعياً بشكلٍ لا يقبل التأويل[3]، وهو بذلك أثار بلبلةً وشُبهةً فكرية، ما كانت لتحدث لولم يصرح بآرائهِ تلك.

وعلى أيةِ حال، فما سبق يمكن القول بأن مُحَمَّد عبدهُ كانت أهدافه من تأويل خلق آدم عليه السلام:

١/ الدفع عن القرآن الكريم بمجاراة النظريات العلمية.

٢/ الرد على الشبهات التي قد ترد في خلق آدم عليه السلام.

٣/ محاولة توسيع احتمالات النص من المعاني، ليستوعب جميع الآراء الواردة في مسألة خلق آدم عليه السلامصحيحها وسقيمها، وبذلك يرضي جميع الأطراف!، -كلاً ينتقي أو يعتقد ما يشاء-.

ولعل ما صَدَر عنه في آخر حياته، يزيد احتمالية ما قلناهُ من عدم قناعته بما ذهب إليه من التأويلات الفاسدة. فقد روى عنه تلميذهُ رضا أنه أنشد في مرض موته:

ويخرج وحيُ الله للناسِ عارياً *** عن الرأي والتأويلِ يهدي ويُلهمُ[4]

ثم عقَّب على ذلك بأنه: "آخر نص صريح من الأستاذ الإمام في اتباع مذهب السلف في تفسير القرآن...ومرادهُ بالرأي الذي ينهى عنه اتباع الهوى...وبالتأويل الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو أم الكتاب، أو ما أجمع عليه أهل الصدر الأول"[5]. فهل هذا تبرؤٌ مما في تفسيره من التأويلات الباطلة التي قالها لأي سببٍ كان؟!.ربما، -والعلم عند الله تعالى-.

---

[1] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٨
[2] المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٩
[3] أنظر: المرجع السابق، جـ٤، ص٢٧٩
[4] منهج المدرسة العقلية الحديثة، جـ١، ص١٤٤
[5] المرجع السابق، جـ١، ص١٤٤

ولعل التزام تلميذه مُحَمَّد رضا لمذهب السلف أحد ثمار اعتراف شيخه مُحَمَّد عبده بفساد ما كان عليه من المذهب العقلي والتأويلات الفاسدة، فهذا واردٌ ومحتمل -والله أعلم- وإن كنا لا نجزم أو نؤكد رجوعه إلى مذهب السلف، فشتَّان بين الرجوع والأوبة فعلاً وعملاً، وبين مجرد الاعتراف قولاً!.

ومما سبق نخلص إلى أن:

- مُحَّد عبده كان من أوائل رواد المدرسة العقلية الحديثة.
- مُحَّد عبده قام بالتفريق بين مفردتي بشر وإنسان.
- مُحَّد عبده نهج منهج التأويل لآيات خلق آدم ، لتتسع لكل الاعتقادات.
- مُحَّد عبده كان ممن أُفتتن بالنظريات العلمية فحاول مراعاتها عند تفسيره لآيات خلق آدم .
- مُحَّد عبده قد تأثر بشيخه جمال الدين الأفغاني.
- مُحَّد عبده ربما يكون قد رجع عن تأويلاته الفاسدة في خلق البشر في آخر حياته، فهذا احتمالٌ وارد وإن كنا لا نجزم بذلك.

الفصل الثاني

خلق آدم عليه السلام في رأي طنطاوي جوهري

وفيه:

أولاً: نبذة عن الشيخ طنطاوي جوهري.

ثانياً: منهجه في التفسير.

ثالثاً: رأيهُ في خلق آدم عليه السلام والرد عليه.

رابعاً: سبب الخلل.

خامساً: التأثيرات الفكرية على طنطاوي جوهري في رأيه في خلق آدم عليه السلام.

الفصل الثاني

خلق آدم عليه السلام في رأي طنطاوي جوهري

أولاً: نبذة عن الشيخ طنطاوي جوهري[1]

طنطاوي بن جوهري المصري؛ فاضل له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة، وُلد في قرية عوض الله حجازي بمحافظة الشرقية بمصر عام (١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م)، وتعلم في الأزهر مُدة، ثم في المدرسة الحكومية، وعني بدراسة الإنكليزية، ومارس التعليم في بعض المدارس الابتدائية، ثم في مدرسة دار العلوم. وألقى محاضرات في الجامعة المصرية. وناصر الحركة الوطنية، فوضع كتاباً في نهضة الأمة وحياتها، نشرهُ تباعاً ي جريدة اللواء. وانقطع للتأليف فصنف كتباً أشهرها "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" طُبع في ٢٦جزءاً، نحى فيه منحىً خاصاً، ابتعد في أكثره عن معنى التفسير، وأغرق في سرد أقاصيص وفنون عصرية وأساطير، وقد انتشر هذا التفسير في بلاد الشرق الأقصى وتُرجِم لعدة لغات؛ وجعل لسائر كتبه عناوين ضِخاماً، وأكثرها رسائل، منها:

مؤلفاته:

- جواهر العلوم.
- النظام والإسلام.
- التاج المرصع.
- الزهرة في نظام العالم والأمم.
- أين الإنسان؟.
- أصل العالم.
- جمال العالم.
- الحكمة والحكماء.
- سوانح الجوهري.

---

[1] الأعلام للزركلي، جـ٣، ص٢٣٠ – ٢٣١ ، وانظر ترجمة الأستاذ عبده مصطفى دسوقي له: http://goo.gl/yJ9N2Q

- ميزان الجواهر في عجائب الكون.
- الفرائد الجوهرية في الطرق النحوية.
- بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية.

توفي بالقاهرة عام (١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م)، قبل ظهور نتائج جائزة نوبل، و كان قد تقدَّمَ بطلب الترشُّح لها قبل وفاته.

ثانياً: منهجه في التفسير:

إن المتصفح لتفسير الجواهر، يلحظ وللوهلة الأولى كثرة الاستطرادات والتشعب في الحديث عن النظريات العلمية حتى لكأنك تقرأ في أحد كتب الأحياء أو النظريات العلمية. ناهيك عن استخدام الصور بشكلٍ لم يخلُ من التكلف والإقحام. مما يؤدي لتشتت ذهن القارئ بين موضوع الآية التي عنوَن لها المؤلف بـ"اللطيفة" أو "الجوهرة" وبين سياقات الاستطراد.

يقول الدكتور الذهبي عند حديثه عن مسلك جوهري في تفسيره: "لقد وضع المؤلف في تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق مما يشوق المسلمين والمسلمات –كما يقول-، إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات والأرض والسموات".[١]

ويقول في موضعٍ آخر: "هذا وإني بعد أن قرأتُ الكثير من هذا التفسير، أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التي سلكها فيه، وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيراً لفظياً مختصراً لا يكاد يخرج عما في كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سُرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظياً، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو (لطائف) أو (جواهر)، هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث أتى بها المؤلف ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبَّه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة".[٢]

كما ذكر صاحب المناهل؛ أن جوهري قد "أسرف في هذا السبيل –أي التفسير العلمي-، إسرافاً أنساهُ نفس التفسير والتأويل[٣]". وعدَّه د. فهد الرومي –أي التفسير العلمي- تطرفاً في الاستدلال بالعلوم الحديثة، يقول: "وكفى بتفسير جواهر القرآن الكريم للشيخ طنطاوي استقصاءً وتوسعاً إذ تجد فيه ما لا تجده إلا في أخص كتب العلوم الحديثة وأدقها".[٤]

---

[١] التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي، جـ٢، ص٣٧١
[٢] المرجع السابق، جـ٢، ص٣٧٢-٣٧٣
[٣] مناهل العرفان للزرقاني، جـ٢، ص١١٠
[٤] منهج المدرسة العقلية الحديثة، جـ١، ص٢٧٩-٢٨٠

وأما أصل منهجه العقلي الرامي للتوفيق بين القرآن الكريم ونتائج العلم الحديث فقد استفادهُ من مُحَمَّد عبده وتأثر به تأثراً كبيراً. يقول د. خالد السيف: "وعموم التفسير الذي قدمه مُحَمَّد عبده اعتنى فيه بناء على تأويل ما جاء في القرآن على ما جاء به الغرب من علوم ونظريات، وقد سار على نهج مُحَمَّد عبده الشيخ طنطاوي جوهري، والذي دعا إلى إحياء هذه النظرية التأويلية وتطبيقها على أوسع مداها وقدَّم تفسيراً ضخماً شمل مختلف المعارف المعاصرة من علمية وإنسانية وسياسية بشكلٍ موسوعي، حيث استخدم الصور والخرائط والبيانات، مما جعل تفسيره أشبه بالموسوعة المنوعة".[١]

ويستطرد: "وهذه النزعة التأويلية الحادة عند جوهري تبين مدى الإلحاح في الجمع بين القرآن ومخرجات الحضارة الغربية"[٢]. وستتضح نزعة جوهري العقلية التأويلية –الحادة- كما عبَّر عنها د. خالد السيف من خلال ما سنتناوله في الأسطر القادمة إن شاء الله تعالى.

[١] ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، ص٤٤

[٢] المرجع السابق نفس الصفحة.

ثالثاً: رأيهُ في خلق آدم عليه السلام والرد عليه:

إن المطلع على رأي جوهري في مسألةِ خلق آدم عليه السلام، والتي ضمَّنها تفسيره الموسوم بـ "الجواهر في تفسير القرآن الكريم"، وكذلك مؤلَّفهُ "أين الإنسان"، يلحظُ بجلاءٍ تسليم المؤلف لنظرية النشوء والارتقاء، بل والمدافعة عنها كأحدِ حقائق العلم التي لا ريب فيها.

مما جعلهُ يتناقض بأكثر من موضع، لسعيه الحثيث لإظهار موافقة القرآن الكريم لعلوم الزمن المعاصر. وسنتناولُ فيما يلي بعضاً مما ورد في ثنايا مؤلفيه على سبيل التدليل والتمثيلِ لا الحصر، ثم الرد عليه.

١) ما ورد في تفسير الجواهر:

إن المستعرض لخلق آدم عليه السلام من خلال رؤية مؤلف الجواهر، يجد مزيجاً من آراءِ سابقيه ومعاصريه التي استشهد بها للدلالة على الفكرة التي أرادها، كما يلحظ اتباع المؤلف نهج النقول المطوَّلة إلى جانب التفسير العلمي الذي انتهجه. وهو في كلِ ذلك يسعى لتدعيم فكرة الارتقاء من موضعٍ لآخر، مما جعلهُ يُشرعُ باب التأويل على مصراعيه دفاعاً عن تلك الفكرة، -كما سنرى من خلال العرض-. فأوقعه ذلك في تناقضاتٍ عدة. وسنكتفي ببعضِ الأمثلة من كتاب الجواهر، فليس المراد حصر جميع تلك المواضع الكثيرة، خصوصاً وأن المؤلف قد صرَّح بما يُفهمُ منه التزامهُ تلك النظرية وعدم الرجوع عن القول بها[١]:

١/ عند تفسيره لآية الخلافة بسورة البقرة، ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣٠)، قال: "وهو آدم"[٢]. ثم عطف في فقرة إيضاحية بقوله: "ابتدأ بآدم أبي البشر وجعلهُ مبدأ لنظام الإنسان".[٣]

وفي موضعٍ آخر تتجلى فكرة الارتقاء لديه، فيقول: ".. فخذ الحديد مثلاً، إنهُ أدنى مرتبةً من الحشرات والديدان، وهي أقل مرتبةً من الآساد والنمور، وهي أقلُ كمالاً من القردة وهي أنقص من المتوحشين من بني آدم ... فانظر كيف ترقَّى العالم المشاهد من حشرةٍ إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيمٍ عالم".[٤]

---

[١] يقول بأحدِ المواضع –بعد أن ساق سلسلة التطور-: "هذه السلسلة التي شرحها القدماء، ولقد شرحتها مراراً في هذا التفسيرِ بطرقٍ شتى". جـ١٤، ص١٤٦

[٢] الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ضبطه وصححه مُحَمَّد عبد السلام شاهين، ط١ ، ١٤٢٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. جـ١، ص٦٢

[٣] المرجع السابق، جـ١، ص٦٣

[٤] المرجع السابق، جـ١، ص٦٧

وليس هذا فحسب، بل إن أطوار الجنين في بطن أمه تؤكدُ فكرة الارتقاء بحسب رأي المؤلف، حيثُ يقول: "إن الماء المهين في الرحم يمر في درجات مختلفات من النظام الحيواني، فيكون أولاً: كالجراثيم النقاعية، وهي الطبقات الدنيا من الحيوان ..، ثم يكون علقة ملتفة شبه ثلاثة أرباع الدائرة، ثم يصير مثل الضفدع، ثم يظهر العمود الفقري وله منقار طائر وجسم الحشرة، وهو الممر بين عالم الطير ومرتبة الحيوانات الثديية، ثم يصيرُ كذوات الأربع فيشبه القرد. وتنمو الرأس ويُرسم الذراعان، وله ذنب وتتهيأ مواضع الأعضاء للنمو، وترسم العينان والمنخران والفم، ثم يقصر ذنبه ويظهر التأنيث فيه ... فترى الجنين في أول أمره لا يُعرفُ من أي طبقةٍ هو".[1]

ويؤكد قولهُ بما ذكره تحت عنوان (نظام الجسم الإنساني): "يمر الجنين في أطوار الحيوانات النقاعية والهلامية والفقرية من الطير وذوات الثدي وآخرها القرد، ثم ترسم أعضاؤه وحواسه مرتبةً منظمة".[2]

ثم في فقرته الإيضاحية، نراه يذكر بعض الآيات الكريمة، كقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين (٤)، ويعقب بقوله: "فهذا هو الحسن الذي ذكره الله، لأنه أولاً انتقى أجمل الأشكال الجسمية، فمر على أدنى المخلوقات من الإسفنجيات، وانتهى به في الشكل إلى ما ذكرناه".[3]

ويستطرد: "لقد استبان لك أن خلقة الجنين في الرحم تُصوِّر أنواعاً من صور الحيوان مرتقية من أدناها إلى أعلاها، ... فانظر أيها الذكي إلى قوله تعالى: ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ الحج (٥). كأنهُ يقول: جعلتُ المضغة أولاً غير المسواة، بل ناقصة الخلقة تشبه الحيوانات الأخرى، كالكلب والسلحفاة والطيور وغيرها، وثانياً تامة الخلقة بالصورة الإنسانية، لماذا هذا؟ لنبيّن لكم. ماذا يبيّن الله لنا؟، يبيّن لنا أننا خُلقنا في أحسن تقويم، لأن صورتنا مرت على صور الحيوانات الأخرى ثم أكملها".[4]

ثم يحاول أن يربط فكرة النشوء والارتقاء بالجانب الأخلاقي، يقول: "ليبيّن لنا أن الإنسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان ... ثم إنه لا نجاة لنا إلا بالارتقاء عن هذه الخصال الحيوانية إلى الصفات الملكية، ... يبيّن لنا أن الإنسان لا ينال أعلى الدرجات إلا بعد أن يتخطى أدناها بنظام، ... يبيّن لنا أن سنة الكون الترقي من أسفل إلى أعلى ..".[5]

---

[1] المرجع السابق، جـ٢، ص٥٦-٥٧

[2] المرجع السابق، جـ٢، ص٥٧

[3] المرجع السابق، جـ٢، ص٥٨

[4] المرجع السابق جـ٢، ص٥٩

[5] المرجع السابق جـ٢، ص٥٩

ولعلنا لا نبالغ إن وصفنا رأي الشيخ جوهري في خلق آدم عليه السلام بالإغراق في التأويل، إذ لم يكتفِ بما ذهب إليه من تأويلات لمختلف آيات الخلق بعموم، وخلق آدم عليه السلام بخصوص، حتى عمد إلى تأويل معنى المحكم و المتشابه بإسقاطه على الطبيعة!.

يقول تحت عنوان (المحكم في الطبيعة الذي يشبه الآيات المحكمة في الوحي وهو القرآن)، -بعد أن ساق رأياً لأحد علماء الغرب وهو جوستاف جوليه الذي أبطل نظرية داروين في وجود الأنواع وترقيها بعد تأمله في حشرة أبي دقيق[١] الثابتة دون تحوُّل رغم تعميرها من أقدم العصور- :"فهذا نعدُّه من المحكم، أما تلك السلسلة ونظامها فهو من المتشابه".[٢]

ويقصد بالسلسلة؛ سلسلة تطور الكائنات التي قررها بأكثر من موضعٍ في تفسيره، ومن ذلك قوله: "وهناك سلسلة أخرى من حيث النشء والارتقاء، فأنواع الحيوان والنبات كثيرة ..".[٣]

ويقول تحت عنوانٍ سابق: "لقد نظرت الإنسان وحسن نسقه وجمال شكله، ولكن هذه السلسلة التي انتظمت فيها الحيوانات منتظمة متلاصقة، والتي ظهر فيها الجنين بأدوار مختلفة، أحدثت عند بعض العقلاء حيرة، فقال قائلون منهم: لعل هذه العوالم قد ظهرت بعضها من بعض بالاشتقاق، والدليل على ذلك مشابهة الإنسان لأدنى الحيوانات في أولِ تكوُّنه في الرحم، ثم يتمادى في الرقي حتى يصير كالقرد، ثم يصيرُ إنساناً، وهذه السلسلة بعينها هي التي نراها في الحيوانات المشاهدة، **فلعل** كل طائفة مشتقة مما تحتها مباشرة، حتى أن «هيكل الألماني» الذي نشأ في ألمانيا، وقضى نحو نصف قرن أستاذ العلوم الطبيعية في كلية «أيبنا» قال: إن الإنسان نشأ بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى من الحيوانات النقاعية إلى الهلامية إلى الحلقية إلى الفقارية".[٤]

---

[١] نوع من الفراشات.

[٢] المرجع السابق جـ٢، ص٦١

[٣] وقد فصّلها بقوله: "وهي: أدنى المعدن؛ الجص والتراب والزاج وأنواع الشبوب. أوسطه؛ بقية المعادن الرصاص والنحاس. أعلى المعادن؛ الياقوت الأحمر والذهب. أدنى النبات؛ خضراء الدمن. أوسطه؛ أكثر النبات. أعلاه؛ مما يلي رتبة الحيوان، .. أدنى الحيوان؛ دودة في جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار. أوسط الحيوان؛ أكثر الحيوانات. أعلى الحيوان؛ القرد والفرس وهكذا، .. أعلى من الأعلى؛ الإنسان". – وكل مرتبة تتصل بالتي قبلها وتتداخل معها-، ثم عقَّب بقوله: "فهذه السلسلة الإجمالية من ابتداء المعادن القريبة من الطين إلى الإنسان الذي هو الأعلى". جـ٢، ص٨٥-٨٦ . وبين ما أوردهُ جوهري هنا جـ٢، ص٨٦، وما أوردهُ إخوان الصفا في رسائلهم تحت عنوان "مراتب الكائنات"، وعنوان "مما يلي الحيوانية" تشابهٌ كبير، أنظر: رسائل إخوان الصفا، ص٧٤١-٧٤٢

[٤] الجواهر في تفسير القرآن، جـ٢، ص٦٠

كما يتضح هذا المعنى جلياً عند تفسيرهِ لقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان(٢)، حيث يقول: "... وما الأمشاج في الإنسان إلا الأوكسوجين، والأودروجين، والكربون، والآزوت والكبريت، والفسفور، والبوتاسيوم، والمغنيسيوم، والكلسيوم، والحديد. فهذه هي الأمشاج والأخلاط التي كوِن منها الإنسان، والإنسان يتولد فيه النطفة، والنطفة يتكوَّن منها إنسانٌ جديد، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت إلخ".[١]

ثم يعيب على منكري نظرية الارتقاء بقوله: "وانظر كيف ترى أن الناس في بلادنا في مصر في الشام في العراق في الهند في الصين في سائر الأمم والأجناس إذا قرأوا مذاهب الفرنجة، وسمعوا أن الإنسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض هلعت نفوسهم وانخلعت قلوبهم وتركوا مواهبهم، وظنوا أن هذا جاء من علمٍ فوق طاقتهم، وعقلٍ فوق عقولهم".[٢]

ويقول أيضاً: "وأما المتشابهات، أي اللاتي لا تُعلم في الطبيعة لبعض الناس، لوقوف أذهانهم عندها وعكوفهم عليها، فهي ما تقدم شرحها من تلك السلسلة الحيوانية، وسير الجنين في الرحم على مقتضاها مما يوقع في النفوس أنها مشتقة بعضها من بعض، ولا خالق لها ولا رازق، فذلك كالمتشابه في القرآن".[٣]

وأما الحكمة من وراء ذلك –أي الارتقاء- بحسب رأي المؤلف، فهي أن نعايش كل طبقةٍ حيوانية فنتعرف على خواصها!، يقول: ".. يا عجباً، هل حكم على الإنسان أن لا يرتقي حتى يعرف ما حوله؟".[٤]

٢/ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ النساء (١)، يؤسس لمقدِّمةٍ، فيقول: "واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليلٌ قطعي على كيفيته، والقرآن أتى به مجملاً على مقتضى ما تقبلهُ العقول وتفهمه النفوس".[٥]

ويستطرد قائلاً: "فأما التفصيل فليس للكتب السماوية، وإنما هذه مقدمات يؤتى به للمقاصد. فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجمٍ وعرب".[١]

---

(١) المرجع السابق، جـ٢٤، ص٣٥٣
(٢) المرجع السابق، جـ٢، ص٦٢
(٣) المرجع السابق، جـ٢، ص٦٣
(٤) المرجع السابق، جـ٢، ص٦٥
(٥) المرجع السابق، جـ٣، ص٦

وبموضعٍ آخر يقول: "إعلم أن الكتب السماوية إنما تذكر هذا لغرضٍ أسمى من معرفة أصل الأبوين، وماذا نجني من وراء معرفة أصلها؟. نعم البحث في العوالم كلها مرقٍ للعقول، ولكن كل ما يعرفه البشر في هذا المقام لا يصلُ للحقيقة الواقعة"[٢]. –ثم يستشهد بالآية الكريمة- ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ الكهف(٥١)

في حين أوقعهُ تفسيرٌ آخر في التناقض، حيثُ استشهد –بصيغةٍ توكيدية- ببعض ما جاء في الأحاديث الشريفة، بعد أن زعم أن ليس هناك دليلٌ قطعي على خلقِ آدم وحواء، يقول في تفسيره لسورة الإنسان: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ (١)، " أي: لا يُذكر ولا يُعرف، ولا يدري ما اسمه، وما المراد منه، وإنما كان يُسمى بأسماءٍ مختلفة، فأما آدم أبو البشر فإنه بقي أربعين سنةً طيناً، وأربعين سنةً حمأ مسنوناً، وأربعين سنةٍ صلصالاً كالفخار، فتم خلقه في مائةٍ وعشرين سنة كما يُقالُ في الآثار".[٣]

٣/ في تفسيره لسورة فصلت، كتب تحت عنوان (خلق الإنسان)، مستشهداً بقول الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ العلق(١-٢)، "وانظر كيف رأى العلماء أنه يكون دودةً صغيرة، وهي العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قرداً ثم يتوارى ذنبه ويصيرُ إنساناً. فالدودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد، هي التي أشار لها الله تعالى، فقال: ﴿ ثم من مضغةٍ مخلقةٍ وغيرِ مخلقة ﴾ الحج(٥)، أي مسوَّاة وغير مسوَّاة، فما قبل الإنسانية هي غير المسواة، والإنسانية هي المسوَّاة". ثم أردف بقولهِ: "واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية".[٤]

وتحت عنوان (صورة ارتقاء الحياة على الأرض)، كتب أيضاً: "إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ الملك(٣)، ... وهكذا ترتقي الحيوانات حتى تصل إلى القرد ثم الإنسان".[٥]

وبموضعٍ آخر يقول: "انظر كيف جعل للإنسان هذه المراتب وهو جنين. ينتقل مراتب في الرحم. فمن دودة صغيرة وهي العلقة إلى قوقعة إلى سمكة وهكذا حتى يصل إلى هيئة القرد فهيئة الإنسان ... يمر الإنسان على

---

[١] المرجع السابق، جـ٣، ص٦

[٢] المرجع السابق، جـ٣، ص٧

[٣] المرجع السابق، جـ٢٤، ٣٤٩

[٤] المرجع السابق، جـ١٩، ١٢٠

[٥] المرجع السابق، جـ١٩، ص١١٩

هذه الأدوار وتكونُ نفسه في تلك الأدوار مشاكِلة لتلك الحيوانات، ولكنها تمر عليها مسرعة ثم تقفز قفزةً فتكون إنساناً، فإذا رأينا الطفل يُداعب الهرة ويحب الحمامة ويلعب بالعصفور فذلك لأنهُ كان بالأمسِ مثلها".[١]

ويقول أيضاً: "إن الله لم يجعل عظيماً في علمٍ أو في مال أو في ملك إلا إذا مرَّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرفها فرجع إليها ... وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرعون الأغنام صغاراً ويرعون الأمم كبارا ... هكذا هنا مرَّ الإنسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين، لأنهُ (أولاً): سيكون له بها علاقة في الحياة الجثمانية زراعةً وركوباً وأكلاً وشرب لبن ... و(ثانياً): ليدرسها دراسة علمية إذا كان من أهلِ الحكمة ورجال العلم. و(ثالثاً): ليدرس نفسه وأحوالها، فإنهُ يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها إلى عالم أرقى من عالمِ الأرض".[٢]

ثم دلف إلى التفصيل في خصائص الحيوان التي يشترك فيها الإنسان: "إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور، وأخرى بالحيلةِ كالعنكبوت ... إلخ"[٣]. وهذا مقتبسٌ حرفي من رسائل إخوان الصفا!.

ويستطرد للتأكيد على الحِكَم التي ذكرها آنفاً، بقوله: "إن مرور الإنسان على العوالم الحيوانية أعطاهُ أنسهُ بالحيوان في أحوالهِ المادية، ودراسة العلوم التشريحية والخلقية، وجهادهُ في الحياة ليخرج من حال الحيوانية إلى حال الملكية".[٤]

٢) ما ورد في كتاب "أين الإنسان":

أولاً: التعريف بكتاب أين الإنسان:

هو كتابٌ يعرَّف به مؤلفه، فيقول: "وما هذا الكتاب إلا خَطَرات خاطرات ولمحات سانحات وبوارق لامعات في ليالي الحوادث المدلهمات"[٥]، وقد أراد نشرهُ واحتار كيف السبيل إلى ذلك حتى سمع بمؤتمر الأجناس العالمي!.[٦]

---

[١] المرجع السابق، جـ١٩، ص١٢٣
[٢] المرجع السابق، جـ١٩، ص١٢٣
[٣] المرجع السابق، جـ١٩، ص١٢٣
[٤] المرجع السابق، جـ١٩، ص١٢٤
[٥] "أين الإنسان" لطنطاوي جوهري، د.ط، د.ت، مطبعة المعارف، مصر. ص٤
[٦] انظر: المرجع السابق، ص٦

ومن خلال استعراضنا للكتاب، يمكننا القول بأنه عبارة عن خُطبة تقع في (٢٧٢) صفحة، ختمها بقوله: "فبينما أنا غارقٌ في بحار هذه الأفكار إذ انفلق عمود الصباح، وقال المنادي حي على الفلاح فاستيقظتُ وعلمتُ أنها رؤيا منامية. وعلى العلماء التأويل وعلى الأمم التكميل"[١] . وختم تأملاته الملحقة بها، بقوله: "وهذا مُجمل ما دار بخَلَدي وكان الباعثُ القوي على تأليف الكتاب حتى كان ما كان من ظهور مذنب «هلي[٢]» وما دار بيني وبين تلك الأرواح الطاهرة عليها التحية والسلام".[٣]

وأما الهدف من تأليف الكتاب، فلعلهُ أراد صهر الفكر الإنساني حول الإنسان ببوتقةٍ واحدة شاملة، للتقريب بين أمم الغرب والشرق، بفلسفة موحَّدة وإطارٍ جامع.

وهذا المعنى يُستفاد من كلام المؤلف: "هذا كتاب كتبتهُ للناس، خاطبتُ به حكماء الخافقين، وعلماء المشرقين، وفلاسفة المغربين، تبصرةً وذكرى للعادلين، ... إني ضممتُ جوهرة الإنسان، إلى فلذة الحيوان في النظام. وقرنتُ نظام الكوكب الدرّي بما رآهُ بسمرك وسلسبري، وسويّتُ ما بين نواميس الأحجار في سقوطها، وقوانين الكواكب في هبوطها، وبين نظام الأمم الأرضية وأحوالها السياسية".[٤]

*ملاحظات حول الكتاب:

إن مما يُلاحظ على كتاب "أين الإنسان" عدة أمور، نجملها في الآتي:

- لا يكاد يجد المتصفح لهذا الكتاب أي استشهادٍ بآيةٍ قرآنية أو حديث شريف.
- المطلع على محتوى هذا الكتاب، يجده لا يخرج عن كونه خيالات وقصصاً و رؤى ومنامات، مستشهدٌ بها للتدليلِ على صحةِ آراءِ علماء الغرب حول خلق الإنسان.
- الموجّه والطابع العام للكتاب، هو محاولة التأسيس لمفاهيم الرحمة والشفقة والمحبة، مع استشهاداتٍ تتوجه بالتهمة للكتاب من حيثُ المصداقية والهدف الحقيقي من تأليفه!.

---

[١] المرجع السابق، ص٢٣٩

[٢] لعله يقصد المذنب المعروف باسم (هالي).

[٣] المرجع السابق، ص٢٧٢

[٤] المرجع السابق، ص٤

فعلى سبيلِ المثال نجد تمجيد المؤلف لـ«بوذا»، يقول: "أليس من المدهش أن صحيفة المواليد الثلاثة تُعرض على «بوذا» فيرى الحيوان يشعر بما يشعر به الإنسان، فيرحم الطائفتين ويسعد الحيين"!.[١]

ويقول أيضاً: "من الرحمة ما نَصَحَ به «بوذا» أو «جوطامي» بن ملك الهند، من سنة ٦٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٥٤٣ وتبعهُ نحو ثلث النوع الإنساني في الهند والصين. بما أوصى؟، أوصى بالشفقةِ والمحبة والرحمةِ والعطف على اليتامى والمساكين وابن السبيل ... إلخ".[٢]

- لم يخلُ الكتاب من الاستشهاد والنقل من رسائل إخوان الصفا، ولعلنا نمثّلُ لذلك. بقوله: "وهاك نص ما قيل في إخوان الصفا ...".[٣]

- كما أنهُ لم يخلُ أيضاً من تمجيدِ علماء الغرب ونظرياتهم، وإضفاء ألقابِ المديح والتعظيم لهم، ولعلنا نستشهدُ بما ذكره من رد «أغناطيوس[٤]» عليه حول كتاب أين الإنسان، فيقول: "وأما الأستاذ العلاَّمة أغناطيوس غويدي فكتب لي ما نصه: من أغناطيوس غويدي بروميَّة الكبرى إلى المعلم العلاَّمة طنطاوي جوهري بالقاهرة:

يا سيدي الأستاذ الأكرم أما بعد تقديم التبجيل والتحية فقد وصلتني رسالتك الكريمة وفهرس كتابك الجديد ... وقد تعجبتُ من علمك ومن تعرضك لمسائل ينزعج غيرك من معضلات غوامضها ... –إلى قوله- ... والمأمول منكم معاشر علماء مصر أن تساعدونا في إنشاء المدرسة الإيطالية في القاهرة المحروسة بما يضاهي صدق مودتكم لنا".[٥]
وقد نقلتُ بعض ما جاء في تلك الرسالة، لأن ذلك مما قد يوضح موقف الشيخ طنطاوي جوهري من قضية خلق الإنسان، فقد لا يكون تنظيرهُ وتأويلاتهُ في ذلك ناشئاً عن قناعةٍ تامةٍ منه واعتقادٍ بنظرية التطور، بل ربما أراد المحافظة على علائق الود بينهُ وبين بعض رموز وعلماء

---

[١] المرجع السابق، ص٢٦٩
[٢] المرجع السابق، ص٢٦٣
[٣] المرجع السابق، ص٢٦٠
[٤] مستشرق إيطالي، كان عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق.
[٥] المرجع السابق، ص٨-٩

الغرب في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر، ومراعاةً لمصالحِ[1] كلا الجانبين!، بدعوى "السلام العام"[2]. أو قد تكونُ موجة انبهار كما سنبيّن لاحقاً.

- لم يتحرَ المؤلف منهجاً علمياً في كتابه، بل كان يسوقُ المعلومات سوقاً عشوائياً في خلطٍ واضح. ولعلنا نضربُ لذلك مثالين؛ الأول: فبعد أن نقل نقلاً يزيد عن الصفحتين من رسائل إخوان الصفا عن مراتب خلق الإنسان، عقَّب على ذلك بقوله: "هذا ما رَسَمَه علماء الإسلام في نظام هذا العالم، هذه هي الصورة الواضحة الجلية التي رسمها مبدع هذا الكون ومنظم الوجود"[3]، في حين أنهُ لم يُشر إلا لأحد مؤلفات ابن مسكويه[4]، بالإضافة لإخوان الصفا الذين أشاد بهم ونقل منهم ذلك النقل.[5]

والثاني: عند عبارة "يقول الأنبياء"[6]، ساق كلاماً إنشائياً من نسج أفكاره، ولم يعيّن جزءاً مقتبساً من كلامِ أولئك الأنبياء، كما لم يعيّن أنبياء بأعيانهم، وإنما ساق كلاماً إنشائياً دون عزو، تاركاً في الوقتِ ذاته مجال الحدس والتخمين مفتوحاً أمام ذلك التعميم.

---

(1) من ذلك سعيُهُ للحصول على جائزةِ نوبل.

(2) وردت هذه المفردة في كلامه عن كتاب أين الإنسان: "وهو وإن كان قطرة من بحر **السلام العام**، فسوف تتبعها المزن المطرات". ص٥، و ص٩٠ عند قوله: "ثم أخلو بنفسي في اليقظة سائلاً كيف السبيل إلى **السلام العام**". كما ورد نحوها في كلمة المستشرق «كريستيان جب» عن الكتاب: "إن كتـــاب (أين الإنسان؟) يبحث في أعقد المشكلات العالمية بحثا عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله وقال: (إني أعلن أن خير كتاب أخرج للناس في هذا الشـــأن هو كتاب (أين الإنسان؟) الذي يرسم للعالم بأسلوب فلسفي عميق طريقه المستقيم إلى **السـلام الدائم**". من كتاب "الشيخ طنطاوي جوهري دراسة ونصوص"، للمؤلف د. عبد العزيز جادو(نسخة إلكترونية)**:** http://goo.gl/pK7ZVV

(3) أين الإنسان، ص٢٦٣

(4) أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب مسكويه (ت٤٢١هـ)، مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء. وكان قيّماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة ابن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده. وقال أبو حيان في جملة وصفه: "لطيف الألفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني شديد التوقي، ضعيف الترقي، يتطاول جهده ثم يقصر، وله مآخذ وغرائب من الكذب -كذا- وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء".

من مؤلفـاته: (الفوز الأصغر) في علم النفس، (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، (الأدوية المفردة) و (الأشربة) وغير ذلك. وعاش عمرا طويلا. الأعلام للزركلي، جـ١، ص٢١١-٢١٢

(5) أنظر: أين الانسان، ص٢٦٠

(6) المرجع السابق، ص٢٧١

ومعلوم أن هذه مجازفة خطيرة، إذ أن كلام الأنبياء وحي أو جزء من الوحي الإلهي، وبالتالي لا ينبغي إيراد ما يفيد أو يُفهمُ منه نسبة قولٍ أو عباراتٍ إنشائية من نسج كلام البشر إليهم مباشرة، ولكن قد تُروى بالمعنى مع التبيين والعزو وتعيين القائل.

ثانياً: أمثلة عن خلق الإنسان:

وسنكتفي بعرضٍ موجز لبعضِ الأمثلة، لإيضاح فكرة الكتاب حول خلقِ الإنسان أو آدم عليه السلام:

١/ في ص٣١، ورد قوله: "ألا تتعجب من الهواء كيف كان في الجو قليل الفوائد، فلما أن دخل المدرسة الأولى النباتية أفاد المواد الغذائية، فلما أن دخل المدرسة الثانية الحيوانية أفاد الدلالة والإفهام، فلما أن وصل المدرسة العليا الإنسانية كانت النغمات المشجية والحروف الهجائية، والعلوم الكونية، فصار معبراً عن سار الكائنات".

٢/ في ص٨٧، وردت إجابته: "فقالوا أي حيوانٍ أنت، فقلت الإنسان".

٣/ في ص١٠١، كتب تحت عنوان (لا يبقى إلا الأصلح للوجود): "إن هناك دائرتين؛ دائرة نظام الغذاء، ودائرة الارتقاء ... فأما الدائرة الثانية، فإن في هذه العوالم قوة شهوية، عاشت بها الأرانب والغزلان والطيور وسائر الحيوانات والنبات، وفوقها قوة غضبية ظهرت بأجلى المظاهر في الآساد، وقوة عاقلة كان أتم ظهورها في الإنسان. وكلُ واحدةٍ أرقى مما قبلها وأقل مما بعدها ..".

٤/ في ص١٧٨، ورد قوله: "فقال إنهم جاءوا ليروك، فقلت ماذا يقولون؟ فقال: يقولون أنكم قرود الإنسانية، فقلت وما قرود الإنسانية؟، فقال حيوانٌ نصفه بهيم ونصفه إنسان. وأنتم الآن هكذا يا معشر بني البشر".

٥/ في ص٢٢٧، ورد قوله: "الإنسان دائر في الدائرة الحيوانية ... كان الإنسان يحبو كالطفل على الأرض، فاكتشف البخار، فانتصب قائماً يمشي بالقطار، وبه قطع الكرة، وها هو استنبت له الجناحين ليطير في الهواء، وهل بعد هذا إلا البحث عن المدنية والإنسانية ..".

٦/ في ص٢٦٠، ورد قوله: "رَسَمَ علماء الطبيعة صورة من هذا الإنسان، ووصلوه بالحيوان والنبات وكوّنوا منها سلسلة ذهبية منظمة، ... إذ أبانوا كيف ترقَّى النبات من أدنى أنواعهِ وتعالى في تدرجه وارتقى

إلى درجةٍ عظيمة، تلاصق أرقى الحيوان، وأخذ هذا يتدرج حتى انتهى إلى الإنسان". ثم أخذ يسوق استشهاداً من رسائل إخوان الصفا.

وبعد؛ فقد أستعرضنا بعضاً مما ورد في كتابي طنطاوي جوهري، "الجواهر وَ أين الإنسان"، مما يكشف عن رأيهِ في خلق آدم عليه السلام، **ويُرد عليه بالآتي:**

***مناقشة رأي طنطاوي جوهري في خلق آدم عليه السلام من كتاب "أين الإنسان":**

أولاً: الرد العام إجمالاً:

فبالنسبة لنظرية داروين، فإن العلم الحديث قد دحضها وردها وبيَّن زيفها وضلالها ومناقضتها للعلم والعقل، على نحو ما بينا سابقاً في الفصل الرابع من الباب الثاني في هذا البحث. وهذا نقولهُ على سبيل التنزل مع من يقولُ بها، وإلا فبطلانها ظاهر بيّن لمخالفتها النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة المطهرة الشريفة.[1]

ثانياً: الرد تفصيلاً:

***عند تأويلهِ لقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، بقوله: "فهذا هو الحسن الذي ذكره الله، لأنه أولاً انتقى أجمل الأشكال الجسمية، فمر على أدنى المخلوقات من الإسفنجيات... إلخ".**

نقول: هذا تأويلٌ فاسدٌ باطل لا دليل عليه من الشرع ولا من اللغة[2]. وقد اجتمعت كلمةُ مفسرو السلف على جملةِ معانٍ ليس هذا المعنى -الفاسد- من بينها، ومن بعض ما ذكروا:

"**لقد خلقنا الإنسان،** هذا جواب القسم. وأراد بالإنسان؛ الكافر ... وقيل : المراد بالإنسان آدم وذريته. **في أحسن تقويم** وهو اعتداله واستواء شبابه كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء منكباً على وجهه، وخلقه هو مستويا".[3]

---

(1) يمكن الرجوع إلى النصوص الشرعية في خلق آدم عليه السلام، في الباب الأول من هذا البحث نفع الله به.

(2) فليس من معاني الـ"حسن"؛ إنتقال المخلوق من طورٍ إلى طورٍ آخر مغاير له!، وإلا أمكن لمعتقدٍ أن يظن –بحسب فلسفة أرباب التطور (من أسفل أو دون، إلى أعلى أو أرقى)، لأمكن اعتقاد عدم الإتقان في طورٍ من الأطوار، –تعالى الله علواً كبيرا- مادام أن الإنسان قد ارتقى مما هو دونه، فبلاريب ستكون فترة الانحطاط أو الدونية (مرحلة لم تصل إلى الإتقانِ بعد!)، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة (٧).

(3) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي تفسير سورة التين؛ قوله تعالى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. جـ٢٠، ص١٠١، ١٠٢

ثم أورد كلاماً لابن العربي: "ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: "إن الله خلق آدم على صورته".[1]

*أما قولهُ تعالى: **﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾**، فقد تباينت فيه تفسيراتُ أكابر السلف رضوان الله عليهم، وليس فيهم من ذهب إلى المعنى الذي ابتدعهُ صاحبُ الجواهر –رحمه الله-.[2]

***وأما قوله: "ليبيّن لنا أن الإنسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان، ثم إنه لا نجاة لنا إلا بالارتقاء عن هذه الخصال الحيوانية إلى الصفات الملكية"**، فهذا تحكّمٌ ومصادرة وقولٌ بلا دليل. لأن تلك الصفات أو السمات التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان –على حدِّ قوله-، فإن ثمة مخلوقاتٍ أيضاً تشترك في ذلك معها، كالجن مثلاً.

كما أن النبات والمعادن تخرج عن ذلك، وقد أقحمها في سلسلته المزعومة!، وعليه؛ فلا يصح الاستدلال والاستشهاد بذلك.

وكذلك فإن مقياس النجاة والفوز والفلاح، هو ما قررهُ الشرع المطهر من الإيمان بما يجب الإيمان به، وإتيانِ الطاعة والابتعاد عن المنكرات والمحرمات الموبقة، فهذا سبيلُ النجاة الذي قررهُ الشرع، لا ما ذهب إليه المؤلف من زعم الارتقاء.

ثم الارتقاء الأخلاقي الحق يكون بالأخذ بأوامر الشرع الحنيف، وامتثالها في كافةِ شؤون الحياة، وفي هذا -إن أتى به المرء مبتغياً وجه الله تعالى ومرضاته-، غُنيةٌ وأيُّ غنيةٍ عن معرفة أخلاق الحيوانات بتفصيلاتها، فضلاً عن المعايشةِ المزعومة للطبقة الحيوانية!.

---

[1] نفس المرجع السابق، جـ٢٠، ص١٠١، ١٠٢. وحديث "الصورة" سبق تخريجه و الحديث عنه ص٥١

[2] قوله تعالى: مخلقة وغير مخلقة قال الفراء:(مخلقة) تامة الخلق، وغير مخلقة السقط. وقال ابن الأعرابي: (مخلقة) قد بدأ خلقها، وغير مخلقة لم تصور بعد. ابن زيد: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس، واليدين، والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء. قال ابن العربي: إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة، والعلقة، والمضغة مخلقة؛ لأن الكل خلق الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ فذلك ما قال ابن زيد.
قلت: التخليق من الخلق، وفيه معنى الكثرة، فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقا بعد خلق، وإذا كان نطفة فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ والله أعلم. وقد قيل: إن قوله: مخلقة وغير مخلقة يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط؛ أي منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تام. وقيل: (المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت). ابن عباس: المخلقة ما كان حيا، وغير المخلقة السقط. وأورد البغوي عن ابن عباسٍ وقتادة: "مخلقة"؛ أي تامة الخلق "وغير مخلقة"؛ غير تامة أي ناقصة الخلق. تفسير القرطبي، جـ١٢، ص١٠، تفسير البغوي، جـ٥، ص٣٦٦

***وأما زعم التشابه والإحكام في الطبيعة، قياساً على التشابه والإحكام في آيات القرآن الكريم.** فنجيبُ تنزلاً؛ بأنهُ من أشدِّ البطلان، إذ هو قياسٌ مع الفارق، ناهيك عن كونهِ معنىً مبتدعاً لم يقل به أحدٌ من أكابر السلف رضوان الله عليهم وصحابة رسول الله ﷺ، الذين عاصروا التنزيل وشاهدوه وتربوا على مائدة الوحي الشريف.

أما الجواب القريب: فهذا التأويل وأمثالهُ مما ابتليت به الأمة، قد كان صدورهُ زمنِ ازدهار تلك النظرية الفاسدة؛ نظرية النشوء والارتقاء، مما دفع بعض أهلِ الإسلام المبهورين بعلوم الغرب، لينظِّروا لها ويستدلوا عليها ظناً منهم بصدقها وصحتها ويقينها. فاليوم وقد دحضها العلم الحديث ونبذتها معاقلها التي صدرت منها، فأنَّى السبيل وكيف المخرج، وقد زعم زاعمون أن القرآن يؤيدها؟!!.

***وأما قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾،** فقد ذكر المفسرون في تفسير الآية الكريمة أقوالاً كثيرة، تلتقي كلها في معنى الأخلاط من المائين[1]، **لا كما ذهب إليه المؤلف مما ليس له فيه مستندٌ شرعي أو لغوي أو علمي[2]، بأن مبدأ الإنسان من الحديد والفوسفور والكبريت.[3]**

***وأما قوله بأن خلق آدم وحواء ليس هناك دليلٌ قطعي على كيفيته، والقرآن أتى به مجملاً على مقتضى ما تقبلهُ العقول وتفهمه النفوس،** فهذا من أظهر الفساد وأشد البطلان، حيثُ دلت النصوص الشرعية على كيفية خلق آدم وحواء عليهما السلام بما يفي ويغني، وقد أتينا على ذكرها في الباب الأول من هذا البحث فليُراجع.

---

[1] أورد القرطبي في تفسيره: "قال الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعلقة. ويقال للشيء من هذا إذا خلط: مشيج كقولك خليط، وممشوج كقولك مخلوط. وروي عن ابن عباس ﷺ قال: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة. وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الهذلي:

كأن الريش والفوقين منه***خلاف النصل سيط به مشيج

ورُوي عن ابن مسعود: أمشاجها؛ عروق المضغة. وقال ابن السكيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة". جـ١٩، ص١٠٨-١٠٩

[2] المشيج؛ كل شيئين مختلطين، أو كل لونين اختلطا. والأمشاج في علم الأحياء تطلق على الخلايا الذكرية والأنثوية قبل أن تندمجا لتكوين اللاقحة. المعجم الوسيط، مادة "مَشَجَ".

[3] العلم الحديث يثبت اشتمال جسم الإنسان لعناصر التراب، ولكن المؤلف لم يقصد هذا المعنى كما هو واضح من سلسلته التطورية المزعومة!، ففرقٌ بين أن نقول بأن مبدأ الإنسان من مشيج أو نطفة حَوَت عناصر التراب، وبين أن نقول بأن مبدأ الإنسان خليطٌ من المعادن ارتقت عبر مراحل عدة حتى وصلت إلى القرد ثم الإنسان، مروراً بالنبات وسائر مراتب الحيوانات!.

***وأما القول بأن التفصيل ليس للكتب السماوية، وإنما هذه مقدمات يؤتى به للمقاصد. وأن التفصيل قد قام به علماء الأمم من عجمٍ وعرب:**

فإن هذه المقالة يلزمُ عنها تُهمةٌ واستنقاصٌ للدين الحنيف، لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بمحكم التنزيل أنهُ أكمل وأتم لنا الدين. قال عزوجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا ﴾ المائدة(٣)، وعليه؛ فيمكنُ القول أن التفصيل نوعان: الأول: تفصيلٌ لابد منه لتمام المعنى ووضوح الصورة، والحاجة تدعو إليه فهو بذلك تفصيلٌ مطلوب.

والثاني: تفصيلٌ زائد على النوع الأول، فهذا وأمثالُهُ الذي سكت عنه القرآن الكريم، حيثُ لا نفعَ أو مزيد فائدة من معرفته ولا ضرر من جهلهِ[1]، وبالتالي فهو تفصيلٌ زائد لا تدعو إليه الحاجة.

فأما التفصيل المطلوب لحصول معرفتنا بأصل خلقتنا وابتداؤها، وللإجابةِ على تساؤلاتنا المتحيرة في ذلك، قد ألَمَّ به الوحي المطهر بقسميه؛ القرآن الكريم والسنة الشريفة. ومن ثَمَّ فلا نحتاجُ لمزيدِ تفصيلٍ في ذلك ما دمنا قد حصلنا على ما به قيامُ أودِ المعرفةِ عندنا.

وعليه؛ فتلك التفصيلات الفلسفية الخالية من دلائل صحتها، وشواهد صدقها، ليست إلا ضروباً من تخرصات وتخمينات البشر بأنواعهم من مختلف الأمم، من بُنياتِ أفكار الفلاسفة، والحكماء، وأمثالها فيما لا مجال للمعرفةِ اليقينية به إلا بالسمع والوحي الإلهي، وهنا يصحُ استشهاد المؤلف بالآية الكريمة التي ذكرها ابتداء، وهي قولُ الله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ الكهف(٥١)

وأما شأنُ المقاصد فليس هاهنا مجالُ الحديثِ فيه، وإن كان يسوغُ لنا التساؤل: ما تعني بالمقاصد أيها المؤلف الكريم؟.

فإن كان يقصد حِكَمَ التشريع بعموم، فليس هاهنا محل الحديث عن ذلك!، وإن كان يقصد إجمال القَصَص القرآني، فالله تعالى قد نعتهُ بأحسنِ القصص، وهذا الوصف الإلهي لما جاء في كتابهِ العظيم من قصص الأولين السابقين، يستلزم بالضرورة أن يكون جامعاً شاملاً للتفصيلاتِ التي يُحتاجُ إليها لتقويةِ الايمان وحصول

[1] كمعرفة اسم الشجرة التي أكل منها آدم وحواء عليهما السلام، وأسماء فتية الكهف ولون كلبهم على سبيل المثال، وغير ذلك.

الاعتبار والعظة. وما احتيج لإيضاحِ بعضه وبيان معناه، فقد كَمُل وتمَّ بالقسم الآخر من الوحي وهو السنة المطهرة. فلا يفتقرُ المسلمُ بعدهما لشيءٍ مما يهمهُ في دينهِ و إيمانه ليلتمسه من غيرهما!.

عن ابن مسعودٍ ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، و ليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه".[1]

***وأما قوله بأن الكتب السماوية إنما تذكر هذا لغرضٍ أسمى من معرفة أصل الأبوين، وماذا نجني من وراء معرفة أصلهما؟. نعم البحث في العوالم كلها مرقٍ للعقول، ولكن كل ما يعرفه البشر في هذا المقام لا يصلُ للحقيقة الواقعة:**

فإذا أردنا أن نجيب قلنا: بل هو سؤالٌ ملح من كل بني الإنسان **"كيف أتيتُ ومن أين؟"**، ولذلك ظل هو التساؤل المحير الذي شغل أفكار الفلاسفة والحكماء منذُ قديمِ الزمان وإلى يومنا هذا.

ثم غير المؤمن بالله تعالى، يتخبط متحيراً ذات اليمين وذات الشمال، دون أن يجد جواباً شافياً. لكن المسلم مستقر النفس، مطمئن البال، قد أجابهُ الوحي الشريف بما يُشبعُ لديه حاجة المعرفة حول أصل خلقه وتكوينه.

فالقول بأن ذلك مما لا يهُم يجعلنا نتساءل: وهل تُطلبُ التفصيلاتُ والفروع في غيابِ الإجمالِ والأصول؟!، حيثُ زعمت بأن التفصيل ليس للشريعة وإنما للحكماء والفلاسفة!، -نقولُ ذلك إلزاماً لا تسليما-.

وأما التعميم بأن كل ما يعرفه البشر في هذا المقام لا يصلُ للحقيقةِ الواقعة، فهذا تعميمٌ باطل وقولٌ مردود، **وعلى لوازمهِ تترتبُ أمورٌ خطيرة جداً،** لأن هذا التعميم يلزم منه دخول عصر النبوة والصدر الأول من السلف الصالح، فهل أولئك أيضاً لم تصل معرفتهم للحقيقة في هذا الباب، وهم الذين ورَّثونا علومهم الأصيلة وتفانوا في نقلِ الشريعة إلينا، والسنة النبوية المطهرة –مما تعلموهُ على يدي رسول الله- على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم؟!. فهل جَهِلَ كلُ أولئك –رحمهم الله أجمعين- وجه الحقيقة واليقين في ذلك؟!.

وأما إن لم نرد جواباً، فحسبنا أن نورد كلام ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ البقرة (١٤٠)، وكذلك: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء (٢٣). له تعالى أن يورد في كتابهِ ما شاء، وأن يقص علينا ما شاء، ويسكت عما شاء، وأن يأمر بما شاء، وينهَ عما شاء. وما علينا إلا الامتثال والأدب معه عزوجل. قال سبحانه في شأنِ القصص: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

[1] السلسلة الصحيحة، برقم (٢٨٦٦)، وقال الألباني: حسن على أقل الأحوال.

وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف(١١١)، وقال عزوجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ غافر(٧٨)

وفي معرِض الحكم والقضاء، يقولُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا ﴾ الأحزاب (٣٦)، ويقولُ أيضاً: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ النور(٥١)

***وأما تأويلهُ للمضغة المخلقة والغير مخلقة بأنها المسواة والغير مسواة، وأن ذلك يمثلُ ما قبل الإنسانية وما بعدها،** فهذا تأويلٌ جانحٌ ودعوى لا تقوم على دليل. لأن الآية الكريمة تتحدث عن طورٍ من أطوار التكوين الجنيني في رحم الأم، والسياق يؤيدُ هذا المعنى.

ثم القول بأنهُ مرحلةٌ في تاريخ الإنسانية، فهذا كلامٌ فاسد وتأويل باطل، لم يقل به أحدٌ ممن يُعتدُ به من صدر الأمة وسلفها الصالح. ناهيك عن أنه يتعارض وظاهر الآيات الكريمة، كما يُخرج المعنى عن سياقه الذي أخذ به أهل العلم وقرروه في كتبهم.

وما دام أن المؤلف قد سبق ردنا عليه بقوله: **"واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية"**(!!)، فالسؤالُ المطروحُ هنا: فلمَ التنظير وسَوْقُ الأدلة والمدافعة عنها، مادام أن العلماء رأوها تخمينية وليست يقينية؟!!.

علماً أن اليقين المستفاد من دلالة النصوصُ الشرعية، لا يرقى لمعارضته ما أتى به المؤلف في كلا كتابيه من الأدلة والشواهد التي لم تخرج في أصلِ حقيقتها عن دائرةِ الأوهام والتخرصات، رغم ادعائها الموضوعية والبحث العلمي، أو مجرد فرضياتٍ لم تثبت -في أحسنِ أحوالها!-.

***وأما استدلاله على تلك السلسلة التطورية، بقوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾.** فما ذهب إليه من الرأي والتأويل في خلق آدم عليه السلام ينافي هذا المعنى العظيم في الآية الكريمة ويتعارض معهُ أشد المعارضة!، لأن التفاوت حاصلٌ لا محالة باشتقاقِ نوعٍ من نوعٍ مغاير، ولابد لنا أن نتساءل عن العقدة أو الحلقة المفقودة في تلك النظرية المهترئة!. فمثلاً؛ اشتقاقُ الحيوان من الطبقةِ النباتيةِ الأدنى الملاصقة له -كما يزعمُ المؤلف-، فهناكَ ثغرةٌ في نقطة التقائها ولا ريب!. بينما استقلالُ الخلق الذي دلت على معناهُ النصوص الكريمة، واستيلادِ النوعِ من نوعه المماثل له، هو المعنى الذي يتوافق ويتوائمُ مع ظاهر الآية، و دلالةِ العقل.

ولو تأملنا نجد الآية في سياق الحديث عن خلقِ السموات، وهي جنسٌ واحد وارد في السياق، بخلافِ المعنى الذي يُنظِّرُ له أرباب الارتقاء عند استدلالهم بهذه الآية الكريمة؛ من جمعٍ لأجناسٍ عدة مختلفة متغايرة وزعم ارتقاءِ لاحقها من سابقها في سلسلةٍ واحدة!. ثم يسوقون الآية الكريمة ومثيلاتها استدلالاً على أصلهم الفاسد وزعمهم الباطل.

ويدلُ على هذا المعنى، ما ذكرهُ المفسرون من سلف الأمة الصالحين، فقد قال بعضهم في تفسير الآية: "الذي خلق سبع سموات طباقا. والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين - بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها - وإن اختلفت صوره وصفاته. وقيل: المراد بذلك السموات خاصة؛ أي ما ترى في خلق السموات من عيب"[(١)] . وعليه؛ فلا مستند له ولا دليل في الآية الكريمة على مراده.

***وأما قوله: "فإذا رأينا الطفل يُداعب الهرة ويحب الحمامة ويلعب بالعصفور فذلك لأنهُ كان بالأمسِ مثلها":**

فيُردُ عليه بأن هذا لا يصحُ دليلاً ولا مستنداً!، ولو اطردنا قولهُ أمكن أن نتساءل: هل رأيت حيواناً يداعبُ نباتاً لأنهُ كان بالأمسِ مثله؟!، أم نباتاً يداعبُ معدناً لأنه كان بالأمسِ مثله؟!. أم هل رأينا إنساناً يمتنعُ عن أن يطعم لحم حيوانٍ أحلَّهُ الله أو أن يذبحهُ –وقد سخَّرهُ الله له وأباحه- لأنهُ كان بالأمسِ مثله؟!. فهذا لا يقولهُ عاقل فضلاً عن أن يعتقده.

***وأما عبارته: بأن الله لم يجعل عظيماً في علمٍ أو في مال أو في ملك إلا إذا مرَّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرفها فرجع إليها،** فهذه دعوى عارية عن الدليل تماماً وزعمٌ باطلٌ لا مستند له، سوى النظرية التي هدمها العلم الحديث وأثبت بطلانها.

وعليه فباطلٌ ما استشهد به من حياةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورعيهم للغنم، وما زعَمَهُ من سائرِ الحِكم الفاسدة التي ساقها وأكَّد عليها –من منظوره-.

وإن شئنا الرد تنزلاً فإننا نتساءل: يلزم من هذا الزعم أن يكون جملةً من بني الإنس قد انخرطوا في جميع الأدوار المنحطة – بحسبِ زعمه – ليعرفوها فيرجعوا إليها!!، وشهادةُ الواقع ودليلهُ يدحضان هذا الزعم، فضلاً عن أن عمر الإنسان الزمني لا يتسع لأن يستوعب أنماط حياة الكائنات -بأسرها- مهما طالت به الحياة!.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ١٨، ص١٩٣. وانظر: تفسير البغوي للآية، جـ٨، ص١٧٦ ، وتفسير ابن كثير، جـ٨، ص١٧٧.

بقي أن نُذكِّر ببعض طغاة الأرض؛ كفرعون والنمرود فهم عظماء في مُلكهم ولكنهم جبابرةٌ طغاة. ففرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم دون رادعٍ من ضمير أو رحمة أو شفقة. ولم يبتعد النمرود عنه في صور الطغيان والتجبر في الأرض –وغيرهم كثير-، فهل هذا معنىً من معاني الارتقاء؟!. وهل اُختُزلت الأدلة والبراهين الواجبة -هاهنا- في مشهدِ طفلٍ يُلاعبُ قطة؟!.

*وأما جوابهُ على أحد تلك الأرواح المزعومة بقوله: **"فقالوا أي حيوانٍ أنت، فقلت الإنسان"، وسائر ما أورد من أضغاثٍ فكرية**[1]، فهذا مما لا اجتهاد في إبطالهِ لظهور بطلانه وجلاء فساده!. وليس العجبُ هاهنا إلا عجبٌ ممن يُصدقُ خيالاتٍ وأوهامٍ عَزْوُها إلى رؤىً ومناماتٍ كوكبية[2]، لا تصح لتأسيس عقيدة أو إبطالها، فضلاً عن أن تعارض يقيناً وضرورة من الدين راسخَينِ، أجمعت عليهما الأمة منذ عهدها الأول إلى يومنا هذا!.

*وأما ربطهُ بين الحيوانية والمكتشفات والمخترعات العلمية في العصر الحديث، -وهو قوله: **"الإنسان دائر في الدائرة الحيوانية ...كان الإنسان يحبو كالطفل على الأرض، فاكتشف البخار، فانتصب قائماً يمشي بالقطار، وبه قطع الكرة، وها هو استنبت له الجناحين ليطير في الهواء، وهل بعد هذا إلا البحث عن المدنية والإنسانية"-**

فلا تفسير لما لا يَعْدُ أن يكون موجة انبهارٍ بالمدنية المعاصرة، أفقدت التشبيه والربط منطقيتهما وتوازنهما حتى وجدنا أنفسنا أمام أمثال هذا النص. وكما أسلفنا فقد آذن هدمُ نظرية الارتقاء الجامحة وإظهار بطلانها، بانهيارِ جميع ما بُني عليها من مقدمات ونتائج فاسدة، ووسائل تنظيرٍ متبعة في ذلك.

*وكذلك قولهُ: **"رَسَمَ علماء الطبيعة صورة من هذا الإنسان، ووصلوه بالحيوان والنبات وكوّنوا منها سلسلة ذهبية منظمة، ... إذ أبانوا كيف ترقَّى النبات من أدنى أنواعهِ وتعالى في تدرجه وارتقى إلى درجةٍ عظيمة، تلاصق أرقى الحيوان، وأخذ هذا يتدرج حتى انتهى إلى الإنسان".**

فيُجابُ عليه بالآيةِ التي استشهد بها من قبل، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ الكهف (٥١).

---

[1] كسؤاله عن تلك المخلوقات، وجواب صديقهِ «الوجدان» عليه: "فقال إنهم جاءوا ليروك، فقلت ماذا يقولون؟ فقال: يقولون أنكم قرود الإنسانية، فقلت وما قرود الإنسانية؟، فقال حيوانٌ نصفه بهيم ونصفه إنسان. وأنتم الآن هكذا يا معشر بني البشر"(!!). ص١٧٨

[2] في الكتاب يردد المؤلف عبارة "صديقي الوجدان"، ويقصد به أحد الأرواح القادمة من كواكب بعيدة، لمحاورته وقص خبر الإنسان والإنسانيةِ عليه، فيقولُ عنه بأحد المواضع: "ثم أخذتُ أسألُ صديقي الوجدان وهو أحبُّ إلي من نفسي، فلا صديق سواه ولا مُعين إلا حكمته وعلمه"(!!). ص٧٧

فمهما رسم علماء الطبيعة، ومهما تخرصوا واستنتجوا وفرضوا من فرضيات، يظل التسليم للنص المحكم والخبر اليقين، إذ لا تُعلمُ أمثال هذه الأمور إلا بطريقِ الخبر الصادق والوحي المعصوم.

وعليه؛ فلا عبرة بما رسموا أو وَصَّلُوا، مادام يتعارض مع الثوابت الدينية الضرورية، هذا من جانب. ومن جانبٍ آخر –ونحن أمام خللٍ منهجي-، نتساءلُ تنزلاً: لم يذكر المؤلف بعد عبارتهِ تلك سوى ما نقله من رسائل إخوان الصفا، فهل كانوا هم علماء الطبيعة الذين عناهم المؤلف أم غيرهم؟!.

وبعد أن استعرضنا آراء طنطاوي جوهري في خلقِ آدم ؏، يجدر بنا الوقوف قليلاً لذكر بعض أسبابِ الخلل الفكري لديه حول تلك المسألة.

رابعاً: سبب الخلل

١) تنحية السنة الشريفة عن الاستدلال في هذا الباب:

من يستعرض مؤلَّفي الجواهر وأين الإنسان، يلحظ مباشرة شح وجود الحديث الشريف إلى درجة الانعدام، بمواضع الحديث عن خلق آدم عليه السلام، بينما يلمس حضور نظرية الارتقاء وأسماء علماء الغرب وفلاسفة اليونان وإخوان الصفا بوضوح وجلاء. ولعلنا نستشهد بكلامه –مما أوردنا سابقاً-، الذي يشكل طعناً في السنة المطهرة، شعر بذلك أم لم يشعر، يقول:

"واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليلٌ قطعي على كيفيته، والقرآن أتى به مجملاً على مقتضى ما تقبلهُ العقول وتفهمه النفوس"[١]، فنراهُ يُعرض بشكلٍ ملحوظ عن أي ذكرٍ للسنة الشريفة، التي لو أسلَمَ لنصوصها، لما ذهب لما ذهب إليه من تلك التأويلات الفاسدة الباطلة.

ومن الإعراض والقصور إلى التعميم المجحف، حيثُ يقول: **"ولكن كل ما يعرفه البشر في هذا المقام لا يصلُ للحقيقة الواقعة"**[٢]، وهكذا يَصدُقُ في جواهر جوهري قولَ من قال: "فيه كل شيء إلا التفسير"، نتيجة الإفراطِ والإغراق بمنهج التفسير العلمي.

٢) محاولة الجمع بين بعض نظريات العلم الحديث والقرآن الكريم في خلق آدم عليه السلام: وهذا واضحٌ جلي لمن تصفح تفسير الجواهر. يقول عنه الدكتور الذهبي: "... ويدخل في أبحاثٍ علمية مستفيضة يسميها هو «لطائف» أو «جواهر»، هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، أتى بها المؤلف ليبيّن للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبَّه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة".[٣]

هذا رأيُ الدكتور الذهبي -رحمه الله-، أما رأينا من خلال الاطلاع والتصفح الواسع، فإن تلك النية الحسنة لجمع علوم الشرق والغرب قديماً وحديثاً والتوفيق بينها وبين القرآن الكريم بجعلهِ أصلها وأساسها!، لم يخلُ ذلك من موجةِ انبهار يلحظها القارئ بوضوح في كلا المؤلَّفين لطنطاوي جوهري -رحمهُ الله-. حتى غدا بدلاً من أن يستدل لتلك النظريات أو عليها من القرآن الكريم،

---

[١] الجواهر في تفسير القرآن، جـ٣، ص٦

[٢] المرجع السابق، جـ٣، ص٧

[٣] التفسير والمفسرون للذهبي، جـ٢، ص٣٧٢-٣٧٣

يؤولُ معاني الآيات لتصحَّ دليلاً لها، دون المسيس بمقدماتِ ونتائج تلك النظريات والآراء، وما انطوت عليه من البطلان البيّن. وكأنها -أي تلك الآراء والنظريات- هي الصحة والصدق المطلَقَيْن دون ما سواها!.

***حَيْرَة:**

لقد أدى التسليم لعلوم اليونان ونظريات الغرب وفلسفاتها، لانحرافٍ عن السويةِ والجادة في فهم وتأويل نصوص خلق آدم عليه السلام الواردة في القرآن الكريم، مما أورث حيرةً وتردداً لدى مؤلف الجواهر، في الحين الذين كان يُنظِّر لفكرةِ تطور الخلق. فهل هذا اعترافٌ بقصور أدلته، أم عودةٌ ضمنية إلى فهم السلف دون أن يفصح، أم هو الاضطراب والتناقض؟!.

يقول –بعد أن ذكر بعضاً من تأريخ الأمم حول منبع الجنس البشري-: "... والسر الأصلي فيه أن الناس قديماً يرون أن مهد الجنس البشري في الشرق، وسره الأكبر ظنهم تولد الأبوين الأصليين من كل حيوان في خط الاستواء، أما الفرنجة فإنهم لا يزالون يتخبطون وليس لأقوالهم نهاية، ففريقٌ يرى أن الحيوانات البحرية مقدمة على البرية، والأنقص قبل الأكمل، مثل قدمائنا ولكن يرون أن الحيوانات التامة الخلقة مسلسلة من ناقصة الخلق حتى الإنسان، وهذا المذهب قد سار شوطاً بعيداً في القرن الماضي، ولكن علماء العصر الحاضر حقروه ونبذوه ظِهرياً وذموا قائله وقابلوه بالنكران وكفروا به، وهم لايزالون في البحث المجدين، ولايزالون مختلفين، **أما القرآن والتوراة فإنهما نصَّا على أن آدم خلق من التراب وحواء خلقت منه. هذا هو كلام الديانات وهذه علومُ الناس قد أحضرتها بين يديك على سبيل الإجمال. ويا ليت شعري إذا كان القرآن والكتب السماوية أجملت المقال، والفلاسفة والحكماء تفرقوا شيعاً، فأين السبيل؟"**.[1]

---

[1] الجواهر في تفسير القرآن، جـ٣، ص٧

خامساً: التأثيرات الفكرية على رأي طنطاوي جوهري في خلق آدم ﷺ:

المتأمل لمؤلَّفي الشيخ طنطاوي جوهري بعموم، ورأيهُ في خلقِ آدم ﷺ بخصوص، يتأكد له وجود أكثر من رافد فِكري لما ذهب إليه المؤلف من آراء، ولعلنا نجملُ ذلك في أربعةِ محاور:

أولاً: التأثر بفلاسفة اليونان:

لم تقتصر موجة التأثر و الانبهار بما عند فلاسفة اليونان، على سابقي الشيخ طنطاوي جوهري من مفكري الإسلام، وإنما سرت لتشملهُ هو أيضاً، فنراها جلية واضحة في تأليفيه –محل الدراسة-.

ولعلنا نكتفي بموضعين للتدليل على ذلك:

الأول قوله -في مسألةٍ تتعلق بالصلاة-: "ومسألة الصلاة في الآية وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر **يعوزها البحث والتنقيب في آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والأوروبيين وحكماء الهند وحكماء الإسلام. فإذا درسنا ما قاله هؤلاء في هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها في فهم هذه الآية.** ومتى تم ذلك لنا أدركنا سر نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، **لأن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. وعليه تكون آراء الفلاسفة في جميع الأمم أشبه بتفسير للقرآن لأنه آيات بينات في صدورهم** .. وإذاً فلنبدأ بدراسة حكماء اليونان، فنقول: .. ، وإذا أشرتُ إلى آراء علماء اليونان فلأتبعه بآراء علماء أوروبا.."[1].

وهُنا نرى المؤلف يُصنّف فلاسفة اليونان وحكماء الهند والأوروبيين ضمن من أثنى اللهُ عليهم!!، ومن الذين أوتوا العِلم!، ليزعم بعد ذلك أن تفسير القرآن يُلتمسُ من أولئك الكفار والوثنيين في مساواةٍ وتسوية بين أهل الإيمان الذين أثنى اللهُ عليهم في الآية الكريمة وبين أولئك الفلاسفة والحكماء الذين هلكوا قبل نزول القرآن الكريم ولم يشهدوا نور الإيمان الصحيح كما أنزلهُ الله تعالى. أو وُجدوا بعد زمن نزوله ولكنهم بدلاً من أن يؤمنوا به سعوا لمحاربته و محاربة أهله في عُقر دارهم وتخريب بلادهم واستنزاف ثرواتها وخيراتها بدعوى التعمير والنهضة!.

ثم لا ندري كيف سيلتمسُ سر نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر ممن لا يؤمن باللهِ ولا باليومِ الآخر!، -وإن آمن- فليس إيماناً صحيحاً خالصاً كما أُنزل على مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ الذي أُنزلت عليه هذه الآيات الكريمة!، وهل الصلاة التي سيَسألُ الوثنيون والكفار عن سرِ نهيها عن الفحشاء والمنكر كهيئةِ صلاتنا التي نعرف أم صلاةً أخرى ما نزل بصورتها الوحيُ الأمين؟!!.

[1] المرجع السابق، جـ١٤، ص١٨١-١٨٢

أما الموضع الآخر فنكتفي فيه بأسلوب عرض المؤلف وسياقه، إذ يقول على وجه التقرير: "إعلم أن أفلاطون في جمهوريته يقول .. إلخ"[1]، مما يُشعر القارئ أن كلام أفلاطون في جمهوريته إحدى المُسلَّمات التي لا تقبل الرد، أو أن آراء أفلاطون وفلاسفة اليونان مما تتعيَّن معرفتهُ أو العلم به!.

و يقول أيضاً تحت عنوان (المحكم والمتشابه في المظاهر الطبيعية): "وهذا هو التقسيم الذي ذكرهُ أرسطو وما قبله، وآخر ما وصل إليه نوع الإنسان اليوم، مثل هيكل الألماني وكوفيه وغيرهما، فتعجب وتأمل"[2](!!).

وفي موضعٍ يقولُ كذلك: "فها هي ذه جمعتُ آراء علماء اليونان ... وبهذا فهمنا معنى ما ورد[3] ... فإذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمها إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ... إلخ".[4]

ثم ليس استشهاداً فحسب، بل أن آراءهم تفيدُ اليقين!، يقول: "ذلك لأن مثل هذه تورثُ القارئ لهذا التفسير يقيناً لا يشوبهُ شك، لأن القرآن بهذه الآراء يصبحُ مطابقاً لآراء أكابر حكماء الأمم كسقراط وأفلاطون".[5]

والعجيب أنهُ يسعى للتقريب والموائمة بين القرآن الكريم وفلسفة غير المسلمين الذين لم يعرفوا القرآن ولا آمنوا به ولا شهدوا تنزيله ولا عايشوا روحانيته ولا اهتدوا بهديه!، في حين يُهمل الحديث والكلام عن العصرِ المهم بل الأهم بإطلاق، وهو عصر النبوة وعهدُ نزول القرآن الكريم على قلب نبي الرحمة ﷺ. وكان الأولى به أن يفرغ جهده حديثاً عنه مهتماً بعلومِ الربانيين من سلف الأمة الصالح ممن عايشوا التنزيل وشهدوا وشاهدوا أحكامه وقصصه ومواعظة ونصروا النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. ومن اهتدى بهديهم واقتفى آثارهم من التابعين وتابعي التابعين ومن جاء بعدهم واستن بسنتهم. أولئك الذين حوت صدورهم البينات وأولئك الذين أوتوا العلم حقاً لا الذين يدَّعيهم المؤلف وهماً و خيالاً!.

---

[1] المرجع السابق، جـ١٤، ١٨٣

[2] المرجع السابق، جـ٢، ص٥٥

[3] يقصد معنى قوله ﷺ: "أوتيت جوامع الكلم".

[4] المرجع السابق، جـ١٩، ص٢٣٠

[5] المرجع السابق، جـ١٥، ص٣٣

ثانياً: التأثر برسائل إخوان الصفا:

بالمقارنة البسيطة بين تفسير الجواهر ورسائل إخوان الصفا، نتوصلُ إلى نتيجةٍ تؤكد اعتماد صاحب الجواهر على تلك الرسائل بشكلٍ كبير، يتجاوزُ بأحايينَ كثيرة مجرد الاقتباس اليسير، ولكن النقول المطوَّلة أو استعارةِ فصولٍ بأكملها!. وسنوردُ على هذا دليلاً وقرينة، ناهيك عن أنهُ يصرّحُ بذلك تارة[1]، ويُغفلهُ تاراتٍ أُخر!.

١) فأما الدليل؛ فمثلاً؛ فصل (اجتماع خصائص الحيوان في الإنسان[2])، نجد نقلاً حرفياً لقرابة الثمانية أسطر –مما جرت مقارنته-، وسائر الفصل فيه من التشابه الكبير مع رسائل الصفا في صفحات أخر تتحد في نفس الفكرة مع ما أوردهُ صاحب الجواهر.
مثل ما جاء من كلامه في نعت الإنسان بـ "العالم الصغير" لاجتماع خصائص الحيوان فيه[3]، فقد وردت ذات التسمية وفق المعنى ذاته في تتمة فصل رسائل إخوان الصفا، تحت عنوان "فصل؛ بأن الحيوانات أنواع كثيرة[4]".

و كذلك بين ما أوردهُ جوهري من سلسلة الكائنات مبتدئاً؛ بالمعدن فالنبات فالحيوان ثم الإنسان، وما أوردهُ إخوان الصفا في رسائلهم تحت عنوان (مراتب الكائنات)، وعنوان (مما يلي الحيوانية) تشابهٌ كبير أيضاً.[5]

٢) وأما القرينة؛ فتشابه أسلوب الكتابَيْن، سواء ما ورد من بعضِ العبارات، أو طريقةِ السرد المطوَّلة فيه مع عبارات العرض كالعبارات -على سبيل المثال- : "الحكيم المبدع[6]"، "ألا ترى رعاك الله[7]"،

---

[1] كقوله: "وأنت إذا قرأت ما جاء في إخوان الصفا في هذا المقام، وما قصة اليعسوب وهو رئيس النحل وملكه، وهو يخطب في حضرة ملك الجن ... إلخ". ثم نراهُ يسردُ نقلاً كاملاً للقصة الخيالية التي تحكي محاورة الحيوانات للملك العادل في رسائل إخوان الصفا!. أنظر: الجواهر، جـ١٥ ص٧٤ – ص٧٧ ؛ وبعد نقلٍ بمقدار ثلاث ورقاتٍ ونصف تقريباً، ختم بقوله: "هذا ما أردتُ نقلهُ من كتاب «إخوان الصفا» للدلالةِ على نومِ بعض الحيوان في الشتاء شهوراً .. إلخ".
وكذلك في جـ١٩ ص٢٤٠-٢٤٤ ؛ نقلٌ بمقدار أربع ورقات لقصة أحدِ الحكماء، ختمها بقوله: "إنتهى ما أردته من إخوان الصفا والحمد لله رب العالمين"!. –وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر-

[2] المرجع السابق جـ١، ص٦٦ . وهناك فصلٌ آخر بعنوان "تذكرة في مقارنة ما في هذا بالقرآن وكلام الإمام الغزالي وإخوان الصفا". أنظر: جـ٩، ص١٢٤

[3] المرجع السابق جـ١، ص٦٧

[4] رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، لإخوان الصفا، د.ط، د.ت، مكتبة المصطفى الإلكترونية. ص٣٨٦

[5] أنظر: الجواهر جـ٢، ص٨٦ ، وَ رسائل إخوان الصفا، ص٧٤١-٧٤٢

[6] الجواهر، جـ١٤، ص١٠٢

[7] المرجع السابق، جـ١٤، ص١٩٤

"فانظر رعاك الله[1]"، "إعلم أيها الذكي[2]"، "كيموس[3]"، "هل لك أيها الذكي[4]". ومن أساليب الكتابة مثلاً؛ "ها نحن أولاء يا ربنا فهمنا وضعك[5]"، "أنزلت يا الله هذا اللغز في أرضك[6]".

ثالثاً: التأثر بعلماء الغرب:

لم يسلم الشيخ طنطاوي جوهري من لوثة الانبهار بما عند الغرب من علوم ونظريات، وقد بدا ذلك واضحاً جلياً كلما مر ذكر أحد أولئك العلماء الأوربيين فيغرق في وصفه بألقابٍ لا تخلو من مبالغة، كلقب "العلاَّمة"،وَ "الفاضل"!، ونحوهما.

فمن ذلك قوله –بعد أن ساق رأياً لجوستاف- : "وأنا أقول: أفلست ترى أن كلام العلاَّمة جوستاف جوليه يدلنا أن هناك شيئين نرجع إليهما"؟!.[7]

وحولَ أحدِ كتب جوستاف، يقول: "وقد قرَّظ علماء أوروبا كتابه الذي شرح فيه هذه الآراء وسماه (نشوء المادة) أحسن تقريظ، ثم قالوا إنهُ أعظم كتاب علمي ظهر بعد كتاب (أصل الأنواع لدارون)".[8]

وليس هذا فحسب؛ بل إنهُ لما عَرَض لحادثةِ تزوير هيكل الألماني لصور الأجنة البشرية، لتتوائم مع نظريةِ

النشوء والارتقاء -باعترافِ هيكل نفسه[1]-، قال بعد ذلك: "أفلا ترى أن هذا الرأي الذي اتبعهُ قوم راجع إلى إلى المتشابه في المادة كالمتشابه في القرآن؟ ... هذه السلسلة عند قوم متشابهة، لأنها في نظرهم الذي لا يتجه إلا

(1) المرجع السابق، جـ١٥، ص٥٦

(2) المرجع السابق، جـ١٣ ص٣٤

(3) المرجع السابق، جـ١، ص٦٦ . جـ٢، ص٦٦

(4) المرجع السابق، جـ١٣ ص٢١٥

(5) تحت عنوان "نظام خلق الإنسان". جـ٢٠، ص١١١

(6) تحت عنوان "جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ الحجر(٢٨)". جـ٨، ص٥٦

(7) الجواهر؛ جـ٢، ص٦١. وفي موضعٍ آخر يصف آخراً فيقول: "العلاَّمة إيلي دوسيون" جـ٦، ص١٣. وليس الإشكال في إطلاقِ ذلك الوصف وإنما فيما ترتَّب عليه من القبول المطلق لأقوالهم على أنها حقائق مسلَّمة، وهذا ملاحظ في تأليفي طنطاوي جوهري؛ "الجواهر" وَ "أين الإنسان".

(8) المرجع السابق، جـ١٤، ص٩٧-٩٨

إلى وجهة واحدة، تدل على أنهُ لا صانع لها لأنها مشتقة بعضها من بعض بتوالي الأزمان، فأين محكمها إذن؟".[٢]

كأنهُ يُريدُ أن يقول بأن الذين لم يؤمنوا بنظرية الارتقاء؛ إنما هو لظنهم بأن اعتقادها يُلغي وجود الصانع أو الخالق سبحانه وتعالى، لذا أتى بالمثال الذي سماه بـ «محكم الطبيعة»، ليتسنى لهم فهم ذلك، وأن نظرية الارتقاء ليس في القول بها بالضرورة منافاةٌ لوجود الله تعالى وحكمته وتدبيره!.[٣]

ولهذا وجدناه في مختتمِ حديثه عن المتشابه والمحكم الطبيعي المزعوم، يقول: "ولأختم القول في هذا المقام، وأقولُ لك أيها الذكي: انظر في هذه الدنيا وتعجَّب من العقول الإنسانية، وانظر كيف ترى أن الناس في بلادنا ... إذا قرأوا مذاهب الفرنجة، وسمعوا أن الإنسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض، هلعت نفوسهم وانخلعت قلوبهم وتركوا مواهبهم، وظنوا أن هذا قد جاء من علمٍ فوق طاقتهم، وعقلٍ فوق عقولهم"!.[٤]

ومن هالات الانبهار أيضاً، ما جاء في كتابهِ (أين الإنسان): "**العلاَّمة** هربرت سبنسر الإنكليزي، **والفاضل** اللورد أفبري، **والعلاَّمة** مركس الألماني، **والسيدة** المستشرقة المدام لبيديف «جلنار الروسية»، يحبون نوع الإنسان"(!!)[٥]

فيلحظ المتصفح لكتاباته -في مسألة خلق آدم على وجه التحديد-، التسليم التام بنتائج النظريات الغربية أو ما يطرحه أحد أولئك العلماء الغربيين، والمحاولة الحثيثة لتأويل الآيات الكريمة لتتفق معها أو معهم في ذات النتيجة.

رابعاً: التأثر بمحمد عبده:

كتب الدكتور فهد الرومي تحت عنوان (أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي الحديث): "ولقد أخذ من بعدهم الشيخ طنطاوي جوهري، وهو من المتأثرين كثيراً بمحمد عبده".[١]

---

[١] ومما قالهُ في اعترافه: "فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسي مقضياً علي وهالكاً، ولكنهُ يعزيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة، وبينهم عددٌ كبير من الفلاسفة المعوَّلُ عليهم في التجارب العلمية، وغيرهم من علماء الأحياء "البيولوجيا" فإن كثيراً من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة المعوَّل عليها، مزورة مثل تزويري تماماً لا يختلفُ عنه في شيء". المرجع السابق، جـ٢، ص٦٠

[٢] المرجع السابق، جـ٢، ص٦١

[٣] ولعل هذا المعنى هو السبب في تمسك بعض أبناءِ الإسلام بنظرية التطور والارتقاء كحقيقة لا تقبل الشك!، أمثال الأستاذ فهد الأحمدي، وهذا رابط مقالهُ بجريدة الرياض بعنوان "ومَن أيضاً سبق داروين؟": http://goo.gl/pRkbpX

[٤] الجواهر، جـ٢، ص٦٢

[٥] ص٧٦

وقال أحد المستشرقين، وهو «ريتشارد هارتمان»: "إن طنطاوي جوهري يسير على نهج الإمام مُحَمَّد عبده في فهمه أن الإسلام هو دين العقل والفهم لا التقليد"[٢]، وقد مرَّ معنا أن الشيخ مُحَمَّد عبده يُعد أبرز رواد المدرسة العقلية الحديثة ومؤسسيها[٣]، كما مرَّ معنا كلام الدكتور خالد السيف في تأثر جوهري بمنهجه العقلي التأويلي.[٤]

ولعلنا نعقدُ مقارنة يسيرة بين رأي مُحَمَّد عبده في تفسيره لآيةِ النساء، وبين تفسير طنطاوي جوهري الذي لا يختلف عنهُ سوى في الصياغة والتعبير، وإلا فالفكرة واحدة ومتشابهة، بل متحدة متطابقة!:

١/ فيما يتعلق بدلالة آية النفس الواحدة؛ قال بأنه لا نص قطعي يدل على أن المقصود بها آدم عليه السلام -بمعنى أن كيفية الخلق مجهولة- وإنما الأمرُ عائد إلى ما تفهمه النفوس وتقبله!، وكذلك قال مُحَمَّد عبده من قبل.

يقول جوهري: "واعلم أن خلق آدم فليس هناك دليل قطعي على كيفيَّته، والقرآن أتى به مُجملاً على مقتضى ما تقبلهُ العقول وتفهمهُ النفوس"[٥]. وأما مُحَمَّد عبده فيقول: "ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر ... وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم، فلاشك أن كلَّ أمةٍ تفهم منهُ ما تعتقده"!![٦]. ويرى أيضاً -كما ينقل عنهُ تلميذهُ رضا- "أنهُ ليس في القرآن نصٌ أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذريةِ آدم".[٧]

٢/ كما ذهب جوهري إلى تأويل (النفس الواحدة)، بمفهوم الإنسانية الواسع، بكونها مناط الوحدة والألفة بين الأجناس المختلفة، وهذا ما حاول تقريرهُ مُحَمَّد عبده من قبل. يقول جوهري: " ... هنا لم يقصد الخلق ومبدؤه لذاته، وإنما يُرادُ منه الاتحاد والوحدة العامة الإنسانية في هذا الوجود، وكأنهُ بعد أن أبان تناسب المادة وتناسقها في آخر آل عمران، أخذ يُبيّن تناسب الجنس البشري واتحاده النظري"[٨]. ويقول مُحَمَّد عبده: "على كل حال وكل قول، يصح أن جميع الناس هم من نفسٍ واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناساً، وهي التي يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرّهِم ودفع الأذى عنهم على كونها الحقيقة الجامعة لهم، فتراهم على اختلافهم في أصل

---

[١] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير. جـ٢،ص٧٣٣
[٢] الشيخ طنطاوي جوهري دراسة ونصوص للدكتور عبد العزيز جادو.
[٣] راجع الفصل الأول في هذا الباب.
[٤] أنظر ص٢٠٠ من هذا البحث.
[٥] تفسير الجواهر، جـ٣، ص٦
[٦] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٧ ، وقد رددنا على هذه الجزئية فليُراجع الفصل الأول من هذا الباب.
[٧] المرجع السابق، نفس الجزء، ص٢٧٩
[٨] تفسير الجواهر، جـ٣، ص٨

الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف إنهم إخوتنا في الإنسانية، فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك"!!.[1]

٣/ أما فيما يتعلق بالتردد بين الوحي وبين تلك النظرية الفاسدة، فمحمد عبده ذهب إلى ما ذهب إليه من الرأي في خلق آدم، لأن التصوّر الإسلامي في خلق آدم عليه السلام تُعارضهُ المباحث العلمية!، يقول فيما ينقل عنهُ تلميذه: "ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم، أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكرهُ من مُعارضة المباحث العلمية والتاريخية له .."[2]. بينما ابتدع جوهري تعبيراً آخر، فقال: "فأما التفصيل –أي في كيفية خلق آدم عليه السلام- فليس للكتب السماوية ... فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجم وعرب"![3]. **والحاصل عند تأمل القولين؛ نجد التعويل الكبير على نظريات الخلق الوضعية المزعوم عِلميتها، والعلمُ الحقُ والعقلُ الصُراح منها بُراء.**

---

[1] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٨٠

[2] تفسير المنار، جـ٤، ص٢٧٩

[3] تفسير الجواهر، جـ٣، ص٦

ومما سبق نخلص إلى أن:

- الشيخ طنطاوي جوهري يُعد من رواد المدرسة العلمية التجريبية في التفسير.
- الشيخ طنطاوي ممن أسس لنظرية التطور في تفسير الجواهر، عبر تأويل آيات الخلق بعموم، وخلق آدم عليه السلام على وجه الخصوص.
- كتاب "أين الإنسان"، يتحد مع تفسير الجواهر في الرؤية حول خلق آدم عليه السلام.
- الشيخ طنطاوي جوهري لم يسلم رأيهُ في خلق آدم عليه السلام من التناقض والاضطراب.
- الشيخ طنطاوي جوهري ممن انبهر بعلوم الغرب وآراء فلاسفة اليونان.
- تنحية السنة الشريفة من أبرز أسباب الخلل في رأي صاحب الجواهر في خلق آدم عليه السلام.
- الشيخ طنطاوي جوهري ممن تأثر بما يسمى برسائل إخوان الصفا في خلق عليه السلام.
- الشيخ طنطاوي جوهري ممن تأثر بالشيخ مُحَمَّد عبده.

الفصل الثالث

خلق آدم عليه السلام في رأي د . عبد الصبور شاهين

وفيه:

أولاً: نبذة عن الدكتور عبد الصبور شاهين.

ثانياً: التعريف بكتاب أبي آدم.

ثالثاً: منهج الدكتور عبد الصبور شاهين في كتاب أبي آدم والرد عليه.

رابعاً: سبب الخلل.

خامساً: التأثيرات الفكرية على رأي عبد الصبور شاهين في خلق آدم عليه السلام.

الفصل الثالث

خلق آدم عليه السلام في رأي د. عبد الصبور شاهين

أولاً: نبذة عن الدكتور عبد الصبور شاهين:[1]

د. عبد الصبور شاهين مفكر إسلامي مصري، من الدعاة المشاهير في مصر والعالم الإسلامي، وخطيب مسجد عمرو بن العاص أكبر وأقدم مساجد مصر سابقاً.

ولد الدكتور عبد الصبور شاهين فى (١٩٢٩ م - ١٣٤٧ هـ)، في أسرة علم ودين، فوالده الشيخ مُحَمَّد موسى على شاهين - رحمه الله - قد تخرج من الأزهر، وجده الأكبر شاهين بك زعيم المماليك إبان حكم مُحَمَّد على باشا، وأول من قتل فى مذبحة القلعة، ووالدته - رحمها الله - من أسرة عريقة من ريف المنصورة، وهى نفس القرية التي خرج منها الوالد إلى الأزهر الشريف.

دخل عبد الصبور شاهين الكُتاب فى سن الثالثة، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو فى السادسة وثمانية أشهر، فقد وهبه الله حافظة لاقطة، فكان يكفيه أن يكتب اللوح ثم يقرأه مرة واحدة. ولما بلغ الثانية عشر من العمر، دخل لجنة التدريب على الخطابة، فتعلَّم الخطابة في سنٍ مُبكرة.

ثم دخل مدرسة الأزهر الفرنسية، أو الرابطة الفرنسية، التي قال عنها فى مذكراته: "كانت فرنسا حريصة على نشر لسانها الفرنسي، فأنشأت هذه الرابطة التي كانت فروعها أكثر من ثلاثمائة وستين فرعاً منتشرة فى أنحاء العالم لتعليم شعوبه اللسان الفرنسي"، وأتم الدراسة فى المدرسة الفرنسية وهو فى السنة الرابعة بالمعهد الديني بالقاهرة.

ثم أراد مواصلة الدراسة العليا، فالتحق بكلية دار العلوم التي كانت بالقرب من كليةِ الحقوق الفرنسية التي التحق بها مُستمعاً أثناء دراسته الثانوية، فكان يذهب لدار العلوم صباحاً، وللحقوق مساءً. ولما أتم سنتين بها؛ صدر قرار بامتحان طلبة الليسانس بباريس، لكنهُ لم يذهب لباريس لأنه كان في السنة الثانية من كلية دار العلوم.

---

[1] أنظر: الموقع الرسمي للدكتور عبد الصبور شاهين -رحمهُ الله-: http://goo.gl/sJ8iXT ، وَ الموسوعة الحرة: http://goo.gl/D0zJ ، وَ موقع قصة الإسلام: http://goo.gl/dnTDQN

وكانت له اتجاهات صحفية أثناء دراسته فى المعهد الديني، فعمل ببعض مؤسسات النشر؛ كأخبار اليوم ومجلة روز اليوسف، وغيرهما، حتى إذا دخل دار العلوم اختاره اتحاد الطلبة بها ليرأس تحرير مجلة الاتحاد.

ثم في عام ١٩٥٥م، تخرَّج عبد الصبور من كلية دار العلوم، وعُيِّن معيداً، ونال شهادة الدكتوراه عن القراءات الشاذة في القرآن الكريم مثل القراءة بالسبع والأربعة عشر.

تقدم فى مسابقة الجامعة العربية للملحقين الدبلوماسيين؛ ونجح، ولكن لم يُعيَن، وتقدم للعمل بالإذاعة المصرية لإتقانه لغة أجنبية، قال عن هذه المسابقة: "تقدم لهذه المسابقة ثلاثمائة، فلم ينجح سوى عدد قليل، ثم دخلنا الامتحان الشفهي فنجح خمسة كنت أولهم"، ولكن لم يُقدَّر لهُ التعيين هذه المرة أيضاً. لكن الله تعالى فتح اللهُ له باب الترجمة؛ فترجم الكثير من الكتب الأجنبية.

أما مؤلفاتهُ التي أخرجها على مر خمسين عاماً، فقد زادت على الستين مؤلفاً، منها موسوعات ومؤلفات فى تخصصه -علم اللغة-، وفى العقيدة وفى التاريخ والسير، ومنها كتابُ دراستنا في هذا البحث: "أبي آدم" – قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة.

ونذكر من مؤلفاته في الإسلاميات على سبيل المثال:

١/ عربية القرآن.

٢/ حديث عن القرآن.

٣/ مفصَّل لآيات القرآن في عشرة مجلدات.

٤/ موسوعة أمهات المؤمنين، وصحابيات حول الرسول.

تزوج عبد الصبور شاهين عام ١٩٦٠م، من إحدى خريجات دار العلوم، وكانت المحجبة الوحيدة فى الكلية فى ذلك الزمان، عاشا معاً خمسين سنة وعدة أشهر، ضُرب بحياتهما المثل في الوفاق والإنتاج العلمي، والإنساني حيثُ رُزقا بالبنين والبنات.

اعتلى شاهين عدداً من منابر الدعوة؛ فخطب في مسجد مصطفى محمود لثلاث سنوات، ثم كانت مرحلة الخطابة في مسجد عمرو بن العاص واستمرت أكثر من عشرة أعوام، أتبعها ببناء مسجد بجوار منزله بحدائق الأهرام بالجيزة، وخطب على منبره عشرة أعوام أخرى، وعبر خمسة عشر الأعوام الأخيرة في هذين المسجدين؛ أتم تفسير أكثر من ثلاثة أرباع القرآن الكريم في الخطبة الأولى من كل جمعة، وهو إنجاز لم يسبقه إليه أحد من السابقين.

سافر عبد الصبور شاهين إلى معظم بلاد العالم، لمؤتمرات أو محاضرات أو تسجيلات أو تبادل زيارات، كما سافر لزيارة الجاليات المسلمة فى أمريكا وأستراليا والهند وغيرها.

عمل فى جامعة الكويت إبان إنشائها مُعارًا من جامعة القاهرة، من عام ١٩٦٩م إلى ١٩٧٣م. وفي جامعة البترول والمعادن –بالمملكة العربية السعودية- مُعاراً أيضاً من عام ١٩٧٩م إلى ١٩٨٣م، كما سافر كأستاذ زائر إلى بلاد عربية كثيرة.

شارك فى برامج التلفزيون المصري إبان افتتاحه، ببرامج خاصة وأحاديث ومشاركات، كذلك فى كل التلفزيونات العربية، وتعد هذه الأعمال بآلاف الساعات.

كما أشرف على مئات الرسائل العلمية من دكتوراه وماجستير، فى جامعة القاهرة والجامعات المصرية والجامعات العربية، وفي معاهد البحوث والدراسات الإسلامية والأفريقية، وقام بعدة أبحاث مع مشاركين في الأمم المتحدة واليونسكو.

وبعد حياةٍ حافلة بالعمل والإنتاج والفكر والخطابة والدعوة؛ توفي د. عبد الصبور شاهين يوم الأحد الموافق ١٦ شوال١٤٣١هـ، وصُلِّيَ عليه في اليوم التالي في مسجد عمرو بن العاص؛ بناء على وصيته، ودفن في مقابر أسرة شاهين بالإمام الشافعي. وإليه يُنسب تعريب مصطلح حاسوب وهو المقابل العربي لكلمة (كمبيوتر)، والذي أُقر من قبل مجمع اللغة العربية.

ثانياً: التعريف بكتاب "أبي آدم":

كتاب "أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة" لمؤلفه الدكتور عبد الصبور شاهين. يقع في (٢٠٨) ورقات مع الفهارس وقائمة المصادر والمراجع، وتقرير مجمع البحوث الإسلامية، وهو من إصدارات "دار أخبار اليوم بالقاهرة". ويعرض المؤلف في ثناياه قصة الخليقة بعموم، وخلق آدم عليه السلام على وجه الخصوص. وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م). كما أثار هذا الكتاب ضجةً كبيرة ولا تزال.

وتقوم فكرة الكتاب الأساسية على التفريق بين معنى "بشر وإنسان"، لتأكيد فكرة وجود البشر الهمجي الذي تطوَّر عنهُ البشر الأرقى الذي يُطلق عليه وصف أو مسمى "الإنسان". وعليه؛ فوفق فكرة الكتاب فإن كل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسان!.

أما تقسيم الكتاب، فيقع في مقدمتين؛ مقدمة الطبعة الأولى، ومقدمة الطبعة الثانية. ثم بابين رئيسين يندرج تحت كل منهما عددٌ من الفصول:

فالباب الأول بعنوان: القصة بين العقل والنقل، وفيه يُدافع عن رأيه في الاعتداد بنتائج الأحافير ونظرية داروين كفكرة علمية مُسلَّمة!، ويقع هذا الباب في تسعةِ فصول على النحو التالي:

الفصل الأول بعنوان: القصة والإسرائيليات؛ وفيه يحمل المؤلف على أهل التفسير بالمأثور بشكلٍ لم يخلُ من التعميم والتحامل الواضح.

الفصل الثاني بعنوان: النظرة العلمية؛ وفيه يعرض المؤلف – بشكلٍ لم يخلُ من التعميم - للحقب الجيولوجية بحسبِ تصنيفات بعض علماء الجيولوجيا. ثم استرسل في بسط الفكرة تحت عنوان فرعي آخر سماهُ: الإنسان بين العلم والقرآن.

الفصل الثالث: نظرة القدماء إلى وجود الخليقة؛ وفيه يحاول البرهنة والتأكيد على وجود أمم قبل آدم عليه السلام.

الفصل الرابع بعنوان: حديث القرآن؛ وفيه يقسم آيات الخلق في القرآن الكريم ترتيباً بحسب النزول.

الفصل الخامس: قسَّمهُ إلى؛ **أولاً: إعلام الملائكة، وثانياً: خلق البشر من طين.** وقد ضمَّن النقطة الثانية جزءاً يتحدث عن استعمالات القرآن لمفردة "بشر" لتأكيد نظريته.

الفصل السادس: أيضاً قسَّمه إلى؛ **أولاً: حقيقة الطين؛** وفيه تحدث عن مختلف العناصر التي تدخل في تركيب التراب أو الطين. **وثانياً: الخلق النفسي؛** وركز فيه على فكرة انبثاق النفوس من نفس واحدة قبل آدم وحواء عليهما السلام، وأن آدم وحواء أحد أجناس تلك النفس، و ليسا المقصودين بالنفس الواحدة في آيةِ النساء!.

الفصل السابع: وهو بعنوان "البشر والإنسان"؛ وفيه يعود لتأكيد فكرته في التفريق بين معنيي البشر والإنسان، وقد أدرج تحت هذا الفصل ثلاثة عناوين؛ **"القرآن المكي"، "الإنسان يخرجُ من البشر"، وَ "القرآن المدني".**

الفصل الثامن: يحمل عنوان "الطريق إلى الجنة"، وهنا يحاول إضفاء معانٍ عدة ليُدلل على وجود بشر سابق على العهد الآدمي الإنساني!، وأنهُ كان من الهمجية بمكان، فلذلك خرج عن نطاقِ التكليف الذي حصل لآدم عليه السلام وذريته في الجنة –باعتبار أن ذلك التكليف علامة لنضجِ ورقي البشر الإنساني!-. وقد حاول الاستدلال بآية الإشهاد استدلالاً لم يخلُ من التأويل.

الفصل التاسع: وقد عنون له بـ**"برهان التكرار"؛** وفيه يؤكد على المعنى الذي أراده –موضوع الكتاب-، بأساليبَ لم تخلُ من الالتواء والالتفاف. ثم يقرر نتيجةً صاغها في عنوانٍ ضمن الفصل: "آدم أبو الإنسان".

أما الباب الثاني فبعنوان: وقائع القصة؛ وقد قسمهُ إلى ستة فصول:

الفصل الأول: البشر واللغة؛ وقد حاول من خلالهِ التأكيد على موضوع الكتاب بالاستدلال على بساطة اللغة وتدرجها نحو النضوج والتعقيد، وأن في ذلك دلالة على تدرج البشرية من البساطة والهمجية، إلى النضج والرقي!.

الفصل الثاني: الإنسان الملائكة، وفيه يذكر علاقة الإنسان بالملائكة تمهيداً لفكرة الفصل الذي يليه.

الفصل الثالث: السجود للنبي الإنسان؛ وفي هذا الفصل والذي يليه يؤول المؤلف معنى السجود دون التفات لمخالفة ذلك لمدلول اللغة وسياق النص.

الفصل الرابع: موقف إبليس من السجود.

الفصل الخامس: بين إبليس وآدم؛ وهنا يجنح المؤلف لتأويل معنى السوأة للتدليل على أن المقصود بها سوءآت شتى لا سوأتا آدم وحواء، وهو يقولُ هذا تأكيداً على موضوعِ الكتاب بأن هنالك بشرٌ همجي قبل آدم عليه السلام.

الفصل السادس: اللغة والأسماء القديمة؛ وقد تناول عدداً من المفردات بالدراسة والبحث في أصلِ اشتقاقاتها اللغوية، ليُدلل كذلك على أن اللغة مكتسبة من بشرٍ سابق على آدم عليه السلام، بمعنى أنها مرَّت بمراحل نضوج الأمر الذي يؤكد مرور من استخدمها بمراحل من النضوجِ أيضاً!. وقد تناول في حديثه في هذا الفصل كلاً من الكلمات الآتية: (الله – الملائكة – آدم – إبليس – الشيطان).

ثم الخاتمة: وقد عنون لها بـ: **تأملات في المسألة الخلقية.**

ثالثاً: منهج الدكتور عبد الصبور شاهين في كتاب أبي آدم والرد عليه:

إن المتأمل لكتاب الدكتور عبد الصبور شاهين، الموسوم بـ " أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة"، يلحظ عدداً من الأمور تتعلق بجوانب شتى، أهمها:

١/ فكرة الكتاب الرئيسة.

٢/ المنهجية المتبعة لتدعيم فكرة الكتاب.

وثمة ملحوظات تتعلق بجوانب عقدية وأخرى علمية، سنشير إلى أبرزها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

١/ فكرة الكتاب:

تمحور كتاب "أبي آدم"، حول فكرةٍ رئيسة مفادها أن آدم عليه السلام ليس أبا البشر وإنما أبو الإنسان، وذلك سعياً منه للبرهنة على أن العلم الحديث لا يتعارض والنصوص المقدسة لدى المسلمين المتمثلة في الكتاب العزيز والسنة النبوية المشرفة. وتدعيماً لهذا التوجه الفكري الذي نشأ لدى الدكتور عبد الصبور – رحمه الله، نجده قد أنشأ مقدماتٍ ابتناها على أسسٍ لغوية وتاريخية شرعية للتأكيد على نتائج مرادةٌ له سلفاً. مما ألزمه لوازم أوقعته في تناقضاتٍ فادحة.

أما النتائج فجميعها تلتف حول هدفٍ رئيس، وهو وجود بشر سابقين على آدم عليه السلام. وسيمر معنا خلال الأسطر القادمة ما يوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

٢/ المنهجية المتبعة لتدعيم فكرة الكتاب:

عند استعراضنا لكتاب " أبي آدم "، نجد المؤلف قد سلك منهجيةً تركزت في الجوانب التالية:

- الإعتماد على معطياتِ علم الأحافير.
- تأويل بعض النصوص الواردة في خلق آدم عليه السلام، وانتهاج مبدأ التعميم في رد البعض الآخر
- صرف دلالة اللغة.
- ما أسماهُ بـ "التفسير التاريخي".
- التعويل على عامل الزمان، و هذا عاملٌ قوي الحضور فيما سبقه من العوامل الآنفة الذكر . ومدار الكتاب عليه.

أولاً: الإعتماد على معطيات علم الأحافير:

وفي هذا الجزء نرصد محاولات المؤلف لدعم نظريته، في التفريق بين البشر والإنسان استناداً إلى معطيات هذا العلم ونتائجه. وسنبدأ بما قاله في الفصل الثاني من كتابه تحت عنوان "النظرة العلمية". فبعد أن

سرد العصور والحقب الجيولوجية، أردف يقول على وجه التسليم[1]: "ومن الواضح أننا طبقاً لهذه المعلومات أمام أزمان متطاولة تُحسب كما نرى بعشرات المليارات من السنين".[2]

في حين يقدر بعض علماء الجيولوجيا عمر وجود الإنسان العاقل من مئة وخمسين إلى أربعين ألفاً [3]، مما أدى لاضطراب الرؤية لدى المؤلف ربما، فلم يستطع تصور وجود الإنسان في هذه المدة القصيرة على ظهر المعمورة التي يفوق عمرها ملآيين السنين بحسب تقديرات الجيولوجيين، وفي ذلك يقول: "هل يُعقل أن يكون هذا الملك والملكوت من أجل خليقةٍ لا تدوم أكثر من عشرة الآف سنة أو بتعبير أدق لا تدوم أكثر من عشرةِ أيام بحساب الزمان الإلهي؟!"[4]، لذا سعى للتوفيق والموائمة بين التقديرين على حساب النص المعصوم. لاسيما وأن المومياء أو الأحافير التي تم العثور عليها بمناطق مختلفة من العالم قد تخرصتْ بوجود بقايا بشرية يُقدر وجود بعضها بملايين السنين، والبعض الآخر بالآلاف من السنين، لذا عمد المؤلف للجمع بين تلك الآراء تحت مظلة النص المؤول للتوليف بين الثلاثة (الأمد القريب، الآماد السحيقة، و التقرير القرآني).

فمن جهة، عمد للجمع بين نظريات العلم الحديث والنص، لئلا يكون هناك تعارض بين النصوص القرآنية والعلم الحديث بعموم -كما يرى –. ومن جهةٍ أخرى عمد للجمع بين النظريات العلمية المختلفة التي أطلقها علماء الأحافير، ظناً منه أن كل واحدة لا تبتعد عن الحقيقة. لذا حوى كتابه جملة تناقضات وأغاليط لا تستقيم!.

هذا هو خلاصة المستفاد من النتائج التي توصل إليها، والمستعرض لكتابه يلحظ ذلك بوضوح. وإلا فلم يكن داعٍ لاعتقاد وجود الأوادم السابقة على وجود آدم إن سلمنا بمقدمتين: **الأولى**؛ أن ذلك من الغيب الذي علمهُ إلى الله تعالى ، ولا أصدق من نبأِ الحق ﷻ. **والثانية؛** أن نتائج تلك الكشوفات والأحافير ظنية، بل لا تفيد في تأسيس علمٍ عليها لنسبيتها من جانب، ومن جانبٍ آخر لثبوت وقوع التدليس والتزييف من بعض أولئك العلماء المنتسبين للعلم. [5]

لاسيما وأننا مسلمون نؤمن بأن نصوص الوحيين هي الحقيقة المطلقة، وأن ما ورد بها من قصص الخلق مسلمات مطلقة لا ينبغي التقديم عليها بحال، أياً كان ذلك المقدم من علمٍ تجريبي أو عقل، إذ هي – أعني تلك النصوص القدسية قطعية الدلالة بخلاف العقل والعلم فدلالتها ظنية فيما لا سبيل لمعرفته إلا بالخبر الصادق

---

[1] يشهد لهذا ما أورده في هامش (١) ص ٣٣ ، حيثُ قال: "من العلماء المعاصرين من لا يوافق على هذه التقديرات جملةً وتفصيلا ويصف القائلين بها بأنهم مزيفون وكذابون" !.

[2] ص ٣٢ .

[3] راجع تقسيم الموجات البشرية التي ذكرها المؤلف في مقدمته ص١٦ . على أنه يجدر التنبيه أننا لسنا بصدد تناول جوانب العلم الحديث المختلفة أو تقديرات علماء الجيولوجيا أو الأحافير بهذا الصدد أو التصحيح العلمي لما ورد في الكتاب من تخرصات ونظريات ، وإنما سيقتصر على الرد على تقريرات المؤلف التي اعتمدها على ضوء تلك التقديرات .

[4] ص ٤٨ .

[5] كقصة إنسان بلتداون وغيرها.

المعصوم -. يقول تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك(١٤). ويقول سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف(٥١).

أما تلك النظريات فقد تضاربت تقديرات أصحابها - علماء الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان -، في تحديد زمن ظهور الإنسان الأول -كما أسلفنا -، الأمر الذي تسبب باضطراب المؤلف تبعاً لذلك، ليصرف همه إلى تأويل آيات الخلق الواردة في القرآن الكريم لتتوائم مع جميع الآراء أو تقترب منها!. وسنعرض لما ساقه الدكتور عبد الصبور من تلك التخرصات العلمية.

ثانياً: تأويل بعض النصوص الواردة في خلق آدم عليه السلام، وانتهاج مبدأ التعميم في رد البعض الآخر:

وهنا سنركز حديثنا في المصدرين المعصومين:

أ – نصوص الخلق في القرآن الكريم:

لقد سلك الدكتور عبد الصبور في تأليفه، منهجية الفصل والتمييز بين قصص الخلق الواردة في القرآن الكريم بحسب النزول على أساس المكية والمدنية [(١)]. وبنى على ذلك نظريتهُ في الفصل بين مفهوم البشر والإنسان، مؤولاً بعض آيات الذكر الحكيم ومغفلاً البعض الآخر مما فيه لوازم واضحة لا تتفق ونظريته تلك.

فمن حيثُ التغاير، نزع الدكتور عبد الصبور إلى القول بأنما الإنسان هو البشر في صورته المطورة أو المحسنة المعدَّلة نتاج تزويده بالملكات العليا – كما يعتقد -، وعليه فآدم الذي علمهُ الله الأسماء كلها هو أبو الإنسان وليس أبا البشر.

أما الذي دفعهُ لذلك التمييز فحيثُ اعتقد أن خطاب الخلق الموجه في القرآن الكريم، تتغاير معانيه تبعاً لتغاير مكان ووقت النزول. وعليه؛ فكلُ خطاب يعبِّر عن أحدِ أطوار خلقِ الإنسان.

المكي يعبرُ عن بدايات البشر كما هي في تصور الدكتور شاهين، وهي البدايات التي اتسمت بالهمجية أو الحيوانية والغشامة – هكذا وردت تسميته ونعته! -، ثم ارتقت حتى وصلت إلى أرقى درجات التطوير والتحسين منتهيةً إلى الإنسان أو "المخلوق المكلف"، وهي ما عبَّر عنه التنزيل المدني بحسب اعتقاد المؤلف.[(٢)]

---

(١) ص ٩٠ – ٩٨ .

(٢) أنظر: ص٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨

غير أن الجدير بالذكر، أن المؤلف – فضلاً عن مقدماته الخاطئة – فإنهُ لم يطَّرِد فيها، مما أوقعهُ في التناقض البين الواضح.

هذا باختصار مسلك المؤلف الذي عوَّل عليه في كتابه كله، حيثُ نجد الفكرة مبثوثة في طياته، ومركَّزة في فصلٍ عقدهُ بعنوان "البشر والإنسان" [١]. وسنتطرق للرد تفصيلاً فيما يلي من الأسطر إن شاء الله:

***أولاً:** فيما يتعلق بالتمييز بين المكي والمدني، نجد المؤلف قد فصَّل في تفرقته بين دلالة الآيات المكية والمدنية، وعلى هذا الأساس جاء تعريفه لكلٍ من البشر والإنسان، وتنظيره لمراحل الخلق.

وقد استهل عبارته تحت فصلٍ عقده بعنوان "حديث القرآن"، بقوله: "جديرٌ بنا أن نذكر السور القرآنية التي تعرضت لقصَّةِ الخلق وما يتصل بها، مرتبة حسب النزول لنتابع من خلال هذا الترتيب تدافع معاني الوحي القرآني ومنهجهُ في سوق الأحداث والحقائق كما أراد الله للإنسان أن يتعلمها" [٢]

ثم ابتنى جدولاً لآيات الخلق مقسِّماً اياه إلى ثلاثة أعمدة، وكل عمودٍ فيها يحوي اسم السورة التي وردت بها آية الخلق، وترتيبها بحسب النزول ، وقائمة عنونها بـ " الملاحظات"، وأورد فيها مرئياته التي اعتمدها لنظريته في خلق الإنسان. على غرار الشكل الآتي:

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظات
١	العلق	الإشارة الأولى للإنسان
٤	المدثر	الإشارة الأولى للبشر
٧	الأعلى	﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ لأول مرة
٢٧	التين	إشارة عامة لخلق الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾
٣٠	القيامة	الذكر والأنثى ﴿ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾
٣٢	المرسلات	إشارة إلى الماءِ المهين والقرارِ المكين
٣٣	ق	إشارة إلى حضور الله في خلقه

وبعد أن ساق التفريقَ المجدول ، عطف على ذلك شرحاً وتعقيباً. ومما قال: "... ولا ريب أن مدلول الكلمة في الآيات الأربع يعني المخلوق المخاطب بالآيات المنزلة من الوحي أي الإنسان في عمومه، ثم لم ترد كلمة البشر بعد

---

[١] أنظر الصفحات من ٨٥ إلى ١٠١ .

[٢] ص ٥٧

ذلك في جملة في السور بترتيب النزول حتى السورة السادسة والثلاثين وهي سورة القمر، وذلك في سياق من قصة النبي صالح مع قومه ثمود".

ويستطرد: "بيد أن الإشارة التي تعتبر إضافة إلى المفهوم الأول للخلق باعتباره المرحلة الأولى جاءت في السورة السابعة في ترتيب النزول وهي سورة الأعلى فذكرت المرحلة الثانية في إيجاد الخلق وهي مرحلة التسوية، فقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾، والتسوية عمل إلهي سوف يرد ذكره باعتباره دائماً الخطوة الثانية في بناء هذا الخلق".[1]

وقبل أن نجيب تفصيلاً نوضح أن ذلك التقسيمُ الذي انتهجهُ المؤلف لو كان توقيفاً مستقراً لحمل الرد على كلام الدكتور، إذ بدايةُ التنزيل المكية تخاطبُ "الإنسان". فانتقضت دعواه على ما ذهب عليه من الاستدلال لحقبةِ البشر الهمجي، وأن تدرجات آيات التنزيل الواردة في الخلق تفيد تدرجات مراحل الخلق التي ينتهي بها الأوج والكمال إلى آيةِ البقرة المدنية التي تفيد خلق آدم عليه السلام وهو الطور المعدَّل و المسوَّى من البشر!.

وأما الرد تفصيلاً فكما يلي:

***مناقشة رأي عبد الصبور شاهين في خلق آدم عليه السلام:**

- **فيما يتعلق بتقسيم آي التنزيل إلى مكي ومدني:** فالعلماء قد اختلفوا بدءاً في وضع حدود التعريف للمكي والمدني[2]، ثم حتى في اصطلاحِ طائفةٍ منهم على تعريفٍ واحد، نجدهم قد اختلفوا في بعض الآيات فغدت بذلك محتملةً للرأيين، إما مكية أو مدنية. هذا من جانب.

---

[1] ص ٦١ - ٦٢

[2] منهم من ذهب إلى أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة، ومنهم من ذهب إلى أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، ومنهم ما ذهب إلى أن المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ وإن كان نزوله بغير مكة وأن المدني ما نزل بعد= =الهجرة وإن كان نزوله بمكة. وهذا الأخير هو الاصطلاح المشهور عند أكثر العلماء. وأما فوائد العلم بالمكي والمدني فقد أجملها العلماء في أمور منها: تمييز الناسخ والمنسوخ، ومعرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بعموم، والثقة بوصول القرآن إلينا سالماً إذ تكفل الله العظيم بحفظه، وما اهتمام المسلمين وأئمتهم بتدوين كل علمٍ من علومه وتفصيلاته ودقائقه إلا نوعاً من الحفظ الذي تكفل به رب العباد وسخَّر له الأمناء الصادقين من هذه الأمة المباركة على مدى التاريخ والأجيال إلى قيام الساعة. أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني. ط١ ، ١٤٠٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. جـ ١ ص ١٩٥ - ١٩٨

ومن جانبٍ آخر، فإن مذاهب علماء السلف ومفسريهم تقوم على الأخذ بكافة الآيات والنصوص الواردة في موضوعٍ واحد كونها تفسر بعضها بعضاً، وعند إيهام وجود التعارض فإن مذاهبهم تقوم على الجمع بينها. وعليه؛ يمكننا القول أن الفوائدَ من وراء معرفة المكي والمدني محصورةٌ لدى العلماء في نقاطٍ تتعلق بجوانب التشريع والأحكام لمن تأملها.

ثم النقطةُ الجوهرية والأهم؛ أن رسول الله ﷺ وهو قدوتنا والمشرّع لنا ومبيّن التنزيل، كان ﷺ إذا وردهُ سؤالٌ أو مسألة أو قضية واستشهد لها بكلام الله ﷻ، فإنهُ يستشهدُ بآي التنزيل بإجمالٍ دون تفريق بين ما نزل عليه بمكة وما نزل عليه بالمدينة. وهذا يوضح لنا مسالك العلماء حيث قاموا بالاجتهاد في ذلك لأمورٍ وحكم تتعلق بالتشريع والأحكام كما أسلفنا. وإنها إن دلت على شيء فتدل على اهتمام المسلمين وفي مقدمتهم الصحابة الكرام بكتاب ربهم سبحانه، والاهتمام بالوحي الشريف منذُ نزولهِ وإلى اليوم.

ومن أمثلةِ هدي النبي ﷺ في ذلك، ما رواهُ البخاري عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم فقال رسول الله ﷺ "إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه إن الشرك لظلم عظيم ".[١]

وبعيداً عن تصنيف الآيتين السابقتين أو مكان نزولهما، فالمقصود أن كثيراً من مواقف استشهادِ النبي ﷺ بالقرآن لم يعرِض فيها للتفريق بين ما نزل عليه بمكة أو المدينة. بل أن ذَيْنك المصطلحين مما أُحدثه أئمة العلماء والمفسرين بعده ﷺ لضبط العلم وللحكم والغايات التي سبق ذكرها آنفاً.

يقول الأستاذ جواد عفانه حول تفريق المؤلف بين المكي والمدني من آياتِ الخلق: "ترتيب سور القرآن في المصحف توقيفي، أما ترتيبها حسب نزولها فاجتهادي، ولم يتفق العلماء على ترتيبٍ لها معيَّن

[١] أخرجهُ البخاري في كتاب تفسير القرآن "سورة لقمان"، باب "لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم"، حديث رقم (٤٤٩٨)

قطعي، ناهيك عن وجود آيات مدنية في سور مكية، وبالعكس. فاعتماد الدكتور على هذا الأمر للوصول إلى حقائق علمية ليس من العلم في شيء ". [1]

- **فيما يتعلق بتوجيه خطاب التكليف للإنسان دون البشر:** حيثُ يعرِّف البشر في موضع بأنه: "المخلوق المخاطب بالآيات المنزلة من الوحي، أي الإنسان في عمومه"[2]، ثم يعود في موضعٍ آخر ليقرر بأن البشر لم يكونوا مخلوقاتٍ عاقلة، يقول: "والمفروض أنه قبل ظهور الإنسان، لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهبه لهم طبيعة مرحلة النمو التي يعيشونها، فقبل أن يكون العقل وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحياة وطبيعة الوجود". [3]

وفيما انتقد إطلاق مسمى " إنسان" على آثار الأحافير مرجحاً استخدام لفظة " بشر" [4]، نجده قد أعطى البشر جملة سِمات، إذ ينقسمون عنده إلى أربعة أقسام ، يقول: "وخلاصة القول أن الكلمة جاءت في القرآن بمعانٍ أربعة: الأول البشر هو: الظاهر على كلِ الكائنات (وهو المعنى الأصلي).
الثاني: المخلوق بإطلاق وهو المعنى الأعم.
الثالث: المخلوق غير المتميز (وصف سلبي)
الرابع: المخلوق المتميز (وصف إيجابي)".[5]
وقد ابتنى هذا التقسيم على ما قررهُ سلفاً اعتماداً على التمييز بين مفهومي البشر والإنسان وتجزئة الاستدلال بالنصوص بحسب مكيتها ومدنيتها.

على أن تلك القسمة تدحضُ نظريته بالكامل، إذ السِمات التي أضفاها على البشر السابق على آدم بحسب رأيه، ليس فيها ما هو إيجابي!. كيف لا وهم - بحسب اعتقاده – ليسوا غير مخلوقاتٍ "غشيمة"، حيوانية السلوك ، كأطفالٍ بلا عقول ولا أسماع ولا أبصار، كما أنهم أيضاً ليسوا إلا همجاً يتقاتلون ويتآكلون ويتفارسون

---

[1] آدم الإنسان أبو البشر رد علمي شامل على كتاب أبي آدم قصة الخليقة بين الحقيقة والأسطورة، للمؤلف جواد موسى عفانه، ط٣ ، ١٤٢٩هـ ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمّان. ص ٦٥
[2] أبي آدم، ص٦١
[3] المرجع السابق، ص١٧١
[4] المرجع السابق، أنظر: ص١٠٤
[5] المرجع السابق، ص٧٦

– أي يأكل ويفترس بعضهم بعضاً! – [1]، فعلى أي معنىً يُحمل التميز الوارد في التصنيف؟ وما مفهوم التميز عنده؟!.

ثم أليس الوصف الأعم يحملُ بالضرورة سمات الإيجابِ والسلب؟! – لاسيما وقد قررت عبارته التالية ذلك حيثُ قال: "ومن الواضح أن المعنى الأصلي الحقيقي هو المعنى الأول، أما المعاني الثلاثة الأخرى فهي معانٍ سياقية يمكن اعتبارها توسِعةً في استخدام المعنى الأصلي "[2]، فبمَ كان التمايز وكيف يعرف في خضم عملياتِ تعديل غير متمايزة، وإنما أسندها المؤلف إلى الوقت أو عامل الزمان وأطلق العبارة، ثم ترك القارئ في حيرةٍ كبيرة. فلا هو بالذي أحسن الخروج من المأزق ولا هو بالذي أحسن معالجة القضايا التي أثارها دون إخلال أو وقوعٍ في تناقضٍ بيّن !. ثم التساؤل الآخر الذي يرد: بما أن المعاني الأخرى سياقية فلا يمكن حملها على تصنيفٍ موازي كما فعل المؤلف، وإنما تفهم ضمن تفريعاتٍ تلحقُ بالمعنى الأصلي أو الأساسي، ومن ثمَّ فلا مسوّغٍ للاستدلال المجتزأ الذي نهجه المؤلف بالتفريق بين ما هو مكي ومدني.

أما إذا تناولنا تعريفه لمفردة " بشر"، فهي أيضاً لا دليل عليها إلا ما ارتآهُ من الرأي. حيث يقول بعبارةٍ لم تخلُ من التعميم والإخلال: "حقيقة لاريب لدينا فيها: هي أن بين البشر والإنسان عموماً وخصوصاً مطلقاً، فـ " البشر" لفظ عام في كلِ مخلوق ظهر على سطح الأرض يسير على قدمين منتصب القامة، والإنسان لفظٌ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته، فكلُ إنسانٍ بشر وليس كلُ بشرٍ إنساناً".[3]

وقد بنى ذلك على معنىً لغوي ذكره في ثنايا بحثه، حيث ذهب إلى أن البشر: "هو الظاهر أو المتحرك مع حسنٍ وجمال".[4]

بيد أن من لوازم هذا التعريف، دخول كل مخلوقٍ ظاهر على سطح الأرض، وكل ما يسير على قدمين منتصب القامة عاقلاً كان أم غير عاقل. وعليه فيدخل فيه على سبيل المثال، بعض فصائل القردة بالضرورة!. كما يدخل فيه أيضاً بعض المخلوقات القادرة على التشكل بصفة الإنس أحياناً كالجن والملائكة. فهذا مما يُردُ عليه. هذا من جانب.

---

[1] المرجع السابق، أنظر الصفحات: ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٢٨

[2] المرجع السابق، ص٧٦

[3] المرجع السابق، ص١٠٣

[4] المرجع السابق، ص١٠٣

ومن جانبٍ آخر، فالتزامهُ معنىً لغوياً عند تعريفه البشر وحصر المفردة في إطار ذلك المعنى، لا غبار عليه مادام قد ألزم نفسه به. لكن الإشكال العريض في زعم أن مراد القرآن الكريم من كلمة "بشر" هو ذلك المعنى، ليبني عليه مقدماته الباطلة. فهذه النقطة التي تستوجب الرد.

يقول في مقدمته: "إن هذا البحث قائمٌ على ركيزة الآيات المنزلة وهو لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآني" [١]، ويقولُ بموضع التقسيمات الأربع المذكورة آنفاً: "ولم تخرج الكلمة في الاستعمالات القرآنية عن هذا الإطار – يقصد كلمة بشر –" [٢]. ناهيك عن فصلٍ عقدهُ بعنوان "حديث القرآن" وهو الفصل الرابع في كتابه.[٣]

ثم هو من وقتٍ لآخر يؤكد على عبارة "استنطاق القرآن"!. يقول في الفصل الثاني تحت عنوان "الإنسان بين العلم والقرآن": "نحنُ نرى أن ذلك ممكن من خلال فهمٍ واعٍ للنصوص القرآنية فهم يخرج عن المذهب التقليدي الذي التزمت به التفاسير كلها، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني .. إلخ".[٤]

وأما عبارات التخصيص المفتقرة للدليل، فلم تكن حصراً على مفهوم "البشر" وإنما تناولت كذلك مفهوم "الإنسان". ليخلص المؤلف إلى نتيجتين صغريين هما: أن الإنسان غير البشر. وأن آدم النبي المكلف هو أبو الإنسان وليس أبو البشر. ووصولاً إلى النتيجة الكبرى أو قضيته الأساسية وهي وجود بشر أو أوادم سابقين على آدم عليه السلام.

وأما دليلهُ على الأوادم[٥] السابقين، فهي آية الاصطفاء المذكورة في سورة آل عمرآن عند قول الحق تبارك: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣). مع أن الآية لا دلالة فيها على ما ذهب إليه، وإلا فما يلزمُه تعدد المصطَفَين المذكورين في الآية كتعدد الأوادم. لاسيما وأن الاصطفاء للمذكورين جميعاً لا لآدمَ عليه السلام فقط، وهذا ظاهرٌ من سياق النص.

ثم أن ذكر هؤلاء الأنبياء الكرام مجتمعين لا يخلو من أسباب دلت عليها قرينة أو أكثر. ومن ذلك ما أوردهُ الإمام الطبري – رحمه الله – عند تفسيره الآية: "إن الله اجتبى آدم ونوحا واختارهما لدينهما وآل إبراهيم وآل عمران

---

[١] المرجع السابق، ص١٧
[٢] المرجع السابق، ص٧٥
[٣] المرجع السابق، أنظر ص٥٧
[٤] المرجع السابق، ص٥٠
[٥] المرجع السابق، أنظر: ص٥٢

لدينهم الذي كانوا عليه؛ لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبر الله - عز وجل - أنه اختار دين من ذكرنا على سائر الأديان التي خالفته". [١]

وعند الإمام القرطبي رحمه الله: "إن الله اصطفى آدم ونوحا، اصطفى: اختار ... والتقدير إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام".[٢]

وأورد الشوكاني للزجّاج كلاماً نفيساً، يقول: "اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم، وقيل: إن الكلام على تقدير مضاف؛ أي: اصطفى دين آدم .. إلخ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين، وتخصيص آدم بالذكر؛ لأنه أبو البشر، وكذلك نوح فإنه آدم الثاني، وأما آل إبراهيم فلكون النبي ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم".[٣]

لذا فيمكن القول أن سبب الاصطفاء ديني شرعي، لا المعنى الذي ذهب إليه دكتور عبد الصبور شاهين من أن الاصطفاء تزويد بالملكات العليا، فتلك الملكات حاضرة ابتداء في خلق البشر الطيني الذي أبوه آدم ﷺ، وكما يذكر الاستاذ جواد عفانه[٤] مستدلاً بقول الحق سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، فإن الله لم يخلق خلقاً ناقصاً البتة، ما عدا الحالات الفردية، وهي إن دلت على شيء فإنها دالة على تمام القدرة والإرادة والعظمة.[٥]

ورداً على تمييز المؤلف بين البشر والإنسان، وقولُه بأنه لفظ "البشر" لم يرِد في معرِض الخطاب بالتكليف في القرآن، نقول: سياق الآيات يقرر ضد هذا المعنى. فمثلاً في سورة المدثر – وقد استشهد بها المؤلف - ورد ذكر البشر في سياق الحديث عن النار – أعاذنا الله منها - ، خُتمت الآية الكريمة بقوله سبحانه: **﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾** (٣١)، **وكذلك الآية السادسة والثلاثون وهي قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾. وهل الذكرى والنذر إلا لعاقل؟!**، وقد نزل القرآن على النبي ﷺ وهو من ولد آدم الإنسان الأول.

---

[١] تفسير الطبري، تفسير سورة آل عمران، القول في تأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾، جـ٦، ص ٣٢٦

[٢] الجامع لأحكام القرآن، تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، جـ ٤، ص ٥٩

[٣] تفسير فتح القدير، تفسير سورة آل عمران؛ تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، جـ ١ ، ص ٢١٤

[٤] مؤلف وباحث إسلامي.

[٥] أنظر: ص١٢٨

وقد مر معنا من قبل، أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول، كما أنه أبو البشر الطيني. و هذا ثابت بدلالة النصوص الصحيحة كما في أحاديث الشفاعة "فيقول بعض الناس أبوكم آدم فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر"[١]، وقد وردت المفردة معرَّفة، وقد تكونُ لامها لام العهد. وبذلك لا منافاة بين كون آدم عليه السلام أبو البشر الطيني، وبين وجود بشرٌ سابقين من غير الطين. والعلمُ عند الله تعالى.

و دليلٌ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ الأنبياء (٣٤). يقول الإمام الطبري عند تفسيره الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك رسلنا".[٢]

وأما الدليل القرآني الثالث، فهو قول الله تعالى في معرِض إنكار الكافرين على رسلهم: **﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾** التغابن (٦). فموضعُ الشاهد هاهنا يؤيد ما سبق تبيانه بوضوحٍ لا ارتياب فيه ولا مزيد عليه.

فإن قال قائلٌ: كل إنسانٍ بشرٌ ولا عكس، أجبنا؛ بل هي لوازم القول بأن البشر الأُول ليسوا إلا همجاً ورعاع لا أسماع لهم ولا عقول ولا أبصار. والآية في معرِض التنكير، وبذلك يسقطُ التخصيص الذي أوردهُ الدكتور - رحمه الله - دون دليل.

وأما الفجوة التي أوكل المؤلف علمها إلى الله تعالى – وكان حرياً به أن يُوكل مسألة الخلقِ برُمتها إذ هي غيبٌ محض-، فنجدها عند حديثه عن كيفية بدء عهد آدم عليه السلام، يقول: " ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة، ولا دور أيضاً للخيال في رسمِ صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب، فذلكم مشهدٌ غيبي تم قبل الزمان الإنساني بزمانٍ إلهي".[٣]

---

[١] أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، حديث رقم (٣١٦٢)

[٢] تفسير الطبري، تفسير سورة الأنبياء، القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾، جـ ٨ ، ص٤٣٩

[٣] ص ١٠٥

لكن العجيب أنه أتى في موضعٍ آخر فشرح هذه الكيفية!، ليقول بأن آدم كان بين أغمار البشر، ثم تمت عملية العزل ريثما يُباد البشر الهمج لتهيئة الأرض لآدم وزوجه، ثم سجد الملائكة لآدم بعد أن ظلوا ملايينًا من السنين يرقبون تحولات ذلك البشر إثر عمليات التعديل والتسوية له، حتى آن أوان السجود [1]. وهذا تناقضٌ لا يختلف عن سائر التناقضات التي عجَّ بها كتاب "أبي آدم".

ثم الدليل الرابع وهو قول ربنا ﷻ: **﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ الشورى (٥١).** ووجه استدلالنا به؛ أن الكلام الإلهي لمن اصطفاهم الله تعالى من البشر، هو في الحقيقة مزيدُ تكريمٍ وتشريفٍ وتفضيلٍ بالنبوة، كما قال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ الأعراف (١٤٤). وهذا لا ينفي اصطفاء بني إسرائيل على عالَمي زمانهم، فكذلك هو اصطفاء البشر الإنسي على خلقٍ كثيرين. كما أن ذكر الكلام الإلهي هاهنا قد جاء موجهاً للفظةِ "بشر" وليس "إنسان"، وهذه مزية للبشر على الإنسان إذا سلَّمنا برأي الدكتور تنزلاً. ثم التنكير فيها ردٌ على دعواهُ بتخصيص المعاني، وتقسيم السمات.

وأما الدليل القرآني الأخير الذي أود الاستشهاد به هاهنا فهو قول ربنا ﷻ في قصة امرأةِ العزيز:**﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾يوسف (٣١).**

ووجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة، فيمكن القول بأن الانبهار الذي كان من النسوة، جعلهن يعتقدن ملائكية يوسف عليه السلام لا بشريته، ولو كان الإنسانُ أرقى من البشر وأفضل كما يعتقد د. شاهين، لكان تقديم ذكرِهِ هنا أولى من ذكر البشر – هذا إن سلّمنا بالفروق على النحو الذي ذهب إليه الدكتور شاهين -، ولكن لما كانت البشرية الإنسية عمومٌ مكرَّم بتكريمِ آدمَ عليه السلام ابتداء وردَ هذا اللفظ - والعلمُ عند الله تعالى -.

يقول د. عبد العظيم المطعني – رحمه الله -: "إن المؤلف لا يملك دليلاً واحدًا على أن ما ذُكر في القرآن بغير لفظ البشر، وبغير لفظ الإنسان، مقصورة دلالته على (الإنسان) دون (البشر) والأمر عند المؤلف قائم على التحكم المحض".[2]

ويقول – رحمه الله – في معرِض ذكرِ سماتِ الإنسان والبشر: "انظر إلى حديث القرآن عن (الإنسان)، ترى أن القرآن ما وصفه إلا بالأوصاف القادحة، أما (البشر) فلم يوصف في القرآن بهذه القوادح أبدًا".[3]

---

[1] أنظر الصفحات: ١٤٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩

[2] نقلاً عن "أبي آدم بين المفتريات والحقائق" للمؤلف غريب مُحَمَّد أبو عارف، د. ط، د.ت. ص٦٦

[3] المرجع السابق، ص٣٠

- **فيما يتعلق بمراحل الخلق و زعم امتداد التسوية:** فيذهب المؤلف إلى أن الإنسان ليس إلا نسخة معدَّلة من البشر بعد خضوعه لعمليات التسوية والتعديل لآماد طويلة!.

يقول في الفصل السابع الذي عنونه بـ "البشر والإنسان": "وهنا يأتي النص الكريم في السورة الثالثة والخمسين (الحجر) ليرد الإنسان إلى أصلِ البشر (صلصالٍ من حمأٍ مسنون)، ولما كان السياق في السورة يذكر الإنسان في مقابل الجآن في آيتي الحجر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾، فإن الحديث عن الأصل الترابي يرتبط غالباً (بالبشر)، ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ... وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سَوق الحقيقة هنا، فهو يذكر الإنسان هكذا معرفاً باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر والمخاطب بالآيات وهو في مقابل الجآن المشارك للإنسان في التكليف والمسئولية على هذه الأرض. فإذا شَرَعَ في بيان حقيقة الخلق منذ البداية ذكر أن هذه البداية كانت في صورة بشر هكذا منكراً باعتباره النموذج الذي أُجريت عليه عمليات التسوية والتصوير والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التي كان بها البشرُ إنساناً وهي العقل واللغة والدين)". [١]

وعليه؛ "فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنساناً بل كان بداية خلق إنسان في حيِّز القوة قبل أن يكون إنساناً في حيِّز الفعل". [٢]

لكن الدكتور – رحمه الله – فاتته آيات قرآنية كثيرة كان جديراً بالوقوف عندها والتأمل فيها، و لو كانت التغطيةُ أكثر شمولاً لَمَا نزع لِمَا نزع إليه من الرأي.

ولعلنا هاهنا نتأمل في سورة يوسف عليه السلام، فالله عزوجل أورد نصح يعقوب عليه السلام لابنه بعدم قصِّ رؤياهُ على إخوته وعلل ذلك بعداوةِ الشيطانِ للإنسان وإثارته الإحن في القلوب، يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ** عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٥). ثم في ذاتِ السورة الكريمة عندما كادتِ النسوةُ ليوسف عليه السلام سبق ذلك الكيد موجة انبهارٍ لدى رؤية يوسف، يقولُ سبحانه: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ **مَا هَذَا بَشَرًا** إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣١). فتداول الإطلاقين بحقِ شخصٍ معين في آنٍ واحد دالٌ على معانٍ مترادفة. هذا من جانب.

---

[١] أبي آدم، ص٩٣

[٢] المرجع السابق، ص٩٣

ومن جانبٍ آخر؛ إن زعم قائل: نعم كل إنسانٍ بشر ولا يسوغ أن يقال بأن كل بشرٍ إنسان!، ذكرنا أن ليس في الآيةِ تخصيص، بل شأنها كشأن سائر الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر الوصفين. والفرقُ بينهما في ملحظٍ يسير لمن تأمله؛ وهو أن غالب الآيات التي يأتي فيها ذكرُ البشر أو لفظة "بشر"، يكون في سياقها أو في سياقاتِ السورة نفسها ذكرٌ للكافرين والمؤمنين ومآلُ الفريقين وتكذيب الأمم الكافرة ومن مثلِ هذه المعاني . بينما كلمةُ " الإنسان" – في غيرِ آياتِ الخلق[1] - يقترن معها غالباً ذكرُ سماتٍ أصيلة في طبيعة وجبلةِ ذلك الإنسان، كاليأس والقنوط، والنكران والجحود، والهَلَع والجزع، والخصومة والعَجَلة وما إلى ذلك.

فكأن الصورة لمن تأمل؛ لفتُ انتباهِ الإنسان إلى ما قد يُرديه ويوبق آخرته إن لم تتداركه رحمة الله، فإن كان ممن غلب نفسه هواها وسلك سبيل ربه القويم، فعندها سيكون من أهلِ النعيم الأخروي، والعكس بالعكس بالنسبة للظالمين، فكأن المعنى؛ أن البشر بداياتُ الإنسان الفطري الذي لم يتلبَّس بأي لونٍ من الخطيئةِ بعد، وهذا يدعمه سياق الآيات الواردة في الخلق بهذه اللفظة "بشر، بشراً "، وهذا ما يُفسِّر – والله أعلم – خلو سياقات لفظ "بشر" من سماتِ الذم أو المدح مما ورد في خِطاب أحكم الحاكمين – أعني الآيات التي أسند الخطاب أو الحديث فيها إلى الله ﷻ مباشرة -. وأما ما أُسند الحديث فيه إلى الخلق؛ كالأقوام المكذبة من مثل "أنؤمن لبشرين"، "ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا". وكنسوةِ المدينة "ما هذا بشراً". ومثيلاتها من آي الذكر الحكيم، فهي التي تكون السِمة المتصورة بحسب نفس المتكلم. مثل قوله تعالى على لسانِ بعض الأقوام المكذبة: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ المؤمنون (٣٤)، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ التغابن (٦)، فهذا الذي على سبيلِ الاستكبار والعلو وتكذيب المرسلين استنقاصاً لهم، كمن قالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

فكأن المفردَتَيْن تعلقتْ إحداهما بالخَلقِ المادي وهي مفردة " بشر"، وتعلقتِ الأخرى بالصفة المعنوية "إنسان". أي بين الخَلقِ والخُلق. لأننا إذا تأملنا إنكار أولئك المكذبين، مثلاً في سورة الإسراء حين قالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾، نجد الله سبحانه وتعالى قد ردَّ على شبهتهم تلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ الآيتان (٩٤ – ٩٥).

[1] مع أن تلك السمات لا تبتعد عن أصلِ مادةِ الخلق، كما ورد في الحديث الذي مر معنا: "إن الله خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب وبين ذلك".

وفي الموضع الذي قبله مطالب المكذبين: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ... ﴾، ثم التلقين الإلهي للنبي ﷺ: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ الآيتان (٩٠ – ٩٣). فكأن المعنى تعظيم قدرة الرب القادر على كلِ شيء وعلى إنجاز هذه المطالب، في مقابل ضعف البشر المحدود بقدرات جسمانية لا يستطيعُ لها خرقاً. فالكفار طالبوا بمعجزاتٍ مادية تتطلب قدرة ليست لبشر محدود الطاقة والقدرة: "تفجر من الأرض ينبوعاً، تكون لك جنة فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، تسقط السماء كسفاً، تأتي بالله والملائكة قبيلاً – تعالى الله عن إفكهم علوا كبيراً -، يكون لك بيت من زخرف والزخرف هو الذهب، ترقى في السماء، تنزل كتاباً نقرؤه"، لذا ناسب ختم الآية بتسبيحِ الرب ﷻ ذو القدرة المطلقة.

وكذلك في سورةِ التغابن حين أنكر المكذبون أن يكون الرسل من البشر، جاءت الآيات التي بعدها في ذكر البعث الذي أنكره الكفار حيثُ استبعدوا إعادة الأجساد بعد أن تبلى.

وفي قصة المكذبين في سورة المؤمنون، إنما كان استنكارهم على أن بشراً (يأكلُ ويشربُ) مثلهم، ويقومُ بدنه بما تقومُ به أبدانهم، كيف له أن يكون رسولاً ينبئهم بأن ثمة للأجسادِ عودة بعد أن صارت رميم؟!. لذا حملت الآيات التي بعدها تقريراً لموضوعاتٍ شتى، منها ما يتعلق بتأكيد البعث، وتأكيد القدرة الإلهية المطلقة ومنها القدرة على الإحياء والإماتة، والتأكيد على صدق الرسول، وتبكيت المجرمين والكفار يوم القيامة، وغير ذلك مما يرد على دعاوى واستنكار المكذبين.

والمتأمل لمختلف الآيات الكريمات يلحظُ هذه المعاني بجلاء. فحيثُ أن "البشرية" لا تمدح أو تُذم لذاتها، إذ ليس لأحدٍ خيارٌ أو اختيارٌ في مظهره وشكله، كما أن ذلك المظهر أو الشكل ليس محكاً أو مُحدِداً في النعيم أو العذاب الأخروي خلت سياقاتها من أي سِمةٍ تتعلق به وكان العموم بذكر فرقاء الحق والباطل. أما "الإنسان"، فكان في سياقِ ذكره نعوتاً – هي على الأغلب – مواضع ذم. لذا كانت سياقاتها إن ذُكر فيها المآلُ الأخروي تخاطب تلك النفس التي هُذِّبت أو غفل صاحبها عن تهذيبها. ومثالُ ذلك نتأملهُ في سورة الإنسان، فبعد أن ذكر الله سبحانه خلق الإنسان من أخلاطٍ وأمشاج كانت البذرة لوجوده في هذه الحياة، عطف سبحانه بإبانه أنه قد هداهُ السبيل إما شاكراً وإما كفوراً – وهذه سماتٌ أصيلة في نفس ذلك الإنسان -، ثم لما تغلَّب عليها استحق نعيم الآخرة: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ الآيات (٩ – ١٠ – ١١). وذلك موضَّحٌ بقولهِ سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المفلحون﴾ التغابن (١٦).

وإنما زلةُ الدكتور عبد الصبور شاهين - رحمه الله – حيثُ رد المعنوي للمادي محاولاً جعلها شيئاً واحداً والتعامل معها على ذلكم الأساس، واعتبار أن المادي **" بشر"** أصلٌ للمعنوي **"إنسان"**. مستلهماً ومعتمداً على العلم المادي المعاصر – القاصر -، فوقع في الزلل والتناقض، إذ العلم الحديث يفتقر إلى أدلةٍ تشذيبٍ وتهذيب وارتقاء، وهذه لا تكون إلا من خلال الوحي المعصوم (علم الكتاب والسنة).

ب – نصوص الخلق في السنة المطهرة: إن المستعرض لكتاب " أبي آدم" يلحظ أمراً غاية في الوضوح والجلاء، وهو ندرة الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم. بل إن المؤلف اعترف بهذه الحقيقة في ثنايا كلامه، فأنى يستقيم له معنىً أو يتضح على ضوءٍ من البصيرة والهدى وقد أقصى السنة النبوية الشريفة بما فيها من التبيان والإيضاح.

وليس هذا فحسب، فقد جمع المؤلف إلى ذلك خللاً منهجياً باستشهاده بالموضوعات والروايات الضعيفة ناهيك عما حوى كتابه من الأساطير!.

يقول في مقدمته: "لقد كان جُل اعتمادنا في عرضٍ قصة الخليقة هي استنطاق آيات القرآن، باعتبارها المصدر الأول والأوثق ... و استعنا بقليلٍ من حديثِ رسول الله".[١]

وهنا حريٌّ بنا السؤال؛ ما هو ذاك القليل؟!.

إن المتصفح لكتاب "أبي آدم" المؤلف من (١٩٤ صفحة)، يلحظ أن الأحاديث التي أوردها المؤلف لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، إن استبعدنا الموضوع منها وما ضعفت روايته!. مما أورث خللاً كبيراً في الكتاب، ظهر من جملة المخالفات الشرعية السافرة و التناقضات البيّنة الفادحة. بل مما زاد الطين بِلة، أنه استعان بموضوعاتٍ لا تصح، كحديث: "كنت كنزاً مخفياً فأردتُ أن أعرف فخلقتُ الخلق فبي عرفوني".[٢]

والعجيب في الأمر، أنه حين ردَّ أحاديث الخلق بزعم أنها إسرائيليات لا تصح بأسلوب لا يخلو من التعميم، نجده يستشهد بالأثر الموضوع الذي ذكرنا آنفاً في موضعين لا موضع واحد. ويستجلب أقاصيص لا تصح ولا تصلح لأن تكون مما يستدلُ به. كما في رواية المستطرف للمسعودي عن تلك الأمة العجيبة [٣]، وكقصة ابن

---

[١] أبي آدم، ص١٢

[٢] المرجع السابق، ص٥ وَ ص٦١. وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٦٠٢٣) ولفظ: " كنت كنزاً لا أعرف فأحببتُ أن أعرف فخلقتُ خلقاً فعرفتهم بي فعرفوني" ، وقال "لا أصل له اتفاقا".

[٣] المرجع السابق، أنظر: ص٥١

طفيل وحي بن يقظان![1]. هذا مع كونه يفصح عن أن تلك الأقاصيص لم تخرج عن حيز التخيلات والأساطير!.[2]

أما في شأنِ أحاديث الخلق فقد وسمها بالإسرائيليات، وطعن بموضعٍ آخر في رواية أوردها لابن عباس رضي الله عنهما، ورواية أخرى ذكر أنها في صحيح الترمذي[3]. على أننا لسنا هنا بصدد نقد الروايات وتبيين صحيحها من سقيمها، ولكن الغرض هو تبيين هشاشة منهج المؤلف في كتاب "أبي آدم".

وليت الأمر توقف عند ذلك ، ولكن المؤلف – رحمه الله – عقَّب بعد طعونه تلك بنبرةٍ لا تخلو من تهكمٍ وسخرية: "على هذا مضت كل كتب التفسير تقريباً وكأنها تنقل من مصدر واحد، مع انطواء الرواية على كثيرٍ من صور السذاجة .. ويستمر الكلام في هيئة سيناريو يصف لنا ما جرى في ذلكم الأزل الآدمي .. "!.[4]

وقبله في صفحةٍ سابقة يقول: "وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس .. قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة .. إلخ ".[5]

ثم يتساءلُ مستنكراً فيما بعد: "كل ذلك مضى في الغيب – يقصد خلق آدم عليه السلام -، فكيف اطلع عليه هؤلاء القصاص من بني إسرائيل، وكيف سلَّم العقل الإنساني لحكاياتهم بهذه البساطة حتى أُختُصرتِ المسافة بين الله في ملكوته الأعلى وبين خلقهِ من الملائكة والشيطان إلى أن جاء دورُ آدم".[6]

ولو أن المؤلف – عفا الله عنه – استعان بكتب المتون والصحاح لوجد ما يجلي أمامهُ الحقائق، ولكنه أغفلها – عمداً أو دون عمد - فوقع فيما وقع فيه.

يقول: "لقد ابتلي العقل المسلم المعاصر من قِبل مدرستين لهما وجودٌ على الساحة، ولهما ضجيج مزعج، وقد آن أوان إخماد هذا الضجيج: أما أولاهما فهي المدرسة الخرافية التي تتبنى الحكايات والإسرائيليات، وأما الثانية فهي المدرسة الحرفية والتي تتشبث بالمأثور حتى ولو كان خرافياً وهي المدرسة التي ترفع السيف في وجه أي

---

[1] المرجع السابق، أنظر: ص١١ ، ١٢

[2] المرجع السابق، أنظر: ص١٢ ، ٥١

[3] المرجع السابق، أنظر: ص٨ ، ٩

[4] المرجع السابق، ص٩ . ونلاحظ التعميم أيضاً في ص١٠٨ عند الكلام عن روايةٍ للإمام الطبري رحمه الله .

[5] المرجع السابق، ص٧

[6] المرجع السابق، ص٩

اجتهاد بدعوى الخروج على قواعد اللعبة السلفية والسلفية براء من كل أشكال الأساطير والخرافات" [١].
وعليه فالهدف من إصدار كتاب "أبي آدم" هو القضاء على هاتين المدرستين.[٢]

وما سبق فهذه طرق استدلال مؤلف كتاب "أبي آدم"، فيما يتعلق بالكتاب العزيز والسنة المطهرة. مع ملاحظة إيلاء نظريات الأحافير والعلم الحديث الجانب الأكبر من المصداقية والاهتمام[٣]، برغم الاعتراف المتكرر بأنها نسبية النتائج!.[٤]

ثالثاً: صرف دلالة اللغة:

- **فيما يتعلق بالأصل اللغوي لكلمة آدم:** حاول المؤلف إيجاد أصلٍ اشتقاقي لمسمى "آدم"، ليدلل على أن قبل آدم عليه السلام كان ثمة أوادم بلغوا مرحلةً من التطور اللغوي، و إلى ألسنتهم تعودُ جذور التسمية، وذلك في إطار تدعيم نظرية الآماد السحيقة وعمليات التعديل والتسوية.

يقول بهذا الصدد: "والاسم رمز المسمى، فهل يمكن أن يُطلق على آدم هذا الاسم دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً في الرقي اللغوي بل مرحلة الإنسانية الآدمية"[٥]. ثم يستدرك أنه قد خالف آية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ (٣١)، فيلجأ للتأويل!:

يقول: "وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾، فهل لا يوحي منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية، أو أسماء لمعادن مجردة، وأن حصيلة ذلك كانت في عقل آدم؟ أو استطاع آدم أن يحصلها؟!، قد يقول قائل: إن اسم (آدم) هو اختيار الله أطلقهُ على أولِ خليفةٍ في الأرض!. ولكن التناسب الذي نجده بين الاسم والمسمى، أي بين معنى كلمة (آدم) والمادة التي ينتمي إليها وهي

---

[١] المرجع السابق، ص٢٣
[٢] أنظر المرجع السابق: ص٢٣
[٣] لغرض مواكبة معطيات العلم الحديث كما يذكر في ص ٢٧ : " .. وحين جاء العصر الحديث بمعطياته الكثيرة في مجالات علم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم الحياة والأحياء (البيولوجيا) وغيرها، تغيرت مفاهيمُ كثيرة وصار لزاماً على من يتصدون لكتابة شيءٍ عن هذه القصة أن يأخذ في اعتباره ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق نسبية وما قال به من نظريات حتى لا يبدو متخلفاً عن موكب المعرفة المعاصرة ".
[٤] أنظر المرجع السابق، على سبيل المثال الصفحات : ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٠
[٥] المرجع السابق، ص١٣٥

(أديم الأرض)، هذا التناسب لا يمكن أن يُتصور حدوثه على سبيل الصدفة أو الفجاءة[1]، فالفجاءة خروجٌ على سنة الله في الخلق والتسوية والإبداع، وهو آيات العظمة الإلهية ودلائلها. فلم يبق إلا أن نفترض مستوىً من النضج اللغوي بلغته البشرية في أواخر مرحلتها وفي بواكير العهد الإنساني، وهو ما يعني أن العربية قديمة قِدم التاريخ الإنساني على هذه الأرض على الأقل". [2]

لا زلنا نرى المؤلف يحاولُ جاهداً تدعيم نظريته في البشر والإنسان، رغم ترتبِ لوازم تقتضي مخالفةً بيّنة للنصوص الشرعية. فلتأكيد أطوار التسوية قال بقدم المسمى ونضوج اللغة، ثم قِدم هذه اللغة بقدم العهد الإنساني (لا البشري) ليؤكد بأن اكتمالِ ونضوج تلك الملكة العليا – وهي هنا اللغة بحسب تصنيفه – إنما تمت مع بدء عهد آدم عليه السلام. وهنا يترتب لازم علم آدم وإلمامه بتلك اللغة القديمة – حيثُ أنهُ عاشر البشر السابقين عليه وكان ضمن أغمارهم، وهذا ينافي آية تعليمه الأسماء كلها. فابتدع فكرة مستوى النضج اللغوي! – الأمر الذي أوقعهُ في لوازم لا انفكاك منها:

اللازم الأول: قوله بمستوى النضج في بواكير العهد الإنساني يخرج بالضرورة شيء من العموم (كلها) من تعليم الله تعالى لآدم.

اللازم الثاني: يلزم تلقي آدم شيئاً من العلم من غير الله تعالى، وهذا يلزم منه السبق وهو في هذا المقام مقام تفضيل، ومثالُ ذلك قوله تعالى للنبيعليه السلام: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ النساء (١١٨). فزعم أن آدم عليه السلام علم مسمياتِ أشياءٍ من قبل، ينافي سبب التفضيل على الملائكة حين قال لهم الرب سبحانه: ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء ﴾ البقرة (٣١).

اللازم الثالث: يلزم أن تكون مفردة (كل) لا حقيقة لها هاهنا – تعالى الله علواً كبيراً – مما يفتحُ باب الظن بإيرادها عبثاً، وهذا أمرٌ يتنزهُ عنه الباري سبحانه.

- **فيما يتعلق بتطور اللغة:** حيث استخدمه كدليل لوجود بشرٍ سابقين، والغريب أنهُ لم يمنع قيامها على محض الصدفة!. يقول: "لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعةٍ هائلة من الصدف العشوائية يجل

[1] هذا في الوقتِ الذي يعتقد أن بدايات اللغة كانت مجموعة صُدَفٍ عشوائية، مما أوقعهُ في التناقض!. والسؤال هاهنا: لِمَ جاز اعتقاد الصدفة في بدايات اللغة ومنعها في بواكير عهد آدم؟!. ليس ذلك إلا ليدلل على نظريته في البشر الهمجي والإنسان المعدَّل السوي!.
[2] المرجع السابق، ص١٣٥

حصرها"[1]، ثم شبه تداول المخلوق البشري الأول للغة بعبث طفلٍ للوحةِ مفاتيح جهاز الكمبيوتر حتى ألفها ونضجت معرفته بها.[2]

وهنا يُردُ عليه بجملةِ نقاط:

الأولى: قوله بالصدفة في موطن ومنعها في موطنٍ آخر لذات الموضوع – وهي هنا اللغة – محضُ تحكمٍ لا دليل عليه، مما أوقعه في التناقض.

الثانية: في قول الله عزوجل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ النحل (١٠٣)، دحضٌ لمزاعم استواء اللغة ونضوجها في العهدِ الإنساني ، إذ الآية الكريمة ترد مزاعم الكافرين بأن هذا القرآن قد تلقاه النبي من أحدِ الأعاجم. فكان الدفاع الإلهي المبين عن الكتاب المنزل حيث نعتهُ بالفصاحة والبلاغة ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾. فذكرُ البشر هاهنا في معرِض فرية الكفار بتلقي النبي ﷺ الوحي من "بشرٍ أعجمي"، يجعلنا نتساءلُ: هل الوحيُ إلا صفوةُ اللغة وأرقاها بإطلاق، وقد جاءت نسبة اللفظ القرآني للبشر وإن كان في سياقِ النفي والإنكار؟!.

الثالثة: في سياقِ قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ الروم (٢٠)، أتت الآية التي تلي ما بعدها في ذكر آية اختلاف الألسن والألوان، يقولُ تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (٢٢). فبالإضافة لوحدةِ السياق، نجد وحدة ضمائر "المخاطبين"، وهذا يُفهم منه تعدد لغات البشر وأن ذلك من آيات الله الدالة على عظيم قدرته. مما يردُ على مزاعم اللغة القديمة أو البدائية البسيطة التي دون مستوى النضج كما يعتقد المؤلف.

- **تأويلات متفرقة لدعم نظرية التغاير بين البشر والإنسان والأمد التطوري بينهما:**

أ / فيما يتعلق بتأويل السوأة المذكورة في الآية: نرى المؤلف يعمد إلى تفسير الآيات التي ورد فيها ذكر السوءآت تأويلاً يخرج بها عما ذهب إليه المفسرون على اختلافهم، فيبدأ بمقولةٍ يستأنف بعدها تأويلاته الداعمة لنظرية وجود البشر الغير عاقل قبل آدم عليه السلام. يقول: "لقد تناقل المفسرون رأياً واحداً عن السوأة وهي العورة، وقالوا

[1] المرجع السابق، ص١٣٤
[2] أنظر المرجع السابق: ص ١٣٤

- دون اختلاف – إن نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه .. وكل ما يقال في هذه المسألة هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ووصفها لما حدث، وعلى هذا يجوز أن نجتهد في فهمها ... ".[1]

ثم يبني معنىً جديداً فيقول: "القرآن ذكر السوأة بالجمع مضافاً إلى مثنى، وهو ما يعني أن ما بدا منهما ليس عورتيهما بل هي عورات كثيرة، ولو كانت العورة الغليظة هي المقصودة لقال النص الكريم (وبدت لهما سوأتاهما) لكن الجمع يوحي لنا بمعنىً آخر".[2]

ويردُ عليه في مسألةِ الجمع بما أورده أئمة أعلام؛ ومن ذلك قول صاحب الأضواء في تفسيره: "فإن قيل: لَمَ جمع السوءات في قوله سوآتهما مع أنهما سوأتان فقط؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن آدم وحواء كل واحد منهما له سوأتان: القبل، والدبر، فهي أربع، فكل منهما يرى قبل نفسه وقبل الآخر، ودبره. وعلى هذا فلا إشكال في الجمع.

الوجه الثاني: أن المثنى إذا أضيف إليه شيئان هما جزآه جاز في ذلك المضاف الذي هو شيئان الجمع، والتثنية، والإفراد، وأفصحها الجمع، فالإفراد، فالتثنية على الأصح، سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى. ومثال اللفظ: شويت رءوس الكبشين أو رأسهما، أو رأسيهما. ومثال المعنى: قطعت من الكبشين الرؤوس، أو الرأس، أو الرأسين. فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد، نحو: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ المائدة (٧٨).

ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الذي هو الأفصح قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ التحريم (٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ المائدة (٣٨).

---

[1] المرجع السابق، ص١٦٨

[2] المرجع السابق، ص١٦٨

الوجه الثالث: ما ذهب إليه مالك بن أنس من "أن أقل الجمع اثنان".[١]

وأما اجتهادهُ الآخر، فيقول: "افتراض أنهما فوجئا برؤية مالم يكونا يريانه مخالفٌ لمعنى الزوجية وسنة الله فيها. وأراء المفسرين قائمة على افتراض أنهما أول زوجين في تاريخ البشرية، وهو أمرٌ أثبتنا خلافه، فقد كان الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث منذ ملايين السنين بلا قيد أو شرط خلال العهد البشري حيث لم يكن دينٌ ولا تكليف".[٢]

ويُردُ عليه بما يلي:

أولاً: من حيثُ المفاجأة برؤية مالم يكونا يريان، فمعنى الآية الظاهر لا يُفهم منه هذا المعنى وإنما هو محض اجتهاد عقلي لا دليل عليه قد يصيب وقد يخطئ. خصوصاً إذا أخذنا برأي بعض المفسرين بأن ما كان عليهما نور، وأنه بمعصيتهما تقلص ذلك النور[٣]، وعليه فلا يلزم من وجود اللباس مخالفة معنى الزوجية. والعلم عند الله تعالى.

ويؤيدُ هذا ما ذكرهُ صاحب التنوير عند تفسيره للآية الثانية والعشرون من سورة الأعراف، فيقول: "وقد أفادت (لما) توقيت بدو سوآتهما بوقت ذوقهما الشجرة، لأن لما حرف يدل على وجود شيء عند وجود غيره...فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءآتهما لا يدل على أكثر من حصول ظهور السوءآت عند ذوق الشجرة، أي أن الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت".[٤]

فمن معاني (لما) أنها تقع ظرف زمان مختصّ بالماضي يقتضي جملتين وُجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما بمعنى حين أو حينما [٥]. وعليه فالذي يفهم من مدلولِ الآية أنهما لم يفقدا لباسهما إلا عند طعمهما من الشجرة، وهذا يعني أن أصل حالهما باقٍ على الستر واللباس حتى كان منهما ما كان من الأكل من الشجرة. وهنا يمكننا نفي رؤيتهما لتلك

---

[١] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، جـ ٤ ، ص١١٥

[٢] أبي آدم، ص١٦٩

[٣] وهذا رأي ابن عباس أورد القرطبي في تفسيره. أنظر: تفسير القرطبي ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، جـ ٧ ، ص١٦٢

[٤] التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، د.ط، د.ت، دار ابن سحنون. جـ ٩ ، ص٦٢

[٥] أنظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة "ل م ا".

السوأة التي لم يرد لها ذكرٌ قبل حادثة الأكل – كما هو الحال مع ورود ذكر إبليس وسافِكِي الدماء في الأرض -، وهذه إشارة عميقة تدحض مزاعم السوءات الكثيرة.

وإضافةً لهذا المعنى، فإن مدلول آيات سورة الأعراف، والتي اجتزأ منها المؤلف دليله، - بقصدٍ أو دون قصد لأن الأخذ بمدلول جميع الآيات لا يفيد هذا المعنى الذي جنح إليه، فتم الاجتزاء والإيهام – معنىً ظاهر جلي على صحةِ ما ذهب إليه جل المفسرين قديماً وحديثاً، من أن المراد بها عورتيهما (آدم وحواء).

يقول تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾ الأعراف (٢٠). ويقول بموضعٍ آخر:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ الأعراف (٢٢).

ولو أخذنا بتأويل د. عبد الصبور بأنها سوءآت كثير، لأجحفنا بباقي النص الكريم. فأين طفِقا يخصفان – سوأتيهما أم السوءآت الكثر! - وما إلى ذلك من تساؤلاتٍ ما داموا كُثر. لاسيما أن الآية واضحة الدلالة في قصة آدم وحواء دون سواهما.

كما أن سؤالاً آخر يرد على تأويل المؤلف: ما دام أن العلاقات بين الذكور والإناث كانت قائمة بلا ضابط من دين أو شرع، فما الفائدة في القول برؤيتهما السوءآت الكثيرة وقد كانا بين أغمار البشر ورأياها مراراً وتكراراً قبل ذلك؟!.

فتأويل المؤلف لا يخلو من تحكمٍ وتخرصٍ بلا دليل، ناهيك عن أن مسلكه في اجتزاء الدليل يردُ على تأويلاته تلك. فهو قد استشهد بالآية الكريمة التي أوردها الله سبحانه وتعالى في معرِض تحذير بني آدم عليه السلام، وكان الأولى استدلالهُ بالآيات التي تحاكي الحدث وهما الآيتان العشرون والثانية والعشرون. وأما الآية السابعة والعشرون والتي تُخاطب أبناء آدم عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ الأعراف (٢٧). فالاستدلالُ بها بعيد عن سياق القصة.

وللدكتور عبد العظيم المطعني – رحمه الله - ردٌ نفيساً على هذه التأويلات سأوردهُ بتمامه للفائدة، يقول: "وإذا جاريناه على أن التعرية كانت لكلا الجسدين، فهذا لا ينافي تخصيص القرآن ببدو السوءآت والسكوت عن عُري الجسدين الكامل؛ لأن القرآن ـ هنا ـ قصد أقبح ما في العُري، وهو بدو السوءات؛ لأن عري بقية الجسد لا يبلغ قبحه قبح بدو العورات.

وهذا التخصيص معروف عند علماء البلاغة بأنه صورة من صور المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، تعني أن البيان القرآني أطلق الجزء، وهو السوءات، وأراد الكل وهو جميع الجسد، نظيره في القرآن فتحرير رقبة مؤمنة والمراد الذات وليس الرقبة وغير هذا لا حصر له في القرآن وكلام العرب الفصيح".[١]

ويستطرد: "أما ما ذكره من دلالة (الجمع) في (سوءآتهما) الذي استدل به على أن البُدو بعد الأَكل من الشجرة لم يكن بدو العورات وهو مذهب سائر المفسرين؛ ودليل المؤلف على أن جمع السوءآت ينفي أن يكون المراد العورتين، وإلا لقال القرآن كما قال المؤلف: (فبدت لهما سوأتاهما) بالتثنية دون الجمع، فهذا كلام مردود. لأن له - أي الجمع المراد به مثنى - نظيرًا لا جدال فيه في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ التحريم (٤). فقد جمع القلبين وجعلهما قلوبًا، ولهذا الجمع في موضع المثنى نظائر في لغة العرب الفصحاء، وله معنى بلاغي لو بحث عنه المؤلف لظفر به ... ثم فات المؤلف ملحظ دقيق لو وقف عنده في آية الأعراف التي ذكرها في نفس الموضع الذي حاول فيه رفض بيان المفسرين لمعنى (السوءات).

الآية هي: ﴿ يَنزِعُ عَنهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ أفلم يلاحظ المؤلف أن القرآن - هنا - عبرَّ عن المثنى بـ (المفرد) وهو (لباس) مضافا إلى مثنى (لباسهما) فلماذا لم يقل القرآن: لباسيهما؟ ونسأل المؤلف:

هل كان آدم وحواء يرتديان كساءً واحداً أم كساءين، لن يستطيع أن يقول أنهما كان يلفان نفسيهما في ثوب واحد، أو كساء واحد، أو في لباس واحد؟. إذن فلماذا المفرد في موضع الجمع؟ أليست هذه كتلك؟ الأولى: جمع أريد به مثنى، والثانية: مفرد أريد به المثنى. إن خروج القرآن بالتعبير إلى غير المألوف نحويًّا فن واسع في نظم القرآن، ولهذا الفن دلالات بلاغية أنيقة تشع من ورائه".[٢]

ب/ فيما يتعلق بتحريف الدلالة الإعرابية في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾: يقول المؤلف: "ونصُ إعلام الله للملائكة يأتي هكذا ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ﴾ ص (٧١)، واستخدام الصيغة (خالق) هنا تفيد الإحداث .. أي الإيجاد من عدم. والسؤال هو: هل هذه الصيغة في موقعها تفيد المضي أو المستقبل؟. ونرى أنها تفيد المضي، أي أن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به".[٣]

---

[١] أبي آدم بين الحقائق والمفتريات، ص٧٩

[٢] نفس المرجع والصفحة.

[٣] أبي آدم، ص٧٠

وهذا التأويل من المؤلف ليدعم نظريته في القول بأن البشر عهدٌ سابق على الإنسان، لذا أراد إلحاق هذا المعنى بالآية الكريمة حيثُ ذُكر فيها لفظ "بشر"، في حينِ ألحق معنى الإنسانية في آيةِ البقرة التي ذُكر فيها استخلاف آدم عليه السلام، ليؤكد تغاير المفردتين على النحو الذي جنح إليه.

لكن المعنى الذي قال به المؤلف، تُعارضه قواعد النحو وتحكم بفساده. يقول د. عبد العظيم المطعني – رحمه الله-: أجمع علماء اللغة على أن اسم الفاعل (خالق) إذا نُصب ما بعده أريد به المستقبل، وإذا رفع ما بعده أريد به الماضي، والآية هنا: (إني خالق بشراً) إذاً: (خالق) أريد بها سأخلق بشراً.[١]

ج/ فيما يتعلق بتأويل الأجل: عمد المؤلف إلى تأويل معنى الأجلين في سورة الأنعام عند قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ **ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ** ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (٢)، مؤكداً أن إشارات القرآن تؤيدُ الزمنية بين العهد البشري والإنساني وفق ما ذهب إليه من المعاني[٢]. وفي ذلك يقول - بعد أن سرد معنى الأجل عند بعضِ المفسرين -: "ونحسبُ أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجلُ الحياة البشرية السابقة على العهد الإنساني، وأما الأجل المسمى فهو أجلُ كل فرد من المكلفين. فالأول مجملٌ يندمجُ فيه الكل في واحد، والثاني مفصَّلٌ لكلِ فرد لتعلقه بالمسؤولية والحساب والمصير. ولا مانع في نظرنا من إرادة ذلك في الآية".[٣]

وهذا تفسيرٌ شاذ كما يذكر الاستاذ جواد عفانه [٤]. ناهيك عن أن فيه معارضة بل مناقضة لسياق الآية الكريمة وما يتضح منها من المعاني.

و لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – لفتةٌ لطيفة في معنى الآية، وهو قولٌ وجيه عند تأمل الآيات، يقول: "أما قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ فالأجل الأول هو أجل كل عبد؛ الذي ينقضي به عمره **والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: (مسمى عنده) فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل كما قال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا**

---

[١] نقلاً عن محاضرة محررة للشيخ أسامة السلمان بعنوان "الأدلة من الكتاب والسنة على أن آدم خلق من تراب وأنه أبو البشر". أنظر: http://goo.gl/GAKCmd

[٢] أنظر: أبي آدم، ص٩٤

[٣] المرجع السابق، ص٩٥

[٤] أنظر: آدم الإنسان أبو البشر رد علمي شامل، ص١٢٤

إِلَّا هُوَ ﴾. بخلاف ما إذا قال: (مسمى)، كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده فقد يعرفه العباد".[1]

د/ فيما يتعلق بهدف الإسكان في الجنة: عزل السلالة المنتقاة من السلالات الهمجية ريثما تتم إبادة الجميع: وهنا نرى توظيفاً جديداً للنص والأحداث لإحداث معنىً جديد يؤيد فكرة سابقة، فيذهب المؤلف إلى أن إسكان آدم وزوجه الجنة إنما كان لعزله عن سائر سلالات البشر الهمجية، ريثما تتم إبادتهم لتهيئة الأرض لاستخلاف آدم ﷺ وزوجه عليها، باعتباره السلالة المنتقاة من جنس البشر، يقول: "وليس يبعد أن نفترض أن الخالق سبحانه – وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض، والنهوض بأمر الدين، وإقامة التكاليف وفي مقدمتها التوحيد – قدر سبحانه فناء كل البشر من غير ولد آدم، وذلك بعد عزل السُلالة الجديدة المنتقاة في الجنة، حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية بطليعتها المصطفاة آدم وحواء. وبدأ التكليف داخل الجنة وبدأ الصراع بعد أن أُخليت ساحته من العناصر الطفيلية التي لم يعد لها دور بل التي انتهى دورها ليبدأ على الأرضِ دورٌ جديد".[2]

ثم يتساءل: "لكن كيف بدأ هذا الدور؟ أو كيف استهل ذلكم العهد؟، ذلك مالا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ولا دور أيضاً للخيال في رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب".[3]

ويَرِدُ عليه بجملةُ نقاط:

أولاً: يرى الدكتور أن الجنة التي أدخلها آدم ﷺ جنة أرضية، لتسلم له نظريته بوجودِ البشر السابقين الذين كان بين أغمارهم. ثم تم عزل آدم وزوجه ريثما تتم إبادة البشر الهمج وتتهيأ الأرض لاستخلاف آدم ﷺ. وهنا نقول: بقطع النظر عن مكان الجنة التي أُسكنها آدم ﷺ، فالقول بفكرة العزل يرد عليها عددٌ من التساؤلات لم يرد البحث ببيانها، وهذا خللٌ وقصورٌ كبيرين، فضلاً عن أن القول بفكرة العزل محضَ تخرص وتحكم لا دليل عليهما.

فمن التساؤلات الواردة: ١/ لماذا تمت إبادة البشر، وكيف تمت؟. فإن الله سبحانه وتعالى أكرم من أن يهلك خلقاً بعامة – بإبادة جماعية – دون جرمٍ اقترفوه، فما ربنا بظلامٍ للعبيد. وقد قرر سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية، تفسير سورة الأنعام ، جـ ١٤ ، ص٤٨٩

[2] أبي آدم، ص١٠٥

[3] المرجع السابق، ص١٠٥

لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود (١١٧)، وقال عزوجل: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ الكهف (٥٩).

فالله تعالى أخبر أن سبب إهلاك الأمم هو ظلمهم وَحَيْدتهم عن الجادة والصراط المستقيم بتكذيب أنبيائهم ومشاقتهم لله ورسله وانعدام وجود الإصلاح فيهم، وهذه الأسباب لا تنطبق على بشر كتاب أبي آدم، إذ هم همجٌ رعاع لا عقول لهم ولا أدوات للمعرفة، فالله تعالى أكرم وأرحم من أن يهلكهم بسبب عام دون ظلمٍ منهم!. وما دام لا تكليف أيضاً فتوقع الإهلاك والإبادة الجماعية دونما سبب ليس وارداً كذلك!.

٢/ كيف تمت الإبادة وما المدة الزمنية التي استغرقتها، وهل تأتى ذلك مع زمن مكوث آدم في الجنة، إذن؛ فيلزم أن يكون سبب خروج آدم من الجنة هو انتهاء الإبادة والتصفية، لا المعصية. وفي هذا مخالفةٌ شرعية كبيرة لأن الله تعالى أخبرنا عن سببٍ واحد لخروج آدم ﷺ من الجنة، والمؤلف هاهنا يذكر لنا سبباً لدخول آدم ﷺ الجنة وسببين لخروجه!. مع أن الذي تقرره الآيات الكريمة على اختلافها أن الله تبارك وعز، أسكن آدم الجنة امتناناً وتكريماً وتشريفاً له، وجعل له زوجاً من نفسه وهي حواء عليها السلام. وأباح لهما كل متع الجنة وأطايبها خلا شجرةً واحدة.

٣/ زعم السلالة المنتقاة محض تخرصٍ يفتقر إلى دليلٍ شرعي محكم. و يردُ هاهنا سؤالٌ أيضاً: مادام أن آدم سلالةٌ تفصل بين عهد الجدود الهمج وعهد الأبناء العقلاء، فأين هي نقطةُ الفصل، أو حلقة الوصل التي تمايز بها الفريقان؟!. وكيف خَلَصَ آدم من سلالةٍ همجية فغدا سلالةً منتقاة دون أن يكتسب شيئاً من سمات الهمجية بحسب سنة الاكتساب الوراثي؟!. فإن كان ذلك غيباً لا يمكن الخوض فيه أو لا ينبغي، فمن باب أولى مبدؤ التخرص مادام يفتقرُ إلى الدليل.

وللشيخ مُحَّد حماد[1] كلمة إلزامية موفقة، أوردها عنه صاحب كتاب "أبي آدم بين الحقائق والمفتريات"، يقول: "وإذا كان مدار فكرة الدكتور على اصطفاء آدم من بين آخرين والاصطفاء عنده بمعنى واحد هو الاختيار، وذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران (٣٣)، فما هي حجته في اختيار حواء من بين بنات جنسها من (البشر)، ولم يذكر الله لنا أنه سبحانه اصطفاها؟ وإذا كان اصطفاء آدم للنبوة وحمل رسالة الدين هو مناط اختياره فما هو في رأي الدكتور في الإبقاء على حواء وحدها من بين جميع نساء (البشر) الذين بادوا وهل كان بقاؤها لمجرد كونها زوجة النبي المصطفى؟ وهل يكفي

[1] لم أعثر له على ترجمة .

كونها زوجة آدم في المرحلة (البشرية) أن تفوز معه بالبقاء وعدم التعرض لقرار الإبادة؟ وألم تكن زوجة سيدنا لوط من المُهْلَكِينَ؟".[1]

هـ/ فيما يتعلق بتأويل النفخ: يفسر د. عبد الصبور النفخ الوارد في آيات الخلق، بأنهُ إمداد البشر المعدَّل بالملكات العليا، وبهذا التأويل الجامح تتأتى له نظريته في اعتقاد وجود البشر الغير عاقل وهو الذي خلا من تلك الملكات، (والبشر العاقل أو العهد الإنساني) وهو الذي تم تزويده بتلك الملكات العليا، وهي الـ (العقل واللغة والدين). يقول تعقيباً على قوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾: " ... ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة هي (الخلق والتسوية والنفخ)، ومن السذاجة تفسير هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد، فقد حدث ذلك في مرحلة الخلق الأولى التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوقٍ ظاهر (بشر)، يتحرك على الأرض بالروح الحيواني كما تتحرك سائر الكائنات من حشرٍ وطير ... ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تسميته بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري، وقد استغرقت ملايين السنين والله أعلم بتفاصيلها. ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوي بالملكات والقدرات العليا التي جوهرها (العقل) والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء".[2]

ولم يكتفِ المؤلف بهذا التأويل فحسب، ولكن نسب ذلك إلى القرآنِ زعماً باطلاً، يقول: "وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سوق الحقيقة هنا، فهو يذكر (الإنسان) هكذا معرفاً باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر والمخاطب بالآيات ... فإذا شرع في بيان حقيقة الخلق منذ البداية ذكر أن هذه البداية كانت في صورة (بشر)، هكذا منكراً باعتباره النموذج الذي أجريت عليه عمليات التسوية والتصوير والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التي كان بها البشر إنساناً، وهي العقل – واللغة – والدين".[3]

وعليه؛ فالمخلوق البشري قبل التسوية كان إنساناً بالقوة لا الفعل، حتى دخلت عليه عمليات التسوية والتعديل فصار إنساناً بالفعل.[4]

---

[1] ص١٠٧

[2] أبي آدم، ص١١٠ ، ١١١

[3] المرجع السابق، ص٩٣

[4] أنظر: المرجع السابق، ص٩٣

وأما أدواته التي وظَّفها لخدمةِ المعنى، فهي التحريف المتعمد لبعض دلالاتِ اللغة، وسنذكر هنا مثالاً جلياً واضحاً – وهو حرف التعقيب " الفاء " –، في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ الانفطار (٦-٧). يقول: "وقد يسوغ هذا التضمين أن المخاطب وهو الإنسان، لا يرى في ذاته سوى مخلوق مكتمل خلقاً وتسوية وعدلاً. فهو يرى اندماج هذه المراحل في ذاته، ولذلك لاقَ أن يُضمَّن (الفاء) معنى (ثم) المتراخية".[١]

ثم أوردَ تفسير الإمام القرطبي للآية، وعقَّب عليه بقوله: "ولسنا مع هذا التوجيه، مع أنه يحلُ مشكلة التراخي مع الفاء. لأن الأسلوب القرآني درج على استخدام كلمات الخلق والتسوية والنفخ خاصة بأحوال البشر منذ وجدوا، إلى أن صار البشر سوياً، أي إنساناً اصطفاهُ الله".[٢]

ويُرد عليه بما يلي:

أولاً: أن هذا القول ملزمٌ باعتقادِ روحين؛ روحٌ حيوانية أصيلة هي الأولى، وروح عاقلة هي التي طرأت بها عمليات التسوية. وهذا القول ناهيك عن مناقضته الأصول والثوابت العقدية، فإنهُ باطل عقلاً، إذ هو مقدمة لإقرار الداروينية أو التناسخ – شعر المؤلف أو لم يشعر! -.

فالأولى باعتقاده أن ثمة تشويهاً خلقياً في البشر السابق على وجود آدم إذ لم يكن لهم سمعٌ ولا أبصار ولا أفئدة، ثم وُهبت لهم إثر عمليات التعديل!. وهنا سقطةٌ أخرى سقط فيها المؤلف حيث استشهد استشهاداً خاطئاً بقولهِ تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾، وظن أن العلم وأدواته شيئاً واحداً، فبنى نتائج خاطئة على مقدمات أشدُ خطئاً!. لاسيما أنهُ يربط انعدام تلك الأدوات بمدلولِ كلمة "بشر" من منظور تخصيصهِ للمعنى، في حين أن الآية قَرَنت انعدام العلم بحال خروج الناس من بطون أمهاتهم!!، أم يلزمُ على أصلهِ الفاسد أن تُسمى أجِنَّةُ الناسِ بشراً حال وجودها في الأرحام، ثم تسمى إنساناً بعد خروجها وحصول العلم لها؟!، وهذا من أبْيَنِ البُطلان، كيف لا واللهُ عزوجل يقول: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان(٢). فقرن بين وصفهِ بالإنسانية وبين تكوينهِ المشيجي في ظُلمةِ الأرحام.

---

[١] المرجع السابق، ص١١٣

[٢] المرجع السابق، ص١١٣

و الثانية؛ فباعتقاده احتواء آدم عليه السلام أو الإنسان بعامة على روحين؛ روح حيوانية هي أصله ومنطلق بشريته، مروراً بأزمنة تطورية كانت تجري فيها عملياتُ تسويةٍ منتظمة ومستمرة، حتى انبثق أخيراً الخلق الجديد الذي استتبت له خصال الكمال فارتقت الروح إلى إنسانية!، أليست هذه أصل فكرة التناسخ؟!.

فإن قال قائلٌ بأن ذلك يختلف لأن البشر السابقين يختلفون عن عهد آدم عليه السلام، فالجواب؛ أنه لو عوملت الإنسانية على أنها فردٌ واحد. فما هي بدايته وفق هذه النظرة القاصرة؟!، روحاً حيوانية بلا شك!، فتلك طفولته، ثم كلما تنامى ارتقى من تلك الحيوانية إلى درجةٍ أسمى، حتى يصل أخيراً إلى سن الرشد أو درجة العقلانية والتميز بالملكات العليا. هذا ملخص فكرة عبد الصبور شاهين ، سواءً أسقطها على فردٍ واحد (آدم) أو جعلها قائمة بأفرادٍ لا يقعون تحت حصر، عبر آماد سحيقة وقرون زمنية عتيقة تُقدَّر بالآف الملايين من السنين! – مؤدى القولين واحد على الحقيقة -.

ثانياً: تشبيه المؤلف عمليات التسوية المزعومة بالهندسة، وعملية تجميل البناء وتكميله. وهنا يُردُ عليه؛ إن كان الله عزوجل أخبرنا بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وقد تم خلق السموات والأرض في ستةِ أيام، فهل يمكن التصديق عقلاً بما ذهب إليه د. عبد الصبور من فكرةِ الآماد السحيقة والسنون الملايين في حق خلقِ البشر؟!، هذا وفق مبدأه حيثُ فرق بين الزمان الإلهي والزمان الإنساني وقارن بينهما![1] ، فهل يسلم له هذا الرأي الفاسد، والذي يجعل خلق الإنسان مستغرقاً سنواتٍ وأزمان تفوق بكثير زمن ومدة خلق السموات والأرض – وفق نظريته هو! -.

ولا يفوتنا أن نذكِّر أن الزمن المستغرق هاهنا في الخلق وفق رؤية المؤلف، إنما هو لنوعٍ واحدٍ من الخلق (البشر)، بينما خلق السموات والأرض وما فيهن؛ مخلوقات عظيمة ومن الكثرة بمكان، لكنها لم تستنفذ عمليات جمالية وتعديلية كما يزعم المؤلف، خصوصاً إن ضربنا لذلك مثلاً؛ أن السماء لم تكن قد حُرست بالشهب إلا بعد مبعثه ﷺ[2] ، فهي قبل ذلك غيرها بعده، فهل يُقال أن السماء استغرقت عمليات تسوية، لتصل إلى درجةِ المنعة والحراسة؟!.

---

[1] أنظر مثلاً: ص٤٧ ، ١٠٥

[2] أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، حديث رقم (٤٦٣٧). وَ تفسير القرطبي، سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء﴾، جـ١٩، ص١٣.

ثالثاً: عبارة "أن المخلوق البشري كان إنساناً بالقوة لا بالفعل، ثم لما تمت تسويته صار إنساناً بالفعل". يردُ عليه؛ بأن هذا التخصيص والتفريق بين الوقائع والخصائص والمفعولات على أساس (القوة والفعل)، تخصيصٌ دون مُخصِّصٍ أو سببٍ معتبر من شرعٍ أو لُغـة، وإنمـا هو كلامُ الفلاسفةِ محضـاً،

- لم يرد في كلام الله عزوجل ولا كلامِ رسوله ﷺ، ولم تحرزه اللغة -. والفلسفة لا تثبت بها عقيدة ولا ينبني عليها فكرٌ ديني شرعاً، ولا تُنقض بها معلومات الدين الضرورية.

رابعاً: وصفه تلك الآراء الجانحة بأنها حقيقة القرآن، تحكمٌ ومصادرة يفتقران إلى الدليل، ناهيك عن كونها تقولٌ على الله بغير علم، وهذا خطرٌ عظيم حذر منه الشارع الحكيم. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ الأعراف (٣٧)، و قال أيضاً : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ النحل (١١٦). وفي تقرير التفرد في شأن الخلق، يقول ربنا سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ الكهف(٥١). فعلمُ ذلك كله عند الله سبحانه وتعالى، وليس لأحدٍ القول فيه برأيه دون علمٍ أو دليل من الشرع.

خامساً: أما في مسألةِ تأويل الفاء، فلنا أن نستشهد بقول الدكتور عبد العظيم المطعني رحمه الله حيث يقول: "في حرف الفاء العاطف للتسوية على الخلق ﴿ خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾، لأن مقتضى فكرة المؤلف أن تعطف التسوية على الخلق بـ (ثم) لأن العطف بالفاء يقتضي (لغويًا) الترتيب مع التعقيب، فتكون التسوية قد وقعت بعد الخلق مباشرة بلا فاصل زمني يذكر، وبهذا لا يكون في الوجود مشروع إلهي بطيء استغرق ملايين السنين بين خلق البشر وخلق الإنسان، وهذا ما لم، وما لا يُسلِّم به المؤلف.. ولذلك صمم على السير في الطريق المسدود".[1]

سادساً: في معرِضِ رده على مشروع التسوية، يقول د. مطعني: "ولا تعليق لنا بعد هذا إلا أن نذكر القراء الكرام بآية يصف الله بها نفسه: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ البقرة (١١٧). وقال أيضا عن قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾. ونلاحظ أن المؤلف لم يذكر بقية الآية التاسعة، وهي: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة (٧-٩). لماذا لم يذكر ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ لأن

[1] أبي آدم بين المفتريات والحقائق، ص٦٦

هذه الجملة تفيد أن البشر الذي خلقه الله لأول مرة، كان سميعًا بصيرًا عاقلاً. وهذا ما ينفيه المؤلف طوال مدة المشروع وزمنه ملايين السنين".[١]

و/ فيما يتعلق بتأويل حرفي العطف " الفاء وَ ثم ": لم يطَّرد المؤلف فيما ذهب إليه من تأويل معنى حرفي العطف (الفاء والواو) الواردين في قصص الخلق، ولكنه انتهج سبيل التأويل المذموم حيال ما لم يتماشى ونظريته التي أراد دعمها وتثبيتها ولو على حساب النص واللغة. **ففي حين نجده يضمِّنُ الفاء معنى حرف التراخي (ثم) في موطنٍ، نجده بموطنٍ آخر يفعلُ العكس بتضمين حرف التراخي معنى الفاء.**

فمثالُ الأولى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ الانفطار(٦-٧).

ومثالُ الثانية: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة (٧-٩)، وُ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ المؤمنون (١٢-١٤) .

ولنا أن نتساءل: أيُ فائدة لاختلاف استخدام حروف العطف في النظمِ القرآني إن كانت في النهاية ترجع إلى مدلولٍ واحد، وما دليل ومسوغاتُ ذلك التأويل؟!.

إن ذلكم التحكم المحض بلا دليلٍ من الشرع الحكيم، يُورثُ الظن بعبثية الإيراد لحروف العطف في المواضع المختلفة – تعالى الله علواً كبيراً -. والمطلع على كتاب "أبي آدم"، يلحظُ محاولات المؤلف للانتصار لرأيه، مهما أدى ذلك إلى مخالفة الثوابت والضروريات، أو التعدي على قوانين اللغة.

وفي ذلك يقول د. عبد العظيم المطعني: "لقد انحرف عن قواعد اللغة انحرافاً تاماً"، ويقولُ أيضاً: "أجهض اللغة العربية وأجرم في حقها".[٢]

---

[١] المرجع السابق، ص٦٣

[٢] أنظر المحاضرة المقروءة للشيخ أسامة سليمان والتي ذكر فيها بعضاً من ردود الدكتور عبد العظيم المطعني –رحمه الله-: http://goo.gl/GAKCmd

وفي معرِضِ الرد يقول رحمه الله: "نظر المؤلف في الآيات فوجد النظم القرآني المعجز يستخدم في عطف الجمل في الآيات أداتي عطف (ثم ـ والفاء): استخدم (ثم) مرتين متواليتين في عطف الجملتين الثانية والثالثة، ثم استخدم العطف بالفاء في الرابعة والخامسة والسادسة، أي عطف العلقة على المضغة، وعطف العظام على العلقة، وعطف كسوة العظام على العظام. ثم عاد النظم الحكيم للعطف بـ (ثم) في الجملة السابعة: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ المؤمنون (١٤)".[١]

ويستطرد: "قال المؤلف معقبًا على تخالف العطف في الآيات بين ثم والفاء ما يأتي: (ولنتأمل استعمال "ثم" في الآيات بجانب استعمال "الفاء" فبين (الخلق) من الطين، و (الجعْل) نطفة في قرار مكين، مسافة زمنية لا يعلمها إلا الله، استغرقتها عمليات التسوية).

ثم يتساءل د. مطعني: القارئ يعلم أن المؤلف قدَّر هذه المسافة بملايين السنين، ثم ينفي علمها - هنا- عن كل أحد إلا الله، ولو كانت هناك فعلاً مرحلة فاصلة بين خلق البشر وخلق الإنسان لا يعلمها إلا الله، فمن أين عرف المؤلف أنها ملايين السنين؟".[٢]

أما حلقة الربط لتسويغ التأويل، فهي استدعاء المعاني المترادفة جزئياً. يقول د. عبد الصبور: "وهذا الجعل تعبير عن جانب استكمال "الخلق". ثم تكون النطفة علقة، ولعل تقدير ذلك تم في زمان متطاول أيضًا".[٣]

ويعلق د. عبد العظيم: "والذي نحب أن يشاركنا القارئ في ملاحظته، أن المؤلف لما جعل العطف بـ (ثم) في الجملة الثانية ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾، للدلالة على الزمن المتطاول (ملايين السنين) التي استغرقها المشروع الإلهي - البطيء - في تحويل البشر إلى الإنسان، اضطر أن يفسر معنى (ثم) بزمن متطاول كذلك بين تخليق النطفة علقة !!.

وهذه الكبوة، أو العثرة التي لا يمكن القيام منها؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه - هنا - وكذلك ما بعدهما يصوران مرحلتين من مراحل تكوين الجنين في رحم أمه، وبين صيرورة النطفة علقة يتم في أربعين يومًا كما جاء في الحديث الصحيح، وهو في صحيحي البخاري ومسلم في أول باب (القدر) ..

---

[١] أبي آدم بين المفتريات والحقائق، ص٦٤

[٢] المرجع السابق، ص٦٤

[٣] أبي آدم بين الحقيقة والأسطورة، ص١١١

على غرار ما تقدم من تشبث المؤلف بما يوافق أغراضه من معاني اللغة في الآيات التي تتحدث عن خلق البشر، أخضع معنى (ثم) في قوله تعالى في سورة الأعراف، الآية (١١): ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾، فقد وَظَّفَ هـو - لا القرآن - (ثم) الأولى الواقعة بين الخلق والتصوير للدلالة على عمر - المشروع العجوز - الذي عبر فيه البشر الهمجي طريقًا وعرًا في طريق وصوله إلى درجة (الإنسان الراقي)، ثم وَظَّفَ هو - لا القرآن - (التصوير) لإفادة معنى التسوية، التي استغرقت ملايين السنين ..

أما (ثم) الثانية ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ فقد بحث لها عن مسوغ فقال أنها تُشير إلى فجوة زمنية قبلها وبعد التصوير، وهي مرحلة نفخ الروح. ومعنى الاضطراب أن الخلق والتصوير تمَّا قبل بعث الروح في البشر الحيواني؟ وهذا سائغ عند المؤلف لأن معنى نفخ الروح عنده، ليس هو النفخ الذي ترتبت عليه الحياة، بل هو شق السمع والأبصار، وتركيب الجهاز العقلي ليصير البشر إنسانًا". [١]

ولعل من تمام الايضاح أن نذكر بعض ما قاله المفسرين في معنى كلاً من **"الخلق"** و**"الجعل":**

يقول الإمام الطبري: " ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾: ثم جعلنا الإنسان الذي جعلناه من سلالة من طين نطفة في قرار مكين ... وقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ يقول: ثم صيرنا النطفة التي جعلناها في قرار مكين علقة". [٢]

ويقول الإمام القرطبي: "قوله تعالى: ﴿ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ ﴾، الإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة وغيره، لأنه استل من الطين. ويجيء الضمير في قوله: ثم جعلناه عائدا على ابن آدم" [٣]. ويقول صاحب الأضواء: "أطوار خلقه الإنسان ونقله له، من حال إلى حال". [٤]

وأما في اللغة ؛ فالخلق يأتي بمعنى الإنشاء والتقدير، والإيجاد. وهو في كلام العرب ابتداع الشيء على غير مثالٍ سابق. والجعل يأتي بمعنى الوضع، وبمعنى الصنع، و التصيير، كما يأتي بمعنى القول والحكم على الشيء. [٥]

[١] أبي آدم بين المفتريات والحقائق، ص٦٥
[٢] تفسير سورة المؤمنون، جـ١٩، ص١٦
[٣] تفسير سورة المؤمنون، جـ١٢، ص١٠١
[٤] تفسير سورة المؤمنون، جـ٥ ، ص٣٢١
[٥] أنظر: لسان العرب، مادتي " خَلَقَ، جَعَلَ ".

وبالنظر إلى ما تقدم، يمكننا القول بأن (الخلق والجعل)، قد يقوم معنى أحدهما بالآخر في بعض المواضع، من قبيل الترادف المعنوي، وقد يفترقان فيستقل كلٌ منهما بمعنىً يختص به. ولو تأملنا تفسيرات المفسرين نجدها من هذا القبيل.

أما التسوية والتعديل و التطوير، فليست من معانيهما استقلالاً، وإن كانت قد تردُ ضمنهما بقرائن تبين المعنى وتوضحه. وعليه؛ فيمكن القول بأن المؤلف قد جانب الصواب فيما ذهب إليه من التأويل وتحوير المعاني. بل وجاء تفسيرهُ للآيات يحمل تعدياً سافراً على اللغة ودلالاتها والكتابِ العزيز الذي نزل بها.

ز/ فيما يتعلق بالاستدلال بإدراك معاني الموت والخلود: ذهب إلى أن آدم وحواء لابد أن يكونا قد استفادا تلك المعاني من بشر سابقين عليهما، وذلك حتى يبرهن لنظريته في البشر السابق والإنسان اللاحق ومسافات التسوية والتعديل بينهما. يقول: "ومن المعاني الغيبية المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا، ما جرى على لسان إبليس وهو يغري آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرَّمة، قال: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ الأعراف (٢٠). فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود، وكيف لهما أن يتخيلاهُ وهو معنىً مرتبط بواقع لم يحدث من قبل. على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية، ونعني به واقع (الموت) وهو ضد الخلود".[١]

ويستطرد: "إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت وابتلعها الفناء، ولعل الخلود أو البقاء كان حلماً يراودهما، فجاءهما الشيطان من هذا الباب وقد عرف حلمهما أو نقطة ضعفهما فقاسمهما، إني لكما لمن الناصحين. ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ الأعراف (٢٢).[٢]

ويُردُ عليه بالآتي:

أولاً: لا يلزم من معرفة آدم وحواء بمعاني الخلود والفناء وجود بشرٍ سابقين. لأن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها، ولا شك أن ذلك التعليم الرباني سيجعله قادراً على المعرفة والإدراك، بل يجعله أرقى كمالات العقل البشري. كيف لا وقد قال فيه سبحانه: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ص (٧٥).

ثانياً: لو تأملنا الحديث الصحيح؛ عن أبي هريرة ﷺ قال، قال ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال : أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم أعجبه نور ما بين عينيه، فقال: أي رب

[١] أبي آدم، ص١٣٣
[٢] المرجع السابق، ص١٣٣- ١٣٤

من هذا ؟ قال: رجل من ذريتك في آخر الأمم يقال له داود، قال: أي رب كم عمره؟ قال ستون سنة، قال: فزده من عمري أربعين سنة ... إلخ الحديث الشريف".[1]

والشاهد أن آدم عليه السلام سأل كم عمرُ إبنه داود، وهذا يدل على معرفة سابقة بماهية أو حقيقة الأعمار والموت والحياة والفناء. ولو لم يكن كذلك لم يكن سؤاله على هذا النحو، ولكان الأقرب أن يستفهم عن معنى كلمة "عُمر" فيما لو قيلت له في ذلك المشهد!.

والمقصود؛ أن آدم عليه السلام كان يعلمُ كل ذلك بتعليم الله إياه منذ علمهُ الأسماء كلها، والظاهر من سياق الأحاديث – والله أعلم – أن تعليم الله تعالى آدم الأسماء كلها، كان عقب نفخ الروح فيه. ثم مسح ظهره وإخراج ذريته وإسجاد الملائكة تم بعد ذلك، بكيفيةٍ وزمن علمها عند الله تعالى.

رابعاً: ما أسماهُ بـ "التفسير التاريخي": يُلاحظ المتصفح لكتاب أبي آدم، استحداث المؤلف تفسيراً جديداً لآيات الخلق، بالاعتماد على تأويلٍ جانحٍ لا يسوغ – بيد أنه ثوبٌ فضفاض وقنطرة لتمرير جميع الأفكار المرادة -، وقد أسماهُ "بالمعنى التاريخي أو الدلالة التاريخية". وقد ورد هذا عنده بموضعين، وثالثٌ شكل نقيضاً لهما. وحسبُ الردِ قوةً أن تكون واهنةُ الدليل منه ذاته.

يقول في تعقيبه على الآية التي ذكرها، وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾المؤمنون(١٤):

"والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق، هو النقلة من البشر إلى الإنسان، وهو خلقٌ آخر فعلاً. إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد".[2]

ويقول بموضعٍ آخر – عند حديثه عن الأجل -: "ثم تنزل السورة الحادية والسبعون سورة (نوح)، وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معاً، هي قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (١٤). فمن الناحية التاريخية قد يُراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التي مرَّ بها خلقُ البشر وتقلبهم في أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله".[3]

---

[1] صحيح الجامع، برقم (٥٢٠٨)

[2] أبي آدم، ص١١٢

[3] المرجع السابق، ص٩٥

وفي معرَض حديثهِ عن إمكان وجود أبوينِ لآدم عليه السلام، يقول: "إن هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ... وكل ما مضى من أحداث تاريخية إن كان **ثمة تاريخ**، إنما هو وقائع بناء جسد آدم وعقله وروحه وملكاته وخصائصه".[١]

وهنا بالموضع الأخير نجده يجعل (التاريخ) مجرد احتمالية -إن كانت-، فهي لا تتعارض مع الخلق من طين والتعديل النهائي المتحدر من سلالةٍ من ماءٍ مهين!. ليطوي استنكاراتٍ وتساؤلات عدة قد ترد في هذا المقام، وكفى بهذا هدمٌ للفكرة من أساسها – شعر المؤلف أم لم يشعر -.

أما دعوى المعنى أو الدلالة التاريخية؛ فالمعلوم والمعوَّل عليه عند المحققين من أهلِ العلم، أن أقسام الحقيقة ثلاثة: لغوية وعرفية وشرعية؛ لأن الوضع المعتبر فيه إما وضع اللغة، و إما وضع الشارع، وإما العرفية المنقولة عن موضعها الأصلي إلى غيره بعرف الاستعمال.[٢]

هذا بعموم؛ وأما في مجال التفسير فإذا دار اللفظ بين معنيين؛ "هو في أحدهما حقيقة لغوية، وفي الآخر حقيقة شرعية، فالشرعية أولى إلا أن تدل قرينته على إرادة اللغوية، نحو قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ التوبة (١٠٣)، وكذلك إذا دار بين اللغوية والعرفية، فالعرفية أولى لجريانها على اللغة، ولو دار بين الشرعية والعرفية، فالشرعية أولى لأن الشرع ألزم".[٣]

ومن قواعدِ الترجيح في التفسير، أنه (إذا اختلفت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية في تفسير كلام الله تعالى قُدمت الشرعية)[٤]. والشرعية هنا معلومة مثبتة – ولله الحمد – بمختلِف نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة. ومن ثمَّ فلا حاجة لاعتبار ما سواها، كيف إذا لم يكن هنالك اختلاف بينهما أصلاً؟!، بل أشد منه؛ أن تُعارَض الحقيقة الشرعية بعلوم ظنية لم تزل في مهدِ دراستها والتداول!.

ليس هذا فحسب؛ بل إن الذي يثبته العلم الحديث على أنه حقيقة، إذا تعارض مع نصوص الشرع المطهر، فذلك حينئذٍ موجبٌ للطعن في صحة النتائج وصدق ذلك الطريق العلمي، لا صدق النص المقدس الذي هو الحقيقة المطلقة عندنا معاشر المسلمين، لا يتطرق إليه الشكُ بحالٍ من الأحوال.

وعليه؛ فلا مجال لاعتبار معنىً تاريخي أو دلالة تاريخية فيما يتعلق بقصة الخلق، لأن الحقيقة الشرعية في هذه المسألة قد تواترت بها النصوص، بل هي من ضرورات الدين التي لا حَيْدة عن معناها الذي اتفقت عليه الأمة

---

[١] المرجع السابق، ص١٢٢

[٢] أنظر: البحر المحيط للإمام بدر الدين الزركشي، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتبي. جـ٣ ، ص٨

[٣] البرهان في علوم القرآن، جـ٢ ، ص٣٠٨

[٤] أسباب الخطأ في التفسير للدكتور طاهر محمود محمد يعقوب، ط١ ، ١٤٢٥هـ، دار ابن الجوزي، الرياض. ص٩٣٩

جمعاء، وكان حرياً بالمؤلف الوقوف عند ذلك. ولكن استحداثهُ للمعنى التاريخي ليس إلا لتسويغ وتمرير جملة الأفكار والتأويلات الجامحة، بل وسُبلها أيضاً!. لأننا لو قلنا بالمعنى التاريخي، لجاز اجتزاء الدليل وقصر الاستدلال بحسب المكية والمدنية.

خامساً: الزمانية والبناء الفكري لكتاب "أبي آدم":

من يستعرض كتاب " أبي آدم" للدكتور شاهين، يلحظ تكرار استخدام المؤلف لعبارات يُفهم منها الزمن المتطاول، مثل: "ملايين السنين"، "الآماد السحيقة" [١]. وما ذاك إلا لأن بناء الكتاب الفكري يقوم على اعتماد العامل الزمني كوسيلة لتقرير النتائج المرادة سلفاً. وأما تعلق هذا العامل بما سبقه من الجوانب فيتجلى في:

بالنسبة لعلم الأحافير، فتقديرات العلماء لتحديد عمر الأرض وعمر الحياة عليها يقاسُ بسنونٍ متطاولة تصل إلى الآلاف أو الملايين. ورغم أن الدكتور شاهين قد قرر نتائجهُ بالاعتماد عليها، إلا أنه تناقض عندما قال بنسبيتها وأنها ليست حقيقة مطلقة [٢]، لكنهُ سرعان ما عاد ليؤسس على مدىً زمنية متطاولة راداً علمها إلى الله تعالى، مستشهداً بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ الحج (٤٧). وقد صدق، لكنه أخطأ في طريقة الاستدلال بها. واتضح ذلك مما أوردناه آنفاً.

والشاهد أنه اعتمد على عاملِ الزمان لإثبات المفارقة بين البشر والإنسان، على ضوء نتائج علم الأحافير دون التقيد بمقاييسه بدقة كما يوردها، ولكن بفتح الباب على مصراعيه باستخدام ما يدل على التطاول الزمني من التعبيرات، كالذي ذُكر أعلاه وغيره.

يقول في مقدمته: "وقد يلاحظ في ضوء الأرقام اختلاف العلماء في تقديرها، وهو اختلاف يعني أن الأزمنة السابقة التي بدأت خلالها أحداث الخلق، سواء في ذلك خلق الأرض أو خلق الحياة بأنواعها عليها، يستحيل تقديرها على وجه التحديد واليقين، وإنما نستخدم الأرقام للتعبير عن المدى الهائل الذي يعجز الإنسان عن الإحاطةِ به أو إدراك مداه، فدلالتها في كل حالٍ ظنية". [٣]

على أن اختلاف التقديرات أو ظنيتها ليس مورد إشكال في ذاته، وإنما الإشكال في محاولة تطويع النصوص لتتوائم أو تتفق وتلك التقديرات الظنية كما سنرى.

---

[١] أنظر الصفحات التالية على سبيل المثال : ص ٣٢، ٣٨ ، ٩٥،١٠٩،١١٠، ١١١،١٣٨،١٣٩، ١٦٩

[٢] أنظر ص ٣٨ .

[٣] ص٢٠ .

وأما بالنسبة لتأويل النصوص، فقد أحدث المؤلف فجوة بين آيات خلق آدم الواردة في القرآن الكريم بالتخصيص في مواضع، وقلب المعاني بمواضع أخرى. كل ذلك ليؤسس على فكرة الكتاب وهي المفارقة والمغايرة بين البشر والإنسان، مما أدى لتأويل ما عُلم بالضرورة كمسألة السجود مثلاً، مقتفياً في ذلك سبيل بعض المؤلفين السابقين عليه. وقد انتهج التفريق بين ما هو مكي وما هو مدني من الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام لتدعيم نظريته تلك.

ثم العلاقة بين الزمنية واللغة، فقد تجلت في حديثهِ عن أصل اللغة وبداياتها وظروف نشأتها وتطورها عبر حِقبٍ متطاولة، حتى انتهت إلى الصورة التي تداولها آدم عليه السلام وبنوه. ليؤسس القول بوجود بشرٍ قبل آدم تدرجوا في استخدام اللغة وتطويرها حتى انتهت إلى أبوي آدم عليه السلام، ثم بعد عملية الاصطفاء لآدم تولى الرب -عزوجل- تعليمه الأسماء كلها زيادة على البعض الذي كان معلوماً لآدم!.

وأما التفسير التاريخي لبعض الآيات، فتبدو الزمانية واضحة في الزعم بأن للآيات معانٍ حديثة غير تلك المعاني التاريخية التي اعتمدها العقل الإسلامي قرونا. وأما عمدتهُ في ذلك فهو الاجتهاد كما عبر عن ذلك في غير موضع.

والمقصود أن مدار الكتاب وفكرته ونتائجه ومقدماتُه، إنما اللبابُ في ذلك كلهِ كان العامل الزماني الذي توكأ عليه المؤلِّف ولولا ذلك لما امتدت صفحاته.

رابعاً: سبب الخلل:

إن مما سبَّب التناقضات الفادحة التي وقع فيها الشيخ عبد الصبور شاهين – رحمه الله - أمران:

الأول: التعويل على نظريات العِلم الحديث في مقابل ردّ الأحاديث الشريفة الواردة في خلق آدم عليه السلام.
الثاني: محاولة التوليف بين تلك النظريات النسبية والنصوص الشرعية.

وهذا الخلل المنهجي قاد الدكتور لاستحداث معاني جديدة لم يقل بها أحدٌ من قبل، كلُ ذلك دفاعاً عن الأفكار والآراء التي استقرت في نفسه.

فهو وإن كان يؤكد في موضعٍ وآخر بأن النصوص الشرعية هي الحق والصدق بإطلاق، إلا أن ما نضح به كتابه يؤكد خلاف ذلك، حيث عمد إلى النص فرمى بعضه بالوَهَنِ تارةً والنقل عن الإسرائيليات أخرى. ومالم يكن سبيلٌ إلى نعته بذلك – وهي نصوص القرآن الكريم – عمد إلى تأويله وإخراجه عن معناه الشرعي الذي استقر عليه أمداً، إلى قولٍ مستحدث لا أصل له، بل يتنافى والضرورات الشرعية المعلومة من الدين الحنيف.

وإنما ساقهُ إلى هذا المساق اعتقاده بصدق تلك النظريات الفاسدة وصحتها المُطلقة!، مما تسبب في اتباعٍ وتقليدٍ أعمى لتلك العلوم التي تدَّعي العِلمية، ومحاولة تأويل النصوص الشرعية كي تتوائم معها اعتقاداً بصحة تلك النظريات والعلوم مطلقاً، وإيماناً بأن القرآن يحوي تفاصيل ذلك فلهُ السبق في كُلِ ميدان.

وتصديقاً نعتقد أن القرآن الكريم قد سَبَقَ العلوم بل هو أصل العلوم ومنبعها، لكن لا يُشترط أن يحوي تفاصيل كل شيء إذ القرآن الكريم كتاب هِداية واسترشاد، كما أنهُ من تمامِ الأدب مع خبرِهِ؛ التصديق واليقين مُطلقاً، وكذلك عدم تقديم أي خبرٍ على خبرِهِ لا صراحةً ولا تأويلاً وصرفاً لمعنى النصِّ عن ظاهره الذي كان عليه فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

يقول د. حسن الأسمري: "من المعلوم أن مصدرية الوحي قد تعرضت في الغرب لنقدٍ شديد، وقد حقق ذلك النقد نجاحاً خطيراً تسبَّب في التشكيك بمكانة الوحي عموماً، ومما ساعد النقَّاد في نقدهم الصِدام الكبير الذي وقع بين الكنيسة والمكتشفات العلمية الجديدة، فقد كانت الكنيسة تدَّعي أن المعرفة الصائبة هي الكتاب المقدَّس بينما أصحاب المعرفة الجديدة قد أعلنوا اكتشافات تُخالف هذا الكتاب، ومع الأيام تحقق للناس صحة الكثير مما قدَّمهُ العلم، مما حملهم على الشك في الوحي".[١]

لكن المؤسف أن أولئك المفتونين بعلوم الغرب من أبناء الإسلام، يؤمنون بالقرآن الكريم إجمالاً فإذا ما جاؤوا إليه تفصيلاً ظنوا أن بهِ معانٍ -لم تظهر للسابقين من قبلهم!- تُوافقُ مخرجات العصر الحديث، فاستحدثوا

---

[١] النظريات العلمية الحديثة، ص٨٢١

تأويلاتٍ مُبتدعة كي يستدلوا بها على صحة العلوم والنظريات الحادثة مهما خالفت ظاهر القرآن والمعنى المُراد للهِ ورسوله، بدعوى أن الآيات تحتمل تلك المعاني الجديدة، أو بدعوى عدم قطعية المعاني التي وردت عند السلف!.

يقول د. عبد العظيم المطعني – رحمه الله -: "ومنهج الاستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين في محاولته إثبات الفكرة التي تبناها، لا يخرج عما أثبتناه في عنوان هذه الدراسة أو المواجهة، وهما دعامتان رئيستان:

الأولى: الخيال الجامح أو المفرط في التصور، لأن التفرقة بين البشر الذي انقرض عنده والإنسان الذي يعمر الأرض الآن ... إن تصوُّر هذه التفرقة من صنع الخيال الجامح أو الوهم الموغل في الإيهام ..

أما الدعامة الثانية: فهي التأويل المرفوض، حيث لم يدع المؤلف نصاً واحداً يقف حجر عثرة في طريق فكرته، إلا سارع إلى تأويله بما يتفق مع مراده ... ولولا ذلك الخيال الجامح وهذا التأويل المرفوض لوُئدتِ الفكرة في صلب أبيها قبل أن تستقر في رحم أمها".[1]

ويقول الاستاذ جواد عفَّانه: "حاول الدكتور إبراز إعجاز جديد في القرآن الكريم وفق زعمه، إلا أنه أخطأ السبيل، فراح يدور في حلقة مفرغة، ويستدل بأدلةٍ واهية، كان من نتائجها إضعاف موقفه هو لا موقف القرآن... وقد اجتهد الدكتور شاهين هنا في مورد النص، فأخطأ في ولوجه هذا الباب، وكان خطؤه أكبر عند محاولته إثبات ما لا يمكن إثباته، واستدلاله بأدلة واهية بحيث جاءت النتيجة بعكسِ ما أراد". [2]

ومعلوم أن د. عبد الصبور سلك هذا المنحى، ليُبرهن للغرب أن القرآن يتواءمُ ونتائج العلم الحديث، وأنهُ قد سبق إلى تلك النتائج والمكتشفات، وليتهُ لم يفعل إذ تسبب ذلك في إضعاف موقف الكتاب المبين وكأنهُ أُنزل ليحتوي كل شاردة وفكرةٍ بشرية ثبتت أو لم تثبت، صحَّت أو لم تصح!، وإلا فهو الرجعية والتخلف لعدم مواكبتهِ علوم العصر!! –تعالى الله علواً كبيرا-.

بينما نجد امتداح الله تعالى لكتابهِ الكريم على أعينِ الكافرين وسائرِ الناس، ذلك المديح الإلهي الذي يُغني عن كلِ مديح، ويعلو فوق كل علم وبحثٍ وتجربة!، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فُصِلت (٤١-٤٢)، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي

---

[1] زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين، جمع وترتيب الدكتور سيد بن حسين العفاني، د. ط ، د. ت، دار العفاني، القاهرة. جـ٥، ص١٨٠

[2] آدم الإنسان أبو البشر رد علمي شامل، ص٢٥٣ ، ٢٥٥

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر (٨٧)، فلا ينالُ من عظمتهِ قول متقول ولا انتقاص مُتهوِّك. ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الإسراء (١٠٧). وأخبر أنهُ سبيلُ الهِداية الذي بها الفوز والفلاح، والبشارة التي هي ثمرتها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء (٩). كما أمر بسلوك سبيله ونهى عن اتباع السُبل، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيله ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام (١٥٣). وقال سبحانه مبيّناً كِفاية هذا الكتاب العظيم للبشرية جمعاء: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت (٥١)

فأخبارهُ وأحكامُهُ وتشريعاتُه وكل ما فيه العلوم الإلهية التي بيَّنها الكتابُ العزيز نفسه وبيَّنتها السنة المطهرة، فيها الكِفاية والشِفاء والغُنية عن كلِ حادثٍ بشري؛ و هي الصراط المستقيم وما سواها مما يُخالفها هي السُبل التي نُهينا عن اتباعها.

نعم لا بأس أن نكشف عن جوانب الحقائق التي أثبتها العلم الحديث، على أنها توافق حقائق القرآن التي وردت فيه قبل مئات السنين، وما كان فيها من معارضةٍ له فلا يمكن بحال ارتقاءها لأن تكون حقيقة، بحيث يكونُ الكتاب العزيز هو الميزان والفيصل والحَكَم على تلك المنجزات والعلوم الحديثة وهي تابعةٌ له. لا أن نستدل لصحتها من نصوصهِ الشريفة بزعم أنهُ سبقها، حتى إذا ما أُعلن بطلانها وخطؤها مُستقبلاً، وقعنا في حَرَجٍ مع ربنا سبحانهُ وتعالى ومع كلامِهِ الإلهي الذي شرَّفنا بإنزالهِ وأكرمنا به، وأسأنا إلى ديننا أيما إساءة، بأن شابهت أدوارنا حِيال الدين والعلم دور الكنيسة في عصورها الظلامية!. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ النساء (١٣١)

خامساً: التأثيرات الفكرية على رأي عبد الصبور شاهين في خلق آدم عليه السلام:

إننا إذا نظرنا إلى بيئة المؤلف الفكرية، نجدها تعج بالأفكار والثقافات المختلفة والتيارات الدينية المتعددة. ناهيك عن لوثةِ الافتتان بالعلم الحديث ونظرياته الكثيرة، - بقطع النظر عن صوابها أو خطئها -. كلُ ذلك أوجد مساحة من التهيئة لتقبل ذلكم الغثاء المتراكم أو بعضه.

وفي شخصية هذا الفصل، ذات الباع الطويل في خدمة الدعوة بعموم واللغة العربية بخصوص – رحمه الله -، نتلمس شيئاً من ذلك الأثر الذي ربما تسلل إليها تحت وطأةِ اللوثة الفكرية ونظريات العلم الحديث. فكان أن أعادت صياغة بعض آراءها ورؤاها الفكرية بناء على ذلك.

ولعلنا نجملُ القول فيما يُعتقد بأن الدكتور شاهين قد تأثر به في أفكاره التي عَرَض لها في هذا الكتاب "أبي آدم":

أولاً: كتاب "آدم عليه الصلاة والسلام" للمؤلف بشير التركي[1]: يقول في مقدمته بعد أن ساق موقف إهداءه كتاب "آدم عليه الصلاة والسلام" لمؤلفه بشير التركي – أحد علماء تونس[2] -: "والذي نلاحظه هنا أنه فصل بين آدم والبشر، فوجود آدم كان بعد انقراضِ البشر. ولا ملاحظة لنا على ارتباط آدم بالسبعِ المثاني فللمؤلف رأيهُ الذي يؤمن به".[3]

ومن كلام الدكتور شاهين، نفهم أنه ربما – بل أقرب إلى التأكيد – أنه استفاد ذلك التقسيم والتمييز بين "البشر والإنسان" من تفرقة المؤلف بشير التركي، وهذه نقطة جوهرية أساس - وإن كان قد استخدم في سبيل عرضها والتأكيد عليها أساليباً أخرى، إلا أن بينهما اتفاق فيما يتعلق بأصل التفريق.

لاسيما وأن كتاب البشير التركي قد سبق صدوره كتاب عبد الصبور شاهين بما يزيد عن عشرة أعوام!. فطبعة كتاب "آدم عليه الصلاة والسلام" كانت عام ١٤٠٥هـ، في حين كان صدور الطبعة الأولى من كتاب "أبي آدم" في عام ١٤١٨هـ. مما يؤيد ما ذهبنا إليه من التأثر.

---

[1] البشير التركي هو البشير بن مُحَمَّد بن مصطفى بن الحاج علي بن مصطفى التركي العجمي، ولد بالمهدية عام ١٩٣١م، وتوفي بها ٢٠٠٩م. عالم فيزياء نووية ومهندس تونسي. يُعد الدكتور بشير التركي من أكبر علماء الذرّة في العالم، حصل على الدكتوراه في الفيزياء النووية سنة ١٩٥٩م من "الكولاج دي فرانس" في فرنسا، وترأس الوكالة الدولية للطاقة الذرّية سنة ١٩٦٩م، لهُ جملة مؤلفات منها: "آدم عليه الصلاة والسلام"، "لله العلم"، وَ "الحرف العربي"، وغيرها. أنظر: موسوعة مشاهير تونس في الفن والثقافة والسياسة والرياضة http://goo.gl/cw213i ، وَ http://goo.gl/HBWRge .

[2] أبي آدم، ص١٤

[3] المرجع السابق، ص١٥

ومما يؤكد هذا التأثر أيضاً أن د. شاهين نحا نفس منحى الدكتور بشير التركي فاتخذ في عرضِ فكرته مسارين اتخذهما التركي من قبله؛ الأول: التفريق بين كلمة آدم و بشر في دلالة المعنى، وأن كل إنسان بشر ولكن ليس كل بشرٍ إنسان، كما عرض فكرة الإنسان المُكلَّف المكرم والمعلَّم[١]. وإلى هذا ذهب دكتور عبد الصبور[٢] إلا أنهُ افترق عن الدكتور بشير في أن الأول يرى امتداد سلسلة التطور البشري واتصالها، بينما يعتقد الأخير أن سلسلة الموجات البشرية منفصلة لا ترتبط ببعها البعض، وإنما تنشأ أُخرى على إثر انقراضِ سابقتها. وأما المسار الثاني الذي اتفقا حوله؛ فهو الرد على نظرية التطور.[٣]

ثانياً: فكر مُحَمَّد عبده وتلميذه رشيد رضا: لا يمكننا أن نغفل أثر فكر الشيخ مُحَمَّد عبده وتلميذه مُحَمَّد رشيد رضا، ليس فقط على الدكتور عبد الصبور شاهين، وإنما على كثيرٍ من المفكرين العرب والإسلاميين بعموم.

والمؤلف في سرده لقصة الخلق – في معرِض حديثهِ عن الملائكة -، نجده يستشهد ببعضِ آراء الشيخ مُحَمَّد عبده، ومن ذلك قوله: "وحسبنا أن ننقل ما قرره الإمام مُحَمَّد عبده".[٤]

وفيما يتعلق بمسألة خلق آدم عليه السلام، نجد الدكتور عبد الصبور يستشهد ببعض كلام رشيد رضا تعليقاً على مسألة وجود الأبوين لآدم عليه السلام. يقول في هامش (١): "ذكر الشيخ رشيد رضا أن وثنيي الهند يزعمون أن لآدم أماً، ولها في مدينتهم المقدسة «بنارس» قبرٌ عليه قبة بجانب قبة قبره".[٥]

ولو قال قائلٌ أنه لربما ساقهُ مساق الخبر، فنذكر أنه لربما يكون قد ساقهُ تهيئة للقارئ لقبولِ فكرته التي أورد لها ذلك الهامش، وهي قوله: "ليس غريباً أن نتصور بناءً على هذا، أن آدم جاء مولوداً لأبوين".[٦]

وعلى كلٍ؛ فنقطةُ اتفاقٍ هي وجود التأثر بفكر ذَينك الشيخين، - مُحَمَّد عبده ورشيد رضا – لتبقى دوائر الخلاف بعد ذلك في مدى التأثر وحجمه بالنسبة لكلِ شخص.

ولهذا يذكر صاحب كتاب "منهج المدرسة العقلية في التفسير"، بأن مُحَمَّد عبده ورشيد رضا أعطيا الضوء

---

[١] أنظر: آدم عليه الصلاة والسلام، للدكتور بشير التركي، د.ط، ١٤٠٥هـ، دار البعث. الصفحات ٨٤، ٩١، ١٠٥

[٢] راجع رأيه في خلق آدم عليه السلام ص٣٠٠

[٣] أنظر: آدم عليه الصلاة والسلام، للدكتور بشير التركي، ص٨٣

[٤] المرجع السابق، ص٦٨

[٥] المرجع السابق، ص١٢٢

[٦] المرجع السابق، ص١٢٢

الأخضر لمن يريد إدخال نظرية داروين وغيرها في أذهان المسلمين، بتأويلاتها وبما أثبتاه من نظرية التطور البشري.[١]

ثالثاً: مؤلَّف أبو زيد الدمنهوري: وأبو زيدٍ هذا ورد ذكره في سياق تقرير الدكتور علي جمعة – مفتي الديار المصرية -، حيث أفاد بأن الأفكار التي بنى عليها شاهين كتابه، سبق أن قال بها عام ١٩١٣ م شخص اسمه "أبو زيد الدمنهور". وأنه قد أقيمت ضده دعوى أمام المحكمة الشرعية بدمنهور، انتهت بالحكم بردته. وأما كتابُه الذي أثار ضجة كبيرة ومنع من التداول فيحمل اسم **(الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)**.[٢]

رابعاً: محمَّد شحرور[٣] "الكتاب والقرآن": إن المطلع على كتاب " أبي آدم "، يلاحظ أن المؤلف لا يستخدم العزو إلا في مواضع قليلة، بالنظر إلى حجم الكتاب و عدد صفحاته البالغة (١٩٤) [٤]. فعلى سبيل التمثيل جاء جاء فصله الثامن تحت عنوان "الطريق إلى الجنة"، والذي امتدت صفحاته من الورقة (١٠٣ إلى ١١٣)، جاء خالياً تماماً من أي عزو لا في المتن ولا في الهامش. مع ورود معلومات من الأهميةِ بمكانٍ توثيقها، كقوله: "ونستطيع أن نقرر مع علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن الأرض عرفت هذا الخلق الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين"[٥]. وقوله: " أما الإنسان فلا يُطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير"[٦]. وأيضاً: "حينذاك أمر الله سبحانه كل الذراري التي قدَّر أن تخرج من صلب آدم وأصلاب وأصلاب بنيه، أمرها أن تخرج على ساحةِ الغيب وأن تمثل بين يديه"[٧]. وكذلك: "وقد ذهب أكثر المفسرين

---

[١] أنظر: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي. ص٦١١

[٢] أنظر: أبي آدم بين المفتريات والحقائق ،ص١٢٢ . وَ كتاب: التفسير والمفسرون للدكتور محمَّد حسين الذهبي، ط٧ ، ٢٠٠٠م، مكتبة وهبة . جـ٢ ، ص٣٩٠

[٣] مفكر حداثي، من مواليد دمشق ١٩٣٨م، و أحد أساتذة الهندسة المدنية في جامعة دمشق. في عام ١٩٥٩م سافر إلى الاتحاد السوفياتي ببعثة دراسية لدراسة الهندسة المدنية في موسكو، وتخرج بدرجة دبلوم في الهندسة المدنية عام ١٩٦٤م. ثم عين معيداً في كلية الهندسة المدنية – جامعة دمشق عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٦٨. أوفد إلى جامعة دبلن بإيرلندا عام ١٩٦٨ للحصول على شهادتي الماجستير عام ١٩٦٩، والدكتوراه عام ١٩٧٢ في الهندسة المدنية – اختصاص ميكانيك تربة وأساسات . لهُ تأليفات وتنظيرات حول ما سُمي بالقراءة المعاصرة للقرآن. بدأ شحرور كتاباته عن القرآن والإسلام بعد عودته من موسكو واتهمه البعض باعتناقه للفكر الماركسي. أنظر سيرته الذاتية بموقعه الإلكتروني: http://goo.gl/0ua0ey. وَ الموسوعة الحرة. http://goo.gl/Vo6bNi

[٤] مع إقصاء ما ليس من كلام المؤلف، كتقرير مجمع البحوث الإسلامية وقوائم النهايات.

[٥] أبي آدم، ص١٠٤

[٦] المرجع السابق، ص١٠٤

[٧] المرجع السابق، ص١٠٦

إلى أن هذا البشر هو آدم عليه السلام" [١]. وغير ذلك كثير. ومواطن عِدة يكتفي فيها بالإشارة أو الايماء المبهم[٢]، مع أن كثيراً من المعلومات التي أوردها تفتقرُ للتوثيق العلمي والمنهجي، ولكنهُ يمر مرور الكرام ليدع القارئ في حيرةٍ مع المعلومة المطروحة.

لكن المفاجأة أنه عند الاطلاع على كتاب محمد شحرور "الكتاب والقرآن"، وُجد أن كثيراً من نقولات د. شاهين وأفكاره مقتبسة منه أو معتمدةً عليه اعتماداً كبيراً!، بل حتى بعض الأفكار التي ضمَّنها شاهين في كتابه، لم تكن في حقيقة الأمر إلا مرآةً لنظائرها في كتاب "الكتاب والقرآن".

وأما الكتاب الثاني لشحرور ، فيحمل اسم "القصص القرآني قراءة معاصرة – مدخل إلى القصص وقصة آدم". وهذا الكتاب يمكننا الاعتقاد بأنهُ بلورة لفكر شحرور حول ما يتعلق بخلق الإنسان، لأن صدوره جاء متأخراً بعد صدور كتاب أبي آدم بنحو سنتين تقريباً.

فكتاب " أبي آدم"، كانت طبعته الأولى في عام ١٩٩٨م، بينما جاءت طبعة كلٍ من كتابي "الكتاب والقرآن" و"القصص القرآني"؛ الأول – الكتاب والقرآن – تمَّ عام ١٩٨٩م[٣] قبل صدور كتاب الدكتور شاهين بقرابة تسع سنوات، وقد حوى تقديماً للدكتور جعفر دك الباب بتاريخ ١٩٩٠م.[٤]

بينما كان صدور نسخة كتاب "القصص القرآني" عام ٢٠٠٩م. ولا نملك للأسف معلومة توضح رقم الطبعة - إن لم تكن الأولى -، كما أن النسخة المتوفرة بموقع المؤلف ليست إلا عبارة عن صفحة فهرسٍ، يمكن الاطلاع على المقدمة من خلالها دون متن الكتاب الذي تعذَّر الحصول على نسخةٍ منه. لذا ستقتصر مقارنتنا بين ما ورد في كتابي "أبي آدم" و "الكتاب والقرآن". مع التنويه أن احتمالية الاقتباس من كتاب "القصص القرآني" تبقى في حيز الإتاحة، لاسيما إن كان للكتاب أكثر من طبعةٍ متقادمة. أو كانت أفكارهُ عبارة عن شتاتٍ مجتمع، بدا لأول مرة على شكلِ مقالات.[٥]

---

[١] المرجع السابق، ص١٠٨

[٢] كقوله في بعض المواضع مثلاً: "وقد قرر العلماء"

[٣] أنظر خاتمة الكتاب بموقع المؤلف: http://shahrour.org/?page_id=653#b1-5-5

[٤] أنظر تقديم الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، للمؤلف محمد شحرور، د.ط، د.ت، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق. دمشق. ص٢٧

[٥] للمؤلف مقالات بمجلة روز اليوسف، تتعلق بقصة خلق الإنسان، مثل "قول في البشر والإنسان (١)" ، "حول نشأة آدم ونشأة الإنسان (٢)"، "كيف عبَّر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الإنساني - نفخة الروح – (٣)". والملاحظ أن المؤلف يحيل في آخر بعضها إلى الاستزادة من كتابه (الكتاب والقرآن)، ما يعني أن المقالات ربما تكون لاحقة بعد صدور الكتاب. ولا يبعد أن تكون ثمة مقالات في ذات الموضوع لم تصل إليها أيدينا!. وعلى كلٍ فمقارنتنا هنا ستتركز حول "الكتاب

على أنه ليس بمقدورنا النفي القاطع بعدم استفادة كتاب "أبي آدم" من كتاب "القصص القرآني". سيما وأن بعض العناوين قد وردت مطابقة لبعض أفكار الدكتور عبد الصبور شاهين – رحمهُ الله -.

فمثلاً؛ فكرته حول الجعل والخلق والاصطفاء وتسمية آدم وتعليمه الأسماء، كلُ ذلك نجدهُ على شكل عناوين فرعية في كتاب القصص القرآني، مثل:

أفكار رئيسة أو عناوين في كتاب أبي آدم لشاهين	**أفكار رئيسة أو عناوين في القصص القرآني لشحرور**
تحت عنوان " علاقة الإنسان بالملائكة " ص١٣٨	اصطفاء آدم
و كذلك " السجود للنبي الإنسان " ص١٤٣	
الخلق النفسي ص٨٣	الروح والنفس
تحت عنوان " البرهان اللغوي" ص١١١	الجعل والخلق
الكلام على تسمية آدم ص١٣٥ - ١٧٤	آدم وتعليم الأسماء
الكلام على آية " وعلم آدم الأسماء كلها " ص١٤١ - ١٤٥	
إبليس – الشيطان ص١٧١	إبليس والشيطان
إبليس ص١٧٥ – الشيطان ص١٧٧	
إبليس في القرآن ص١٨٠ – الشيطان في القرآن ص١٨٣	
الطريق إلى الجنة ص١٠٣	خلق حواء – الجنة
خلق البشر من طين ص٧٠ – البشر والإنسان ص٨٥	خلق البشر

والقرآن" لثبوت أسبقيته على كتاب أبي آدم. أنظر عناوين المقالات بموقع المؤلف: http://shahrour.org/?page_id=10

الإنسان يخرج من البشر ص٩٣

أما إذا عدنا إلى كتاب "الكتاب والقرآن"، فسنجدُ مسافة التشابه – في قصة خلق آدم عليه السلام - بينه وبين كتاب "أبي آدم" تكاد تنعدم إلى حدِ التطابق!، حتى لكأن المصدر الذي استمدَّ منه الكتابان معلوماتهما واحد! – مع فرق الاستفاضة والتوسع عند شحرور أكثر منه عند الدكتور شاهين -. كما أنه من اللافت أن كلا الكتابين يشتركان في قلة العزو!، بل يكاد ينعدم في مؤلَّف شحرور.

***مقارنة الكتابين "الكتاب والقرآن" وَ "أبي آدم":**

يلحظ المتصفح لكتاب "الكتاب والقرآن"، أن ثمة أفكاراً وعناصر جوهرية مشتركة بينه وبين كتاب "أبي آدم". ليس هذا فحسب؛ بل حتى آيات الاستدلال وما تم التعقيب به عليها يكاد يتحد مضموناً على أقل تقدير، إن لم يكن ذلك التوافق في الشكلِ والمضمون على السواء!.

ونحنُ لا نقول بتشابه وُجهةِ الرجلين -إطلاقاً-، وإنما قد يكونُ حصل تأثر الشيخ عبد الصبور بما ورد من أفكار شحرور في قصة خلق آدم عليه السلام خصوصاً. لاسيما وأن الشيخ عبد الصبور شاهين قد عُرف –رحمهُ الله- بدفاعه عن القرآن واللغة العربية والانتصار للإسلام، تشهد لذلك مؤلفاته العديدة، وما صرَّح به بلسانِ مقاله حيث قال: "لقد أوقفت حياتي لخوض المعارك الفكرية الساخنة ضد كل من يحاول النيل من الإسلام، سواء كان داخل مصر أو خارجها"[1]. في حين أن شحرور قد انتهج سبيل الهجوم على النص القرآني بشكلٍ لم يخلُ من الإساءة.

ولعلنا نتناول أبرز الأفكار وأوجه الاتفاق، في نقاط:

١/ من حيث المنهج: فقد سلك مؤلف " الكتاب والقرآن " منهجاً تاريخياً في بحثه، وهذا واضحٌ - بعموم - من منهجه في القراءة المعاصرة والدعوة لإعادة فهم النصوص فهماً حديثاً. واتضح أكثر بإشادة د. جعفر بمنهج المؤلف في تقديمه.[2]

ولم يبتعد عنه الدكتور عبد الصبور شاهين في هذا المسلك في كتاب أبي آدم حيثُ دعا إلى فهم النصوص فهماً معاصراً يتماشى والثورة العلمية المعاصرة[1]. وقد جاءت استدلالاته بما فيها من التأويل الفاسد لدعم هذا المنحى، فكان أن حاول تطويع النصوص بتأويلاتٍ غير سائغة لتساير نظريات العلم المعاصر. هذا من جانب.

---

[1] موقع قصة الإسلام: http://goo.gl/dnTDQN

[2] أنظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص١٩-٢٠

ومن جانبٍ آخر؛ وجدناه يفسر بعض النصوص تفسيراً تاريخياً يبتعد بها عن معانيها الظاهرة[٢]، المرادة والتي أطبقت عليها الأمة بإجماع. فيقول مثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾: "والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق، هو النقلة من البشر إلى الإنسان، وهو خلقٌ آخر فعلاً. إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد".[٣]

٢/ من حيث التمييز بين البشر والإنسان: فقد صرَّح شحرور في كتابه، بجملة أراء: [٤]

- في المقدمة أورد كلامه: "قصة آدم ويتألف من خمسة فصول: وفيه نفتتح تاريخ البشرية مع آدم كبداية لتاريخ الإنسان العاقل الواعي، وانتقال البشر من مرحلة الهمج إلى مرحلة الأنسنة[٥] ومعطياتها ومتطلباتها، بدءا من نفخة الروح وتعليم الاسماء وانتهاء بهبوطه من الجنة وبداية تكوينه الاجتماعي".

وهذه ذاتها هي نفس الأفكار التي أوردها الدكتور عبد الصبور في كتابه وإن اختلفت الصياغة!، فيقول عن ارتقاء آدم الإنساني: "والمفروض أنه قبل ظهور الإنسان، لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهبه لهم طبيعة مرحلة النمو التي يعيشونها، فقبل أن يكون العقل وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحياة وطبيعة الوجود"[٦]، وغيره من المواضع.

- أن البشر عندما بلغ مرحلة من التطور والنضوج العضوي، وهو ما عبرت به الآية الكريمة بالتسوية، أهَّله ذلك لنفخ الروح فيه. وظهر ذلك التأهيل في جانبين رئيسين؛ أولها التعديل والتسوية إذ أصبح يسير منتصباً على قدميه. وثانيها؛ نضوج جهازه الصوتي حيث تعلم اللغة تعلماً موضوعياً من بيئته بواسطة قوانين مادية، لا وحياً ولا إلهاماً . وهذا هو ما حاول تقريره دكتور شاهين في كتابه.

- حين أصبح البشر جاهزاً لنفخ الروح فيه، قال الله لملائكته ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وقد كان البشر في المملكة الحيوانية حينذاك قبل الأنسنة. أما الجعل فعملية التغير في الصيرورة، واستعمال

---

[١] أنظر مثلاً ص٥٠

[٢] أنظر ص٩٥

[٣] أبي آدم، ص١١٢

[٤] أنظر: مقدمته وَ فصلاً بعنوان "جدل الإنسان والمعرفة الإنسانية"، وآخر بعنوان "نشأة الإنسان واللغة". الصفحات، ٢٤٩ وما بعدها، وَ ٢٨٦ وما بعدها.

[٥] يعرِّفها في مقدمته بأنها: "عملية الأنسنة، وهي انتقال البشر إلى إنسان بعملية نفخة الروح وهو ما ورد في قصة آدم وظهور مفهوم الخير والشر".

[٦] المرجع السابق، ص١٧١

اسم الفاعل في قوله ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ فيه دلالة على استمرار العملية كقوله ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ ص(٧١) ففي مراحل الخلق المختلفة استعمل ﴿ إِنِّي خَالِقٌ ﴾.

وذات المعنى يقرره د. عبد الصبور شاهين فيقول: "فبين (الخلق) من الطين، و (الجعْل) نطفة في قرار مكين، مسافة زمنية لا يعلمها إلا اللَّه، استغرقتها عمليات التسوية، وهذا الجعل تعبير عن جانب من استكمال الخلق ثم تكون النطفة علقة. ولعل تقدير ذلك تم في زمانٍ متطاول أيضاً).[١]

- البشر في المملكة الحيوانية قبل الأنسنة، كان قائماً على قدميه وله جهاز صوتي يتناغم به، ولكن تصرفه كالبهائم يأكل اللحوم ويسفك الدماء، ويفسد في الأرض دلالة على التخريب الغير واعي. ولا يُفهم من تخريبه سلوكاً لا أخلاقياً أو مخالفة تعاليم الله، لأنه لو كان كذلك لكان فسوقاً لا إفساداً. - وباختصار يريدُ أن يقرر الهمجية وانعدام العقل والتكليف بالنسبة للبشر-.

ونفس الفكرة أيضاً يقررها د. عبد الصبور شاهين في كتابه بمواضع عدة، نذكر منها قوله: "ولا يبعد أن نتصوَّر أن البشر كانوا في بدايةِ وجودهم وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون؛ أي يأكل بعضهم بعضاً".[٢]

- لولا أن آدم يعرف الموت وأن الأشياء تبلى لما تغرر بكلام إبليس حين أغراه: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ الأعراف (٢٠).

وبهذه الفكرة قال د. عبد الصبور شاهين: "ومن المعاني الغيبية المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا، ما جرى على لسان إبليس وهو يغري آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرَّمة، قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ الأعراف (٢٠). فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود، وكيف لهما أن يتخيلاهُ وهو معنىً مرتبط بواقع لم يحدث من قبل. على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية، ونعني به واقع (الموت) وهو ضد الخلود".[٣]

وقال في موضعٍ آخر: "إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت وابتلعها الفناء، ولعل الخلود أو البقاء كان حلماً يراودهما، فجاءهما الشيطان من هذا الباب وقد عرف حلمهما أو نقطة ضعفهما فقاسمهما، إني لكما لمن الناصحين. ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ الأعراف (٢٢).[٤]

---

[١] أبي آدم، ص١١١

[٢] أبي آدم، ص١٢٨

[٣] أبي آدم، ص١٣٣

[٤] المرجع السابق، ص١٣٣- ١٣٤

- أن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين. **وبهذا أيضاً نادى د. عبد الصبور شاهين،** وهي فكرة الزمانية المبنية على تطاول السنين، وتطور البشر فيها إلى الإنسان: "فإذا علمنا أن الناس قد خوطبوا في القرآن بلقب (بني آدم) .. إذا علمنا ذلك كله تأكد لدينا أن الإنسان هو المرحلة الأخيرة والحاسمة في تاريخ الحياة على الأرض، وأن وجود البشر كان بمثابةِ المراحل التحضيرية لذلكم المخلوق الذي قضى على الأرض ملايين السنين، بين عوامل التسوية وتحصيل خواص الجمال والكمال بروحٍ من الله الذي قدَّر له أن يكون سيّد الكون حتى صار جديراً بأن يحمل أمانة الله على هذهِ الأرض"[1]، كما قرر أيضاً أن البشر الأُوَل تدرجوا من المشي منحني القامة إلى مرحلة انتصاب القامة واعتدال الخلقة!.[2]

- يقول في معنى آدم: "لقد جاء آدم من (آدم) وهذا الفعل في اللسان العربي له أصل واحد وهو الموافقة والملاءمة، ومنها جاءت الأدمة وهي باطن الجلد لأن الأدمة أحسن ملاءمة للحم من البشرة ولذلك سمي آدم عليه السلام لأنه أخذ من أدمة الأرض".
وإلى ذلك المعنى ذهب د. عبد الصبور شاهين بعد ربطهِ بين كلمتي (آدم وبشر)، فقال: "ويمكن أن يُقال أن الآدم بمعنى الجلد، مشتقٌ كذلك من (آدم)، ويُطلق على الجلد: البشرة، وللبشرة علاقة لفظية بالكلمة القديمة الأولى في ملحمةِ الخلق؛ كلمة (بشر) التي تفرَّدت بها العربية"[3]. وقد قرر هذا المعنى بأكثرِ من موضع في كتابه.

- نشأة اللغة وارتباطها بالفكر " نفخة الروح"، فحتى نعرف بداية الأنسنة ونفخة الروح وظهور الفكر فما علينا إلا أن نبحث في نشأة الكلام الإنساني.
وذات المعنى يقرره د. عبد الصبور –وقد ربط نضوج اللغة وظهور آدم الإنسان مزوّداً بالملكات العُليا!-: "والحق الذي نؤمن به، هو أن اللغة ظاهرة بشرية معقَّدة شديدة التعقيد ظهرت في حياةِ البشر، على مدى الملايين من السنين التي عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام".[4]

---

[1] أبي آدم، ص١١٩
[2] أنظر الصفحات: من ٤٠ إلى ٤٤
[3] ص١٧٥
[4] ص١٣٢

- "البشر خضع لنفخة الروح فأصبح إنساناً، والقردة لم تخضع لنفخة الروح فبقيت على ما هي عليه قردة، وعلى هذا يجب أن نزيل الأوهام العالقة في أذهاننا بأن الروح هي سر الحياة وإنما هي سر الأنسنة فالإنسان له روح وبقية الحيوانات لها روح".

ونفس المعنى يقرره د. عبد الصبور شاهين بتفريقه بين البشر و الإنسان، فيقول في مواضع شتى من كتابهِ أن التكليف للإنسان وهو المخلوق المُكرَّم، وقد تعرَّض لمسألة النفخة والتسوية باعتبارهما عنصري تمييز للبشر الأرقى: "وكل هذه الحِقب يُعتبر وجود الإنسان فيها غامضاً، ويمكن أن نتصوَّر وجوده في شكل مخلوق فِطري (خام) كالحيوان يستخلص إدراكاتٍ شتى من الأحاسيس المختلطة التي لا تُحصى". ويقــول بموضعٍ آخر: "وقبل المليون سنة تقريبــاً وُجدت كائنات شبيهة بالإنســان .." -ويقصد بها تلك الكائنات الغير منتصبة القامة كما ذكرنا قبل قليل-. وكذلك قوله: "وكلُ هؤلاءِ الأناسي وجوه مختلفة لمخلوقٍ واحد كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلةٍ في تسويةِ الخالق له، فكلما مضت مرحلة من التسوية تغيَّر بعض أوصافِه".[1]

- تميز البشر في الظهور ككائن حي مستقل في الفترة التي ظهرت فيها الأنعام. – وهنا إشارة إلى معنى مفردة بشر وهي الظهور -. **وقد ذهب د. عبد الصبور لنفس المعنى فقال:** "فأما البشر فهي تسمية لذلك المخلوق الذي أبدعهُ الله تعالى من الطين، وهو في اللُغة من (ب ش ر)، وهو يُفيدُ الظهور مع حُسنٍ وجمال، فالبشر؛ أي الظاهر على كُلِّ الكائنات الطينية".[2]

- "بين الخلق والتسوية توجد الأداة "إذا" وهي ظرف لما يستقبل من الزمن. لذا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ الأنعام (٢). ثم استعمل أداتين معاً وهما "ثم وإذا" في قوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ الروم (٢٠) وقد استعمل هاتين الأداتين معاً بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب "المواد غير العضوية" وبين البشر هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين. وقد بين أن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح وأن البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة. وأن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان".

---

[1] أنظر الصفحات: ٣٢، ٣٤، ٣٦

[2] ص٧٠-٧١

ونفس الفكرة قال بها د. عبد الصبور شاهين في مواضعَ عِدة كما أسلفنا، وإن اختلفت الصياغة حيثُ لم يستخدم مفردة (الأنسنة)، لكنهُ عوَّل كثيراً على فكرة التفريق بين بشر وإنسان، وخلع على الإنسان تلك المعاني التي أوردها شحرور تحت لفظة (الأنسنة).

- الآيات التي جاء فيها الإنسان "الناس" تعني الكائن العاقل. **وقد انتهج د. عبد الصبور تصنيف الآيات المكية والمدنية ليؤكد أن مراد القرآن الكريم بالإنسان هو المخلوق العاقل،** يقول مثلاً: "والإنسان لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته، فكلُ إنسانٍ بشر وليس كلُ بشرٍ إنساناً"[١]. ويقول: "أما الإنسان فلا يُطلقُ بمفهوم القرآن إلا ذلك المخلوق المكلَّف بالتوحيد والعِبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام".[٢]
- أصل إنسان وهو من "أنسن" وتعني في اللسان العربي ظهور الشيء وكل شيء خالف طريقة التوحش ومنه الإنس أي أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه ويقال إنسان وإنسانان وأناسي. أما الناس فقد جاءت من "نوس"[٣]، **وكذلك تعرض د. عبد الصبور لمعنى كلمة (إنسان)، فذكر عدد مرات ورودها في القرآن الكريم، واشتقاقاتها مؤكِّداً أنها الصورة النهائية الراقية نتاجَ تعديل (البشر).**[٤]

- نلاحظ أن هذه الصيغة كلها صيغ للعاقل ودائماً يوجه الخطاب في الكتاب في قوله "يا أيها الناس". ولم يقل أبداً يا أيها البشر.

ورداً على هذه الجزئية[٥] ننقل ما ردَّ به الأستاذ جواد عفّانه عليه – د. شحرور -، حيثُ قال: "إن عدم توجيه الخطاب للناس بقوله (يا أيها البشر)، لا يعني أن البشر غير عاقلين، وإنما يتعلق ذلك باللغة وإعجازها، فالبشر كلمة تعم كل إنسي وُجد وموجود وسيوجد، ولذلك فقد جاءت منكرة في كل مواضعها من القرآن إلا في آيتين؛ الأولى مسبوقة بمن (التبعيضية) في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾مريم (٢٦)، أي من البشر أو أحداً من جنس البشر. وهنا جاءت لتمييز البشر عن

---

[١] ص١٠٣

[٢] ص١٠٤

[٣] اشتقاقات كلمة "إنسان" عين ما قاله د .عبد الصبور في كتابه " أبي آدم "، أنظر: ص١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

[٤] ص١١٩

[٥] راجع الردود على الفقرات السابقة في جزء مناقشة رأي د. عبد الصبور شاهين، وأما هذه الجزئية ففي إطار رد الأستاذ جواد على شحرور في الشبهة التي أوردها والمتعلقة بالنداء القرآني (يا أيها الناس)، وقد أوردناها إتماماً للفائدة وقطعاً لشُبهة المعترض.

الملائكة لأن مريم عليها السلام واجهت النوعين. والأخرى في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ المدثر (٢٥)، أي جنس البشر لينكروا أنه قول رب العالمين".[١]

- استهل بحثه بالهجوم على كتب التفسير ونعت أصحابها بالقدامى، واتهام بالاقتباس من الإسرائيليات ، يقول: "لقد قال بعض المفسرين القدامى – ونحن نعلم أن في تفسيراتهم كثيرا من الإسرائيليات- في الأمور المتعلقة بخلق الإنسان والكون. لقد قالوا عن آدم بأن الله خلقه على النحو التالي: جمع الله تراباً من أديم الأرض وخلطه بالماء فأصبح طيناً، ثم تركه ليجف فأصبح صلصالاً. ومنهم من أضاف بأن كل مرحلة من المراحل استمرت أربعين عاماً (كذا). ثم نفخ فيه الروح فأصبح كائناً حياً (كذا) ثم نام واستيقظ فإذا حواء بجانبه لتؤنس وحشته، وخلقت من ضلعه، ثم سكنا الجنة ثم طردهم الله من الجنة إلى الأرض. فإذا سألتهم: أيعقل هذا؟ فيكون الجواب المباشر (أليس الله على كل شيء قدير)"!.

وكذلك د. عبد الصبور لم يخلُ سياق حديثه من التعرض لأهلِ الحديث والتفسير، فيقول بأحد المواضع: "لقد ابتلي العقل المسلم المعاصر من قِبل مدرستين لهما وجودٌ على الساحة، ولهما ضجيج مزعج، وقد آن أوان إخماد هذا الضجيج: أما أولاهما فهي المدرسة الخرافية التي تتبنى الحكايات والإسرائيليات، وأما الثانية فهي المدرسة الحرفية والتي تتشبث بالمأثور حتى ولو كان خرافياً وهي المدرسة التي ترفع السيف في وجه أي اجتهاد بدعوى الخروج على قواعد اللعبة السلفية والسلفية براء من كل أشكال الأساطير والخرافات"[٢]. وعليه فالهدف من إصدار كتاب "أبي آدم" هو القضاء على هاتين المدرستين.[٣]

وبعدُ؛ فما سبق مقارنة يسيرة بين أهم الأفكار الرئيسة التي وردت في الكتابين والتي تتعلق بقصة الخلق وآدم ، علماً أن ثمة أراء فرعية قد اشترك فيها الكتابان أيضاً[٤]، مما يؤيدُ وبقوة استفادة اللاحق منهما من

[١] القرآن وأوهام القراءة المعاصرة للأستاذ جواد عفانه، نقلاً عن "كتاب آدم الإنسان أبو البشر رد علمي شامل " للمؤلف، ص٩٥ - ٩٦

[٢] أبي آدم، ص٢٣ ، وانظر ص٩ أيضاً.

[٣] أنظر المرجع السابق: ص٢٣

[٤] مثل فكرة الجنة الأرضية اليانعة الثمار ص١٦٣ " أبي آدم"، وتعليم أولى طلائع الإنسان كيفية دفن الموتى ص١٢٧، وبداية التكليف الدين واختصاصه بالإنسان ص١٠٧، ١٣٤. وكيفية نشأة اللغة بتقليد أصوات الحيوانات والمناغاة ص١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤، وَ دعوة القرآن للسير في الأرض والاستشهاد بالآية الواردة في سورة العنكبوت ص١٢٠، وكذلك

السابق. وقد كان مما لفت انتباهنا إلى وجود اشتراكٍ فكري يكاد يتطابق بين الكتابين، هو ما ورد في كتاب الأستاذ جواد عفانه من كثرة الاستشهاد بما ورد في كتابه "القرآن وأوهام القراءة المعاصرة" الذي رد فيه على الدكتور مُحَمَّد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن". وبالرجوع إلى كتاب الدكتور شحرور كانت المفاجأة، إذ اتحدت الأفكار والرؤى بين الكتابين في مواضع عِدة!.

أما الفرقُ الجوهري بينهما، ففي كيفية الاستدلال والتعاطي مع الدليل؛ ففي حين استخدم الدكتور شحرور منهجاً تاريخياً، كان جُل اعتمادهِ على النظرية الجدلية المادية في إثبات ما استقر لديه من أراء مع تأويل النصوص تأويلاً فاسداً. بينما عوَّل الدكتور شاهين على طريق التأويل الفاسد لإثبات ما اعتقد بصحته من نظريات العلم الحديث، إضافةً إلى أن الدكتور شاهين كان أكثر تأدباً مع ربه حيثُ جنح للتأويل مع تقريرهِ بين الفينة والأخرى بأن القرآن الكريم هو الكلمة النهائية في الخطاب وهو الحقيقة الصادقة بإطلاق[١]. بينما سلك الآخر مسلك إطلاق اللسان بنقدِ النص تارةً، ونقد تفسيرات القدماء بشكلٍ لم يخلُ من تهكم وازدراء مسيءٍ للنصِ أيضاً!.

استغراق ملحمة التطور ملايين السنين ص١٢٢. ولا ننسى أيضاً اشتراك الكتابين في عددٍ من المراجع كتفسير الزمخشري وخصائص ابن جني ومقاييس ابن فارس. إضافة للتطابق بين جُل آيات الخلق.

[١] أنظر: أبي آدم، ص٤٩

مما سبق نخلص إلى أن:

- الدكتور عبد الصبور اعتمد على معطيات العلم الحديث حتى لو لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية القاطعة.
- الدكتور شاهين نهج سبيل تأويل النصوص الشرعية لتدعيم فكرته.
- الدكتور شاهين ميَّز بين مفهومي البشر والإنسان.
- الدكتور شاهين يقرر وجود أوادم قبل آدم عليه السلام.
- تناقض الدكتور عبد الصبور شاهين بدا جلياً واضحاً في كتاب أبي آدم.
- أسباب الخلل المنهجي والعلمي لدى مؤلف كتاب أبي آدم بسبب تعويله على الأوهام العلمية الحديثة وسلوكه مسلك التأويل الفاسد.
- تأثر الدكتور عبد الصبور شاهين بمن سبقه - غدا أقرب للتأكيد - كـ :

  ١/ كتاب الأستاذ بشير التركي " آدم عليه الصلاة والسلام ".

  ٢/ آراء الشيخين مُحَمَّد عبده ورشيد رضا.

  ٣/ آراء أبو زيد الدمنهوري في تفسيره البرهان.

  ٤/ كتاب " الكتاب والقرآن " للدكتور مُحَمَّد شحرور.

الخاتمة:

مما سبق نخلصُ إلى جملةٍ حقائق منها أن الوحي الشريف المنزل على نبينا مُحَمَّد ﷺ هو مصدر المعرفة اليقينية الصادقة بإطلاق فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام خصوصاً وسائر الجوانب التي تهم الخليقة عموماً. إذ إنه الأصل السماوي الوحيد الذي لم يتبدَّل ولم يتغير بإطلاق، كيف لا وقد تكفَّل مُنزِلُهُ سبحانه وتعالى ذاته بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩)

وعليهِ فالمنهج الصحيح لمعرفة قضية الخلق وغيرها من القضايا، هو التعويل على الوحي الشريف بنوعَيْهِ القرآن الكريم والسُنَّة المُطهَّرة على فهم السلف الصالح؛ الذين تخرّجوا من مدرسة النبوة الشريفة ونهلوا من معينها الصافي العقيدة الصحيحة الصافية وكل ما يتعلق بشؤون الحياة، قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: "تركَنا رسولُ اللهِ ﷺ؛ وما طائرٌ يطيرُ بجناحَيه إلا عندنا منه عِلْمٌ".[1]

ومن ثَمَّ فالواجب الاتباع والتسليم والانقياد دون جدلٍ في النصوص أو تقديمِ آراءِ البشرِ عليها أو تحريفها عن معانيها التي أقرها الشرع الحنيف في عصرِ النبوةِ الهادية المهدية. قال ﷺ يُخبرنا عن الفرقة الناجية: "إنَّ بَني إسرائيلَ، افترَقَتْ علَى إحدَى وَسبعينَ فِرقةً، و إنَّ أُمَّتي ستَفترِقُ علَى اثنتينِ و سَبعينَ فرقةً، كلُّها في النَّارِ إلَّا واحِدةً، و هيَ الجَماعَةُ"[2]، فالجماعة منَ كان على هديهِ ﷺ وسُنتهُ إلى يومِ القيامة، ويمثلهم سلفنا الصالح ومن حذا حذوهم وسار على نهجهم القويم في الماضي والحاضر. ففهم السلف هو المُعَوَّلِ عليه في مسألة خلق آدم عليه السلام.

ناهيك عن أن خلق آدم عليه السلام خصوصاً، وخلق البشر عموماً مما يدخلُ في قضايا الغيب التي لا سبيل لأحدٍ إلى معرفتها إلا بالسمع أو الوحي الشريف، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك (١٤)، وقال سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف (٥١). هذه المسألة المهمة، التي شغلت الفكر الإنساني قديماً وحديثاً، قد اهتمت بها الديانات على اختلافها؛ فالسماوية اليوم يُمثِّلُها دين الإسلام وحده.

---

[1] أخرجهُ الهيثمي وصححهُ الألباني، حديث رقم (٦٢)

[2] أخرجه ابن ماجه، وصححهُ الألباني، حديث رقم (٣٢٤٢)

وقد مرَّ معنا أن آدم عليه السلام -وفق التصور الشرعي الإسلامي- خُلق من طين، وخُلقت ذُرّيته من نطفةٍ من ماء مهين. و أن آدم عليه السلام هو أبو البشر، فهو يُمثِّلُ فجر وبداية البشر المخلوق من طين.

أما –خلق آدم عليه السلام- في كتاب العهد القديم، فقد رأينا كيف أن التحريف داخَلَ بعض تفاصيل القصة -وإن احتفظتْ ببعض أصولها-، كمادة الخلق، وانبثاق البشر من الأبوين الأولين آدم وحواء. وأما إن تعدينا العهد القديم إلى كتاب التلمود، فنلمسُ حينئذٍ معانٍ أخرى تبعُد كل البعد عن تصوّر العهد القديم لخلق الإنسان، وليس ما ورد به مما يتعلق بخلق آدم عليه السلام إلا تكريساً لبعض العقائد في الفكر اليهودي المنحرف المتعصِّب؛ كفكرة الاختيار والاصطفاء للشعب اليهودي.

ولا تختلف النصرانية المحرفة اليوم عن سابقتها اليهودية؛ في انحرافِ تصورها في خلق آدم عليه السلام، إذ تعتمد ما ورد في العهد القديم من نصوص باعتباره الأصل، وهذا تصورٌ يقترب من تصوُّر العهد القديم في خلق آدم عليه السلام. أما إن جنحت للرمزية فإن المتأمل يجد فيها تكريساً لبعض عقائد النصرانية المُحرفة كعقيدة الفداء. إذ تُفسِّر خلق آدم عليه السلام بمعنىً رمزي يُرادُ به المسيح عليه السلام. وعند التحقيق فإنهُ وفق هذا المعنى الرمزي، لاوجود حقيقي لقصة خلق آدم عليه السلام!.

أما الديانات الوضعية فقد اتفقت حول خطوط عريضة في مسألة خلق الإنسان الأول، كمادة الخلق وهي الطين أو التراب، وكذلك حول انبثاق البشر من أبوين أوَّليين. مما يجعل امتدادها عن أصولٍ سماوية طالها التحريف عبر عصورٍ ممتدة، أقرب للاعتقاد. أما الجانب البارز فيها، أن الإنسان الأول حوى جزءاً مُقدَّساً من الإله في كثير من تلك الأساطير!.

ويُضافُ إلى جملةِ تلك الانحرافات الوضعية في خلق آدم عليه السلام، نوعٌ آخرَ من الانحراف الفِكري. ألا وهو انحراف بعض شخصيات الفكر الإسلامي المعاصر في قضية خلق الإنسان الأوَّل، نتيجة الأخذ ببعض نظريات الخلق التي لم تثبت كنظرية النشوء والارتقاء، مما أدى لفساد التصوُّر الذي تجلَّى في كتاباتهم وتنظيراتهم حول تلك المسألة المُهمة.

ذلك الأخذ الذي ما كان ليحدُث، لولا ما حاق بالأمة الإسلامية في فترةٍ حالكة من فترات تاريخها؛ بدخول الاحتلال الأجنبي للأراضي الإسلامية، وإجلابهِ بخيلهِ ورَجْلِهِ لمسخ هويتها الإسلامية وإبعادها عن مصدر معرفتها اليقيني الصادق، مما أحدث بلبلةً وتشويهاً في الفكر الإسلامي بشكلٍ أو بآخر –إلا من رحم الله-.

والحق أن مسائل الغيب كما أسلفنا، لا تُدرك ولا تُعلم إلا بالوحي أو السمع الذي يُمثِّلُ مصدر المعرفة اليقينية الحقة والصادقة بإطلاق. وقد أخبرنا ربنا عن ذلك كُلِّه بما يروي الظمأ ويشفي العليل وفيهِ الغُنْيَة، فلا يُحتاجُ معه إلى غيره.

وعليهِ فأيُّ ادعاءٍ يُخرَّج مخرج العِلمية أو التجربة أو القراءة المعاصرة أو يدَّعي الحق واليقين؛ - بمسألة خلق الإنسان خصوصاً، أو سائر المسائل التي وردت فيها نصوص شرعية بعموم-، ويُعارِضُ النصوص والثوابت الشرعية القطعية اليقينية بإطلاق، فهو مردودٌ على صاحبهِ كائناً من كان، فرداً كان أو جماعات.

كيف لا وقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أو الارتياب سعي أعداءِ الإسلام الحثيث لاستئصالِ إيمانِ المجتمع المسلم وتشويه فِكرهِ ونزعِ ولاء المُسلم لدينهِ، وقد مرَّ معنا العديد من الأمثلة في هذا البحث، نذكِّر بأحدها وهو قول أحد المستشرقين: "إننا في كل بلد اسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الاسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم الى عقائد ما قبل الاسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات".[١]

ناهيك عن أن تلك النظريات التي تدَّعي العِلمية قد ثبت فشلها وبطلانها وكسادها في مساقطِ رؤوسها، و مع ذلك لا يزالُ –للأسف الشديد- بعضُ أبناءِ الإسلام يحتفظون لها بالتأييدِ والولاء!. يقول د. بشير التركي: "إن نظرية داروين التي يُراد بها تفسير النشوء والارتقاء خطأ، أصبحت محفوظة في رفوف متاحف تاريخ العلم ولا تُدرَّس في مدارس الأمم المتقدِّمة تقنياً".[٢]

إن الحقيقة العلمية الثابتة، والتجربة الصحيحة النزيهة، تماماً كالعقلِ الصريح، لا يمكنُ أن تخالف وحياً سماوياً بحال، لأن خالق ذلك كُلِّهِ هو مُنزِلُ الكتاب سبحانهُ وتعالى. فإن خالفه فذلك يعني بالتأكيد تدخل أيدٍ بشريةٍ بالجهلِ أو العَبَث والتحريف، قصداً أو جهلاً!.

وقد تناولنا أمثلةً من شخصيات الفكر الإسلامي المعاصر اليوم، ممن صدَّقوا بتلك الدعاوى والتخرُّصات العِلمية، فانحرفت مسالكهم في تفسيراتهم وحادوا عن النهج السوي والصراط المستقيم في هذهِ المسألة المُهمة الحساسة في تاريخ البشر.

---

[١] واقعنا المعاصر، ص١٨٨

[٢] آدم عليه الصلاة والسلام، ص٨٣

وليت الأمر استقر على مجرد انحرافِ الفكر فحسب، ولكن الطامة والخطأ الجسيم أن ذلك الانحراف امتد إلى النصوص الشرعية بمحاولةِ التأويل وقلب المعاني لتُواكب المعاني المستحدثة المُبتَدَعة نظريات العلم الحديث الفاسدة، مما أوقعَ في حَرَجٍ شديد مع النص، بعد أن بانت زيوفُ تلك النظريات الغربية الدخيلة على الفكر الإسلامي والمجتمع المُسلم.

نسألُ الله تعالى أن يُرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علَّمنا إنه سميعٌ قريب.

التوصيات:

بعد أن وصلنا إلى خاتمة هذا البحث الذي نسأل الله العلي القدير أن ينفع به نوصي بالآتي:

- أن تكون هناك دراسة تتناول أثر رسائل إخوان الصفا على فِكر طنطاوي جوهري.
- أن تكون هناك دراسة تُعنى بدحض روايات الشيعة في خلق آدم عليه السلام ونقدها بردِّها إلى أصولها التي استقت منها ذلك الرأي والرد عليها.
- أن تكون هنالك دراسة تُعنى بكشف بذور التصوُّف في فكر طنطاوي جوهري. فإن المُلاحظ لكتاب "أين الإنسان؟"، يجد تعويله على الإلهام والكشف!، فهل هو ذو توجه صوفي أم ماذا؟. وهل لذلك أثرٌ على فِكرِهِ أم لا؟.
- أن تتناول دراسة أثر المستشرقين على فكر طنطاوي جوهري. فالقارئ لكتابي جوهري (الجواهر) و (أين الإنسان) يجد استشهاده بلفيفٍ وحشْدٍ كبير من علماء الغرب بل والتعويل على آرائهم وآراء أرسطو وفلاسفة اليونان!.
- أن تُعنى دراسة ببحث شخصية مُحَمَّد علي باشا وأثرهُ في الأمة الإسلامية.

وأخيراً نسأل الله أن يُبرم لأمةِ الإسلام أمر رُشدٍ يُعَزُّ فيه أهلُ طاعته ويُهدى أهلُ معصيته، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه. وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آلِهِ وصحبه وسلم أجمعين

الفهـــارس

أولاً

فهرس الآيات الكريمة

الآية ورقمها **الصفحة**

ثانياً

فهرس الأحاديث الشريفة

طرف الحديث — الصفحة

ثالثاً

فهرس المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. "أين الإنسان" لطنطاوي جوهري، د.ط، د.ت، مطبعة المعارف، مصر.
٣. الإبانة عن أصولِ الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تقديم وتحقيق وتعليق: د. فوقية حسين محمود، ط١، ١٣٩٧هـ، دار الأنصار، القاهرة.
٤. أبي آدم بين الحقيقة والأسطورة، للدكتور عبد الصبور شاهين، د.ط، د.ت، دار أخبار اليوم، القاهرة.
٥. أبي آدم بين المفتريات والحقائق للمؤلف غريب مُحَمَّد أبو عارف، د. ط، ١٤٢٧هـ. الرياض.
٦. الإتجاه العقلي السلبي في تفسير المنار للأستاذ ماجد صبحي عبدالنبي الرنتيسي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير،١٤٢٢هـ، الجامعة الإسلامية غزة.
٧. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها؛ التبشير - الاستشراق - الاستعمار، عبد الرحمن بن حبنكة الميداني، ط٨، ١٤٢٠هـ، دار القلم، دمشق.
٨. الإحكام في أصول الأحكام، لأبي مُحَمَّد علي بن حزم الأندلسي، د.ط، د.ت، طبعة محققة مُقَابلة على النسختين الخَطِّيتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية رقم (١١، ١٣)، ومقابَلة على النسخة التي حققها الشيخ أحمد مُحَمَّد شاكر.
٩. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح المقدسي، د.ط، د.ت، دار عالم الكتب.
١٠.آدم عليه السلام بين حقائق القرآن ونظريات العلم الحديث، دراسة نصية عقدية لقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، للباحثة.
١١.آدم الإنسان أبو البشر رد علمي شامل على كتاب أبي آدم قصة الخليقة بين الحقيقة والأسطورة، للمؤلف جواد موسى عفانه، ط٣ ، ١٤٢٩هـ ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمّان.
١٢.آدم عليه الصلاة والسلام، للدكتور بشير التركي، د.ط، ١٤٠٥هـ، دار البعث.
١٣.إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علمِ الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د. شعبان مُحَمَّد إسماعيل، د.ط، ١٤١٨هـ، دار السلام.
١٤.أساطير اليهود، للمؤلف لويس جنز بيرج، ترجمة حسن حمدي السماحي، ط١، ٢٠٠٧م، دار الكتاب العربي، دمشق.
١٥.أسباب الخطأ في التفسير للدكتور طاهر محمود مُحَمَّد يعقوب، ط١ ، ١٤٢٥هـ، دار ابن الجوزي، الرياض.

١٦.الإسلام بين التنوير والتزوير، للدكتور مُحَمَّد عمارة، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٧.الإسلام يتحدى؛ مدخل علمي إلى الإيمان، لوحيد الدين خان، ترجمة: الدكتور ظفر الإسلام خان، د.ط، د.ت، مكتبة الرسالة.
١٨.أشهر الأساطير في التاريخ، للمؤلف مجدي كامل، ط١، ٢٠٠٣م، دار الكتاب العربي، دمشق-القاهرة.
١٩.أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، للدكتور موريس بوكاي، ترجمة: فوزي شعبان، د.ط، د.ت، المكتبة العلمية.
٢٠.أصل الإنسان عند الأفغاني ومُحَمَّد عبده ورشيد رضا، للدكتور سامي عابدين، ط١، ١٤٢٦هـ، دار الحرف العربي، بيروت.
٢١.أصل الإنسان في التوراة والإنجيل، للدكتور سامي عابدين، ط١، ١٤٢٦هـ، دار الحرف العربي، بيروت.
٢٢.أصول الإيمان بالغيب وآثاره للدكتورة فوز بنت عبد اللطيف كردي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض.
٢٣.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، د.ط، ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت.
٢٤.الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد الغرناطي الشاطبي، د.ط، ١٤١٢هـ، دار ابن عفان.
٢٥.أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لأحمد تيمور باشا، د.ط، ١٤٢٣هـ، دار الآفاق العربية، القاهرة.
٢٦.إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر الزرعي ابن القيم الجوزية، تحقيق: مُحَمَّد عبد السلام إبراهيم، ط١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧.الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، ط٥، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٨.الأعلام لخير الدين الزركلي وآخرون، ط٥، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٩.الأعلام لخير الدين الزركلي، ط١٥، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، بيروت.
٣٠.أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، للدكتور سيِّد العفَّاني، ط١، ١٤٢٤هـ، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة.
٣١.إفحام اليهود، تقديم وتحقيق وتعليق؛ الدكتور مُحَمَّد عبد الله الشرقاوي، ط١، ١٤٠٦هـ، دار الهداية، مدينة نصر.
٣٢.إنجيل برنابا، ترجمة من الإنجليزية الدكتور خليل سعادة، الطبعة الأصلية على نفقة مطبعة المنار لصاحبها السيد مُحَمَّد رشيد رضا، كتابة وإعداد وتنسيق: م. أحمد جبر عبد ربه.
٣٣.الإنسان الكامل في الإسلام، لعبد الرحمن بدوي، ط٢، ١٩٧٦م، وكالة المطبوعات، شارع فهد السالم، الكويت.

٣٤.الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، إعداد: د. لطف الله بن عبد العظيم خوجه، ط١، ١٤٣٠هـ، دار الفضيلة، الرياض.
٣٥.الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، لعبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن مُحَمَّد بن عويضة، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٦.الإنسان الكامل والقطب والغوث الفرد من كلام محي الدين ابن العربي، جمع وتأليف: محمود محمود الغراب، ط٢، ١٤١٠هـ، دار الفكر، دمشق.
٣٧.إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين رداً على نظريةِ دارون، لمحمد ماضي أبو العزائم، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتاب الصوفي.
٣٨.آيات الله في خلق الإنسان وبعثه وحسابه، للدكتور ماهر أحمد الصوفي، د.ط، ٢٠٠٨م، المكتبة العصرية، بيروت.
٣٩.إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد، لمحمد بن نصر المرتضى اليماني المعروف بابن الوزير، ط٢، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠.بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي، ط٣، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفا، بيروت – لبنان.
٤١.بحار الأنوار للمجلسي، لمحمد باقر المجلسي، د.ط، د.ت، بيروت.
٤٢.البحر المحيط للإمام بدر الدين الزركشي، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتبي.
٤٣.البداية والنهاية لابن كثير، د.ط، د.ت، مكتبة المعارف، بيروت.
٤٤.البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي، د.ط، ١٤١٠هـ، دار المعرفة.
٤٥.بيان تلبيس الجهمية.
٤٦.تأثر اليهودية بالأديان القديمة، للدكتور فتحي الزغبي، رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه، ١٤٠٧هـ، جامعة الأزهر.
٤٧.تاريخ الأستاذ الإمام، للسيد مُحَمَّد رشيد رضا، ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، دار الفضيلة، القاهرة.
٤٨.التاريخ الإسلامي، التاريخ المُعاصر وادي النيل مصر والسودان ١٩٢٤م- ١٩٨٩م، لمحمود شاكر، ط٢، ١٤٢١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٩.تاريخ الطبري، د.ط، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٠.تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة أفريقيا)، للدكتور إسماعيل أحمد ياغي، د.ط، د.ت، دار المريخ، المملكة العربية السعودية –الرياض.
٥١.التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، تحقيق: حامد الفقي، د.ط، د.ت، دار المعرفة، بيروت.
٥٢.التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، د.ط، د.ت، دار ابن سحنون.
٥٣.تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: أبو قتيبة نظر مُحَمَّد الفاريابي، د.ط، د.ت.
٥٤.الترغيب للمنذري.

٥٥.تفسير ابن أبي حاتم.
٥٦.تفسير ابن كثير.
٥٧.تفسير البغوي.
٥٨.تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري، د. ط ، ١٤٠٥هـ، دار الفكر، بيروت.
٥٩.التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم، جذوره وتطبيقاته، للأستاذ الدكتور عادل الشدي، ط١ ، ١٤٣١هـ، مدار الوطن للنشر، الرياض.
٦٠.تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير "المنار" للشيخ مُحَمَّد رضا، تحقيق وتعليق: فؤاد سراج عبد الغفار، د.ط، د.ت، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
٦١.تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، د.ط، ١٤٢٢هـ، دار طيبة.
٦٢.تفسير القرطبي لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، د.ط، د.ت، دار الشعب، القاهرة.
٦٣.تفسير الواحدي لعلي أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١ ، ١٤١٥هـ، دار القلم، بيروت.
٦٤.تفسير سفر التكوين للقمص تادرس يعقوب ملطي، د.ط ، د.ت ، العباسية القاهرة.
٦٥.التفسير والمفسرون للدكتور مُحَمَّد حسين الذهبي، د.ط ، د.ت، مكتبة وهبة، القاهرة.
٦٦.التفسير والمفسرون للدكتور مُحَمَّد حسين الذهبي، ط٧ ، ٢٠٠٠م، مكتبة وهبة.
٦٧.التلمود "عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخامين"، للدكتور كوهن، ط١، ٢٠٠٥م، دار الخيَّال، بيروت.
٦٨.التلمود أسرار وحقائق؛ فضح المخططات اليهودية للسيطرة على العالم، للحسيني الحسيني معدِّي، ط١ ، ٢٠٠٦م، دار الكتاب العربي، دمشق.
٦٩.تنقيح الأبحاث للملل الثلاث "اليهودية والمسيحية والإسلام"، لابن كمونة اليهودي، ط٢، د.ت، دار الأنصار.
٧٠.تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلامِ المنَّان، للعلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط٢، ١٤٢٢هـ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.
٧١.جامع الأخبار، د.ط، ١٣٥٤هـ، كتاب خانة مبين، أصفهان.
٧٢.الجامع لأحكام القرآن للإمام مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، د.ط، د.ت، دار الفكر.
٧٣.الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية منذُ البداية وحتى عام ١٩٤٨م، للدكتور السيّد أحمد فرج، ط٤، ١٤٠٨هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.
٧٤.جنايات أرسطو في حق العقل والعلم- مظاهرها ،آثارها ، أسبابها-"قراءة نقدية لكشف جرائم أرسطو في حق العقل و العلم"، للأستاذ الدكتور خالد كبير علال، ط١ ، ١٤٣٢هـ، دار المحتسب، الجزائر.

٧٥.الجواهر في تفسير القرآن الكريم، لطنطاوي جوهري، ضبطه وصححه مُحَمَّد عبد السلام شاهين، ط١ ، ١٤٢٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٦.حقيقة الخلق ونظرية التطور، لمحمد فتح الله كولن، ط٢، ١٤٢٦هـ، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
٧٧.حول موثوقية الأناجيل، إعداد: مُحَمَّد السعدي، ط١، ١٩٨٥م، من منشورات رسالة الجهاد، طرابلس - ليبيا.
٧٨.خديعة التطور، للأستاذ هارون يحيى، ترجمة: سليمان بايبارا، د.ط، د.ت.
٧٩.الخطر اليهودي "بروتوكولات حكماء صهيون"، لمحمد خليفة التونسي، ط٤، د.ت، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٠.دارون ونظرية التطور، لشمس الدين آق بلوت، ترجمة: أورخان مُحَمَّد علي، ط٧، ١٩٨٠م، دار الصحوة، القاهرة.
٨١.دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، ط١، ١٤١٨هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
٨٢.دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ط٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية.
٨٣.دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمُعاصر، للأستاذ الدكتور مُحَمَّد محمود السروجي، د.ط، ١٩٩٨م.
٨٤.دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، للمؤلف مصطفى فوزي غزَّال، ط١، ١٤٠٣هـ، دار طيبة، المملكة العربية السعودية - الرياض.
٨٥.الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الصلابي، د.ط، د.ت.
٨٦.الديانة المصرية القديمة، للمؤلف: ياروسلاف تشرني، ترجمة د. أحمد قدري، ط١، ١٤١٦هـ، دار الشروق، القاهرة.
٨٧.الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين، لأبكار السقَّاف، ط١، ٢٠٠٤م، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
٨٨.رد على التوراة؛ رد على اليهودية واليهودية المسيحية، الأعمال الكاملة لندرة اليازجي، ط٤، ٢٠٠١م، دار أمواج.
٨٩.الرد على الجهمية، لأبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، ط١، ١٤١٦هـ، دار ابن الأثير، الكويت.
٩٠.رسالة التوحيد لمحمد عبده، أعدها للنشر والطبع وقام بتحقيقها: محمود أبو ريه، ط٣، د.ت، دار المعارف، مصر.
٩١.الرسالة للإمام مُحَمَّد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٢.رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، لإخوان الصفا، د.ط، د.ت، مكتبة المصطفى الإلكترونية.

٩٣.زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين، جمع وترتيب الدكتور سيد بن حسين العفاني، د. ط ، د. ت، دار العفاني، القاهرة.
٩٤.الزوائد للهيثمي.
٩٥.السلسلة الصحيحة
٩٦.السنة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن نصر المروزي، تحقيق: د. عبد الله بن مُحَمَّد البصيري، ط١، ١٤٢٢هـ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض.
٩٧.سنن ابن ماجه.
٩٨.سنن البيهقي.
٩٩.سنن الترمذي.
١٠٠. سنن الدارمي.
١٠١. السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، د.ط، د.ت، دار المعرفة بيروت.
١٠٢. سنن النسائي الكبرى، بيروت.
١٠٣. سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي، د.ط، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة.
١٠٤. السيرة النبوية، لأبي مُحَمَّد عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ١، ١٤١١هـ، دار الجيل، بيروت.
١٠٥. شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن مُحَمَّد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، د.ط، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة.
١٠٦. شرح النووي على مسلم.
١٠٧. الشريعة، لأبي بكر مُحَمَّد بن الحسين الآجُرِّي، دراسة وتحقيق: د. عبد الله بن عمر الدميجي، ط١، ١٤١٨هـ، دار الوطن، الرياض
١٠٨. شعب الإيمان للبيهقي.
١٠٩. الشيخ طنطاوي جوهري دراسة ونصوص للدكتور عبد العزيز جادو.
١١٠. الصارم المنكي في الرد على السُبكي، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١١. صحيح ابن حبان.
١١٢. صحيح البخاري.
١١٣. صحيح الجامع.
١١٤. صحيح مسلم.
١١٥. الصواعق المرسلة لأبي عبد الله شمس الدين مُحَمَّد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن القيم الجوزية، تحقيق: د. علي بن مُحَمَّد الدخيل الله، ط ٣، ١٤١٨هـ، دار العاصمة، الرياض.
١١٦. ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، دراسة نقدية إسلامية، للدكتور خالد بن عبد العزيز السيف، ط١، ١٤٣١هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعودية – جدة.

١١٧. عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، للدكتور أحمد بن عبد العزيز القصير، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
١١٨. العقيدة الطحاوية، للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي، ط١، د.ت، المكتب الإسلامي، بيروت.
١١٩. عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورةِ الرحمن، للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، ط٢، ١٤٠٩هـ، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض.
١٢٠. العلمانية؛ نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، للدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي، د.ط، د.ت، دار الهجرة للنشر والتوزيع.
١٢١. فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، د.ط، ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث.
١٢٢. فتح القدير لمحمد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني، د.ط، د.ت، دار الفكر، بيروت
١٢٣. فصوص الحكم لا بن عربي، لأبي العلاء عفيفي، د.ط، د.ت، دار إحياء الكتب العربية.
١٢٤. فصول في أديان الهند، للدكتور مُحَمَّد ضياء الأعظمي، ط٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية.
١٢٥. فصول في أديان الهند؛ الهندوسية-البوذية-الجينية-السيخية وعلاقة التصوف بها، للدكتور مُحَمَّد ضياء الرحمن الأعظمي، ط١، ١٤١٧هـ، دار البخاري، المدينة المنورة، بريدة.
١٢٦. فلسفة النشوء والارتقاء، لشبلي شميل، ط٢، ١٩٨٣م، دار مارون عبود.
١٢٧. الفلكلور في العهد القديم، لجيمس فريزر، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ط٢، ١٩٨٢م، دار المعارف.
١٢٨. فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية "حقيقته وأهميته وحجيته"، للدكتور عبد الله بن عمر الدميجي، د.ط، د.ت، مركز البيان للبحوث والدراسات.
١٢٩. قاموس الكتاب المقدس، تأليف مجموعة من أساتذة اللاهوت، ط١٠، دار مكتبة العائلة، القاهرة.
١٣٠. القاموس المحيط لمجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، د.ط، د.ت، دار الجيل. باب القاف فصل الخاء.
١٣١. قاموس المذاهب والأديان، للدكتور حسين علي حمد، ط١، ١٤١٩هـ، دار الجيل، بيروت.
١٣٢. القرآن وأوهام القراءة المعاصرة للأستاذ جواد عفانه.
١٣٣. قصة الديانات، لسليمان مظهر، ط٢، ٢٠٠٢م، مكتبة مدبولي، القاهرة
١٣٤. القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ العلاَّمة مُحَمَّد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط٢، ١٤١٤هـ، مكتبة السُنة، القاهرة.
١٣٥. الكامل في التاريخ لابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت

١٣٦. الكتاب المقدس.
١٣٧. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، للمؤلف مُحَمَّد شحرور، د.ط، د.ت، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
١٣٨. الكنز المرصود في فضائح التلمود، للدكتور مُحَمَّد عبد الله الشرقاوي، د.ط، ١٤١٠هـ، مكتبة الوعي الإسلامي.
١٣٩. لسان العرب، لأبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم (ابن منظور)، د.ط، ٢٠٠٣م، دار صادر.
١٤٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، كتاب فيه ذكر الأنبياء، باب ذكر نبينا آدم أبي البشر ﷺ ، د. ط ، ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث – دار الكتاب ، القاهرة – بيروت.
١٤١. المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والإدارية، للدكتور ناصر الأنصاري، ط٢، ١٤١٧هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٤٢. مجموع فتاوى ابن باز، أشرف على جمعه: مُحَمَّد بن سعد الشويعر، د.ط، د.ت.
١٤٣. مجموع فتاوى ابن تيمية؛ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحرَّاني، د.ط، ١٤١٦هـ، مجمع الملك فهد.
١٤٤. مختار الصحاح.
١٤٥. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمُعطِّلة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيّد إبراهيم، د.ط، ١٤٢٢هـ، دار الحديث، القاهرة.
١٤٦. مذاهب فكرية معاصرة، للدكتور مُحَمَّد قطب، ط٧، ١٤١٣هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٤٧. المستدرك على الصحيحين للحاكم.
١٤٨. مسند الإمام أحمد.
١٤٩. مسند الشاميين لأبي القاسم الطبري.
١٥٠. مصر والعراق دراسة حضارية، للدكتور أحمد أمين سليم، ط١، ٢٠٠٢م، دار النهضة العربية، بيروت.
١٥١. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، للدكتور مُحَمَّد أبو المحاسن عصفور، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت.
١٥٢. معتقدات آسيوية؛ العراق-فارس-الهند-الصين-اليابان، ط١، ١٤١٩هـ، دار الندى، مدينة نصر.
١٥٣. المعتقدات الرومانية من سلسلة التراث الروحي للإنسان، للدكتور خزعل الماجدي، ط١، ٢٠٠٦م، دار الشروق، عمَّان.
١٥٤. معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل، للأستاذ عبد الوهاب الراوي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار العلوم، عمَّان
١٥٥. المعجم الصوفي، للدكتورة سعاد الحكيم، ط١، ١٤٠١هـ، دندرة للطباعة والنشر، بيروت.

١٥٦. المعجم الفلسفي، للدكتور جميل صليبا، د.ط، ١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
١٥٧. معجم الكلمات الصعبة للعهد القديم.
١٥٨. معجم اللغة العربية المعاصرة، للأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر وآخرون، ط١، ١٤٢٩هـ، عالم الكتب، القاهرة.
١٥٩. المعجم الوسيط.
١٦٠. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة لأبو القاسم الموسوي الخوئي، ط٥، ١٤١٣هـ
١٦١. مفاتيح الغيب لفخر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر الرازي، د.ط، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٢. مقدمات العهد القديم، لـ أ. د. وهيب جورجي كامل، ط٣، ٢٠٠٤م، رابطة خريجي الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، القاهرة.
١٦٣. ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء، د.ط، د.ت، المطبعة العصرية، مصر.
١٦٤. مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني. ط١ ، ١٤٠٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٥. منذ زمن داروين تأملات في التاريخ الطبيعي، ستيفن جوولد، ترجمة: د. ستار سعيد زويني، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.
١٦٦. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، د.ط، ١٤٠٦هـ، مكتبة ابن تيمية.
١٦٧. منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، للمؤلف عثمان بن علي حسن، ط٥، ١٤١٥هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
١٦٨. منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد بن عبد الرحمن الصويان، د.ط، د.ت، ضمن سلسلة كتب تصدر عن المنتدى الإسلامي.
١٦٩. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، ط٢، ١٤٠٣هـ، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الرياض.
١٧٠. موارد الظمآن للهيثمي.
١٧١. الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، د.ط، ١٤٢٤هـ، دار ابن القيم – دار ابن عفان.
١٧٢. موسوعة الأديان الميسرة، ، لعددٍ من المؤلفين، ط٣، ١٤٢٦هـ، دار النفائس، بيروت.
١٧٣. موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي، ط١، ١٩٨٤م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٧٤. موسوعة مشاهير العالم، إعداد جمعٌ من المؤلفين، ط١، ٢٠٠٢م، دار الصداقة العربية، بيروت.
١٧٥. موطأ الإمام مالك.

١٧٦. نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، لتشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمود المليجي، ط١، ٢٠٠٥م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
١٧٧. النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفِكرية وأسلوب الفكر التغريبي في التعامل معها – دراسة نقدية-، للدكتور حسن بن مُحَمَّد الأسمري، ط١، ١٤٣٣هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعودية، جدة.
١٧٨. نظرية التطور وأصل الإنسان، ط٣، ١٩٥٧م، مدينة نصر، القاهرة.
١٧٩. هل الديناصورات مثال حي لفشل التطور؟، لـ إيريك بوفتو، ترجمة: د. رشيد برهون، ط١، ١٤٣٣هـ، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
١٨٠. واقعنا المعاصر للدكتور مُحَمَّد قطب، ط٤، ١٤١٨هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٨١. ورقة عمل بعنوان " تعريف الجينات ودورها" إعداد الأستاذ مُحَمَّد بروجي الفقيه، باحث علمي بمعهد بحوث الموارد الطبيعية والبيئة بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ضمن حلقة النقاش التي نُظمت عام ١٤٢٤هـ بعنوان " من يملك الجينات..؟!".
١٨٢. اليهودية، للدكتور أحمد شلبي، ط١١، د.ت، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.

المواقع الإلكترونية:

١٨٣. موقع التربوي الإسلامي للدكتور يسري مصطفى: http://goo.gl/1z5gL3
١٨٤. http://goo.gl/iHbwpb
١٨٥. نظرية خلق الإنسان؛ موقع الدكتور حامد طاهر: http://goo.gl/IMuPvE
١٨٦. الأفكار الرئيسية في التصوف الإسلامي؛ موقع الدكتور حامد طاهر: http://goo.gl/lpJMLp
١٨٧. موقع فلاسفة العرب: http://goo.gl/n3VjiX
١٨٨. بحوث أكاديمية؛ موقع الدكتور حامد طاهر: http://goo.gl/Rk3l11
١٨٩. ويكيبيديا الإخوان المسلمون: http://goo.gl/yJ9N2Q
١٩٠. الموقع الرسمي للدكتور مُحَمَّد شحرور: http://shahrour.org/?page_id=653#b1-5-5
١٩١. نظرية خلق الإنسان في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور حامد طاهر. http://goo.gl/IMuPvE
١٩٢. نظرية التطور بين العلم والإيمان، للمهندس عبد الدائم كحيل: http://goo.gl/Ywg0WE
١٩٣. الموقع الرسمي للدكتور عبد الصبور شاهين -رحمهُ الله-: http://goo.gl/sJ8iXT
١٩٤. الموقع الرسمي للدكتور عبد الصبور شاهين. http://goo.gl/sJ8iXT
١٩٥. موقع قصة الإسلام: http://goo.gl/dnTDQN

١٩٦. موقع قصة الإسلام: http://goo.gl/dnTDQN
١٩٧. الموسوعة الحرة: http://goo.gl/D0zJ
١٩٨. الموسوعة الحرة: http://goo.gl/zYiEC1
١٩٩. موسوعة المعرفة: http://goo.gl/I7tayq
٢٠٠. مقالات شحرور عن خلق الإنسان: http://shahrour.org/?page_id=10
٢٠١. المحاضرة المقروءة للشيخ أسامة سليمان والتي ذكر فيها بعضاً من ردود الدكتور عبد العظيم المطعني –رحمه الله-: http://goo.gl/GAKCmd
٢٠٢. محاضرة محررة للشيخ أسامة السلمان بعنوان " الأدلة من الكتاب والسنة على أن آدم خلق من تراب وأنه أبو البشر". أنظر: http://goo.gl/GAKCmd
٢٠٣. كتاب "الشيخ طنطاوي جوهري دراسة ونصوص"، للمؤلف د. عبد العزيز جادو(نسخة إلكترونية): http://goo.gl/pK7ZVV
٢٠٤. فهد الأحمدي، مقالهُ بجريدة الرياض بعنوان "ومَن أيضاً سبق داروين؟": http://goo.gl/pRkbpX
٢٠٥. سيرة مُحَمّد شحرور الذاتية بموقعه الإلكتروني: http://goo.gl/0ua0ey. وَ الموسوعة الحرة. http://goo.gl/Vo6bNi
٢٠٦. الأستاذ الدكتور حامد طاهر حسنين فؤاد؛ http://goo.gl/MAEPyi .
٢٠٧. ترجمة البشير التركي هو البشير http://goo.gl/cw213i . http://goo.gl/HBWRge
٢٠٨. سِيَر القِدِّيسين في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: http://goo.gl/s0bSA9

رابعاً

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة